ليلى العلمي

LAYLA LALAMI

الأمريكيون الآخرون

THE OTHER AMERICANS

مكتبة
Telegram Network

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الأمريكيون

الآخرون

«مكتبة ♔ النخبة»

ليلى العلمي

LAYLA LALAMI

الأمريكيون

الآخرون

THE OTHER AMERICANS

ترجمة

عبد الرحمن نجار

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

THE OTHER AMERICANS

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من

Grand Atlas Productions, LLC, c/o Trident Media Group, LLC, 355 Lexington Avenue, Floor 12, New York, NY 10017, USA بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 2019 by Laila Lalami All rights reserved

Arabic Copyright © 2021 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى: أيار/مايو 2021 م - 1442 هـ

ردمك 978-614-02-6684-1

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1–961+)

ص.ب: 13–5574 شوران – بيروت 2050–1102 – لبنان

فاكس: 786230 (1–961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

cebook.com/ASPArabic

vitter.com/ASPArabic

ww.aspbooks.com

sparabic

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+) الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

نورا

قُتل أبي في إحدى ليالي الربيع قبل أربع سنوات، وقتئذٍ، كنت أجلس إلى طاولة جانبية في حانة صغيرة بأوكلاند. وكلما فكرتُ في تلك اللحظة، راودتني صورتان متناقضتان؛ أبي وهو يصارع الموت على الإسفلت المتصدع، وأنا أشرب الشامبانيا مع رفيقة سكني، مارغو، احتفالًا بحصولها على منحة من مؤسسة جيروم لإقامة عرض موسيقي جديد، وهو ثاني أكبر حدث لها في ذلك العام. كنا قد طلبنا المحار المدخّن وتشاركنا الطبق الرئيسي، وبقينا حتى ساعة متأخرة من الليل، وكانت النادلة تحاول إقناعنا بتناول كعك الشوكولاتة عندما رنّ هاتفي.

لا أتذكر بوضوح ماذا حدث لاحقًا. لا بد أنني أخبرت مارغو بالفاجعة، فدفعنا الحساب، ثم ارتدينا معطفينا، وسرنا صوب شقتنا التي تفصلنا عنها خمسة أحياء، حيث حزمت حقيبتي على عجل. لكنّني أتذكر قيادتي السيارة إلى منزلنا عبر طريق (5) السريع في ظلام يكتنفه ضباب خيم على بساتين اللوز والبرتقال، وأنا أتخيل تفسيرات مختلفة؛ لعل قسم الشرطة قد أخطأ في التعرف إلى هوية القتيل، أو أن المستشفى استبدلت خطأ سجلات أبي بسجلات شخص آخر. كنت أدرك أن الاحتمالين مستبعدان، بيد أني تشبثت بهما وأنا أقود السيارة. لم أتمكن من رؤية سوى مسافة ستة أمتار أمامي، لكن الضباب انقشع مع خيوط الضوء الأولى، وبحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى موجافي، كانت الشمس قد أشرقت والسماء زرقاء صافية.

كل ما سمعته حين دخلت منزل والديّ هو طقطقة كعب حذائي على بلاط الترافرتين. وكانت هناك نسخة من مجلة *ريدرز دايجست* على حامل الإفريز ومجموعة مفاتيح ولفة معصم صفراء اللون، وزوج نظارات شمسية بلا عدسات. وقد مالت إحدى الصور المعلقة على جدار الردهة. وفي حجرة المعيشة، جلست أمي على الأريكة، وهي تحدق في الهاتف اللاسلكي الذي تحمله وكأنها لا تذكر كيف تستخدمه. «أمي»، ناديتها لكنها لم تنظر إليّ. بدا أنها لا تسمعني، إذ ظلت بلا حراك في قميصها الأبيض وبنطالها الأسود اللذين ارتدتهما لدرس الكاراتيه في الليلة الماضية. وفي الجهة المقابلة للأريكة، كانت سترة الكاراتيه ملقاة على الأرض، وقد لمع التنين المطرز عليها باللون الأحمر الفاقع.

أحسست حينها وكأن أبي ما يزال معنا... بسبب علبة سجائر المارلبورو الموضوعة عند النافذة، والخف المهترئ أسفل طاولة القهوة، وآثار الأسنان على قلم الرصاص الذي برز من كتاب ألغاز الكلمات المتقاطعة. كان من المفترض أن يدخل الآن في أية لحظة، تفوح منه رائحة القهوة وشرائح البرغر، ويقول «لن تصدقي ماذا قال لي أحد العملاء صباح اليوم»، ثم - حين يراني أقف إلى جوار الكرسي ذي الذراعين - سيصيح «نورا! متى جئتِ؟» وقد لمعت عيناه بهجة، ثم يقبّلني على وجنتيّ، لأشعر بوخز من بقايا شعر ذقنه، وأقول «لقد وصلتُ تَوًّا».

ولكن لم يدخل أحد من الباب، وقد شعرت بألم لا يُطاق في بطني. قلت: «لا أفهم»، لكنّني قصدت أنني لا أصدق ما سمعته. كان الإنكار هو الشيء الوحيد الثابت منذ عرفت النبأ: «لقد تحدثت معه أمسِ».

استدارت أمي نحوي أخيرًا، فلاحظتُ أن عينيها محمرّتان من أثر البكاء. قالت بصوت متهدج: «هل تحدثتِ إليه؟ ماذا قال؟».

أتى صوت قعقعة فتحة البريد من الردهة، ثم صوت سقوط الرسائل على الأرض. رفع القط رأسه وهو ممدد على السلة المصنوعة من الخيزران، لكنه عاد إلى النوم ثانية.

سألتني مجددًا: «ماذا قال؟».

رددت بالقول: «لا شيء هام. قال إنه يرغب في الدردشة معي قليلًا، ولكن كانت لدي حصة، وأردت أن أتناول كوبًا من القهوة في الدقائق القليلة المتبقية من استراحتي؛ لذا أخبرته أنني سأتصل به لاحقًا». وضعتُ يدي على فمي مذهولة؛ كان بوسعي التحدث معه مرة أخيرة، وأنْ أسمع صوته الحنون، بيد أني أهدرت الفرصة من أجل قهوة مرّة سأشربها على عجل، قبل أن أواجه فصلًا من الأطفال المملين الذين يعانون مع *ملحمة الأوديسا* في المدرسة الإعدادية.

اهتزت النوافذ على وقع ضجيج دراجة بخارية في الشارع. وبتوتر شديد، ففككت مشبك ساعة اليد ثم أغلقته على الفور، وبعدها خيّم صمت مطبق على الحجرة. سألتها: «ماذا كان أبي يفعل في المطعم حتى ساعة متأخرة؟ أليس مارتي هو من يغلق المكان عادة؟».

«أراد أن يثبّت مصابيح جديدة كان قد اشتراها، لذا أذِنَ لمارتي بالمغادرة».

ثم ماذا حدث؟ لا بد أنه أغلق المطعم وغادر. ولعله كان يعبث بالمفاتيح في يديه، مثلما يفعل دائمًا عندما يستغرق في التفكير، أو كان مشتتًا بقراءة رسالة على هاتفه الخلوي. في كلتا الحالتين، لم يسمع أو لم يرَ السيارة المسرعة نحوه إلا بعد فوات الأوان. هل عانى؟ وهل صرخ طلبًا للنجدة؟ كم بقي ممددًا على الأسفلت حتى فاضت روحه؟ فجأة، عاودتني ذكرى حفل صيفي في منزل جيراننا حين كنت في الرابعة من العمر. كانوا قد جددوا فناءهم الخلفي، وراحوا يتباهون بحفرة الشواء وزاوية الجلوس أمام والديّ. تجاهلتني شقيقتي التي كانت في العاشرة من عمرها، وأرادت أن تلعب مع الأطفال الأكبر سنًا؛ لذا بدأت أطارد زوجًا من اليعسوب، وما إن كنت على وشك الإمساك بهما، حتّى سقطتُ في حوض السباحة. كانت المياه شديدة البرودة وبدا مذاقها كاللوز، وقد جذبتني بقوة إلى الأسفل لدرجة أنني حسبتُ نفسي هالكة لا محالة. ظللتُ في الحوض لثوانٍ قبل أن يغطس أبي ورائي، ولكن تجمدت أطرافي في تلك الثواني، واحترق صدري، وكاد قلبي يتوقف. لقد عاد إليّ هذا الألم الآن. قلت بعد صمت قصير: «لا يبدو الأمر منطقيًا. في المرة الوحيدة التي يبقى فيها أبي لإغلاق المطعم، تقتله سيارة مسرعة؟».

أدركتُ متأخرًا أنني قلت شيئًا خاطئًا، أو استخدمت كلمة غير ملائمة؛ إذ بدأت أمي بالنحيب بصوت عالٍ، فاحمرّ وجهها وارتعشت كتفاها. عبرتُ حجرة المعيشة، وطويت سجادة الصلاة ووضعتها جانبًا، ثم جلست إلى جوارها، وأنا أحتضنها بشدة إلى الحد الذي شعرتُ فيه برعشاتها. بدا كل شيء حينئذٍ غريبًا بالنسبة إليَّ... أن أكون في المنزل بعطلة نهاية الأسبوع في الربيع، وأنْ أنتعلَ حذائي داخله، بل وأواسي أمي وهي تبكي. في عائلتي، كان أبي هو المواسي؛ فقد كنت أهرع إليه إذا ما وقع خطب لي، سواءً عندما جرحت ركبتي وأنا أتسلق القضبان الأفقية وأنا في الثامنة من العمر، أو عندما خسرت مسابقة تلحين قبل شهر فقط.

مسحت أمي أنفها بمنديل مجعد: «أدركت أن ثمة خطبًا ما عندما رجعتُ من منزل شقيقتكِ. لقد ذهبتُ لأعطي أطفالها قطع قماش لتزيين بذلة الكاراتيه، فطلبت إليَّ البقاء لتناول العشاء. ولم أجده هنا عندما رجعت».

مع ذلك، خُيل إلي أن جسده موجود على الكرسي ذي الذراعين حيث اعتاد الجلوس. وبدا وكأنه في الحجرة المجاورة.

سألتها: «ماذا قالت الشرطة؟ هل لديهم خيط يدل على الجاني؟».

«لا، لقد طرح المحقق أسئلة كثيرة عما إذا كان يعاني أزمات مالية، وهل كان يتناول المخدرات أو يقامر، وهل لديه أعداء... إلخ، فقلت: لا».

أذكر أنني كنت حائرة من هذه الأسئلة، التي اختلفت تمامًا عن تلك التي دارت في رأسي؛ من كان يقود السيارة المسرعة؟ وكيف صدمه؟ ولماذا ولّى هاربًا؟ بعد ذلك، اتجهت عينايَ صوب النافذة. في الخارج، هبط طائران من فصيلة الشحرور واحدًا تلو الآخر على السياج الكهربائيّ. وكان جارنا على الجهة الأخرى من الطريق يفرّغ دمية أرنب الفصح الضخمة من الهواء، بعد أن جلست لأسابيع تجمع الغبار في الفناء الأمامي. بادلني الأرنب النظرات بعينين حزينتين قبل أن تنهار أذناه البيضاوان، وقد هزّت الريح الراية المعلقة على العمود، وصبّت الشمس أشعتها الحارقة بلا رحمة.

جيريمي

عانيتُ وقتذاك من الأرق، وكنت أذهب إلى صالة الألعاب الرياضية بمجرد أن تفتح أبوابها في الخامسة صباحًا؛ إذ أخبرني الطبيب أن ممارسة الرياضة بانتظام، والاستحمام بماء دافئ، وتثبيت ستائر داكنة، والقراءة وتناول البابونج، كل هذا سيساعدني. أمضيت وقتا طويلًا في الاستحمام، ورحتُ أقرأ قبل النوم، وشربتُ كوبًا تلو الآخر من البابونج، بيد أني بقيت مستيقظة معظم الليالي، لا أسمع سوى صوت الساعة الموضوعة على الطاولة المجاورة للفراش. كنتُ أقول لنفسي إذا غفوتِ الآن، فستحصلين على أربع ساعات، أو ثلاث، أو اثنتين، وكأني أحاول إقناع نفسي بالنوم. بعد ذلك، وقبل الخامسة بدقائق، كنتُ أنهض وأتوجه إلى مركز ديزرت للياقة البدنية.

في صبيحة ذلك اليوم، بعدما انتهيت من تمارين الصدر وبدأتُ تمارين البطن، دخل فييرو. كانت الصالة خالية تقريبًا حينها، لذا سررتُ لوجود صحبة، لكنه ما انفك يتحدث عن زوجته السابقة. كان قد انفصل عن ماري حديثًا، وشعرتُ أنه ما يزال في حالة إنكار. أخطأتُ في العد بسبب ثرثرته، واضطررتُ للتوقف والبدء من جديد مرتين قبل أن أتيقن من أنني أكملت المجموعة؛ خمسون مرة لتمرين البطن العادي، ومثلها لتمرين البطن العكسي، وخمسون لتمرين الثنية المزدوجة، وخمسون أخيرة على الدراجة. كانت ما تزال أمامي عشرون دقيقة قبل أن أغادر إلى العمل، لكنّني راقبتُ الوقت تجنبًا للتأخير. تركْتُ تمرين عضلات الذراع الأمامية ومضيت إلى رفع الأثقال من وضع الرقود. لقد أحببت أن أستغرقَ وقتًا كافيًا عند رفع الأثقال، وما زلت كذلك. ثبتّ أثقالًا تزن مائة وثلاثة عشر كيلو غرامًا وتمددت على المقعد الطويل، ولكن من دون أن يكلف نفسه عناء الاستئذان، أضاف فييرو ثلاثة وعشرين كيلو غرامًا على كل جانب من قضيب الرفع. سألته: «ماذا تفعل؟».

«بربك يا فتاة، لا فائدة من التمرين ما لم تؤدِّه بشكل صحيح». وقف خلف المقعد الطويل كي يساعدني، وكان يرتدي قميصًا رمادي اللون ذا كمين مثنيين يكشفان عن عضلاته.

«أؤديه مثلك، تقصد».

مال نحوي قليلًا وسأل: «ماذا قلتِ؟».

فرددت: «لا عليك». يمكنني أن أجادل فييرو، أو أشرع في التمرين وألتحق بالعمل في ميعاده، فاخترتُ البديل الثاني.

قال: «على أي حال، اكتشفتُ ليلة أمس أن ماري لم تغير شمعات الإشعال الخاصة بسيارة الموستنغ، مع أني ذكّرتها ثلاث مرات. لسوف تدمر هذه السيارة. استريحي قليلًا إن شئتِ».

شعرتُ بقطرات العرق على جبيني، لكنّني مضيت قدمًا؛ فلم أرغب في إرضاء غرور فييرو. لطالما اشتعل التنافس بيننا على بعض الأشياء، منذ أيامنا في مشاة البحرية. بعد ذلك، دخلت فتاة شقراء ترتدي زي الجمباز الضيق، ولم يشِح فييرو بعينيه عنها طوال سيرها نحو غرفة تبديل الملابس. «لذا، أخبرت ماري أنني لن أوقع أوراق الطلاق حتى تسلمني المفاتيح» قال هذا بشيء من الفخر، وكأنه اتخذ موقفًا أخيرًا.

سألته: «ولكن، أليست سيارتها؟». كنتُ قد ركبتُ الموستنغ غير مرة، بعد عودتي أنا وفييرو من العراق. وكنتُ أجلس في الخلف وأشرب الويسكي من زجاجتي، في حين أقلتنا ماري أينما أردنا الذهاب، سواء أكانت حانة أم ملهى ليليًّا. وكلما انعطفت أو غيرت الطريق، تأرجحت حلية فضية مدببة من قلادتها في مرآة الرؤية الخلفية. أتذكر ذات مرة أنها كانت تتحدث عن حفل توديع عزوبية حضرته في فيغاس مع أصدقائها في العمل، عندما قاطعها فييرو قائلًا: «لم تخبريني قط عن ذلك». كان ذلك أحد شجاراتهما الأولى، ومنذ ذلك الحين، لم يكفا عن الشجار، حتى بعد انفصالهما.

«سيارتها؟! من سدّد الدفعة الأولى من ثمنها؟ ومن استبدل أغطية إطارات السيارة القذرة بأخرى معدنية لامعة؟ ومن ثبّت شريط الإطارات الأحمر الصيف الماضي؟» أشار فييرو بإبهامه، الملتوي بسبب كسر قديم، إلى صدره وأضاف: «أنا من فعل ذلك»، ثم وضع يديه فوق قضيب الرفع وقال: «هيا أيتها الموسيقارة العالمية، استريحي قليلًا».

قلت: «أنا بخير». لم يكن أمامي وقت للراحة. إذا تأخرت عن العمل، فسيوبخني فاسكو. كان يتربص بي كي أخطئ منذ مدة، حتى يقول إنه يتعين عليّ مراجعة الجدول مجددًا واختيار وردية أخرى. لم أفهم قط لماذا يكرهني إلى هذا الحد. أنهيت التمرين في صمت، ثم جلست على المقعد ألتقط أنفاسي. كان قميصي غارقًا في العرق وملتصقًا بصدري. سألته: «ألم تقل إنها تواعد شخصًا ما؟».

«ماذا قلتِ؟ الموسيقا صاخبة للغاية هنا».

«أخبرتني أنها تواعد شخصًا ما».

«أجل».

«لن تعود إليك إذًا. لذا، وقّع الأوراق اللعينة».

«تبًّا، كلا. تحسبُ أنها قادرةٌ على المضي في حياتها ببساطة، وأنْ تمحو الماضي وكأنه لم يكن. وكأنها لم تعرفني قط، ولكن هيهات». أضاف أحد عشر كغم على كلا جانبي قضيب الرفع، وجلس على المقعد لأخذ دوره، وراح يرفع الأثقال في تناغم، ويتنفس بسلاسة.

مسحتُ وجهي بفوطتي، وجلست أراقبه للحظات. كان يمضي المزيد من الوقت في الصالة الرياضية منذ انفصاله عن ماري، بل وأحيانًا كان يمارس الرياضة مرتين في اليوم. قلتُ: «ستقيم شقيقتي حفل شواء، فهل تود الحضور؟».

«بالطبع، إذا كانت لا تمانع».

«لن تمانع بكل تأكيد. لا أريد الذهاب بمفردي. ستسدي لي معروفًا بحق».

«حسنًا، متى؟».

«بعد غد».

بعدها بعشر دقائق، كنتُ أقود سيارتي الجيب، فإذا محركها يصدرُ ضجيجًا في هدوء الصباح، وقد أضفت الشمس المشرقة لونًا أحمرَ باهتًا على السماء. وبينما كنت أسلك الطريق 62، أنزلتُ النافذة كي أستشعر آخر نسائم الصباح الباردة. بدأت مصابيح المقاهي والمطاعم تشتعل مثل عيون تستيقظ ببطء. بعد ذلك، ارتديتُ زيي في المخفر ثم هرعت إلى حجرة الاجتماعات، فقط حتى أكتشف أنني آخر الواصلين، وأن الرقيب قد بدأ يتلو بيان الإحاطة بالفعل. جلستُ على كرسي وتحاشيت النظر إلى عيني فاسكو، وكان قد قرأ نصف تقارير الليلة السابقة بنبرته الرتيبة.

«عملية طعن في الحي 5500 بالقرب من سلسلة جبال شادو. كان المشتبه به غاضبًا من أمه لاعتزامها ترك البيت والذهاب للعيش مع رجل التقته حديثًا. أخرج سكينًا وطعن الرجل في ذراعيه ثلاث مرات. وفي حادثة أخرى، وقع هجوم بواسطة كلب في الحي 3200 المتفرع من جادة برمودا. كان صاحبه قد تلقى أكثر من تحذير، لكنه تركه حرًا في الفناء، فقفز فوق السياج

وهاجم ابن الجيران. ووقعت حادثة اصطدام وهروب قاتلة في الحي 8300 بمنطقة تشيمهويفي، عند ناصية طريق 62 السريع. ولا نمتلك أية معلومات عن السائق الهارب. أخيرًا، لطخ أحدهم سور المدرسة الثانوية ليلًا، وهي المرة الثانية هذا الأسبوع. انتهينا». بينما كان يلملم أوراقه ويضعها في ملف، جال بعينيه في الحجرة على كل الحاضرين، ثم أضاف: «شيء أخير، ثمة ثرثرة متواصلة على وسائل التواصل الاجتماعي بشأن حادثة برودن. يشاهد الناس مقطعًا مدته عشر ثوانٍ، ويحسبون أنهم يعرفون ماذا حدث. لا تلقوا بالًا لذلك. نحن لسنا هنا كي نتشتت بما يقوله الناس على الإنترنت. نحن هنا لأداء عملنا؛ لذا حافظوا على تركيزكم».

لا بد أن فاسكو كان في عجلة من أمره؛ فقد غادر الحجرة من دون أن يعلّق على تأخري. فكرتُ في نفسي، يا لحظي السعيد! كانت ورديتي هادئة للغاية أيضًا؛ تلقينا بلاغًا عن شخص مزعج، وسجلنا غرامة على سيارة، وجاءتنا استغاثة كاذبة، ومرة أخرى حاولت مارسي جاميسون الإبلاغ عن سرقة أدويتها حتى تحصل على وصفة بديلة. بعد أن بدلتُ ملابسي في آخر الدوام، رحتُ أعد قائمة في ذهني بكل ما يتعين عليّ فعله ليلتئذٍ؛ القراءة تحضيرًا لحصة الدراسات الإثنية، ومراجعة بحث التاريخ استعدادًا للاختبار النهائي، وتسليم بحث اللغة الإنكليزية عبر الإيميل. أثناء مغادرتي المخفر، مررتُ بجانب السبورة المدرج عليها القضايا الجارية كافّةً، فاستوقفني أحد الأسماء (غراوي).

إفرين

رأيتُ ذلك يحدث، ويا ليتني ما فعلت؛ إذ جلب عليّ المتاعب فقط، وليتني لم أخبر مارسيلا. في تلك الليلة، كنتُ أقود دراجتي في طريق 62، قاصدة البيت بعد العمل، عندما سقطت السلسلة من العتاد الخلفي للدراجة. كنا نمتلك سيارة من طراز تويوتا كورولا هناك في أريزونا، وقد اشتريناها بـ875 دولارًا من مغنٍّ في كنيستنا، لكنها تعطلت بعد انتقالنا إلى هنا، ولم نتحمل تكلفة إصلاحها أو شراء سيارة جديدة. لقد خسرنا ثمنها ببساطة. كانت مارسيلا تتذمر أحيانًا بالقول إن الناس يهاجرون إلى أمريكا لتحسين مستوى معيشتهم، لكننا نزداد تخلّفًا. قلتُ لها إنني أبذل ما في وسعي، ولا يمكنني بذل المزيد، ولكن ما لم أقله هو إن مستوى معيشتنا كان سيتحسن لولا اضطرارنا لإعادة شقيقتيها إلى توريون في المكسيك لتوفير المال. كما أن الدراجة ليست في حالة سيئة جدًا، كنت قد أخذتها من إنريكي بلا مقابل، وبإمكاني التوجه بها حيثما شئت. المشكلة الوحيدة هي السلسلة.

في تلك الليلة، أُجبرتُ على التوقف عندما سقطت السلسلة، فصعدتُ فوق الرصيف، عند تقاطع طريق 62 مع تشيمهويفي، وقلبتُ الدراجة رأسًا على عقب. لم يكن صعبًا تثبيت السلسلة في مكانها، لكن الظلام كان قد خيم على المكان، وأنا أعاني من طول النظر، ولم أتمكن من رؤية ما أفعله. وعادة لا أحمل نظارتي معي لأنني لا أحتاجها، من أجل وظيفة غسل السجاد التي أعمل فيها نهارًا، أو وظيفة غسل الأقمشة البيضاء في النزُل مساءً. جثوتُ على ركبتيّ ورحت أتحسس السلسلة، وأعدتُ تركيبها حلقة تلو الأخرى على العتاد الخلفي. استغرق الأمر بعض الوقت، وعندما انتهيتُ أخيرًا، كانت يدايَ متَّسختين. نهضتُ بحذر حتى لا ألطخ بنطالي بالشحم، وأبعدتُ ذراعيّ عني، وكأنني أمسك بشيء في الظلام. حينئذٍ، سمعتُ سيارة تسرع نحو التقاطع، ثم صوت جلبة مكتومًا. رفعتُ عينيّ، فرأيتُ السيارة تنعطف بالفعل في شارع جانبي. هوى الرجل العجوز من فوق غطاء محرك السيارة وسقط على وجهه، ولم يتوقف السائق قط، بل مضى في طريقه وكأنه صدم علبة بلاستيكية.

قالت مارسيلا: «لا بد أن تبلغي الشرطة».

مشيت بجوارها صوب حوض المطبخ، وعصرتُ صابون الأطباق على يديّ حتى أزيل الشحم. قلتُ: «هل نسيتِ ما حدث مع أراسيلي؟». عاشت أراسيلي بجوارنا في تاكسون. كانت امرأة بدينة، بشعر مجعد وضحكة صاخبة.

وذات يوم، اتصلت بالشرطة للإبلاغ عن جارٍ يضرب زوجته، ولما حضروا لأخذ إفادتها، اكتشفوا أنها لا تملك مستندات قانونية. وقبل أن تدرك ما يحدث، كانت إدارة الهجرة عند بابها. إن الوضع في كاليفورنيا يختلف عن أريزونا، هذا ما يردده الناس على الأقل، فالقوانين مختلفة هنا، ولكن كيف يمكنني المخاطرة؟

«هل غادرتِ المكان فحسب؟» قالت مارسيلا، ويدها على خدها. في ضوء المطبخ اللامع، بدا النمش على أنفها داكنًا أكثر. ومع أننا تزوجنا قبل اثني عشر عامًا، لكنه ما يزال يذيب قلبي. لم أقوَ على الكذب عليها، فأشحتُ بوجهي وواصلتُ فرك يديّ. دنَت مني، وعندما تحدثت مجددًا، صاحت في ذهول: «تركته هناك؟».

كلا، ليس بالضبط. وقتئذٍ، أخرجتُ هاتفي من جيبي، فتلطخت لوحة المفاتيح بالشحم قبل أن أدرك أنه يمكن تتبع مصدر الاتصال؛ لذا نظرتُ نحو البنايات الممتدة على طول شارع 62، في محاولة لتحديد أفضل مكان لطلب المساعدة. ثمة مطعم ذو لوحة مضيئة، لكنه كان مظلمًا تمامًا من الداخل، باستثناء لافتة مغلق التي راحت تومض باللونين الأحمر والأزرق. وكانت صالة البولنغ المجاورة تفتح أبوابها حتى ساعة متأخرة، فقررت الذهاب إليها. وبينما كنتُ أعبر الرصيف، لاحظتُ شخصًا ما يهرول صوب التقاطع. كانت امرأة ترتدي سروالًا قصيرًا تركض، وقد ربطت شعرها الأشقر إلى الخلف، وغطت أذنيها بسماعات الرأس. يستحيل أن تكون قد سمعت شيئًا، لكنها كانت على وشك عبور الطريق السريع في تشيمهويفي، وستعثر على الرجل العجوز عند الجهة الأخرى، وحينها ستتصل بالشرطة. وهكذا، ركبتُ الدراجة وعدت إلى البيت. سألتني: «لم تساعديه إذًا؟».

«لم تكن بيدي حيلة»، قلتُ وأنا أجفف يديّ بالمنشفة، ولكن ظلت آثار الشحم عالقة تحت أظافري. سرت بجوارها نحو حجرة النوم، ثم بدلتُ ملابسي. كان الأطفال نيامًا في فُرُشهم أسفل النافذة، فمشيتُ على أطراف أصابعي حتى لا أيقظَهم. كانت إيلينا في الثامنة من العمر، ودانييل في السادسة، وأود أن أشدد على أنهما مواطنان أمريكيان. وكل ما أفعله، أو أتجنب فعله، هو من أجلهما.

أخذتُ منشفة نظيفة موضوعة على الفراش، وذهبت إلى الحمّام بغية الاستحمام. كان الماء دافئًا، أغمضتُ عينيّ، فباغتتني صورة الرجل العجوز، وهو مسجى على وجهه، وإحدى ركبتيه مثنية أسفل الأخرى بزاوية غريبة، وذراعه مطوية أسفل جسده وكأنها تدعم وزنه. تذكرتُ تفاصيل جديدة، الآن وأنا مغمضة العينين، أشياء نسيتها من شدة الصدمة. كان ثمة إعلان معلق

على العمود الكهربائي خلف الرجل، وقد طَبع على ورقة صفراء وثُبت عند مستوى النظر. أسفل الإعلان بمتر ونصف، بدا شعر الرجل شديد البياض، وبرز قميصه الأخضر اللامع على الأسفلت الرمادي.

فتحتُ عينيّ تحت الماء، قلت لنفسي: كلا، لم أشهد الحادثة. ما رأيته في الواقع هو رجل يسقط أرضًا، وسيارة بيضاء تمضي مسرعة في ظلام الليل، ولا يمكنني حتى الجزم بلونها، ربما تكون بيضاء أو لعلها كانت فضية. ولا أعرف حقًا نوعها أو طرازها، ولم أحفظ رقم لوحة السيارة؛ لذا لم يكن بوسعي فعل أي شيء، فكل ما رأيته هو رجل يسقط أرضًا.

نورا

استحممتُ، ثم مسحت البخار عن المرآة، فلاحظتُ أن ملامحي قد تغيرت على الزجاج الرطب، وهذا متوقع. لم أصدق حقًّا أن حياتي ستمضي الآن بلا أبي، وأن الشمس ستشرق صباحًا، وستجلس أمي عند طاولة المطبخ، وستعبث القطة في طعامها، وستتكئ جارتنا على عُكَّازتها وهي تعبر الشارع. كانت آخر مرة زرتُ فيها منزلنا في عيد الشكر. وعلى الرغم من مرور خمسة شهور فقط، لكنّني لا أتذكر الكثير بشأن تلك الزيارة. كنا قد مارسنا ألعاب الطاولة بعد وليمة كبيرة، ثم ذهبنا إلى دار سينما لمشاهدة فيلم، وبعدها تنزهنا في حديقة جوشوا تري، لكنّني لا أتذكر شيئًا مميَّزًا في تلك الأيام الأربعة؛ كانت عادية للغاية.

استغرقتُ وقتًا طويلًا في ارتداء ملابسي. ارتديتُ فستانًا وحزامًا وساعة يدي، ولكن كانت الأفكار تشتتني قبل أن أغلق أو أشد أو أشبك تلك الأغراض؛ لذا عندما خرجتُ من غرفتي، كان شعري قد جفّ تقريبًا. وبينما كنتُ أعبر الرواق المؤدي إلى المطبخ، فُتح الباب الأمامي، ودخل كل من سلمى وطارق وتوأميهما. كان الزوجان يحملان أكياس البقالة، في حين تشبث الصغيران بأجهزتهما اللوحية. صاح زيد: «خالة نورا» وهرع نحوي يعانقني، في حين أحاطت عايدة خصري بإحكام.

عانقتهما وأنا متفاجئة، مثلما أفعل أحيانًا؛ لقد كبرا كثيرًا منذ رأيتهما آخر مرة، وتغيرا قليلًا أيضًا. لاحظتُ أن بقع الصدفية قد اتسعت رقعتها على مرفقي عايدة، وكان لدى زيد وشم مؤقت لكابتن أمريكا على ظهر يده. ذات يوم، كنتُ أنا وأبي نشاهد الأطفال، وهم يلهون في حمام السباحة القابل للنفخ في يوم ربيعي دافئ، سألني أبي: من الأعز على المرء من أبنائه؟ فكرتُ لوهلة، ثم استسلمت. سألته: من؟ فقال: الأحفاد. الآن لن يرى حفيديه مجددًا، ولن يبني سفينة فضائية من قطع الليجو مع زيد، أو يعلم عايدة كيفية حل ألغاز الكلمات المتقاطعة.

«متى جئتِ إلى هنا؟» سألتني شقيقتي وهي تضع أكياس البقالة أرضًا.

قلتُ: «باكرًا صباح اليوم».

بدت سلمى شاحبة للغاية، وكان قميصها المرقّط وبنطالها الأسود واسعين جدًا عليها؛ مما جعلني أشك بأنها مريضة، ولكن تبددت شكوكي حين اقتربت مني. بدأت تبكي بمجرد أن تعانقنا، فرحتُ أهدئها مثلما فعلت مع أمي صباح ذلك اليوم. وقف زوج سلمى ينتظر بجوارنا، ولكن لما طالت اللحظة، طلب إلى التوأمين الذهاب إلى حجرة المعيشة، وجلب علبة المناديل من مرحاض الضيوف.

قالت سلمى: «آسفة لأني اضطررتُ لإخبارك بالأمر في رسالة نصية. لم تردي على هاتفك الخلوي».

فقلتُ: «كنتُ أتناول العشاء، ولم أسمع رنين الهاتف أو أقرأ رسالتكِ. لقد كانت أمي هي من أخبرتني». ما انفكت الذكرى تصيبني بالذهول؛ أبي وهو ملقى على قارعة الطريق، وروحه تغادر جسده، في حين كنتُ أنا أحتفل مع مارغو.

«هل أحضرتِ القهوة؟» سألتها أمي وهي تقف عند المدخل. كانت عيناها صغيرتين، وبرزت العروق على وجنتيها.

قالت سلمى: «أجل، يا أمي».

التقطتُ أحد الأكياس، وتبعت أمي وشقيقتي إلى داخل المطبخ. على الحائط فوق رفّ التوابل، كان هناك ملصق ذو إطار لفاصولياء سوداء على شكل شجرة، وكنتُ قد صنعته في الصف الثاني. حمل كل فرع اسمًا، أبي، وأمي، وسلمى، ونورا. وُضع اسمي على آخر غصن جهة اليمين. وعلى الثلاجة المصنوعة من الفولاذ المقاوم للصدأ، أُلصقت نصف دزينة من صور توأمي سلمى، ولوحة تقويم جاف قابلة للمسح بلا مواعيد عليها. ومن المكتب الصغير المجاور للنافذة، حيث جرى تكديس الفواتير والمجلات، أخرج طارق قصاصة ورق وقلم حبر أسود. «ماذا تكتب؟» سألته سلمى.

رفع الورقة وقال: «لافتة للمطعم، يمكننا لصقها على المدخل». كتب بأحرف كبيرة: المطعم مغلق بسب حالة وفاة في العائلة.

قلتُ له: «لقد نسيت حرفًا».

نظر طارق إلى الورقة مجددًا حتى يتأكد، ثم قال بلا مبالاة: «لا يهم. إنها مجرد لافتة».

«لا، إنّه يهم. لم يكن أبي ليحب ذلك. لقد كان حسّاسًا للغاية بشأن أشياء من هذا القبيل». نظرت إلى شقيقتي، وأضفت «هل تذكر كيف أعاد طباعة جميع القوائم بسبب خطأ إملائي في شريحة اللحم المميزة؟ قال إن الزبائن سيلاحظون، ويعتقدون أن مدير المطعم أحمق».

«أذكر».

أضاف طارق الحرف الناقص وقال: «تفضلي. لقد صحّحتها». بعد ذلك، أخذ مفاتيح المطعم وخرج من باب المطبخ. اتكأتُ على المنضدة وراقبت والدتي، التي شرعت تغرف البن بملعقة، وتضعه في آلة صنع القهوة. كانت حركتها متأنية ودقيقة، وكأن الكثير يتوقف على هذا العمل. قلت: «لقد كنت أفكر في شيء ما، ذكر رجال الشرطة أنهم عثروا عليه عند بالوعة الصرف في شارع تشيمهويفي. هذا يعني أن السائق انحرف عن مساره كي يصدمه، أليس كذلك؟».

قالت سلمى «لهذا السبب، يعتقدون أن الجاني سائق مخمور». عادة عندما تتحدث معي، كانت تبدو متعالية، سواء قصدت ذلك أم لا. ولا بد أنها لاحظت الأمر هذه المرة، إذ أضافت بسرعة: «أو قد يكون أحد هؤلاء من مشاة البحرية الذين يهرعون للوصول إلى القاعدة في توينتي ناين بالمز في الميعاد المحدد. إنهم يقودون كالمجانين عندما يتأخرون».

أغلقت أمي غطاء آلة القهوة بعنف، وبدأت تطوي أكياس البقالة وتضعها على المنضدة، وهي تدير ظهرها نحوي. اعتبرتُ ذلك تلميحًا إلى أنني يجب أن أتوقف عن سؤالها عن الحادث. لقد أخبرتني بالفعل بكل ما تعرفه.

عملنا في صمت بعد ظهر ذلك اليوم. من الخزانة الزجاجية، أخذنا الكؤوس والصحون للقهوة، والأكواب الزرقاء الصغيرة المخصصة للشاي، ثم غسلنا أوراق النعناع، وأفرغنا الوجبات الخفيفة التي أحضرتها سلمى. وكلما رن جرس الهاتف، ردَّ أحدنا عليه وأعطى الاتجاهات للمنزل. وبعد وقت قصير، عاد طارق من المطعم ووضع المفاتيح على المنضدة. «من سيتولى إدارة الحسابات؟ سأل.

رفعتُ عينيّ عن المناديل التي كنت أطويها، وسألته «أي حسابات؟».

«من سينظم كشوف الرواتب؟ ومن سيتعامل مع المدفوعات للموردين؟ بما أن المطعم مغلق، سيتأخر كل شيء قليلًا».

«هل تسأل عن المال حقًا في ظرف كهذا؟».

قالت سلمى بنبرتها الزاجرة: «نورا».

«ماذا؟ لقد سمعته».

«هذه ليست أسئلة غير منطقية. لا يمكننا جميعًا أن نكون مثلك. أنت تعيشين في عالم الأوهام».

«*أنتِ تعيشين في عالم الأوهام*» ما انفكت هذه الجملة تتردد في حياتي. سمعتها أول مرة في التاسعة أو العاشرة من عمري، حين كنت منهمكة في قراءة كتبي إلى درجة أنني لم أسمع اسمي عندما جرى استدعائي إلى مائدة العشاء. قالت والدتي مازحة: «أنت تعيشين في عالم الأوهام». بعد سنوات قليلة، عندما بدأت أساعدهم في المطعم بعد عودتي من المدرسة، تحولت الملاحظة إلى توبيخ مرير. تذمرت والدتي بالقول «لقد أخطأتِ في حساب الباقي، لأنك تعيشين في عالم الأوهام». وعندما قررت عدم الالتحاق بكلية الطب، أصبح هذا اتهامًا. «سوف تدمرين حياتك يا بنتي. أنت تعيشين في عالم الأوهام!».

كان الهروب إلى عالم الأوهام سبيلي إلى البقاء على قيد الحياة. أدركتُ هذا باكرًا، في أول يوم لي بمدرسة يوكا ميسا الابتدائية، عندما قرأت السيدة نيلسن بمرح أسماء الأطفال الواردة في القائمة، لكنها لم تستطع نطق «نورا زهور غراوي». حاولت نطق اسمي الأوسط مرتين وتوقفت، فقد حيرتها الحروف الساكنة. ساد الصمت في الفصل، وتملك الفضول الجميع بسبب الكلمة التي جعلت المعلمة تتلعثم. أنزلت السيدة نيلسن نظارتها على أنفها وحدقت إلى وجهي. قالت: «يا له من اسم غريب! من أي بلد أنتِ؟» وفي الاستراحة، تفرق الأطفال ثمّ تجمعوا مرة أخرى في مجموعات صغيرة: أطفال الجيش، وأطفال الكنيسة، وأطفال مقطورات المتنزهات، وأطفال هيبيون، مجموعات لم أكن أعرف فيها أحدًا، ولا أحد فيها يعرفني. بقيت وحيدة بجانب الجدار الأزرق الذي يحيط بالأراجيح، وشاهدتهم من بعيد. وفي الكافتيريا، أكلت الزعلوق الذي وضعته والدتي في صندوق غدائي، في حين كانت الفتيات الأخريات على مائدتي يهمسن فيما بينهن. التفتت نحوي بريتاني كاتلر، وهي شقراء جميلة ذات شعر مضفور وابتسامة عريضة، وسألتني، «ماذا تأكلين؟».

رفعتُ عينيّ، وأنا ممتنة جدًا؛ لقد أُتيحت لي فرصة للتحدث إلى شخص ما أخيرًا: «باذنجان».

«يبدو كالبراز».

ضحكت الفتيات الأخريات سخرية، ورحن ينادينني بقية اليوم بآكلة البراز. وفي وقت القصة، تحلّقنا جميعًا حول السيدة نيلسن لنسمعها، وهي تقرأ من مجموعة «رابونزيل» القصصية، ولكن لم يرغب أحد في الجلوس بجواري. لاحقًا، بدأت السيدة نيلسن تعزف أغنية «تلألئي، تلألئي، أيتها النجمة الصغيرة» على آلة الإكسيلوفون، وسألتنا عما إذا كنا قد تعرفنا إلى اللحن. قلت: «إنها الأغنية الأرجوانية والخضراء»، فردت عليّ السيدة نيلسن: «لا، يا حبيبتي، النجمة تومض، إنها ليست أرجوانية أو خضراء. أنت حقًا بحاجة إلى معرفة الألوان». لم أكن أعرف كيف أخبرها أنني أعرف الألوان بالفعل، وأنني كنتُ أتحدث عن شكل الموسيقى؛ أشكال وظلال النوتة الموسيقية؛ لذا عندما جاء والدي لاصطحابي بعد المدرسة، عبرتُ الشارع مسرعة، وارتميتُ في أحضانه كما لو كان المنقذ. جفف دموعي، وأخذني إلى المنزل، وسمح لي بأكل بسكويت أوريو قبل العشاء.

تعيّن عليّ الذهاب إلى المدرسة في اليوم التالي. تعلمت الأبجدية، وعهد الولاء، والابتعاد عن طريق المتنمرين. كنتُ هادئة في الفصل، وجلستُ وحدي في استراحة الغداء. لقد غمرني الصمت بالأمان، لكنه خانني بعد بضعة أشهر، بعدما أصبحت السيدة نيلسن مقتنعة بأنني أعاني صعوبات في التعلم. استدعت والدتي إلى الفصل في صباح أحد الأيام المشمسة في شهر مايو، واستخدمت كلمات مثل: الصمت الشديد، والقلق الاجتماعي، واضطراب العناد المتحدي. فشلت تلك المصطلحات في انتزاع اعتراف من أمي. وبعد لحظة، انخفض صوت السيدة نيلسن إلى الهمس، قالت: «تعاني ابنتك خطبًا ما». في هذه الأثناء، جلستُ على بساط أصفر في الزاوية ألعب وأستمع، في انتظار أن تقول أمي «لا بأس على ابنتي»، بيد أنها أومأت برأسها ببطء، كما لو كانت تتفق مع المعلمة.

عندما عاد والدي إلى المنزل ليلتئذٍ وعلِم بما حدث، قال إن المعلمة حمقاء. نعتها بالـ «حمارة»، وهي كلمة خصصها لمذيعي التلفزيون الذين جادلهم خلال نشرة الساعة الثامنة. بعد ذلك، ذهب إلى الثلاجة لتناول الجعة، وبدأ في فرز الفواتير على طاولة المطبخ. راقبتُ وجه أمي بحثًا عن ردِّ فعل، وقد جاء سريعًا، قالت «وهل تعرفها أكثر من المعلمة؟».

«أنا أعرف الكثير عن ابنتي».

«لم تُعانِ سلمى من هذه المشكلة في الروضة. كانت دائمًا الأولى على الفصل».

«لا مشكلة، يا مريم».

«إذا لم تتكلم، فستعيد السنة. هذا ما قالته المعلمة».

عبث بشعري، وقال: «كلا، لن تفعل. حاولي التحدث في الفصل يا نور عيني، حسنًا».

لكن تهديد المعلمة، الذي نقلته والدتي وضخّمته، ظل عالقًا في ذهني. إن عدم التحدث يعني أنني سأضطر إلى إعادة السنة؛ مما يعني أنني لن أُجبر على رؤية بريتاني كاتلر أو أتباعها كل يوم. لذلك بقيت في روضة الأطفال سنة أخرى. تعلمت الأبجدية وعهد الولاء مرة أخرى، على الرغم من وجود سونيا موخيرجي هذه المرة، وهي فتاة كانت هادئة مثلي تمامًا، ولا تندمج مع الآخرين أيضًا. وعندما انتقلتُ إلى الصف الأول، كانت لدي صديقة واحدة.

ومع ذلك، لم أعثر على أشباهي من مهووسي الموسيقى حتى المدرسة الإعدادية. قبلها بصيفين، بعد أن لاحظ شغفي بالموسيقى والألوان، سجلني والدي في فصول البيانو مع السيدة وينسلو، وهي جارة كانت قد تقاعدت بعد سنوات من تدريس الموسيقى في جامعة جنوب كاليفورنيا. لقد أطلقت وصفًا على نظرتي للعالم (الحس المواكب). وهكذا، أدركتُ أنه ما من خطب بي، وأن الكثيرين يشاركونني نظرتي للصوت، وبعضهم موسيقيون. في اختبارات الفرقة الموسيقية بالمدرسة، عزفتُ مقطوعة على مفتاح صول من السلّم الموسيقي، فحجزتُ مكاني على الفور، وحجزت سونيا أيضًا مكانًا بعزفها على الناي. كان ثمة أطفال طيبون آخرون في الفرقة: ليلي، وجيريمي، ومانويل، وجيمي. أطفال لم تكن غريزتهم الأولى أن يسألوا «من أنتِ؟»، وإنما «ماذا تعزفين؟». وقد ثُبت ملصق على الحائط أعلى مكتب المعلم يسأل: «هل تدربت البارحة؟ هل ستتدرب اليوم؟ وهل ستتدرب غدًا؟». لقد جمعنا الانضباط الصارم، وتجارب الأداء الطويلة التي فرضها علينا. ولم أُضطر حتى إلى التحدث كثيرًا، كان عليّ أن أعزف فقط.

ذات يوم، دُعيت فرقة الجاز للعزف في مهرجان الصيف في بالم سبرينغز. وأثناء سيري على المسرح صوب البيانو، أخذتُ بنصيحة المعلم: «تخيلي أنكِ تعزفين لشخص واحد فقط. بهذه الطريقة لن تكوني متوترة جدًا». ألقيتُ نظرة خاطفة على والدي، الذي جلس في الصف الأمامي، ورأسه مائل انتظارًا. بعد ذلك، أغمضت عيني وبدأت أعزف. رقصت أصابعي على مفاتيح البيانو، فشعرت وكأنّني أتحدث إلى زملائي في الفرقة؛ أتصل بمانويل على وقع قرع الطبول أو أجيب عن سؤال من ليلي على أنغام البيس. تعمق الحديث بيننا، وأضحيتُ منغمسة في محادثاتنا المبهجة إلى درجة أننا لما

انتهينا، أذهلني التصفيق الحار من الجمهور. أتذكر كم كنتُ سعيدة في تلك الليلة.

ومع ذلك، فإن الشعور بالاختلاف لم يختفِ تمامًا. تجلّت خطوط الصدْع عادةً عندما سُئلتُ عن الكنيسة التي أرتادها، أو حين تحدثت والدتي معي في ساحة الانتظار بالمدرسة، أو إذا طرح معلّم التاريخ سؤالًا عشوائيًا عن الشرق الأوسط، فتتحول كل الأنظار صوبي للحصول على إجابة. وما زاد الوضع سوءًا أن والديّ لم يتوافقا، وكان هناك شجار مستمر في المنزل. في كل مرة يُغلق فيها باب بعنف أو يتكسر أحد الأطباق، كنت ألزم حجرتي وأستمع إلى الموسيقى. حلمتُ بأن أكبر، وألتحق بالجامعة، وأهرب من الصحراء. «لماذا تعيشين في عالم الأوهام دائمًا؟» لطالما سألتني والدتي.

فجأة، انتبهتُ لرائحة القهوة المخمرة في القدر، والنشاء المنبعث من المنديل في يدي، وجسدي المتكئ على منضدة المطبخ. قلت: «لا أعيش في عالم الأوهام. ولكن أعتقد فقط أن اليوم ليس مناسبًا للحديث عن المال».

قالت سلمى: «لا نتحدث عن المال. نحن نتحدث عن مطعم بابا، الذي كان يهتم به كثيرًا. أنت نفسك قلتِ ذلك قبل لحظات».

«ليس هذا ما قصدته».

«ماذا تقصدين إذًا؟».

«سيكون من الجيد لو كان زوجك أكثر شعورًا بحساسية اللحظة، هذا كل شيء».

«كان يحاول المساعدة فقط».

دق جرس الباب فجأة، فذهبت سلمى للرّدّ، وأساورها ترن على معصمها في تناغم، وكأنها تعزف مقطوعة موسيقية. انتهيتُ من طي المناديل، وأنا أحس بألم في صدري. يوم واحد فقط في هذا المنزل، وها قد اشتعلت الجدالات بالفعل. لم أفهم سبب زيارة الناس للمنزل بهذه السرعة، إذ كان من الممكن تأجيل هذا إلى ما بعد الجنازة. ولم أرغب في سماع القصة، التي تُروى مرارًا وتكرارًا لكل زائر جديد حول الفاجعة؛ كيف عُثر على والدي فاقدًا الوعي على الرصيف من قبل معلمة كانت تركض ليلًا. وصل المسعفون بعد دقائق فقط، ولكن بعد فوات الأوان؛ كان قد أسلم الروح بالفعل. ولم أرغب في أن يسألني أحد عن مكان وجودي عندما وقعت الفاجعة، أو كيف سمعت الخبر.

أمسيتُ متعبة من مصافحة أصدقاء أختي، وسئمتُ سماع أصواتهم الخافتة. بعد برهة قصيرة، عدتُ أدراجي إلى حجرتي.

جيريمي

عندما وصلتُ إلى منزلها، وجدْتُ الباب الأمامي مفتوحًا. كان بإمكاني سماع ضجيج المحادثات المتشابكة في الداخل، بعضها بلغة شعرت أنها مألوفة بالنسبة إليّ، لكنني لم أستطع فهمها. وكان هناك عدة أزواج من الأحذية مصفوفة عند المدخل، فتساءلت عما إذا كان عليّ خلع حذائي أيضًا، ولكن ماذا لو لم تكن هنا؟ قد عُلقت صور على طول الردهة، من بينها صورة لفرقة الجاز في المدرسة الثانوية. خطر لي أنني لم أدخل منزلها من قبل، بيد أن نسخة مني انتظرتني عشر سنوات على الحائط.

وجدتُ نفسي وسط حشد من الغرباء في غرفة المعيشة، وقد وقفوا في مجموعات صغيرة، وهم يشربون الشاي من أكواب زرقاء صغيرة. جلست والدتها على الأريكة، مستغرقة في محادثة مع رجل عجوز يرتدي سترة سوداء ويعتمر قُبّعةً بيضاء. رن الهاتف في المطبخ، فقد طلب أحدهم كوبًا من الماء ومسكّن آلام. كان المنزل صاخبًا وخانقًا وشعرت بالغربة. لقد جئت مباشرة من مركز الشرطة، وبتُّ الآن أشك أنها ليست فكرة جيدة، ثم رأيتها عند الشرفة.

مشيت عبر الأبواب الزجاجية، وأنا أشعر بالارتياح لابتعادي عن زحام الحاضرين. كان هذا بعد الغسق مباشرة، حين تحولت السماء من اللون الأزرق إلى الأسود. وعلى طول السياج الخشبي، توهجت حزم من أزهار فرشاة الرسم الهندية الحمراء مثل جمر نار محتضرة، وأصدرت الألواح الأرضية صريرًا تحت حذائي. ناديتُها: «نورا»، فاستدارت عند سماع صوتي. كان شعرها الطويل الأسود يتدلى على كتفيها، وعيناها كما أتذكرهما داكنتين وصارمتين، وقد ارتدت فستانًا أخضر يضيق عند الخصر بحزام مشدود. بدت بشرتها ذهبية في الضوء الأصفر المنبعث من غرفة المعيشة. «آسف على خسارتك».

نظرت إليّ من دون أن تنبس ببنت شفة، ولوهلة راودتني فكرة مرعبة أنها لا تتذكرني، وأنه ما كان ينبغي لي أن أحضر على الإطلاق. لكنها بعد ذلك عبرت الشرفة، بقدمين حافيتين تسيران بخفة وصمت على الألواح الخشبية، وعانقتني بحرارة. هكذا فكرت لاحقًا حين كنت أستحم. قالت: «شكرًا لقدومك يا جيريمي». وعندما تراجعت، انجذب نظرها إلى غرفة المعيشة؛ فقد انطلق

عويل مفاجئ، وارتفعت الأصوات الثكلى للمواساة. نظرت إليّ مرة أخرى، ولكن هذه المرة بيأس، وقالت «هل تمانع في البقاء قليلًا؟».

«لا، بكل تأكيد»، جلستُ بجانبها على المقعد الخشبي. وعلى الرغم من يقيني بشأن المجيء لرؤيتها، لم أفكر في أي شيء أواسيها به، لكنّني قلتُ أخيرًا: «كان والدك رجلًا صالحًا».

قالت: «أشكرك على قول ذلك» ولمست ذراعي برفق.

«أتذكر عندما كنا نتدرب بعد الظهر، كان يأتي ويستمع إلينا. لم يفعل أي من الآباء الآخرين ذلك».

وضعت ساقًا فوق الأخرى؛ كانتا طويلتين وبنيتين، وقد طلت أظافر قدميها باللون الأحمر. أجبرتُ نفسي على النظر بعيدًا. تحسستُ جيبي، في محاولة لتذكر عدد السجائر التي دخّنتها يومئذٍ؛ أقل من خمس، وهو الحد الجديد المسموح به ليوم واحد. «هل تمانعين إن دخّنت؟».

«لا، تفضل».

أشعلتُ سيجارة، ونفثت الدخان بعيدًا عنها، لكن الريح أعادته نحونا. منذ أسبوع وحتى الآن، كانت رياح سانتا آنا القوية تضرب الوادي، حاملة معها الحرارة والغبار وأصوات الحيوانات البرية من الجبال. وعلى وقع هبوب الرياح، سمعنا همهمات قادمة من غرفة المعيشة.

«كيف سمعتَ بشأن ما حدث لوالدي؟».

«أحد زملائي يتولى القضية».

«أنت محقق؟».

«نائب قائد الشرطة. تبدين متفاجئة».

«اعتقدتُ أنك ستصبح مدرّسًا أو شيئًا من هذا القبيل؛ فلطالما سلمت أفضل ورقة في برنامج التنسيق المتقدم للغة الإنكليزية والكتابة».

كان هذا المنهج الوحيد الذي التحقتُ به ضمن برنامج التنسيق المتقدم. ولكن الحقيقة هي أنني لم أكن متفوّقًا في المدرسة الثانوية؛ إذ قال المعلمون دائمًا إنني مشتت الانتباه. بيد أن هذا لم يكن تشتّتًا، بل إرهاقًا. كنتُ أعمل بعد المدرسة، وأعتني بأختي، وأبقى مستيقظًا معظم الليالي حتى يعود أبي إلى

المنزل. لم يبدُ ما يتحدث عنه المعلمون في الفصل مهمًّا للغاية بالمقارنة. في برنامج التنسيق المتقدم للغة الإنكليزية، كان علينا قراءة الروايات، وقد أحببت القراءة. أخذتُ شهقة من سيجارتي، وحاولت أن أتخيل نفسي مثلما قالت نورا، في فصل دراسي فيه أطفال، لكن الصورة بدت غريبة بالنسبة إليّ. كان المسار الذي سلكته في حياتي هو الوحيد الذي يمكنني تخيله لنفسي الآن. قلت: «أعتقد أننا لا ننتهي دائمًا كما نتوقع. ماذا عنكِ؟».

«أنا موسيقية، ملحنة».

قلتُ: «الآن، هذا منطقي». ما الأكثر ملاءمة من جلوس نورا أمام البيانو؟ كانت دائمًا أول الحاضرين في حصة الموسيقا، وآخر من يغادر. وكانت تعزف كل لحن بإتقان من المرة الأولى، ثم تضطر إلى الانتظار حتى يلحق بقيتنا بها. «هل هناك مكان يمكنني سماع موسيقاك فيه؟».

قالت بخجل: «ليس حقًّا. أعني، لقد سجلتُ بعض المقطوعات التي يمكنك سماعها عبر الإنترنت، لكنّني لا أتقاضى عمولات من الأوركسترا، ولم أوقّع عقدًا مع شركة إنتاج أو أي شيء من هذا القبيل. أنا أعمل معلّمة بديلة لسداد فواتيري».

لم أدرِ ما السبب، لكنّني شعرت أن عليَّ تجاهل نبرة خيبة الأمل في صوتها: «أنا متأكد من أنك ستحصلين على عقد قريبًا».

قالت بضحكة مكتومة: «لستُ متفائلة مثلك».

ساد الصمت بيننا لمدة طويلة، ولكن لم يكن هذا مزعجًا. أثناء جلوسنا معًا في الظلام، رأينا كل شيء داخل المنزل. بدت اللحظة حميمية، وكأننا نتشارك شيئًا سرّيًّا، أو حتى غير قانوني. وفي المطبخ، وضعت شقيقتها الغلاية على الموقد، ثم قالت شيئًا لامرأتين تقفان عند المنضدة. ودخل زوجان عجوزان إلى غرفة المعيشة حاملين أطباق بيركس مغطاة بورق الألمنيوم، ثم رن الهاتف ثلاث مرات قبل أن يرد أحدهم. سألتها: «هل تنتظرين مغادرة هؤلاء القوم؟».

«لقد كان يومًا مروّعًا، ولا أستطيع أن أتحدث مع أي شخص».

«من هؤلاء؟».

«الرجل الجالس بجانب أمي هو عمي، وقد أحضر معه صديقه من المسجد في لوس أنجلوس لمساعدتها في ترتيب الجنازة؛ أما الزوجان اللذان

يشربان القهوة في المطبخ فهما من جيراننا، والآخرون أصدقاء أختي في الغالب».

صرخت بومة كانت واقفة على شجرة الصنوبر، وقد رفعت نورا ركبتيها صوب صدرها وأحاطتهما بذراعيها. قالت: «لا أستطيع البكاء».

أطفأتُ سيجارتي وقلت: «أنا كذلك لم أبكِ بعد وفاة أمي. ليس لبعض الوقت، على أي حال».

«هلا مننتَ عليّ بواحدة. أنت تغرينني».

عندما أشعلتُ الولاعة من أجلها، لاحظت وجود وشم على معصمها من الداخل، لكنّني لم أتبيّن الكلمات. كان الظلام شديدًا، ويداها ترتعشان. قلت: «ربما هذا ليس عزاءً، لكن كولمان - المحققة التي تتولى القضية - جيدة حقًّا، وستجد الوغد الذي فعل هذا».

«لم تخبرنا بأي شيء ذي قيمة. صُدم والدي على بعد نصف شارع من المطعم، ولا يمكنها الإمساك بأي خيط محتمل. لا شيء».

«ستفعل. ولكن سيستغرق الأمر بعض الوقت فقط».

«أيقنتُ أن هذا سيحدث».

«ماذا تعنين؟».

«كنتُ أعرف أن شيئًا فظيعًا سيحدث. ألا تذكر كيف تعرضت تجارته للحرق بعد هجمات (11 سبتمبر)؟ حينها، لم يكتشفوا الجاني. وقد اضطر بعدها إلى رفع علم ضخم خارج مطعمه، وكأنه ملزم بأن يثبت أنه أحد الطيبين. لقد توسلتُ إليه مرارًا وتكرارًا بأن يبيع المطعم. لكنه رفض، لقد أحب المكان هنا. الله وحده يعلم لماذا».

بدا لي أنها تحدّث نفسها، وتجادل حول الماضي وكأنها تستطيع تغييره. كان هذا ما أحسست به أيضًا عندما ماتت والدتي. بعد ظهر أحد الأيام، عدت إلى المنزل من تدريب البيسبول، وأنا أكاد أطير فرحًا بمديح المدرب لضربتي، وما أزال مستثارًا من مشهد مادي كلارك في تنورتها القصيرة، وهي تهتف لي من المدرجات، وأضحك على نكات زملائي في الفريق، لأجد أمي مغشيًّا عليها في الردهة، وحقيبتها معلقة على صدرها، وبريد اليوم في يدها. تعثرتُ للوصول إلى الهاتف، وعانيتُ لتذكر ما تعلمته في حصة الإسعافات الأولية التي التحقت بها قبل عامين، في الصف السابع. هل كان يفترض بي أن أبحث

عن نبض؟ وهل أحركها أو أتركها على جانبها هكذا؟ أدرتها على ظهرها بحذر، ووخزتُ خديها، ثم فككت أزرار ياقتها. وقد تمكنت بطريقة ما من العثور على نبض، لكنّني لم أتمكن من إنعاشها، وفشل المسعفون أيضًا في ذلك عندما وصلوا. ولما لحق والدي وأختي بي في مركز هاي ديزرت الطبي، كانت قد ماتت بفعل الانسداد الرئوي. حتى يومنا هذا، ما زلت أتذكر بوضوح يذهلني والدي، وهو يقف في ممر المستشفى شاحب الوجه، ويخبر الطبيب أنه لا بد أن ثمة خطأ ما، وأنها لم تعانِ سوى من سعال بسيط.

بيد أنه لم يكن هناك خطأ؛ لقد ماتت. لم تكن هناك عندما عدت إلى المنزل المظلم والخالي في وقت لاحق من تلك الليلة. ولم تنادِني من غرفة نومها، أو تسألني، لماذا ما زلت مستيقظًا؟ حري بك أن تنام، إنها ليلة مدرسية. وفي الصباح التالي، لم تكن تتكئ على منضدة المطبخ، وتحتسي قهوتها، وهي تنظر عبر النافذة إلى اليوم الجديد. لم تقل، هل نسيت إخراج القمامة الليلة الماضية؟ لأنني أشم رائحة شيء. ولم تعبث بشعري، وتسألني إذا كنت قد نمتُ جيدًا. لم أنم على الإطلاق، سواء في تلك الليلة أو في ليالٍ كثيرة لحقتها. كان غيابها ثقيلًا إلى درجة لا يمكن معها الاستسلام للأحلام.

من أجل الجنازة، حضرت خالتيّ أورا وإستيلا بالسيارة من إل مونتي، في حين استقل خالي بول طائرة من أوريغون. وقد اشتروا لي بدلة سوداء وساعدوني في ربطة العنق وأخبروني بقصص لم أسمعها من قبل، قصص عن فوز والدتي بالمركز الثاني في مسابقة رقص بمعرض مقاطعة أورانج، وكيف عانت من الحساسية عندما خاضت اختبار شهادة التدريس، وتمكّنها من عزف أي لحن على الكمان بمجرد سماعه، أي لحن على الإطلاق، مهما كان صعبًا، وأنها سافرت إلى سونورا بعد ثلاثة أسابيع من ولادة آشلي، فقط لمساعدة ابن خالها الذي وقع في مشكلة. كان من المفترض أن تكون هذه القصص مواسية، لكنها في الحقيقة زادتني أسى. تمنيتُ أن يغادر جميع أفراد الأسرة، وقد حدث، فأمسى المنزل خاليًا مرة أخرى، لينقلب حالي وأتمنى لو أنهم بقوا. وفي المدرسة، كان كل شيء غريبًا. أعطاني زملائي في الفرقة بطاقة تعزية وقعوا عليها جميعًا، ولكن فاتني حفل الربيع، وشعرت بأنني مستبعد من المحادثات التي أجروها حول هذا الموضوع. وقد جاء بعض الأولاد في فريق البيسبول إليّ ليعزّوني، لكنهم تركوني وحيدًا وقت الغداء، وكأن حزني معدٍ. وعندما عدت إلى المنزل، كان والدي جالسًا في الظلام يشرب ويحدق إلى السماء. ساد صمت عميق جدًّا لا يلين، إلى درجة أن آشلي ذهبت لتناول العشاء عند آل جونسون، وهي عائلة مشاكسة تعيش على بعد منزلين منا.

سألته: «أبي، هل سنتناول الحبوب فقط على العشاء؟».

فقال والدي: «كما تشاء».

شغّلتُ التلفاز لتبديد الصمت في غرفة المعيشة أثناء أدائي واجباتي. كان الصوت مريحًا على نحو غريب، مع أنه زاد من صعوبة التركيز. ظللتُ أعيد قراءة الأسطر الثلاثة أو الأربعة نفسها في كتابي المدرسي، في حين سرح عقلي في أيام بعيدة عندما كانت والدتي على قيد الحياة وبصحة جيدة. لن تشاهدني مرة أخرى ألعب الكرة مع الفريق الذي كنت أعمل بجدٍّ للانضمام إليه، ولن تصحح ببراعة عزفي على الجيتار، أو تتظاهر بالاستمتاع بإحدى نكاتي الغبية. لم أدرك مدى قربنا من بعضنا حتى ماتت.

بعد ذلك، بدأت آشلي ترتاد الكنيسة مصاحبةً آل جونسون، حيث كانوا يدرسون الكتاب المقدس يومي الثلاثاء والخميس. كانت تعود إلى المنزل مساءً بنظرة رضا على وجهها، أيقنتُ أنها ليست بسبب الوجبة التي تُقدم هناك. وعلى الرغم من أن والديّ ارتادا الكنيسة بانتظام، إلا أنهما لم يقتبسا من الكتاب المقدس في كل محادثة، أو يوزعا منشورات تبشيرية في الحي، ولم يغمضا أعينهما عن التطور كما فعل آل جونسون. ولكن الآن، ما عاد والدي يكلف نفسه عناء مغادرة المنزل يوم الأحد.

كنتُ أسأله: «أبي، هل أعد شطائر البرغر بالجبن؟».

فيقول: «كما تشاء».

بدأتُ أعود إلى المنزل باكرًا حتى أعد العشاء. وقد فاتني التدريب مرات عديدة، ومع بداية سنتي الثانية، جرى إقصائي عن فريق البيسبول. وفي سبتمبر، عندما هاجم تنظيم القاعدة برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك بطائرات، جلس والدي على الكرسي المريح، وبدا لأول مرة مهتمًّا بالتلفاز. منذ ذلك الحين، كانت قناة فوكس نيوز تعمل بصوت صاخب، إلى درجة أنني التجأتُ إلى غرفة نومي، ظاهريًا لأداء واجباتي، بيد أني في معظم الأوقات رحت أقرأ كتابًا أو أعزف على الجيتار، فتدنّتْ علاماتي.

ولكن تحسن طبخي. في كل ليلة تقريبًا، كنتُ أعد طبقًا رئيسيًّا، وآخر جانبيًّا على مائدة العشاء في السابعة. وكان والدي يأكل كل ما أضعه أمامه، لكن آشلي كانت تسرع دائمًا حتى تذهب إلى آل جونسون. لم تنهِ طبقها قط، لذا أنهيته بدلًا منها. كسبت الكثير من الوزن، ومعظمه في الأماكن الخطأ. عندما كنتُ أمشي في ممرات المدرسة، بدا لي أن الجميع يحدق إلى الثدي الذي ينمو تحت قميصي. وإذا حاولتُ إلقاء التحية على مادي كلارك، كانت ترد بازدراء. قبل أشهر فقط، كنت أطول قامة من أقراني، ولكن بات يُنظر إليّ

الآن بطريقة جعلتني، على نحو غريب، أشعر بأنني غير مرئيٍّ. أضحت أيامي روتينية ومملة؛ أستيقظ، فأذهب إلى المدرسة، ثم أعود إلى المنزل، وأعد العشاء، ثم أخلد إلى النوم، وهكذا دواليك.

قبل وفاة والدتي، كانت خطتي هي الالتحاق بالجامعة لدراسة علم أمراض النطق؛ إذ عانيتُ في طفولتي من اضطراب النطق الذي تطلب عدة أشهر من العلاج، وما زلت أذكر كيف شعرت بالثقة للتغلب عليه. ولما كنتُ قد نشأت في كنف أم تدرّس متعلمي اللغة الثانية، اعتقدت أن مهنة مساعدة الأطفال ستكون مناسبة لي. ولكن في ديسمبر من سنتي الأخيرة، حين تلقيتُ خطاب قبول من جامعة الولاية، تضاءل حماسي ولم أعد متأكدًا من أن علم أمراض النطق مناسب لي.

سألته: «ماذا يجب أن أفعل يا أبي؟».

فردّ: «افعل ما شئت».

كافحتُ لأتجنب الشعور بأنني أصبحت ربّ المنزل. أنا من يشتري الطعام، ويتولّى الطبخ والغسيل. وعندما تأتي الدورة الشهرية لآشلي، كنت أنا أرافقها إلى المتجر لشراء الفوط الصحية. ونظرًا لأن والدي مرّ بضائقة مالية، فقد وجدت وظيفة بدوام جزئي في محل للبوظة، ولكن لم يكن هناك ما يكفي من المال للفُسح. وفي كل شهر، كان عليّ معرفة أيّ الفواتير سأسدد وأيها سأؤجّل. ولكن في هذه المرة فقط، أردت من والدي أن يرشدني ويتحدث معي ويساعدني في تحديد مستقبلي. وإذا عجز عن ذلك، فأقل ما يمكنه فعله هو الحضور. في كل حفل لفرقة موسيقى الجاز بمدرسة يوكا الثانوية، تركتُ قصاصة ورق على الثلاجة، مدوّنًا عليها التاريخ والمكان بخط مميز. وعندما أمشي على المسرح حاملًا جيتاري، كنتُ أجول ببصري في الجزء الخلفي من القاعة، علّني أجد والدي. لكنه لم يأتِ قط، على عكس نورا. حتى في هذه اللحظة، أتذكر الحسد الشديد الذي تملكني كلما رأيت السيد غراوي في الصف الأول. كانت عيناه مليئتين بالفخر، وهو شيء لم أجربه مع والدي.

نظرتُ إلى نورا. كان طرف سيجارتها محملًا بالرماد.

قلت: «انتبهي. ستحترقين».

نظرت إلى سيجارتها وكأنها لا تعرف كيف وصلت إلى هنا. وعندما حركت ذراعها قليلًا، تناثر الرماد على ظهر يدها، نفضته، ثم نظرت مرة أخرى صوب غرفة المعيشة. أخيرًا انحسر الزحام؛ فلم يبقَ سوى حفنة من الناس.

نهضت واقفة وقالت: «أشكرك مجدّدًا على قدومك يا جيريمي». ورافقتني عبر المنزل إلى الباب الأمامي.

هذه المرة، حين مررتُ بالصورة المعلقة على جدار الردهة، لم أتوقف.

مريم

كنتُ أحاول البقاء مستيقظة؛ لذا شغّلت المذياع وبحثت عن برنامج كلوديا كوربيت على إذاعة كي دي جي إل، ويُبث عادة وقت الغداء. كنتُ أستمع إليها أثناء تقشير البطاطس أو تقطيع البقدونس، لكن العرض يحظى بشعبية كبيرة إلى درجة أنهم أعادوا بثه مرة أخرى في الساعة العاشرة مساءً. في تلك الليلة، اتصلت امرأة شابة لتقول إنها تزوجت قبل ستة أشهر فقط، ولكن سرعان ما دبت الخلافات مع زوجها؛ لأنه أراد الانتقال إلى بورتلاند كي يعمل مصوّرًا للطبيعة، في حين تمسكت هي بوظيفتها لدى شركة تأمين في سولت ليك سيتي، ورفض أي منهما التنازل للآخر. قالت لها كلوديا بحدة، مثلما تفعل أحيانًا عندما يبدأ المتصلون في المراوغة، ويرفضون مواجهة الواقع: «اسمعي، لم يقل أحد إنّ الزواج كان سهلًا؛ الزواج عمل».

عندما انتقلنا إلى أمريكا قبل خمسة وثلاثين عامًا، فاجأتني أشياء كثيرة، مثل وجود متاجر الأسلحة بجوار صالونات الحلاقة، والطرق السريعة المتشابكة مثل الخيوط، والأشخاص الذين طرقوا الأبواب للحديث عن يسوع، ووجود عشرين نوعًا مختلفًا من الحليب في البقالة، واللافتات التي تقول «إيّاك أن تفكر في الوقوف هنا». أتذكر أنني قلتُ لإدريس: إن لديهم حتى لافتات تخبرك بما لا يمكنك التفكير فيه! ولكن فوق كل شيء، فوجئت بالبرامج الحوارية، بالطريقة التي أحب الأمريكيون الاعتراف بها على شاشات التلفاز. لقد تحدث الرجال بوضوح وارتياح عن علاقاتهم الغرامية أو إدمانهم أو مشاكل القمار، وتحدثت النساء عن أوزانهن أو العمليات الجراحية التجميلية أو الأطفال الذين أنجبنهنّ خارج إطار الزواج؛ وحتى المراهقون كان لديهم ما يقولونه، في الغالب عن مدى فظاعة آبائهم - كل ذلك كان شيئًا طبيعيًّا. لم أستطع التوقف عن المشاهدة. استقرّ التلفاز فوق خزانة الإمدادات في الجزء الخلفي من متجر الكعك، وأثناء غسل الأطباق أو مسح الأرضية، كنت أشاهد سالي أو دوناهو، وكانا يبثان حينها في منتصف فترة ما بعد الظهر، حين يسود الهدوء المتجر. أخبرني أخي أن مشاهدة التلفاز ستساعدني في تحسين لغتي الإنكليزية، وقد تعلمت الكثير من الكلمات الجديدة بالفعل، مثل اختبار الأبوة والتلقيح الاصطناعي ووباء الإيدز، لكنني عانيتُ مع النطق؛ إذ خلطتُ بين كلمة «شجرة» Tree و«ثلاثة» Three، أو «الضرع» Udder و«الآخر» Other. لقد كنت

بحاجة إلى الكثير من التدريب. هناك في الدار البيضاء، كان لدي شقيقتان وثلاثة أعمام وثمانية أبناء عمومة، ولكن هنا في كاليفورنيا، كان أخي هو كل عائلتي، وهو يعيش على بعد مائتي كم تقريبًا. لم أدرك بُعد المسافة بيننا حتى بتنا لا نراه إلا مرة واحدة في الشهر، وأحيانًا أقل من ذلك. بالنسبة لي، كان هذا أصعب شيء بشأن العيش في أمريكا؛ فكوني بعيدة جدًّا، جعلني أشعر وكأني يتيمة.

ذات يوم، ذهبنا إلى متجر ستاتر براذرز في شارع 62. وقتئذٍ، كانت قد مضت علينا تسعة أشهر في موجافي، ولكن كان هذا أول شتاء لنا هنا، ولم نعتد على البرد القارس. لذلك، لففتُ سلمى بمعطف من الصوف الأخضر اشتريته لها من متجر غودويل. وقد جلست في عربة التسوق، وهذا شيء آخر جديد بالنسبة لي في أمريكا، لكنني سمحت لها بالجلوس؛ إذ أحبت التجول بالعربة في المتجر، ولم أرَ ضيرًا في ذلك. تصفحت القسائم التي قطعناها من الصحيفة، فوجدت حسمًا على علبة شرائح الطماطم من هانت، لكني لم أجدها في أي مكان على الرف. قال إدريس: «أنا متأكد من أنهم يمتلكونها». كان هكذا مؤمنًا دائمًا، حتى فيما يتعلق بالأشياء الصغيرة التافهة. لذا، بينما كان يبحث عن العلبة، انتظرتُه وأنا أرتجف في سترتي. بعد ذلك، مرت بجوارنا امرأة تدفع عربة تسوق، وقد فاحت منها رائحة ماء الورد. على الفور، عدت بذاكرتي إلى الدار البيضاء مع أخواتي، حين كنا نضع بكرات الشعر، ونجرب ألوانًا مختلفة من طلاء الشفاه، ونشاهد أنفسنا في مرآة التسريحة، حيث ثُبتت صورة للمطربة شادية على الإطار، بتسريحة منتفخة أردنا تقليدها. كان المذياع يعمل، وقد انتظرنا بث الدي جي أغنيات فرقة بي جيز، ثم كنا سنستقبل أصدقاءنا لاحقًا لمشاهدة فيلم مصري من بطولة رشدي أباظة.

لا أدري لِمَ فعلت هذا، لكني تبعت المرأة على طول الممر نحو قسم الأغذية المبردة، حيث أخذت الحليب والزبدة والبيض والعصير، وهو ما يكفي لعائلة كبيرة، ثم انتقلت إلى الرفوف الجانبية، واختارت صندوق غذاء عليه صورة الفضائي ET، الذي توهج وهو يمسك بيدي الصبي الصغير. كانت المرأة ذات شعر بني طويل، تقريبًا نفس لون شعري، لكنها كانت تفرقه من المنتصف، وقد ارتدت معطفًا ذا وسادات الكتف الضخمة التي أصبحت شائعة وقتها. ذهبت إلى ممر جديد، فشاهدتها وهي تحاول اختيار نوع من الدقيق من بين العشرات الموجودة على الرف. قلتُ لها: «مرحبًا»، فاستدارت، ورفعت حاجبيها، وابتسمت بتردد. أردتُ أن أقول لها: «اسمي مريم، فما اسمك؟ هل تسكنين قريبًا من هنا؟ وماذا تعملين؟ هل لديك أطفالٍ؟ لدي ابنة واحدة

عمرها ثلاث سنوات. هل تودين تناول الشاي معي يومًا ما؟ هل ستعدين كعكة؟ لدي وصفة رائعة. لا تستخدمي دقيق ستار، فهو ليس مناسبًا لعمل الكعك». لكن عندما هممتُ بالتحدث، لم يخرج شيء، وراح قلبي ينبض بسرعة.

قالت: «أجل، هل يمكنني مساعدتك؟».

«هذه الأرضية ليست جيدة».

«ماذا؟».

لاحقًا، تعلمتُ نطق الكلمات في رأسي قبل أن أتحدث بها، مثلما تعلمنا في المدرسة، عندما كنا نتلو قصائد الخنساء أو المتنبي، ولم يتسامح معلمونا مع خطأ في النطق أو النبرة، بيد أن كل ما شعرت به لحظتئذٍ هو أن لساني قد خانني. قلت: «هذه ليست أرضية جيدة».

نظرت إلى الأرض، وقالت: «لا أفهم عليكِ».

«ثقيل جدًّا».

«سيدتي، ليست لدي أية فكرة عما تحاولين قوله».

بعد أن اقتربتُ منها، رأيت شامةً جمال على شفتها العليا، تمامًا مثل أختي الصغرى، وهو ما لم أكن أتوقعه، فحدّقت إليها باهتمام أكبر. لكنني أخفقتُ في ما حاولت قوله، وخشيتُ زيادة الأمر سوءًا. لذا، أشرتُ إلى الدقيق، وابتسمت بطريقة تمنيتُ أن توضح المعنى. هزّت رأسها وضحكت، كاشفة عن أسنانٍ معوجّة ومصفرّة بسبب القهوة، ثم وضعت علبة من خليط الخبز الفوري في عربتها وابتعدت. بدأتُ في البكاء، وأنا أقف بجانب عبوات الزينة، وهناك عثر عليّ إدريس. «ماذا دهاك؟» سألني، وهو يمسك يدي. لم أعرف كيف أشرح له أنه ليس هناك خطب ما، مع أن كل شيء كان خطأ. كانت سلمى تراقبني من العربة، فجففتُ دموعي كي لا أزعجها، لا سيما بعد أن لوّحت بعلبة طماطم *هانت* وكأنها جائزة ترضية. «أين القسيمة؟» سألني إدريس.

لم تكن معي. لا بد أنني أسقطتها في مكان ما، عندما سرت خلف المرأة من ممر إلى آخر، لذلك عدت إلى حيث كنت، لكني لم أتمكن من العثور على المغلف الصغير الذي حفظنا فيه جميع القسائم. لقد استغرق الأمر

منا أسابيع لقص هذا العدد الكبير من القسائم، والآن أصبح إدريس منزعجًا لأننا سنضطر إلى دفع المزيد مقابل مشترياتنا من البقالة، وقد تشاجر معي أثناء انتظارنا في طابور الخروج. كان علينا توخي الحذر الشديد فيما يتعلق بالمال حينئذٍ، لأننا كنا قد بدأنا تجارتنا توًّا. لقد عملنا بجد في تلك السنوات الأولى، وربما كان علينا العمل على تحسين علاقتنا أيضًا، كما قالت كلوديا كوربيت. أثناء الاستماع إليها ليلتئذٍ في السيارة، فكرتُ في أننا يجب أن نحاول مرة أخرى، وأن نتوقف عن الجدال حول كل شيء، ونتعلم أن نغفر لأنفسنا، ولبعضنا بعضًا، ولكن عندما دخلت، لم يكن إدريس في المنزل. كان عادة يجلس على كرسيه الخاص، ويحل ألغاز الكلمات المتقاطعة، فهكذا حسّن لغته الإنكليزية. كان مهووسًا بالعثور على جميع الإجابات، ونادرًا ما نظر إليّ عندما أمرّ به في طريقي نحو المطبخ. لكن كما قلت، في تلك الليلة كان الكرسي فارغًا، ولم يرد عندما اتصلت به، لذلك اتصلت بسلمى. كانت الساعة تشير إلى التاسعة وأربعين دقيقة. وأتذكر الوقت لأنني كنت أنظر إلى ساعة الميكروويف أثناء حديثي معها، وقد أخبرتني ألا أقلق، فربما لديه مشكلة في السيارة أو أن هاتفه الخلوي مغلق. ولكن بعد ساعة حضرت الشرطة.

نورا

أثناء نومي، تهتُ في عالم ما زال والدي يسكنه. كنا معًا في غرفة مشرقة تملؤها رائحة الربيع المنبعثة من غصن الشيح، لتزيد من نكهة كوب الشاي بالنعناع الخاصّ به. كان يحل الكلمات المتقاطعة، وهو يمضغ غطاء قلمه ويفكر في كل احتمال. ثلاثة حروف يا نورا. أب كل شيء، وملك كل شيء. هل لديكِ أية أفكار؟ الحرب، قلتُ من دون أن أرفع عينيّ عن البيانو. آها! شكرًا لكِ يا نور عيني. ثم فتحت عينيّ، فانغلقت جدران غرفة نومي علي، وبات بياضها اللامع يجهد حواسي، وقد أثقل الحزن كاهلي مثل معطف مزعج. وأضحى الاستيقاظ أصعب لحظة في اليوم الآن، عندما أتذكر أنه قد رحل.

انقلبت على جانبي، وانكفأتُ على نفسي. ومن أعلى الخزانة، حدّقت إليّ نسخة مصغرة مني، من صورة لفرقة الجاز التقطت قبل حفل العام الجديد. كنتُ أرتدي فستانًا أسود، وسرحت شعري على هيئة كعكة، وأنا عابسة من نفاد الصبر. كنت متشوقة لمغادرة المنزل، بيد أني سأتخلى عن كل شيء مقابل يوم آخر هنا معه. أغمضتُ عيني، آملة أن أدخل الحلم مرة أخرى، ولكن بلا فائدة، فقد كنت مستيقظة تمامًا. بعد أن ارتديت ملابسي، وضعت أسطوانة لجون كولترين في جهاز الاستريو، وجلست على سريري لإرسال بريد إلكتروني إلى مدير مدرسة باي الإعدادية. حينها، كنت سأحل مكان معلّمة اللغة الإنكليزية التي كانت تقضي إجازة أمومة، لكني غادرتُ أوكلاند فور سماعي بالحادث. لذا، كتبتُ رسالة إلى مدير المدرسة، أشرح فيها ما حدث، وأعربت عن أملي بالعمل لديه مرة أخرى قريبًا. كنتُ أعلم أنه سيجد بديلًا لي، وسيكون من الصعب العثور على وظيفة مستقرة كهذه. بعد ذلك، سمعت أصواتًا في الردهة.

عندما دخلت غرفة المعيشة لاحقًا، وجدت المحققة كولمان جالسة على الأريكة الجلدية، وهي تضع ساقًا فوق الأخرى، وفي حجرها ملف. كانت عيناها داكنتين، ورموشها طويلة وبارزة كإبر الصنوبر، ولديها ندبة صغيرة على حاجبها الأيمن. حملت والدتي في يدها صورة، وراحت تريها للمحققة: «كان هذا في عام 1980، قبل أن ننتقل إلى كاليفورنيا».

قلت: «مرحبًا»، ونهضت المحققة لمصافحتي.

عندما جلست كولمان مجددًا، تابعت والدتي: «هذا زوجي إدريس، وهذه أنا. هذه ابنتنا سلمى بيننا، كانت في الثانية من عمرها. وهذه يا نورا، كيف أصفها، البرج الذي يحذر السفن؟».

«منارة».

«صحيح. هذه منارة الدار البيضاء خلفنا».

سألتها كولمان: «هل انتقلتم من المغرب يا سيدة غراوي؟».

«أجل، في عام 1981. إنها قصة طويلة».

سألتها: «هل تريدين أن تشربي شيئًا أيتها المحققة؟».

«القهوة، إذا كان لديكِ منها. لكن من فضلك لا تصبيها نيابة عني».

دخلتُ المطبخ، ووضعت القهوة في قدر من الماء. على مر السنين، سمعت قصة بلدنا القديم عدة مرات من والدي، ولم أتحمل الاستماع إليها الآن. كان يقول: «في يوم السبت». بهذه الطريقة بدأ أبي القصة دائمًا. «في يوم السبت الذي سبق أسبوع الاختبارات النهائية». أعتقد أنه أحب تلك القصة لأنها عكست بوضوح قصة الحلم الأمريكي: (مهاجر يعبر المحيط، فيبدأ مشروعًا ليصبح ناجحًا).

كان يروي القصة من وقت لآخر، فقط ليذكر نفسه أن كل شيء سار على ما يرام. لكن كل ذلك تغير في صباح أحد أيام سبتمبر، على الأقل بالنسبة لي. أتذكر أن رائحة الدخان وصلت إلي أولًا. كنت أعبث في مذياع السيارة، محاولة العثور على محطة لا تعرض إعلانات تجارية. وبجواري، نقر والدي بأصابعه على المقود، في انتظار تغير ضوء الإشارة. قال: «حوليه فقط إلى الإذاعة الوطنية»، لكنني سئمت من الأخبار. لهذا السبب، أصررتُ على الذهاب للعمل معه صباح يوم السبت؛ إذ لم يعد بإمكاني تحمل سماع الأخبار. ضبطتُ المذياع على محطة تبث الموسيقا الكلاسيكية، وملتُ إلى الخلف في مقعدي، وتركت الألوان تغمرني. بعدها، شممت رائحة الدخان. وعندما انعطف والدي يسارًا في شارع 62، رأيت عمودًا رماديًّا يرتفع من بعيد. اعتقدتُ بادئ الأمر أنها سيارة مشتعلة أو خزان غاز البروبان، لكن مع اقترابنا، أدركتُ أن الدخان يتصاعد من المتجر.

ركبنا المترو من محطة كيكابو، فرأينا متجر علاء الدين للدونات يحترق مثل كومة من القش. وفي حركة مفاجئة، قفز والدي من العربة وأخرج هاتفه

الخلوي، في حين عبر السيد ميليينديز مدير متجر سفن - إلفن الشارع ركضًا نحونا. قال: «اتصلت بالنجدة». وأخبرنا أنه كان يتصفح سجل الحسابات الخاص به عندما سمع صوت إطارات مسرعة. لم يلفت الأمر انتباهه حتى جاءت رائحة الدخان من المدخل؛ مزيج من البنزين والرماد والبلاستيك الذائب وشراب الكراميل. وعلى الرغم من مرور سنوات عديدة على الحادث، فإن أية نفحة من دخان، حتى لو كانت من حفل شواء على شاطئ البحر، لا تزال تستحضر ذكرياتي عن الحريق المتعمد. كنت أقف بجانب والدي يومها، وشاهدتُ ألسنة اللهب تلتهم لافتة المتجر حتى تشقق الإطار الزجاجي. ومن مسافة بعيدة، صدح صوت صافرات الإنذار، وانتهى بهدير يصم الآذان بينما كان رجال الإطفاء يتجهون نحو المكان. وتحت رذاذ خراطيمهم، تحول الدخان إلى أبيض داكن؛ مما جعل عينيّ تدمعان، وفتحتي أنفي تحترقان.

عثر ضابط مبتدئ من إدارة إطفاء مقاطعة سان برناردينو على سبب الحريق: طوبة ملفوفة في قطعة قماش غُمرت في مادة سريعة الاشتعال. قال الضابط: «محلية الصنع».

أجاب والدي: «أعرف ذلك». قال إنه كان قد رأى هذه الأشياء من قبل في احتجاجات الدار البيضاء عام 1981. وهز رأسه في ذهول. أحسبه قد أدرك توًّا أنه قطع 10 آلاف كم تقريبًا بحثًا عن الأمان، ليكتشف أنه لم يكن آمنًا على الإطلاق.

عندما عدنا إلى المنزل، وجدنا والدتي مثلما تركناها في الساعة السادسة صباحًا، جالسة على الأريكة وساقها مثنية تحتها، وتشاهد قناة سي إن إن، حيث كانت لا تزال لقطات احتراق البرجين التوأمين في نيويورك تُعرض بلا توقف. «ماذا حدث؟» سألت وهي تنهض.

أخبرها والدي بما حدث.

تركتهما وقصدت غرفة نومي، حيث خلعت القميص والجينز اللذين تفوح منهما رائحة الدخان. ولكن حتى بعد الاستحمام، لم أستطع التخلص من الرائحة التي علقت بشعري. ومن غرفة المعيشة، جاءت الموسيقى التصويرية المعتادة في حياتي؛ كان والديّ يتجادلان. قالت أمي: «يجب أن نعود».

«نعود إلى أين؟».

«الوطن. الدار البيضاء».

«لا يمكننا ذلك يا مريم».

«بلْ يمكننا». أصرت والدتي على أن المغرب قد تغير الآن، لكن والدي لم يعتقد أن هذا صحيح. إلى جانب ذلك، كان قد أحب موجافي، ولم يتخيل العيش في مدينة كبيرة مثل الدار البيضاء مجدّدًا.

«سننتقل إلى مراكش، لطالما أحببتها أنت».

«لكن ماذا عن نورا؟ إنها لا تزال في المدرسة. لا، لا يمكننا العودة».

وحتى بعد أن عدتُ إلى غرفة المعيشة، واصلا التحدث عني كما لو أنني لست هناك، تجادلا لأيام. وكلما فعلا ذلك، لجأت والدتي إلى مصحفها. كانت تجد فيه العزاء بعد الهجمات، حيث راحت تقرؤه لتهدئة نفسها كل صباح بعد الاستماع إلى سيل المآسي في الأخبار. وعلى مائدة العشاء، غالبًا ما كانت تقتبس من القرآن الكريم بنطقها العربي المثالي، الذي لم يحلم أي منا حتى بتقليده. بدأت بالصلاة مرة أخرى، مع أنها لم تظهر الكثير من الاهتمام بالدين سابقًا؛ لذا فاجأت هذه التغييرات والدي. عندما عاد إلى المنزل ذات مساء، وجد كل زجاجات الجعة ملقاة في القمامة، فخلد إلى الفراش من دون التحدث إليها.

وهكذا بدأت فترة ثمانية أشهر، كنت أشبهها أحيانًا بالحرب الباردة. في كل صباح، كانت والدتي تأخذ الجعة من الثلاجة، وتسكبها في الحوض، وترمي الزجاجات في القمامة، وفي كل مساء كان والدي يحضر ستّ زجاجات أخرى إلى المنزل. وعندما وضع ثلاجة منفصلة في المرأب، ملأتها هي باللحم والخضراوات. اشتكى أبي قائلًا إنه ليس حرًا في منزله؛ فقالت إنها لا تشعر بالأمان فيه. ولما أصبح يغيب كثيرًا عن المنزل، التحقت هي بدروس الكاراتيه.

انخفضت حدة الخلافات بينهما بعد وصول تسوية تأمين الحريق، واستخدم والدي المال لشراء مطعم قديم أسماه *المخزن*. أي اسم سيكون أقرب إلى الثقافة الأمريكية من هذا؟ وعدها أبي: «كل شيء سيكون على ما يرام الآن. وسترين». هكذا وضعت الحرب الباردة أوزارها، وعاد السلام غير المستقر إلى منزلنا. بيد أن إحدى النتائج السلبية للصراع الذي دام قرابة العام هو أنني لم أعد أستطيع العيش في ذلك المنزل؛ إذ جعلت الشجارات المستمرة بين والديّ الأمر مستحيلًا. فكرت في الالتحاق بالجامعة كملاذ آمن، كنت بحاجة ماسة إلى الرحيل.

عندما عدتُ بصينية القهوة، كانت والدتي قد أعادت الصورة إلى رف الموقد، ووضعتها بين صورة ملونة لسلمى وطارق في حفل زفافهما، وأخرى

لبصمات أيدي التوأمين. وأخرجت صورة لوالدي من إطارها، ووضعتها على طاولة القهوة أمام كولمان. سألتها والدتي: «هل لديكِ أطفال أيتها المحققة؟».

قال كولمان «نعم، صبي يدعى مايلز».

«سلمى طبيبة أسنان. إنها رائعة مع الأطفال».

صبّتْ فنجان قهوة للمحققة: «أسميتِه مايلز تيمنًا بمايلز ديفيس؟».

«لا، بل مايلز أيكن، فزوجي يحب كرة السلة».

رشفت كولمان من قهوتها، وانتظرت أن أجلس قبل أن تفتح دفتر ملاحظاتها: «سيدة غراوي، أكد تشريح الجثة أن زوجك كان ضحية حادث اصطدام وهرب بمركبة. لقد أصيب بجروح متعددة، من الاصطدام المباشر بالجانب الأيمن من جسده، والاصطدام بالرصيف بعد ذلك. كان لديه كسور في الفخذ، وخمس ضلوع، وعانى من ثقب في الرئة، ونزيف في الرأس. يبدو أنه كان يعبر الطريق السريع 62 في تشيمهويفي، متجهًا إلى حيث أوقف سيارته، عندما صدمته سيارة أو شاحنة متجهة شرقًا على الطريق السريع، لتسقطه على الجانب الشمالي من تشيمهويفي. وقال الطبيب الشرعي إن مدى إصاباته توحي بأنه توفي على الفور تقريبًا، وقدر وقت الوفاة حوالي التاسعة والنصف مساءً في 28 أبريل».

بات المشهد الذي تخيلته، والذي عجزت عن إيقافه كلما فكرت في الحادث، أكثر وضوحًا. ومع ذلك، فإن التفاصيل الجديدة عمقت حزني؛ إذ لم أكن أعرف أنه سقط على رأسه أو أن رئته قد ثُقبت. كم من الوقت استغرق حتى فارق الحياة؟ وهل حسب الوقت بأنفاسه منتظرًا أن يأتي شخص ما لنجدته؟ تملكني ألم جديد، إلى درجة أنني رغبت في الصراخ.

صمتت كولمان. أظن أنها كانت تمنحنا الوقت لاستيعاب الأخبار. وعند الطرف الآخر من الأريكة، رفعت القطة أنفها في الهواء، وكأنها تشم رائحة ما ثم خرجت من غرفة المعيشة تلاحقها.

همست والدتي: «يا لطيف!».

قالت كولمان: «يجدر بي أن أذكر أيضًا أن دورية الطريق السريع ستتولى مهامها عادةً في هذه المرحلة، لكني أمضيتُ ثلاثة أيام بالفعل في التحقيق، وقد سألوا عما إذا كان بإمكاننا متابعة الأمر».

نظرت والدتي إلي، وعلى محياها علامات الارتياح؛ فلن تضطر إلى التحدث مع شخص جديد. أخرجت كولمان ورقة أخرى من ملفها، ولاحظتُ أنها قضمت أظافرها تمامًا. لقد كانت عادة قاومتها طوال المدرسة الابتدائية، ولم أتغلب عليها إلا في المرحلة الإعدادية. تذكرتُ طعم الطلاء الذي استخدمته لأجبر نفسي على الكف عن قضم أظافري؛ كان قويًّا ومرًّا.

قالت كولمان: «لدي أيضًا تقرير أولي من وحدة مسرح الجريمة».

شعرتُ بفيض من الأمل؛ إذ علمتني البرامج التلفزيونية أنه يجري اكتشاف أدلة على مسرح الجريمة، وكذلك عند تشريح الجثة، وفي تقرير الطب الشرعي. توقعتُ أن أسمع عن بصمات الأصابع، أو الحمض النووي، أو آثار نعال، أو عقب سيجارة قُذف بلا مبالاة من النافذة، أو آثار الإطارات على الأسفلت، أو خصلة شعر جرى استعادتها بملقط من فتحة الصرف. بيد أن كولمان تحدثت عن طلاء السيارة. «استعاد الطب الشرعي رقائق طلاء مجهرية من ملابس الضحية، على الأرجح من السيارة التي صدمته. ويبدو أنها باللون الأبيض».

سألتها: «ما مدى شيوع اللون الأبيض؟».

«أخشى أنه شائع جدًّا. إنه ينتشر في معظم موديلات السيارات».

«الأمر يشبه البحث عن إبرة في كومة قش إذًا».

استرخت ملامح وجه كولمان، قالت: «ما كنتُ لأصل إلى هذا الحد. علينا انتظار تقرير المختبر الكامل. بمجرد فحص الرقائق، سيكونون قادرين على تأكيد اللون، وربما يكشف هذا المزيد عن مصدرها».

سألتها والدتي: «ماذا عن الشهود؟ لعل أحدهم قد رأى شيئًا ما».

قالت، وهي تشير إلى الصورة التي أخرجتها والدتي من إطارها، وتركتها على طاولة القهوة: «لا، يا سيدة غراوي. لقد مشّطنا المنازل والشركات بالقرب من مسرح الجريمة، لكننا لم نعثر على أي شخص رأى أي شيء. سأستمر في البحث، وسأنشر طلبًا للمساعدة في صحيفة هاي ديزرت ستار. هذا هو الغرض من الصورة».

تذكرتُ كيف تحدث جيريمي جوريكي بإيجابية عن هذه المحققة، وبالفعل، بدت ودودة جدًّا، وكان من اللطيف أن تأتي إلى المنزل عندما اتصلت بمركز الشرطة للوقوف على آخر المستجدات. ومع ذلك، بدا أن

التحقيق لم يحرز تقدمًا حقيقيًّا. لقد مرت ثلاثة أيام، وهي كافية حتى يخفي القاتل سيارته ويعيد طلاءها أو يتخلص منها. اللعنة، لعله فعل الثلاثة معًا. غمرتني موجة حزن عارمة، وشعرت للحظة أنني عاجزة عن الكلام. لا شيء يبدو منطقيًّا بشأن الحادث. لقد اجتاز والدي الكوارث بسلام عادة؛ فقد نقلته احتجاجات الدار البيضاء إلى كاليفورنيا، وأتاح له الحريق المتعمد شراء مطعم جديد، لكن الكوارث نالت منه أخيرًا.

أغلقت كولمان دفتر ملاحظاتها، ووضعت قلمها في جيب قميصها. قالت: «شكرًا لك على الصورة».

مدت والدتي يدها إلى الغلّاية: «المزيد من القهوة؟».

«لا، شكرًا لك يا سيدة غراوي. يجدر بي أن أغادر».

سألتها: «هل يجب أن أتصل بك مرة أخرى غدًا؟».

«يمكنك ذلك. لكنني سأتصل بك إذا كان لدي أية أخبار».

رافقتُ المحققة نحو الباب وراقبتها، وهي تغادر الممر الخاص بسيارتها. أثار هبوب الرياح الغبار عبر الطريق. ومن مسافة بعيدة، سمعت عواء ذئب البراري.

إدريس

كان ذلك في يوم السبت، قبل أسبوع من الاختبارات النهائية. شعرتُ بحاجة إلى هدنة من دراسة كانت وشوبنهاور، لذلك ذهبت لتناول القهوة مع صديقي إبراهيم في محل حلويات صغير وسط مدينة الدار البيضاء، بالقرب من حديقة جامعة الدول العربية. كنتُ قد التقيت إبراهيم قبل عامين، في حفل نشر النسخة الشتوية من مجلة لا مالف الناطقة بالفرنسية؛ فكلانا كان لديه قصائد في هذا العدد. بدت قصيدتي رائعة، لا أمانع في قول ذلك الآن، بيد أن قصيدته كانت تنبئ بشاعر كبير. وقد نشر المزيد منها، وكان يفكر في عمل مجموعة شعرية. بالنسبة لي، لم يكن الشعر سوى هواية، إذ كان ذهني منشغلًا بأمور أخرى: لقد رُزقنا أنا ومريم بطفلة، وكنتُ بحاجة إلى إنهاء دراستي العليا إذا ما أردت الحصول على وظيفة تدريس أفضل.

بالكاد أذكر ما تحدثت عنه أنا وإبراهيم يومئذٍ. كان يومًا عاديًا، مع أن ذلك العام لم يكن عاديًا قط؛ فالحرب في الصحراء الغربية تقترب من عامها السادس، وقد ارتفع سعر الدقيق والزيت بشكل كارثي، ودعت النقابات العمالية إلى الإضراب العام. ولم يمر أسبوع في ذلك الربيع من دون أن ينظم أحد احتجاجًا ضد الحكومة. لكني أتذكر أننا لم نتحدث عن السياسة، فقد كنا منشغلين بالاختبارات، ونأمل أن نجتاز جميع المواد من الدور الأول حتى نستمتع بقية الصيف. شربنا قهوتنا، وكنا نطلبها سوداء ثم نتبعها بالماء. ودّعنا بعضنا خارج المقهى، وسلك كل منا طريقه. أدركتُ فجأة أن الساعة الواحدة والنصف بالفعل، وأنني قد تأخرت على الغداء، وزوجتي تكره ذلك. كنت أسير في شارع غورو عندما نادتني امرأة عجوز من نافذة شقة عليا: «ماذا تفعل يا بني؟» سألت وهي تغلق مصاريعها، وأضافت: «عُد إلى بيتك، هناك قلاقل».

سألتها: «أين يا عمة؟».

أشارت نحو شارع الحسن الأول. راودني شك حيال ما قالته العجوز، فدخلتُ البناية التالية وصعدت إلى السطح لأرى بنفسي. ولما وقفت بين هوائيات التلفاز، رأيت دبابات الجيش تسير في الشارع في صف، متجهة نحو حشد من المتظاهرين عند التقاطع. من بعيد، تصاعدت أعمدة من الدخان الأسود في السماء. غمرني خوف رهيب مألوف لديّ. كيف سأعود الى المنزل؟ فكرتُ أنه ربما بإمكاني العودة إلى حديقة جامعة الدول العربية ومحاولة ركوب حافلة أو العثور على سيارة أجرة. جلتُ السطح لأرى ما إذا

كان شارع الجزائر لا يزال آمنًا، لكنني وجدت سيارة جيب ذات خطوط حمراء وخضراء متوقفة على الرصيف. انطلقت السيارة فجأة وصدمت صبيين كانا يهربان بعيدًا عن الشارع، ثم انحرفت عن مسارها وطاردت مراهقة أخرى لا يزيد عمرها عن خمسة عشر أو ستة عشر عامًا بأي حال. من الطرف الآخر من الشارع، اقتربت منها سيارة شرطة، وحاصرتها بجوار صيدلية عليها لافتة نيون على شكل هلال. ثم قفز شرطي من الجيب وبدأ بضربها بهراوة، فسالت الدماء من رأسها بقوة.

قلتُ لنفسي، قُضي الأمر؛ هذه نهاية النظام. كيف سيصمد وهو يقتل أبناءه في رابعة النهار؟ ولكن بمجرد أن تبلورت الفكرة في ذهني، رصدني أحد رجال الشرطة على السطح، فرفع بندقيته وصوّبها. وحتى من ارتفاع أربعة طوابق، كان بإمكاني رؤية فوهة البندقية مصوبة نحوي. انهرتُ على ركبتيّ بعد أدركت فقط من صوت الصفير أن الرصاصة قد أخطأتني. ارتكنتُ على الحائط، وانتظرت دوي أحذية الشرطة على السلم؛ انتظرت طوال فترة بعد الظهر. وحتى مع حلول الليل، انتظرت. كنت ما أزال أسمع صافرات سيارات الشرطة، وأصوات الإطارات المسرعة وانكسار الزجاج وصراخ الناس وهبوب الريح على النخيل.

جلب الفجر معه صمتًا غريبًا. نزلتُ السلّم، ومشيت عبر الردهة الفارغة، وعبرتُ الشارع بمحلاته المحطمة، ثم مررتُ بالجثة الملطخة بالدماء التي ما تزال ملقاة تحت لافتة النيون الوامضة، وأخيرًا ذهبت إلى المنزل. وجدت مريم وحيدة يكاد يقتلها القلق. لقد بقيت طوال الليل تسترق السمع هي الأخرى، على أمل أن تسمع خطى، لكنها كانت تخشى أن تكون الخطى الخطأ. كانت تجهل ما إذا كنت حيًا أم ميتًا، وقد خشيت الذهاب إلى الشرطة. إذا جرى اعتقالي، فإن سؤال الشرطة عني لن يفيد؛ إذ سينكرون وجودي لديهم. وإذا لم أكن معتقلًا، فقد يُستخدم السؤال عني كدليل على أنني شاركت في الاحتجاجات. قلتُ، وأنا أمسك بيدها، وأبذل قصارى جهدي لتهدئتها: «لم أُعتقل. أنا بخير».

ولكن عندما أخبرتها عن الشرطي الذي صوب بندقيته نحوي، أصابها الذعر.

نظرت إلى الباب وقالت: «هل أنت متأكد من أن أحدًا لم يتبعك؟».

قلت: «لا، لا أعتقد ذلك».

ومع ذلك، لم يتبدد خوفنا. وبحلول العصر، سمعنا من أخت إبراهيم أنه قد اعتُقل. ولم يعرف أحد مكان احتجازه. كما جرى اعتقال أصدقائنا في دائرة طلاب الدراسات العليا. لقد كانت مسألة وقت قبل أن يضطروا إلى البوح بأسماء المتواطئين المفترضين. تحول ارتياح مريم لأنني نجوت من نفس المصير إلى نذر؛ لن تمر بهذه المحنة مرة أخرى. كان شقيقها الأكبر يعيش في مدينة كولفر، وقد عرض ذات مرة رعايتنا للحصول على تأشيرات دخول إلى الولايات المتحدة.

قالت إنها ترغب في الرحيل.

هبطنا في مطار لوس أنجلوس الدولي بعد بضعة أشهر، لنكتشف فقط أن الولاية الذهبية تمر بمرحلة من الركود. بعد أن تركت الكلية، عملت زوجتي كموظفة استقبال في مكتب طبيب في الدار البيضاء، ولكن هنا في كاليفورنيا لم يكن أحد يستأجر موظفين، لا سيما مهاجرة جديدة لا تتقن اللغة الإنجليزية. وبالنسبة لي، كنتُ طالب دراسات عليا في الفلسفة، وكل ما أعرفه هو كيف أعبر عن سارتر أو ليفيناس. لكني أنحدر من عائلة ممتدة من الخبازين؛ إذ أدار والدي وجدي أفران الحي طوال حياتهما، وعندما سمعت من شقيق مريم عن متجر للدونات في موجافي معروض للبيع، قلت لها حري بنا محاولة شرائه.

سألتني مريم متعجبة: «أنت؟». لم تصدق أن طالب الدراسات العليا الذي لطالما تحدث بحماس شديد عن محنة العمال الذين يعملون تحت حذاء الرأسماليين قد أراد فجأة أن يبدأ مشروعًا تجاريًا. أخبرتها أنه ليس لدينا ما نخسره سوى المرتبة التي كنا ننام عليها منذ وصولنا. بالإضافة إلى ذلك، لستُ أنا من رغب بشدة بالانتقال إلى هنا. كان علينا أن نفعل شيئًا.

قبل مغادرتنا الدار البيضاء، بعنا سيارتي ومجوهراتها وجميع متعلقاتنا، لكن ذلك لم يضِف سوى بضعة آلاف من الدولارات. لذا، اقترضنا بقية المبلغ من شقيقها وأنفقناه برمته على المتجر، وقد أطلقنا عليه اسم علاء الدين دوناتس. أعدتُ طلاء الجدران، وأصلحت الكراسي المتهالكة، واستبدلت مصابيح الإنارة. وفي القائمة الموجودة على المنضدة، أُدرجت بعض العناصر التي لم أكن متأكدًا من أنني أستطيع تقديمها؛ مثل فطائر التفاح، ولفائف القرفة، ومخالب الدب، فمزقتها وقررت بيع الكعك والقهوة فقط. لم يكن الدونات يختلف كثيرًا عن فطائر السفنج المغربية، وقد عملتُ على العجين حتى أصبح طريًا مثل الذي عرفته في صغري.

في السنة الأولى، نمتُ أنا ومريم وسلمى سويًا على مرتبة هوائية وضعناها في غرفة الغسيل. وقد تولّيت إعداد الكعك ومحاسبة الزبائن، في

حين تولّت مريم التنظيف وإمساك الدفاتر. ذهب كل قرش لم يُصرف على الفواتير أو التموين إلى شقيقها مقابل المال الذي اقترضناه منه. وفي أيام الجمعة، كنا نجول الأسواق الكبرى ومراكز الشرطة والمدارس المحلية ومواقع البناء، حاملين عينات في صناديق وردية تحمل شعار متجرنا. امتدح الأشخاص الذين تذوقوا كعك العسل متجرنا أمام أصدقائهم، فذاع صيتنا، وبدأ المتجر يحقق أرباحًا، مما مكننا من الانتقال إلى شقة لائقة. بعدها بثلاث سنوات، تمكنا من الانتقال إلى منزل كبير. ثم ولدت نورا، فتركت مريم المتجر لتعتني بالفتيات. كانت هذه حكاية هجرتنا إلى هذا البلد.

إفرين

كانت مارسيلا تنتظرني، وقد نشرت الصحيفة على طاولة المطبخ. اعتقدتُ في البداية أنها *لا برينسا*، التي تشتريها من سوق كاسا أحيانًا، لكن عندما جلست قبالتها لتناول العشاء، أدركت أنها صحيفة هاي ديزرت ستار. أبقيتُ عيني على طعامي؛ إذ أردت فقط الاستمتاع بطبق تورتا دي كارنيتاس. كنتُ أستحق ذلك، بعد اليوم العصيب الذي مررتُ به. لقد تهتُ أنا وإنريكي لمدة ساعة في متجر لاندرز، في محاولة للعثور على اللحاف المزدوج الذي يفترض بنا أن ننظفه، وعندما وجدناه أخيرًا، كانت سيدة المنزل غاضبة منا، وتتبعنا من غرفة إلى أخرى أثناء غسل السجاد بالصابون، وأجبرتنا على تنظيف نفس البقع القذرة، مع أنها قديمة ولن تختفي. ثم حاولت استخدام قسيمة للدفع، واضطر إنريكي لإخبارها ثلاث مرات أن القسائم مخصصة لتنظيف السجاد من مغسلة روب لتنظيف السجاجيد، في حين أننا نعمل لدى مغسلة رون للتنظيف بالبخار والتنجيد. وقد تسبب التأخير في تأجيل جميع المواعيد الأخرى، وعندما عدنا إلى الشاحنة مساءً، اتهمنا رون بالإهمال والغباء والكسل. وكل ما أريده الآن هو بعض السلام.

لكن زوجتي دفعت الصحيفة نحوي.

قلت لها: «لا أجيد اللغة الإنجليزية»، وقد بدا الغضب في صوتي، لكني في الحقيقة أستطيع قراءة بعضها، بما يكفي على الأقل لملء طلب وظيفة أو فهم الملاحظات المثبتة على لوح الفلين في البقالة. كانت هناك إعلانات؛ *بيت للإيجار، سيارة للبيع، مطلوب حاجب للعمل*.

قالت وهي تنقر بإصبع السبابة على مقال للفت انتباهي إليه: «الأمر يتعلق بالحادث». أخذت مارسيلا دورة في اللغة الإنجليزية قبل بضع سنوات، قبل أن يولد الأطفال، والآن بعد أن ذهبوا إلى المدرسة، باتت ترافقهم إلى المكتبة أيام السبت وتجلس بجانبهم أثناء القراءة، لذا تتحسن لغتها يومًا بعد الآخر. وهي من يتحدث إلى المالك عند حدوث تسرب في الحمام أو إذا تأخرنا في دفع الإيجار. أضافت: «مكتوب هنا أن الشرطة تطلب مساعدة الجمهور في القضية. انظري».

قلت: «ليس معي نظارة القراءة».

أخرجت مارسيلا النظارة من جيب المريلة ووضعتها أمامي على المنضدة. إبان هذه الأحداث، كانت تعمل في مركز لرعاية كبار السن، حيث تحمم وتنظف الأشخاص الذين نسوا كيفية فعل ذلك لأنفسهم. لقد غيرتها هذه الوظيفة، فباتت تتمتع بصبر الجبال.

نحيتُ النظارة جانبًا وقلت: «لاحقًا»، ثم أخذت قضمة من شطيرتي. لم يكن طعمها مستساغًا. على الرغم من أنها لُفت بورق الألمنيوم وبقيت على الموقد الدافئ، إلا أن خبز البوليللو امتص الصلصة وأصبح اللحم جافًا. بدا لي أن إحباطات اليوم لن تنتهي أبدًا. «ما هذا؟» سألتها.

«إنهم يبحثون عن شهود».

ما انفككتُ أخبرها أنني لست شاهدة؛ فلم أرَ الحادث. كل ما رأيته هو سقوط الرجل على الأرض، والأمران ليسا سيّان. فتحت خبز البوليللو، وأخرجت البصل والفلفل الحار، ثم قطعتُ اللحم بسكين. سألتها: «هل استخدمتِ لحم الخنزير؟».

«مذكور هنا أن الضحية عاش في وادي يوكا».

«تعلمين أنني لا أحب استخدام اللحم البقري مع الشطائر؛ فمذاقه مختلف».

«كان أبًا وجدًا، ويبلغ من العمر 61 عامًا».

قالت هذا فقط لتجعلني أنظر إلى الصحيفة، فوضعت نظارتي أخيرًا على عينيّ. في الصورة، رجل عجوز بجبين عريض وشعر أبيض مجعد يتمدد على كرسي طويل، ويبتسم لشخص خارج الإطار. كان على حجره صحن ورقي فيه منديل مجعد وقطعة من كعك الشوكولاتة. إنها نوع الصورة التي قد تلتقطها في الكريسماس أو حفل عيد ميلاد، عندما يمتلئ المنزل بالعائلة والأصدقاء والجميع يرقصون ويقضون وقتًا ممتعًا. وقد كُتب أسفل الصورة إدريس غراوي. أتذكر أنني قلت في نفسي، يا له من اسم غريب. سألتها: «من أين هو؟».

انحنت مارسيلا إلى الأمام وقرأت المقال مرة أخرى. «غير مذكور».

يستحيل أن يكون أمريكيًا، هذا ما أنا موقنة منه. لابد إذًا أنه مهاجر مثلي، فقد بدا غراوي مثل غويريو، لكنه ليس اسمًا إسبانيًا. أعدت اللحم إلى

داخل الخبز بسكيني. قلت: «هذا ليس لحم خنزير».

قالت مارسيلا: «بلى هو كذلك، لكنني أخليته من كل الدهون».

كان هذا شيئًا آخر تغير منذ أن بدأت العمل في دار رعاية المسنين؛ إذ أرادت أن نأكل أشياء «صحية». لا مزيد من طبق شحم الخنزير أثناء مشاهدة التلفاز، ولا بوظة بعد العشاء، وملعقة واحدة فقط من السكر في قهوة الصباح. والآن بعد أن أصبحت تزيل الدهون من طعامي، فلعلها كانت تحجب المتعة عن حياتي.

«هل تريدين المزيد من الصلصة؟» سألت وهي تربت على يدي. «يمكنني إضافة المزيد منها».

أخذت طبقي إلى المنضدة وأعادته بعد بضع دقائق. أكلتُ قضمة أخرى، فوجدت اللحم رطبًا الآن، لكنه لم يكن المذاق الذي أحبه بعد. إن كثيرًا من الأمور تعتمد على أشياء صغيرة؛ فلو أنني انعطفتُ يسارًا عند مفترق الطريق في ذلك الصباح، لما تأخرت أنا وإنريكي عن موعدنا الأول، ولما استشاطت سيدة المنزل غضبًا، ولحافظنا على جدولنا، ولما وبخنا رئيسنا. لكنني قدت السيارة، وقرأ إنريكي الخريطة؛ هكذا فعلنا دائمًا. عندما نظر إلى لافتات الشارع وقال، انعطفي يسارًا، انعطفت. ملحوظة صغيرة أخرى: لو كنت قد أخذت وردية السبت بدلًا من وردية ليلة الأحد في النُزل، لما عبرتُ شارع 62 ليلة الحادث، أو لمحت هذا الرجل، المدعو غراوي. أو عرفت حتى اسمه.

قالت مارسيلا: «إنهم يبحثون عن أي شخص قد يكون رأى السيارة الهاربة».

«قلت لك، لم أرَها».

«قلتِ إنها بيضاء اللون».

«بل قلتُ ربما تكون بيضاء اللون، ولكن لا يمكنني الجزم حقًا. وحتى لو كنت متيقنة، فلن أتحدث إلى الشرطة. لا يمكنني المجازفة».

إذا خُيل إليّ أن ذلك سيوقف زوجتي، فهيهات.

قالت وهي تدفع الصحيفة نحوي مرة أخرى: «حبيبتي، مذكور هنا أنه يمكنك الاتصال من دون الكشف عن هويتك، على هذا الخط الساخن».

ليتني لم أخبرها عن الحادث.

جيريمي

في نهايةورديتي في اليوم التالي، وجدت نفسي في سجن جوشوا تري لنقل سجين آخر؛ هذه المرة امرأة في منتصف العمر اتصل جارها بالشرطة عندما وجدها جالسة على سطح سقيفته تتناول المخدرات. وأثناء إنجاز الأوراق المطلوبة، ذهبت لإحضار بعض الماء من غرفة المؤن، لأجد علب الفاصوليا والحليب المجفف وأكياس الأرز والمعكرونة مكدسة في أعمدة تصل إلى السقف. وقد ألقت مصابيح السقف توهجًا متقطعًا على الأرضيات الخرسانية الرمادية، ولم أسمع سوى صوت الأبواب المعدنية التي تغلق في مكان ما في الردهة. لطالما شعرت بعدم الارتياح عند زيارتي السجن، بغض النظر عن عدد المرات التي جئت فيها. بعد ذلك، رميت الكوب الورقي في سلة المهملات وهرعت إلى مكتب الاستقبال، حيث وجدت ستراتون يحجز مشتبهًا جديدًا؛ فييرو.

دخلت المكتب، وناديت: «لوميلي».

«أجل؟».

«ما سبب توقيف هذا الرجل؟».

عدّل لوميلي نظارة القراءة على أنفه ثم نظر في ورقة أمامه، ومرر إصبعه عليها حتى وصل إلى السطر المنشود: «تهديدات إجرامية، تدمير الممتلكات، تحطيم سيارة زوجته السابقة. مذكور هنا أنها من طراز موستانغ كوبيه. حطم نوافذها، وشوه جانبيها بمضرب بيسبول، وثقب الإطارات».

«يا إلهي».

«لا بد أن شيئًا ما قد فجر غضبه». أطلق لوميلي صفيرًا، إما على سبيل الإعجاب أو استنكارًا، لا أدري أيهما. كان لوميلي نفسه قد تزوج ثلاث مرات من قبل، وهي حقيقة واجهتُ صعوبة في التوفيق بينها وبين الروايات الرومانسية المكدسة على مكتبه، التي تحمل شعار مكتبة وادي يوكا. «هل تعرفين هذا الرجل؟» سألني.

«لقد خدمنا سويًا في العراق».

اتسعت عينا لوميلي اندهاشًا.

لم أكن المجندة السابقة الوحيدة في ذلك المخفر؛ إذ كان ستراتون قد خدم في حرب الخليج، وخدم فيليجاس في البوسنة، واستُدعي أحد مرسلينا في نيو أورلينز بعد إعصار كاترينا، لكنني بطريقة ما لم أتوافق تمامًا مع الآخرين؛ فلم أخرج معهم لتناول المشروبات بعد العمل، ولم أعد توجيه رسائلهم الإلكترونية الطويلة، ولم أجد نكات فاسكو مضحكة. والآن أحد رفاقي رهن الاعتقال. كنتُ قد رأيت فييرو في اليوم السابق فقط، في حفل الشواء الذي أقامته شقيقتي. بدا بخير حينها، وراح يتجاذب أطراف الحديث مع الضيوف الآخرين، ويلعب مع الأطفال، ويغازل إحدى زميلات آشلي في العمل، وهي امرأة بشعر أحمر اللون ووجه منمش وشفتين منتفختين. وأثناء مغادرتنا، كان يضحك ويلقي النكات. لكن الآن يحدث هذا.

قال لوميلي بعد دقيقة: «سيجري نقله إلى ويست فالي».

«ألا يمكنك إبقاؤه هنا؟».

«ليس لدي مكان».

عدت إلى الردهة وتوجهت إلى مكتب الحجز، حيث كان ستراتون يرفع بصمات أصابع فييرو. بجانب الهاتف العمومي، كانت هناك قائمة بعناوين الضامنين، وتحتها صناديق ممتلئة بقفازات اللاتكس الزرقاء. وقد ثُبتت لافتة على الحائط البعيد كُتب عليها: *إذا كنت تعتقدين أنك حامل وتريدين إجراء عملية إجهاض، تحدثي إلى الممرضة المسؤولة.* «هل تتناول أي أدوية؟» سأله ستراتون، وناوله منديلًا مبللًا لمسح الحبر.

«من أجل ماذا؟».

«السكري، أمراض القلب، أشياء من هذا القبيل. دواء ما يتعين عليك أن تتناوله».

«لا يا سيدي». تدلت خصلة من شعر فييرو الدهني على وجهه، فأبعدها مثل غواص طفا أخيرًا على السطح، والتقت أعيننا. قال «مرحبًا»، وابتسم.

«ما الخطب بحق الله يا رجل؟».

«إنها تصنع مشكلة كبيرة من لا شيء».

«لا شيء؟ هكذا تظن؟».

«جوريكي، هل تعرفين هذا الرجل؟» سأل ستراتون.

«أحيانًا أتمنى لو لم أكن كذلك».

«إنها سيارتي. ولا يوجد قانون يمنعني من التخلص منها». تحدث وكأنها حقيقة لا جدال فيها وسرعان ما سيراها كل من حوله أيضًا. كم بات مختلفًا الآن عن الرجل - أو الصبي - الذي كان عليه عندما التقينا في معسكر التدريب؛ مركز تجنيد مشاة البحرية في سان دييغو. كنا قد وصلنا على متن حافلة، ونحن ما نزال نشعر بالنعاس، ونحلم بالمجد، عندما لفت صوت مسؤول التدريب انتباهنا إلى اليوم الجديد. قال: من الآن فصاعدًا، الكلمات الوحيدة التي ستخرج من أفواهكم هي نعم يا سيدي أو لا يا سيدي. مفهوم؟

اصطففنا على المنصة وأُلقيت علينا الأوامر؛ قفوا وأقدامكم بزاوية 45 درجة، وانظروا أمامكم، واقرأوا القانون الموحد للقضاء العسكري. وأثناء سيرنا نحو البناية هبت ريح وطارت أوراقي من يدي، فركضت وراءها. وقد سقطت ورقة على صدر فييرو فأعادها إليّ. لهذا، صرخ علينا مسؤول التدريب كي نعود إلى الصف، وكان صوته مرتفعًا للغاية لدرجة أنه بدا مثل ديكٍ أُصيب بالجنون. هل صرخ فحسب كي يحصل على دفعة أخرى من مشاة البحرية مثل هذين الغبيين هنا؟ ماذا فعل بحق الله؟ كيف يفترض به أن يجعل منا مشاة بحرية؟

التزمتُ الصمت، فقد بدت صرخات مسؤول التدريب مثل طعنات في الصدر. حينئذٍ، تملكتني رغبة جامحة في الركض نحو الحافلة، والعودة إلى المنزل في فالي فيو، بأجوائها الهادئة والمريحة. لكن فييرو تلقى الصراخ برحابة صدر، وقد ثبّت عينيه الغاضبتين على شيء بعيد. في تلك الليلة الأولى، أجبرنا على ترتيب الأسرّة عدة مرات حتى يتمكن الجميع من فعلها في أقل من دقيقة واحدة، وقد شعرت بأنني ملزمة بالاعتذار له لإيقاعه في متاعب مع مسؤول التدريب، لكن فييرو هز كتفيه بلا مبالاة وقال إنه معتاد على ذلك من والده. وعندما اكتشفنا أن كلينا ينحدر من مدينتين صغيرتين تفصل بينهما ثلاثون كم فقط في موهافي، كان ذلك كافيًا كي تنشأ بيننا صداقة بطريقة عفوية كأي مراهقين في الثامنة عشرة وبعيدين عن الوطن. وحتى عندما أصبحت الأمور صعبة، حين ألقى المدربون قبعاتهم في وجوهنا أو نعتونا بالوضيعين والشواذ والمتملقين، تلقى فييرو الإساءة دون شكوى. لكن كل هذا كان قبل معسكر التقدم في الرمادي.

عندما عدنا من الحرب، بعد حوالي خمس سنوات، اختفى ضبط النفس؛ إذ أصبح ثرثارًا ومخادعًا ومتغطرسًا. أتذكر الخروج معه للشرب في حانة جوشوا تري، بعد أسابيع قليلة من عودتنا إلى الوطن، ولم يتوقف عن الكلام. كانت ليلة باردة في يناير، وبدا أن الثلوج ستتساقط. ولكن عندما غادرنا، كنا نرتدي قمصانًا قصيرة الأكمام تصلح لفترة ما بعد الظهر. لم أشعر بالبرد وقتها، لكنني رحتُ أرتجف لدرجة أنني أسقطتُ مفاتيح سيارتي. جثوتُ على ركبتي لأبحث عنها في التراب حين أعمتني المصابيح الأمامية لسيارة العمدة. فشلت في اختبار التوازن، لكن فييرو بدأ محادثة مع الضابط، وأخبره أننا كنا في العراق، وسأله عما إذا كان بوسعه إخلاء سبيلي بتحذير ووعد بأنني سأتصل بسيارة أجرة. كان يجدر بي أن أكون ممتنة عندما وافق الضابط، ومع ذلك لم أشعر إلا بالغضب، ولا أعرف السبب. شيء ما بشأن هذا الشرطي، بشعره الناعم، وعينيه المشفقتين، وبطنه المترهل، جعلني أرغب في لكمه. لم يخطر ببالي قط أن الحال سينتهي بي شخصيًا كشرطية، أو أن فييرو سيدخل السجن.

قاد ستراتون فييرو إلى زنزانة الحجز وأغلق الأبواب. لقد جرى طلاء القضبان المعدنية مؤخرًا باللون الأزرق المبهج وقد وقفت أمامها أراقبه. لم أكن أعرف كيف أساعده، كيف أنهي هذه الفوضى التي أحدثتها. قال بابتسامة: «لا تقلقي، سينتهي هذا قريبًا. وفي هذه الأثناء، يجب أن ألتقي بنائب غوريكي، كلهم مسؤولون حمقى».

«أجل، استمتع بالإقامة، أيها الأحمق. هذه آخر مرة أراك فيها هنا».

نورا

بعد ذلك، حان دوري. وقفتُ في الضوء الرمادي لغرفة المشاهدة، لكني أبقيت نظري بعيدًا حتى اللحظة الأخيرة. ما إن أنظر إلى التابوت، ستصبح وفاة والدي حقيقية وغير قابلة للتغيير. وسيتعين عليّ أن أقبلها. كان النعش مصنوعًا من الخشب المصقول، ولكنه خلا من أي تصميمات أو زخارف، وبداخله كفن أبيض يغطي جسد والدي. كان وجهه شاحبًا، وثمة كدمات على خده الأيمن، وفمه مطبق بإحكام. همستُ قائلة: «بمَ أردت أن تخبرني في ذلك اليوم؟». نادرًا ما اتصل بي في منتصف يوم عمل، ولكن لم يكن من النادر أن يسبب لي القلق. بدأ حجم خسارتي يتكشف أمامي في تلك الغرفة الخالية من الهواء، أثناء تحدث رجال المشرحة خلفي بأصوات خافتة. وقفتُ بجانب التابوت والألم يعتصرني حتى حان وقت المغادرة.

وفي الخارج، كانت الشمس ساطعة لدرجة أنني اضطررت إلى حماية عينيّ بيدي. وقد استقرت العصافير على شجرة الكينا عند سور ساحة توقف السيارات. وقف رجل يرتدي حلة بنية بجانب عربة الموتى، التي انفتحت أبوابها الخلفية مثل فكيّ وحش جائع. وكانت شقيقتي وعائلتها في سيارتهم بالفعل، ولكن ظلت والدتي تنتظرني بجانب سيارتي. وعندما وضعت مفتاحي في مشعل المحرك، انطلقت موسيقى من الإذاعة الكلاسيكية، لتستبدل الصمت بأصوات الكمان، فأطفأتها.

قالت والدتي فجأة: «ليس من المفترض أن تسير الأمور هكذا».

بالنسبة لوالدتي، لم تكن الأمور قط مثلما يجب أن تكون. لقد غادرت بلدها مع عائلتها، لكنها ظلت تتوق إلى كل شيء لم تستطع إحضاره معها. إنها تشتاق إلى بيتها القديم، وأصدقاء طفولتها، وصوت أذان الفجر. ومهما بلغ الإسراف في إعداد أي وجبة، فقد شعرت دائمًا أن ثمة مكونًا ناقصًا أو أن النكهة غير جيدة. استدعى زفاف شقيقتي نوبات من الحنين إلى الماضي حوّلت منزلنا إلى بازار مليء بنقوش الحناء والأحزمة المطرزة والصواني النحاسية ونقالة لحمل العروس والعريس. لقد اضطرت والدتي إلى ترك العديد من التقاليد وراءها، وبمرور الزمن، زاد حنينها إليها.

وقد فعلت ذلك حتى في الموت؛ إذ شعرت أننا نتعامل مع الجنازة على نحو خاطئ. كانت مذعورة من حقيقة أن جثة والدي بقيت في المشرحة لمدة

أربعة أيام قبل أن نتسلّمها. لم تنفك تقول إن علينا التعجيل بالدفن، بيد أنه لم يكن بيدنا أنا أو سلمى فعل أي شيء بشأن ذلك. لقد اضطررنا لانتظار تشريح الجثة وإتمام الأوراق المطلوبة. ولما وصلنا إلى المشرحة في ذلك الصباح، تفاجأت والدتي من وجود ثلاثة موظفين فقط في انتظارنا.

سألتها: «كيف يفترض أن تسير الأمور؟».

«ينبغي أن يصلوا عليه هنا في المسجد، أن يحضروه إلى الداخل ويصلوا عليه. ثم يقود عمك وطارق... كيف تُقال، المشي إلى المقبرة؟».

«موكب الجنازة؟».

«صحيح. يقودون موكب الجنازة، ثم نذهب في اليوم التالي لزيارة القبر». رمتني بنظرة متهمة، وكأنني قد دبرت هذه الإهانة الجديدة للتقاليد. «لكنهم لا يفعلونها بهذه الطريقة هنا».

أدركتُ فجأة أنني لم أعرف من قبل أي شخص غيّبه الموت، ولم تكن لدي أي خبرة على الإطلاق في ذلك. ليس لدي ما أقارن به، على عكسها؛ إذ كانت قد فقدت والديها وخالتها قبل أن تبلغ العشرين من عمرها. وقد استقرت صورهم على خزانة الملابس في غرفة نومها بجانب صور لجميع أفراد العائلة في الدار البيضاء. «أنا آسفة يا أمي».

اهتز هاتفي لرسالة نصية من صديقتي إليز، التي كتبت تقول: *أفكر فيك اليوم*. لم يحضر أي من أصدقائي من منطقة الخليج الجنازة. كان لدى إليز حصة ولم تستطع المغادرة؛ وقد ذهبت أنيسة في رحلة صحفية إلى تكساس ولم تستطع المجيء؛ في حين كانت مارجو في مهرجان موسيقي في بيتسبرغ ولم تستطع المجيء أيضًا. حاولت ابتلاع خيبة أملي، لكنها ظلت تصعد مثل القيء. أعتقد أنني بدأت أفهم حينها كيف أن الموت تجربة كاشفة؛ فقد جعل كل من حولي يختفون. ربما كانوا خائفين من مقاطعة حزني أو قول شيء غير لائق، لذا أرسلوا بدلًا من ذلك رسائل تعزية موجزة، وسألوا عما يمكنهم فعله؛ سؤال لم أستطع الإجابة عليه.

في مرآة الرؤية الخلفية، لاحظت أن سيارة نقل الموتى قد غادرت مكانها. لم أرَ النعش وهو يُحمل داخلها، فشعرت بالذنب لذلك، وكأنني قد خذلت والدي. «كان عليهم أن ينبهونا» قلت وأنا أخرج من موقفي وأتبع سيارة شقيقتي، التي عبرت للتو البوابة المعدنية للمركز الإسلامي قبل أن تسرع نحو مدخل الطريق السريع في جادة فيرمونت. كان هذا في الأسبوع الأول من

شهر مايو، حين بدأت أشجار الجاكاراندا تزهر، وتتفتح أزهارها الغزيرة كاشفة عن لونها البنفسجي اللامع. كانت الأرصفة مكتظة بالباعة والمشاة. وعند المنحدر، أُنزلت سيارة مكشوفة من ظهر شاحنة في الحارة اليمنى، وسارت حركة المرور ببطء إلى اليسار. قالت والدتي وهي تراقب الفوضى: «كان والدك يكره الطرق السريعة. عندما انتقلنا إلى كاليفورنيا، أرادني أن أقلّه إلى كل مكان. وكنت قلقة طوال الوقت بشأن الحوادث».

«ألهذا السبب لم يرغب والدي قط أن أغادر الصحراء؟».

«لم ترُق له لوس أنجلوس. إنها تعج بالسائقين المجانين».

«أوَتعرفين ما المثير للسخرية يا أمي؟ شارع 62 مميت بثلاثة أضعاف من معظم الطرق في كاليفورنيا. لم أعرف ذلك حتى هذا الأسبوع. لذلك كان من الممكن أن نعيش في لوس أنجلوس أو أي مكان آخر وسيكون أكثر أمانًا هناك. ولما اختلطنا بهؤلاء الريفيين الحمقى».

«لكنه أحب الصحراء. كان يذهب في صباه إلى مراكش كل ربيع لزيارة جدته. وقد أحب التنزه في جوشوا تري، أنت تعرفين ذلك».

«جوشوا تري ليست وادي يوكا».

«إنها تبعد ستة عشر كم».

«وربما مائة وستين كم».

كنا بالفعل عند تقاطع لوس أنجلوس الشرقي، ونتباحث بشأن التحول إلى شارع 60. كان ذلك بعد الساعة 11 صباحًا بقليل، حيث الطريق السريع خالٍ، والسيارات تمضي مسرعة، مما جعل والدتي تمسك بمقبض الباب. وعلى حامل الأكواب، رن هاتفي برسالة جديدة، فالتقطه.

«إنكِ تقودين يا نورا».

«لا بأس». ألقيت نظرة خاطفة على الشاشة - لقد كانت رسالة تعزية أخرى، فتركت الهاتف في مكانه. حتى الآن، بعد شهر من قول ماكس لي إنه بحاجة إلى معرفة ما يريده، ما يزال قلبي ينتفض كلما تلقيت رسالة نصية. كم اشتقتُ لسماع صوته وهو يقول إنه يحبني، وأن كل شيء سيكون على ما يرام. وأعتقد أيضًا أن جزءًا مني كان يحدوه الأمل في أن يفضلني على زوجته.

«هل تريدين أن أقرأها لك؟».

«المعذرة؟ بالطبع».

أخذت والدتي الهاتف. «إنها من أندريا. *آسف لأنني لم أستطع أن أكون برفقتك اليوم، ولكن...* كيف أقرأ بقيتها؟».

«أنت بحاجة إلى فتح قفل الهاتف».

«اعطيني كلمة المرور».

«لا بأس، سأقرأها لاحقًا. نحن نقترب الآن».

تبعتُ سيارة شقيقتي إلى نصب روز هيلز التذكاري، ثم سلكنا طرقًا مشذبة تمامًا باتجاه تقاطع سيدار كريست لاون. كان ثمة صف من أشجار البلوط يحد ساحة توقف السيارات. وخلفه، انحدرت المروج إلى وادٍ، وقد غطاها اللون الأخضر الداكن، على الرغم من الجفاف الذي ابتليت به الولاية لأشهر. همست والدتي «هذا المكان كبير جدًا»، وهي تنظر إلى المقابر التي بدت وكأنها تمتد من حولنا إلى ما لا نهاية. دفنت وجهها في يديها وبدأت تبكي، فمددتُ يدي ولمست ركبتها. الشيء الغريب هو أنني كنت أبكي دائمًا بسهولة - حين أشاهد مسلسل *منزل صغير بين المروج* أو أستمع إلى أم كلثوم. الآن لدي غصّة في حلقي وصدري يؤلمني، لكن عينيّ كانتا جافتين. ماذا دهاني؟ لمَ لا أستطيع أن أحزن مثل باقي أفراد عائلتي؟

بقيتُ مع والدتي حتى باتت مستعدة للخروج من السيارة. كان طارق وسلمى ينتظران بالفعل، وقد ارتدى حلة سوداء، في حين ارتدت هي قميصًا أزرق وتنورة تغطي ساقيها. وقد حضر التوأم بالملابس التي يرتديانها عادة في حصص تلاوة القرآن. لكن والدتي غطت نفسها باللون الأبيض من رأسها حتى أخمص قدميها؛ لون الغياب والحداد. بدأنا جميعًا في التوجه إلى القبر، فقطع صوت خطواتنا الصمت المرعب لهذا الجزء من المقبرة. وفي الداخل، توقف بستانيّ عن اقتلاع الحشائش ليحدق إلينا.

استدارت سلمى نحوي. «هل تذكرت إحضار وشاح؟».

«نعم بالطبع.» فتشت محفظتي، لكنني لم أجده. «أعتقد أنني تركته في السيارة. سأعود لجلبه».

سحبت وشاحًا أزرق من حقيبتها.

سألتها: «هل أحضرت واحدًا إضافيًا؟».

«تحسبًا فقط».

كانت مجموعة صغيرة من الناس تنتظر عند القبر؛ عمتي وعمي من مدينة كولفر، واثنان من أبناء عمومتي، وبعض أصدقاء سلمى وطارق، وثلاثة أو أربعة أشخاص لم أكن أعرفهم. وقد انتظرتنا حفرة كبيرة في الأرض أيضًا. ثم وصل التابوت، فولّى الإمام وجهه شرقًا، وأحاط أذنيه بيديه، ودعا المؤمنين للصلاة. قال: الله أكبر، الله أكبر. على وقع هذه الكلمات، اجتمع عمي وطارق مع الرجال الآخرين في المقدمة، في حين بقيتُ أنا في الخلف مع والدتي وشقيقتي وجميع النسوة الأخريات.

بدأ الإمام بالقول: بسم الله الرحمن الرحيم. كان صوته جهوريًا وجميلًا، ولكن أثناء تلاوته الفاتحة، ارتفع صوته إلى حدود طبقة فا، لم أتذكر كلمات الطقوس، التي كانت مألوفة بالنسبة لي مثل التهويدة، بسهولة - فآخر مرة ذهبت فيها للصلاة كانت في العيد عندما كان عمري ستة عشر عامًا. وقتئذٍ، انتهت النزهة بمشاجرة أخرى بين والديّ في السيارة أثناء العودة.

لم يكن مشهد رجل دين يرتدي كساءً ويصلي عليه ليثير مشاعر أبي. قلت في نفسي إنه كان سيحب روز هيلز. كانت أشجار الصفصاف تملأ المكان، والهواء نقي ومنعش، والأرض تحت قدميّ ناعمة. وقد طاردت الطيور الزرقاء بعضها بعضًا عبر العشب. كان مكانًا جيدًا للراحة لبعض الوقت. ولكن أعادني صوت الإمام إلى اللحظة الحالية؛ صلى على النبي، ودعا للميت والأحياء.

ثم أُنزل التابوت في القبر، واختفى والدي.

إدريس

هذا ما حدث وقتئذٍ؛ حل العيد في منتصف ديسمبر من ذلك العام، وأرادت مريم أن يذهب جميع أفراد الأسرة إلى المسجد في ريفرسايد للصلاة. قلت، خذي الفتيات إذا شئتِ، لكن لماذا أذهب أنا؟ لطالما كرهت مني استخدام هذه الكلمة، لا سيما عندما يزورنا شقيقها من لوس أنجلوس، لكنها الحقيقة. في بعض الأحيان، أسمعها تعتذر له في الممر، قائلة إنني لا أقصد ذلك، وأنني أقول هذه الأشياء فقط لإغاظته. لكني بالطبع أعني ما أقول، ولا أتظاهر بما ليس فيّ. ومع ذلك، وافقت على الذهاب في ذلك اليوم، لأن مريم أصرت، وعادت سلمى إلى المنزل من الجامعة لقضاء عطلة الشتاء، وقد أردتُ أن أبقي الجميع سعداء.

بدأت المراسم في السابعة صباحًا، ولكن لم يكن بإمكان المرء العثور على مكان لركن السيارة قبلها بنصف ساعة. اضطررتُ إلى الدوران حول موقف السيارات عدة مرات قبل أن أجد مكانًا، فتعكر مزاجي. قادتنا مريم على الطريق الخرساني، وتبعتها الفتيات، في حين تخلفتُ أنا عن الركب، حتى أنهي سيجارتي قبل أن ندخل إلى الداخل. عند المدخل، كان هناك صبي وسيم، ربما في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره، يحمل دلوًا برتقاليًا مكتوبًا عليه تبرعات العيد. أردتُ أن أقول إن العشر ليس تبرعًا، فالأول ضريبة والآخر عطية، ولكن بدا ألا أحد غيري يكترث. اصطف الناس لوضع نقودهم في الدلو. وكانت مريم قد أعدت الشيك في المنزل ووضعته داخل مغلف، لكن عندما وضعته في الدلو، نادى الصبي على نورا قائلًا: «يا أختي، غطِّ ساقيكِ. أنت غير محتشمة».

غير محتشمة! لوهلة، ظننتُ أنني قد أخطأت السمع. هل يعرف حتى ما تعنيه الكلمة؟ فرحتُ عندما استدارت نورا نحوه. «ماذا قلت للتو؟» سألته، وعلى شفتيها ابتسامة حيرة.

«غطِ ساقيكِ يا أختي».

«من تحسب نفسك يا فتى؟».

قال بجدية: «أخوك في الإيمان». ثم أومأ برأسه ليشكر سيدة وضعت ورقة نقدية بقيمة 50 دولارًا في الدلو البرتقالي. سار الناس من أمامنا وهم

يرتدون ملابس العيد. لم تكن هناك مجموعتان متشابهتان: رجال يرتدون بدلات وأثواب وداشيكي، ونساء يرتدين ملابس فضفاضة، وقمصان سلوار وسترات زاهية الألوان. وقد ارتدت ابنتي تنورة سوداء تغطي الركبتين، لكنها لم تكن كافية لرجل الدين الصغير هذا. كان المكان شديد الزحام، وقد أمكنني سماع أبواق السيارات المزعجة في ساحة انتظار السيارات. دار رجل عجوز حولنا حتى يتمكن من الدخول.

قالت مريم وهي تقود الفتيات نحو قسم النساء: «سنتأخر».

كنت قد أنهيت سيجارتي حينها، لكنني بقيت أراقب الصبي. كان ذا شعر مجعد وأنف صغير وجلد بلون الرمال. وباستثناء عينيه الخضراوين، ربما حسب الناس أنه ابني. تألق وجهه بثقة أثارت قلقي. «ما اسمك؟» سألته.

«قاسم».

«وكم عمرك؟».

«أحد عشر».

كما اعتقدت بالضبط؛ إنه يافع، ومع ذلك هو واثق من نفسه جدًا. لقد كنت مثله ذات يوم؛ إذ قرأت القرآن، واخشوشنت ركبتاي على الحصائر المصنوعة من القش في مسجد منطقتنا، وحافظت على الصوم ليس فقط في رمضان، ولكن لبضعة أيام في شوال وشعبان أيضًا. كانت هذه الطقوس عزائي، فقد أخبرتني أن العالم على ما هو عليه بسبب الخطيئة، سواء كانت مظاهره مغرية أو بغيضة، وكل ما احتاجه هو مقاومتها. ثمة معادلة منطقية تقف خلف الإيمان: آمن بالله، واتبع أوامره، وستكافأ؛ اكفر، واعصِ، وسوف تعاقب. ولكن ذات يوم، حدثنا السيد فتحي، مدرس الدين في المدرسة الإعدادية، عن دركات جهنم السبعة. كنت على دراية كافية بأنهار النار ونوافير الصديد والدم التي كانت تنتظر المذنبين، لكن في ذلك اليوم كان الدرس حول كيف لن يجد هؤلاء الناس أي راحة حتى بعد حرق أجسادهم؛ سوف تنمو جلودهم مرة أخرى فقط لتحترق من جديد. دفعني هذا إلى التفكير في السيد نغوين، الذي كان يعاني من حروق على طول ذراعه اليسرى، نتيجة مواجهة مع المستوطنين الفرنسيين أثناء الحرب في بلاده. لقد أحببت السيد نغوين، مثل بقية الفصل، لأنه جعل الجبر يبدو سهلًا جدًا، وهو ما كان أقرب إلى المعجزة بالنسبة لي. لذلك سألت السيد فتحي عما إذا كان صديقه السيد نغوين سيحترق في الجحيم أيضًا مع جميع الكفار. ولكن بدلًا من الإجابة، تلقيتُ ضربة على رأسي وطُلب مني عدم مقاطعة الدرس مرة أخرى. حينها، كنت

أكبر من قاسم بسنتين. وقد تولدت شكوكي في ذلك اليوم، وكبرت على مر السنين، حتى أصبحت ذات يوم كل ما أملك.

سألت الصبي: «أفلا تعتقد أن إيمانك لديه أشياء أخرى يقلق بشأنها غير ساقيّ ابنتي؟».

اكتفى قاسم بنظرة حزينة إليّ، وكأنني قد خذلته شخصيًا، وفشلت بطريقة ما في تربية ابنتي. داخل المسجد، ارتفع الأذان الأخير للصلاة، فاستدار ليذهب، لكنني لم أسمح له بذلك. قلت، وأنا أمسكه من معصمه: «أجبني». لم يكن يريد المجادلة، وربما كانت قبضتي تؤلمه، لأنه كان يتذمر.

فجأة ظهر أمامي رجل عجوز لم ألاحظه من قبل؛ إنه الإمام. كان شعره داكنًا، وذا لحية مشذبة بعناية، وعينين خضراوين مثل قاسم. بدأ يقتبس من القرآن لي. {...وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا...}، فرددتُ مقتبسة {...قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ...}. ادَّعى أن الحجاب أمر إلهي؛ فأصررت على أن الأمر يخص زوجات النبي فقط. وحذرني من أن المرأة يجب أن لا تغري المصلين في المسجد؛ فسخرت من الرجال الذين يمكن صرفهم بسهولة عن عبادتهم. في نهاية المطاف، قال إنه يجب أن يذهب، ويمكننا مناقشة هذا في وقت آخر، لأن لديه الآن صلاة ليؤمها.

أشعلت سيجارة جديدة وانتظرت حتى خرجت مريم والبنات. في السيارة في طريق العودة، أخبرت زوجتي بما حدث، لكن بدلًا من الوقوف بجانبي، قالت إنني أحرجتها أمام المصلين، فصُدمت. قلتُ: «لكنك لا تعرفين هؤلاء الناس. وأنا زوجكِ».

«أعرف السيدة حمادي، لكنك رحت...».

«هذه فقط. ولكن لا تعرفين أي شخص آخر».

«... تجادل الإمام وكأنك أعلم منه».

«بالطبع، أنا أعلم منه. ولست بحاجة إليه لأعرف الصواب من الخطأ».

«تلك التنورة كانت شفافة للغاية، لقد أخبرت نورا من قبل...».

«لا. لا تجعلي هذا خطأها. أنت من...».

«... أن نغادر المنزل. لماذا لا تستمع إليّ قط؟».

«... جئتِ بنا جميعًا إلى هنا. ومن أجل ماذا؟».

في المقعد الخلفي، وضعت نورا سماعة الرأس وحدقت خارج النافذة، في حين واصلت أنا وزوجتي الجدال لبعض الوقت، واستدعينا الجدالات القديمة واستخدمناها ضد بعضنا البعض، لكن عندما انعطفتُ إلى شارع 62، ذُهلت من المنظر. كان يومًا باردًا وصافيًا في شهر ديسمبر، وهناك ثلوج على قمم جبال سان بيرناردينو الصغيرة. كان الوادي أشبه بغطاء من العشب الطويل، والمسكيت واليوكا، التي تتدفأ تحت شمس الصباح، وبعد أن انحدر الطريق ثم ارتفع وانعطف، وصلنا إلى أول بستان من أشجار جوشوا.

كولمان

أتذكر هذه القضية جيدًا؛ إذ كانت أول جريمة قتل حققت فيها بعد أن انتقلت إلى هنا من واشنطن العاصمة في ربيع عام 2014. أنا من نيويورك، لكن واشنطن هي المكان الذي نشأت فيه، وذهبت إلى المدرسة، وعملت خمسة عشر عامًا. لذلك، كانت خطوة صعبة بالنسبة لي، وأكثر صعوبة بالنسبة لمايلز. استطعت أن أرى ذلك في عينيه عندما سألناه عن يومه أثناء تناول العشاء. كان يقطع البطاطس بعنف بشوكة، ويجيب على أسئلتنا بنعم أو لا، أو أحيانًا لا يجيب، ثم يغلق على نفسه في غرفته للعب ألعاب الفيديو. مايلز طفل لطيف، بل ويمكنك القول إنه فتى أمه المدلل، لكنه ما عاد يسمح لي بتقبيله قبل النوم. إن الابتعاد عن المنزل صعب على طفل، أدركتُ ذلك، لكنه أمر شائع في هذا البلد، بل وفي العالم كله. فكيف فعلها الآخرون؟ هذا ما أردت أن أعرفه.

لم يكن الانتقال إلى هنا، وسط الصحراء، فكرتي، وإنما كانت فكرة راي، بعد أن عُرض عليه منصب مدير إقليمي في شركة إنترابرايز إن بالم سبرينغز. لقد انتظر طويلًا للحصول على ترقية، وشاهد العديد من الأشخاص الآخرين ذوي الخبرة الأقل يتقدمون، وأدرك أنه إن لم يقبل هذا العرض، فقد لا يأتي غيره. وقد نجح الأمر بالنسبة له - إذ كسب المزيد من المال، وتمكنا من شراء منزل أكبر، ولم يكن هناك ثلج لنجرفه في الشتاء، وأضحى بوسعه حضور مباريات فريق لوس أنجلوس ليكرز. لعلكم تظنون أن الأمر كان سهلًا بعض الشيء، كونه مديرًا، لكنه عمل بجد أكثر. في كل ليلة، راح يدرس بيانات المبيعات الخاصة به، ويتحقق من كل عمود بمسطرة صغيرة حتى لا يفوّت أي صفر أو فاصلة. لطالما أحب راي الأرقام؛ فلم تخيب أمله قط، ولا يعتريها أي غموض أو تعقيد. في بعض الأحيان، أثناء إجراء المراجعة، كان يتحدث إلى نفسه.

في هذه الأثناء، كان مايلز يجلس في غرفته عابسًا.

لذلك، كان عملي بمنزلة هدية من الله لي. لا أقصد أنه كان مصدر سعادة؛ فالاضطرار إلى مشاهدة حزن أسرة ما ليس أمرًا ممتعًا قط، ولكن لدي بعض الخبرة في ذلك. يمكنني محاولة حل القضية، ومنح الأسرة نهاية مرضية، حتى لو لم يكن لدي الكثير لأبدأ به. لا توجد آثار إطارات قابلة للاستخدام، ولا حطام من السيارة، أو كاميرات مراقبة في أي مكان بالقرب

من هذا التقاطع. الشاهد الوحيد فتاة كانت تركض وعثرت على الجثة بعد الحادث. وقد أظهر تشريح الجثة خلوها من أي مخدرات أو كحول. ولم يكن لدى الضحية مشاكل مالية أو تاريخ من المقامرة. وهكذا، بدا رجلًا عاديًا جدًا، إلى أن قرأت بعض الرسائل النصية على هاتفه الخلوي، ولكن حتى تلك الرسائل لم تكن مفيدة. تعلقت آمالي على ثلاث رقائق طلاء مجهرية استعادتها وحدة مسرح الجريمة من ملابس الضحية. هذا هو كل ما لدي.

وهذا يعني أن عليّ التحدث مع مورفي. لم يكن لدي أي شكوى بشأن عمله، ليس بالضبط، لكن الطريقة التي كان يعمل بها جعلتني أشعر بعدم الارتياح إلى حد ما. كان معتادًا على فعل الأشياء بطريقة معينة. لقد قضى في معمل الجريمة أربعين عامًا تقريبًا، وبوسعه أن يتقاعد إذا شاء، لكنه كان هناك، أسبوعًا بعد أسبوع، مرتديًا معطف مختبر أبيض يحمل اسمه على جيب الصدر كطبيب حقيقي. لم أجرؤ على الاعتراض لأنني كنت أعرف كيف سينتهي الأمر مع الرقيب، وكأنني لا أستطيع تحمل حرارة الشمس أو أطلب منه معاملة خاصة. كنت ما أزال جديدة في المخفر، أما مورفي فهو هنا منذ الأزل.

على أي حال، ذهبتُ لرؤية مورفي بخصوص رقائق الطلاء. كان في مكتبه نافذة ضخمة، لذلك دخل الكثير من الضوء الطبيعي لنبات الصبار. استقرت أحواض النباتات على جهتين متقابلتين من رف خشبي مصقول، وبينهما كان هناك نظام استريو يطلق الموسيقى الكلاسيكية بصوت منخفض. وقد عُلقت ملصقات فنية على الحائط البعيد. وفي الزاوية، كان لديه منضدة قهوة صغيرة، مع آلة إسبرسو، وأكواب، وصحون، ومناديل. كان لديه أيضًا قدر لتسخين الماء، وهو ما هدد بالطبع بإشعال حريق، ولكن كما قلت، إنه هنا منذ أربعين عامًا. لقد عامل المكان وكأنه غرفة معيشة أكثر من كونه مكتبًا. كان الباب مفتوحًا، لكنني طرقت قائلة: «مورفي. هل لديك أي جديد لي؟».

«إيريكا!» قال مع ابتسامة. لطالما ناداني باسمي الأول، وهو ما لم أعتد عليه، مما جعلني أتوقف مؤقتًا.

«أي جديد حول رقائق الطلاء التي أرسلتها إلى سان برناردينو؟».

«عادة ما يستغرقون بضعة أيام. هل ترغبين ببعض القهوة؟».

«لقد شربتُ للتو، شكرًا. هل يمكنك التحقق مما إذا كانوا قد أعادوها؟».

قال وهو يلقي نظرة على صدري «الأحمر لون رائع عليك». على الفور، ندمت على ترك سترتي على مكتبي.

«هلا تحققت؟».

«هلا ذكرتني بالاسم؟».

«غراوي. حادثة دهس وهرب في 28 أبريل».

عاد أخيرًا إلى جهاز الكمبيوتر الخاص به وبحث عن التقرير. قال: «يا لك من محظوظة. لقد نشروه هذا الصباح. أثبتت مطيافية الأشعة تحت الحمراء باستخدام تحويل فورييه أن الطلاء فضي بالفعل».

«فضي؟».

«فضي. يبدو أنه يخص سيارة صنعتها شركة فورد بين عامي 1992 و1998».

«أي فكرة عن الطراز؟».

«تاورس، كراون فيك، موستانج، إكسبلورر. احزري» أصدرت الطابعة أزيزًا على مكتبه عند صدور التقرير، ثم ناوله لي. أضاف: «إنها تُستخدم في كل مكان».

«حسبتك قلت إنني محظوظة».

«كان من الممكن أن يكون أسوأ».

لم أفهم ماذا يقصد. في اليوم السابق، طلبت من الرقيب فاسكو إعادة تمشيط مسرح الجريمة، فقال إنه لا يمكن إرسال أي نواب في الوقت الحالي: *هذا ليس قسم شرطة مترو، إذ لا نمتلك نفس الموارد هنا*. بدا وكأنه يختبرني، محاولًا معرفة ما إذا كان بإمكاني إغلاق هذه القضية دون مساعدة من رجاله، والغريب هو أن العقبات التي وضعها جعلتني أكثر التزامًا. لم أكن مضطرة لإثبات نفسي لشخص مثله، ليس عبر سجلي في قسم شرطة مترو، ومع ذلك هذا ما وجدت نفسي أفعله بالضبط.

«هل أنت متأكدة أنك لا تريدين تناول القهوة؟» سأل مورفي. «لقد حصلت للتو على كمية جديدة من البن الإثيوبي».

«هل هذه عائلتك؟» قلت، وأنا أومئ بذقني نحو صورة لامرأة شقراء وطفل أزرق العينين يتعانقان. كنت أحاول أن أشعر مورفي بالخجل قليلًا،

وأشير إلى أنه لا ينبغي لرجل متزوج يبلغ من العمر ستين عامًا أن يتصرف على هذا النحو.

«نعم، هذا ابني. وهذه شقيقتي. لقد انتقلت طليقتي إلى سياتل منذ أربع سنوات، لذا تساعدني شقيقتي في تربيته».

حسنًا. وضعت يدي في جيبي، وفكرت قليلًا ثم قلت: «إنه يبدو في نفس عمر ابني».

«كم عمر ابنك؟».

«لقد بلغ الثالثة عشرة من عمره. إنه في الصف السابع».

«أي مدرسة يرتاد؟».

«لا كونتيننتا. وابنك؟».

«نفس المدرسة». نظر في عيني لأول مرة وابتسم. كان لون شعره مزيجًا من الأبيض والرمادي، ويمشطه بدقة خلف أذنيه. قال: «ربما يعرفان بعضهما».

«أشك في ذلك». لم يكن لدى مايلز أي أصدقاء. كان هذا جزءًا من سبب استيائه من انتقالنا إلى هنا. «إنها مدرسة كبيرة».

قال «صحيح. هل يحب ابنك لعبة البيسبول؟ لدينا مباراة دائمة يوم السبت في حديقة المجتمع. سيكون موضع ترحيب في أي وقت».

شعرتُ بالحرج قليلًا. لقد حاولت بدء محادثات مع الأمهات في مدرسة مايلز، وبَدَوْنَ ودودات بما فيه الكفاية، لكن اهتمامهن تضاءل عندما اكتشفن أنه لا يمكنني مرافقتهن في رحلة ميدانية للصف السابع أو التطوع في معرض الكتاب في فصل الربيع أو تغطية طاولة في نزهة لجمع التبرعات. كان العديد منهن ربات بيوت، وبقيتهن يعملن في وظائف من التاسعة صباحًا إلى الخامسة عصرًا، حتى يتمكنّ من ترتيب هذه الأنشطة وفقًا لجداولهن الزمنية. لكنني عجزت عن مجاراتهن، ليس مع مجال عملي. وعندما اقترحت أن يعوض راي غيابي، بدت الحيرة عليهن. لماذا يريد رجل بيع المخبوزات؟ لم يصرحن بذلك علنًا بطبيعة الحال. لقد مضين في خططهن وبعن المخبوزات دون إخباره بذلك. «شكرًا مورفي. سأخبر مايلز عن المباراة».

«حسنًا. وسأخبركِ إذا وجدنا أي شيء آخر عن هذا الطلاء. في بعض الأحيان يستغرق الأمر منهم بضعة أيام لتحديد الموديل».

غادرتُ مكتب مورفي في ذلك الصباح، وعدتُ إلى مكتبي عبر الرواق الطويل؛ فلم أرغب في مقابلة الرقيب حتى لا يطلب مني تحديثًا من دون أن يكون لديّ شيء ذو قيمة لأقدمه له. كل ما أملك هو ثلاث رقائق طلاء، إحداها حولها مختبر الطب الشرعي في سان برناردينو إلى غاز بالفعل. لا شيء دامغ.

جيريمي

كان منزلًا صغيرًا جميلًا يحتوي على مقعدين طويلين عند الشرفة الأمامية، وأجراس هوائية تتدلّى من الأفاريز، وسياج خشبي يحيط بالفناء. اعتاد فييرو أن يسميها مزرعة؛ إذ كان يقول: حان الوقت للعودة إلى المزرعة، عندما نذهب للعب البولينج. وقد قالها بنبرة توحي بأسفه لاضطراره المغادرة سريعًا، لكن ابتسامة عينيه فضحت شوقه للعودة إلى زوجته الجديدة، في منزلهما الجديد. كانت سيارة موستانج كوبيه فضية تشغل الممر الخاص، وكل بوصة منها محطمة أو مخدوشة أو مشوهة. واستقرت مرآة جانبية فوق كومة من الزجاج المحطم، عاكسة ضوء القمر. وقد أزيل اسم فييرو مؤخرًا من صندوق البريد. مشيتُ على الطريق الخرساني الصغير ثم طرقتُ الباب الأمامي.

من الجانب الآخر، سمعتُ صوت شخص يقلب فتحة الباب، وينظر، ثم تردد لثوانٍ، لكنه فتح الباب أخيرًا. «ماذا تفعل هنا؟» سألتني ماري. كانت عيناها حمراوين أسفل شعرها الأحمر. وقد ارتدت قميصًا أبيض يظهر وشمًا على ذراعها. *الموت ولا العار*. كانت قد حصلت عليه كمفاجأة ترحيب بعودة فييرو، احتفالًا بنجمته البرونزية، لكنه لم يعجبه، وسألها لماذا تدمر بشرتها الجميلة هكذا.

«هل أنت بخير؟».

«لا، لست بخير»، تقطّع صوتها مثل الزجاج المتكسر.

«آسف. كان سؤالًا غبيًا مني».

«لقد أصابني بالرعب، ودمر سيارتي، وما انفك يقهقه أثناء ذلك. لم يسمح لي حتى بالحصول على هذا الشيء الوحيد، هذا الشيء الصغير. يا لحقارته».

لم أسمعها تسب من قبل قط. كانت إحدى هؤلاء الفتيات اللواتي ينتقين ألفاظهن، وكلما قام أي شخص من حولها باللعن، احمرّ وجهها. كان فييرو مفتونًا جدًا بهذا الأمر، وقد عرض عليها الزواج في اليوم الأخير من إجازته الثانية. انتظر حتى تعود، أخبره الرقيب فليتشر عندما سمع بالأمر، لا

ترتكب نفس الخطأ الذي ارتكبته. لكن فييرو لم يستمع، لقد كان مجنونًا بحبها. كانت في التاسعة عشرة من عمرها، وقد التحقت بمدرسة التجميل، وتحلم بالعمل في هوليوود يومًا ما. قال: هذه هي الفتاة التي سأتزوجها. وهكذا فعل.

«أنا آسف يا ماري». حاولتُ التفكير في طريقة ودودة لأطلب منها إسقاط شكواها، ومعرفة ما إذا كانت تقبل نوعًا من التعويض مقابل إتلاف السيارة، لكن عندما لمستُ ذراعها، تراجعت وقد بدا الهلع في عينيها. شعرت بالدهشة، ورجعت خطوة إلى الوراء عن العتبة أنا الآخر. شيء ما في الطريقة التي نظرت بها إلي جعلني أشعر بأن لي يدًا في ما جرى، وكأن جريمة فييرو قالت شيئًا عني أيضًا. وكوننا زميلين في مشاة البحرية لا يعني أننا متشابهان. لقد أضحى فييرو مضطربًا قبل وقت طويل من ذهابه إلى الحرب؛ لا بد أنها عرفت ذلك. بيد أن النظرة في عينيها منعتني من إثارة هذا الأمر. قلت بعد دقيقة: «اسمعي. غيري الأقفال».

«أجل، أعرف. لقد غادر مصلح الأقفال قبل ساعة».

«واحصلي على كلب».

«هكذا فقط؟ هذه نصيحتك؟ لمَ لا تخبره أن يتركني وشأني؟ إذا كنت تريد حقًا المساعدة، فهذا ما ستفعله. أبقِه بعيدًا عني».

«لقد أخبرته بهذا بالفعل يا ماري. ولم يستمع». مرة أخرى، شعرت بحرارة غضبها. وأدركتُ كيف أنني أخطأت في الحسابات، بمجيئي إلى هنا لمحاولة إصلاح الأمور، كنت أجعلها أسوأ فحسب.

هبت عاصفة من الريح الجافة عبر الشارع فسقطت قطعة زجاج من نافذة الموستانج وتحطمت على الممر. نظرت ماري إليها، ثم ثبّتت عينيها الخضراوين عليّ مرة أخرى. «أوَتعلم؟ لو أن أحدهم كان قد أخبرني قبل خمس سنوات أنك ستكون الشخص الذي لديه وظيفة ثابتة وستلتحق بالجامعة، لما صدقت ذلك».

أردتُ أن أخبرها أنني لم أكن سأصدق ذلك أيضًا. قبل خمس سنوات، حصل فييرو على وظيفة في قطاع الأمن بكازينو هندي في مورونجو، بينما كان عليّ أن أتدبر أمر أعمال السقوف كلما أتيحت فرصة. وقبل خمس سنوات، ثملتُ في حفل زفافهما لدرجة أنني تقيأت في نافورة المياه حيث رُميت بتلات الورد لتطفو. قبل خمس سنوات، لم يكن بإمكاني معرفة اسم وصيفة العروس التي استيقظت بجوارها اليوم التالي في ترافيلودج، وشعرها

الأشقر أشبه بدبابيس مزخرفة ولامعة على صدري. لقد خسرت عامًا، وربما عامًا ونصف، تائهًا، في محاولة لملء الفراغ بداخلي الذي اعتقدت أن الحرب قد تركته، حتى أدركت أنه نفس الفراغ الذي دفعني إلى الانضمام لمشاة البحرية أصلًا. كنت أعيش مع أختي وقتئذٍ، وظلت تخبرني بأن أذهب إلى الكنيسة وأتوقف عن الشرب. *عدني*، توسلت إليّ، *عدني*. لقد أوفيتُ بنصف الوعد؛ فبعد بضعة أسابيع، كنت أقود سيارتي عائدًا من مهمة لبناء سقف عندما لاحظت إعلانًا على لوحة لأكاديمية الشرطة في سان برناردينو.

ربما سيشعر فييرو في نهاية المطاف أنه في غير محله، تمامًا كما حدث لي. لكنه يحتاج إلى العمل على ذلك. قلت: «يمكن أن يتحسن».

«أجل. حظًا طيبًا في ذلك. لقد حاولتُ، وسئمت من المحاولة».

قالت هذه الكلمات، ثم أغلقت الباب.

نورا

في ذاكرتي، كانت الكافتيريا في مدرسة يوكا ميسا الابتدائية ضخمة، لكنها بدت صغيرة وضيقة في ذلك المساء. كان هذا وهمًا بالطبع لأن الكافتيريا لم تتغير؛ أنا التي تغيرت. وُضعت الكراسي القابلة للطي في عشرات الصفوف الأنيقة، ولكن كان ما يقرب من نصف المقاعد مشغولًا بالفعل، وملأت السترات الصوفية والأوشحة المساحات التي جرى توفيرها. في الممر الأوسط، راح رجل عجوز يرتدي قبعة دودجرز يثبِّت كاميرته على حامل ثلاثي القوائم. تبعتُ والدتي إلى الصف الأمامي، حيث جلست سلمى وحدها، محدقة في هاتفها الخلوي. تبادلنا القُبل على الخدين. «أين طارق؟» سألت والدتي سلمى.

«مشكلة إصلاح أسنان طارئة».

قلت: «رباه. إنه لأمر سيئ للغاية أن تفوته المسرحية».

قالت أختي ببرود: «هكذا يكون الأمر عندما تديرين عيادة».

حولت انتباهي إلى كتيب البرنامج. الجميلة النائمة، كُتب العنوان بحروف ذهبية. تجاهلتُ مقدمة المخرج، وقائمة المتبرعين، ونداءات جمع التبرعات لحفل العام المقبل، وبحثت عن اسمي التوأم في قائمة الممثلين. كانت عايدة وزيد سيؤديان دور حارسين ليليين. «هل لديهما أي فقرات هنا؟» سألتها.

«لا».

«كيف ذلك؟».

هزت سلمى كتفيها فحسب.

قلت «لا بأس، أتطلع إلى ذلك على أي حال. لم أرهما من قبل في أداء مدرسي». من خلف الستارة جاء الصوت الصارخ لميكروفون موصول بمصدر طاقة. وقد توقف مكيف الهواء عن العمل، وبعد لحظة، عاد مرة أخرى. عندما ارتدتُ المدرسة في صغري، لم يكن هناك مكيف هواء؛ فقط مروحة كبيرة الحجم تصدر أزيزًا مزعجًا من الأعلى. كان علي أن أجلس خلف الكواليس

مرتدية أي زي خاطته السيدة فليمنغ من أجل المسرحية، حيث رحت أتعرق بسبب ثقله، وأحك جلدي في الأماكن التي يلمس فيها القماش الرخيص، وأنا أنتظر دوري. ومع أنني مثلتُ نفس الدور كل عام، فقد أعجبني أداء المسرحيات لأنها كانت أقرب شيء عثرت عليه لقراءة الكتب. ولكن بطبيعة الحال، كنتُ أفضل الكتب أكثر؛ ففي ثناياها يمكنني أن أصبح أكثر من شخصية هامشية، بوسعي أن أكون البطل. «الساعة تجاوزت السادسة بالفعل» قلتُ وأنا أنظر في ساعتي.

سألتني شقيقتي بحدة: «هل يتعين عليك التواجد في مكان آخر؟».

أضحت نبرتها جافة معي منذ تسلمنا وصية والدي عبر وسيط من مكتب المحاماة. كانت الوصية قد وُضعت قبل سنوات عديدة، وجميعنا علِم بفحواها؛ مبادئ قانونية حول تقسيم أصول والدي بين زوجته وأولاده. بيد أن ما لم يتوقعه أحد منا هو وجود بوليصة تأمين على الحياة بقيمة 250 ألف دولار. والمستفيد الوحيد منها هو أنا.

ارتفع الضجيج في الكافتيريا. رن هاتف خلوي، تبعه هاتف آخر. في الخلف، دوى صوت احتكاك الكراسي بالأرض. قالت سلمى: «أنا لا أفهم. ماذا فعلتُ له؟».

ردت والدتي: «لا شيء. هذا ليس خطأكِ».

قلت، وأنا أنظر إلى والدتي: «وليس خطئي أيضًا»، لكنها لم تعرني انتباهًا؛ إذ كانت عيناها مثبتتين على شقيقتي.

سألتني سلمى: «هل فكرت فيما ستفعلينه؟».

«بشأن ماذا؟».

«ماذا برأيك؟ بشأن كل تلك الأموال التي تركها لكِ».

«منذ متى تهتمين كثيرًا بالمال؟ أم أن هذا كلام طارق؟».

«الأمر لا يتعلق بالمال».

«بِمَ يتعلق إذًا؟».

خفت إضاءة القاعة، وساد الهدوء الجمهور. استدارت سلمى لمواجهتي وقالت: «أنا من بقيت هنا، وأكملتُ دراسة طب الأسنان، واعتنيتُ به عندما

خضع لجراحة في عينه. لقد فعلت كل ما رغب فيه بينما كنتِ أنتِ...» - ولوحت بيديها في الهواء - «تتسولين في المهرجانات الموسيقية. ثم يترك لك كل شيء. لا يمكنك حتى الاحتفاظ بوظيفة حقيقية!».

كانت الإهانة ما يزال يتردد صداها في أذني عندما أزالت امرأة عجوز في الصف خلفنا الحشرجة من صوتها بشدة. خفضتُ صوتي لأسأل: «هل تريدين حقًا التحدث عن هذا هنا؟».

«ما أهمية المكان الذي نتحدث فيه؟».

«لم يترك كل شيء لي. أنت وأمي ما زلتما تمتلكان المطعم».

«صحيح، لقد كان كرمًا بالغًا منه ألا يحرمنا من هذا أيضًا».

ألقيتُ نظرة خاطفة على والدتي، على أمل الحصول على نوع من الدعم، أو على الأقل بعض التعاطف. لكنها وضعت يدها على ركبة سلمى، وكأنها تطلب المغفرة: «لم يخبرني والدك قط أنه غير وصيته. ما كنتُ لأسمح له لو علمتُ بذلك».

قالت سلمى: «حسنًا، لقد فعلها على أي حال. لطالما كانت نورا ابنته المدللة».

كشف صوتها عن حنق واستياء شديدين. ولكن كيف تجاهلها والدنا؟ أوَلم يقرأ لها من نفس الكتب، ويأخذها إلى نفس المتنزهات، ويلعب معها نفس ألعاب الطاولة؟ أوَلم يقُد سيارته ثلاثين ميلًا إلى بالم سبرينغز كل أحد وينتظر ساعتين ليقودها عائدًا عندما أخذت دورة الإعداد لاختبارات الالتحاق بالجامعة في المدرسة الثانوية؟ أوَلم يدفع مصاريف كلية طب الأسنان؟ ولعُرسها في مقاطعة أورانج؟ أوَلم يعتني بولديها كلما احتاجت حضور مؤتمر ما؟ هل أحبها أقل من ذلك؟ قلت: «اسمعي، لم أطلب أيًا من هذا». كان صوتي مكتومًا بسبب البيانو.

دنت المرأة من خلفنا وهمست: «صـــه».

قالت سلمى: «وما الفرق إذا لم تطلبيه؟ هل تتوقعين مني أن أشعر بالأسف من أجلك؟ ولماذا تقحمين طارق في كل شيء دومًا؟».

«كم مرة يجب أن أقولها؟ لم أكن أعرف عن التأمين. ولا أفهم لماذا أنت غاضبة مني مع أنه ليس لي دخل بالأمر. وأجل، طارق دائمًا يزيد...».

نزلت يد باردة على كتفي فأفزعتني. «إما أن تصمتي أو اخرجي من هنا»، قالت المرأة بضفائرها الجانبية وعينيها الداكنتين، وقد بدت وكأنها نسخة أكبر سنًا من السيدة نيلسن، معلمتي في روضة الأطفال. قلت لها: «ابعدي يدك عني».

فُتحت الستائر، ووقف ملك وملكة على المسرح، معجبين بأميرتهما الرضيعة في مهدها. كنت منزعجة للغاية بسبب نبرة اللوم في حديث شقيقتي لدرجة أنني وجدت صعوبة في الانتباه للمسرحية. وما زاد الطين بلة هو أن الأزياء كانت سيئة، ووضع الأطفال الكثير من المكياج. أثناء إغداق هداياها على أورورا، عطست إحدى الجنيات الثلاث، فانبعث بريق أخضر في كل مكان باستثناء المهد. على الأقل يمضي التمثيل سريعًا. في غضون خمس وأربعين دقيقة، أصابت اللعنة الأميرة بوخزة إبرة، فباتت مسحورة، ووُضعت في غرفة منفصلة. ظهر كل من عايدة وزيد أخيرًا على أنهما حارسان ليليان ناما بينما كان الأمير يشق طريقه إلى غرفة الأميرة. قبّلها، فكُسرت اللعنة، وصفّق الجمهور بحرارة.

ما إن أُغلقت الستائر مجددًا، حتى التفتُّ إلى شقيقتي، لكن سلمى تجاهلتني وبدأت تشق طريقها إلى الخارج. أدركتُ حينها أنها أرادت مني تصحيح ما حدث، ولكن حتى لو تمكنتُ من ذلك، فلن يؤدي إلى التراجع عن الخيار الذي اتخذه والدنا، ولا ما قاله عنا؛ إنه يعتقد بقدرتها على تدبّر أمورها من دون مساعدته، أما أنا فلا. لكنها فهمت الأمر على نحو مختلف تمامًا؛ بأنه يهتم بي أكثر منها. في الخارج، كانت السماء برتقالية وضبابية والجو مثقلًا بالحرارة. وقفت سلمى بجوار الأراجيح، وقد امتلأت عيناها بحقد أسكتني.

لم أتوقع الحقد من شخصية مرموقة مثلها، ومع ذلك، ها هي ذي. لقد كانت على هذا الحال منذ اليوم الذي اكتشفت فيه قبولي بجامعة ستانفورد. كانت سلمى قد ارتادت مدرسة حكومية في سان برناردينو، وبعد حصولها على درجات ضعيفة في اختبار القبول بكلية الطب، انتقلت إلى كلية لوما ليندا لطب الأسنان، وقد بدت لها مكانًا جيدًا، حتى وصل خطاب القبول الخاص بي. ظلت هادئة لأيام. لكن والدتي، من ناحية أخرى، ما انفكت تتباهى بذلك. أخبرت شقيقها وعائلته وأصدقاءها الجدد من المسجد والجيران في الحي. فجأة، أمسى كل ما أقوله أو أفعله يقطر عبقرية. كان كسب دعمها شعورًا جديدًا تمامًا بالنسبة لي، ولعل السبب هو أنني قررت دراسة تمهيدي الطب في الكلية. ولكن بعد ثلاث سنوات، عندما اتصلتُ بالمنزل لأقول إنني غيرت رأيي بشأن كلية الطب وأنني سوف أتقدم إلى برنامج الدراسات العليا في الموسيقى في كلية ميلز بدلًا من ذلك، استقبلت والدتي النبأ بذهول، في حين

سخرت شقيقتي مني. لم تصدق والدتي أن سنوات من دراسة حساب التفاضل والتكامل وعلم الأحياء والكيمياء ستنتهي بموسيقى الصالون وفرق الجاز. حذرتني «لا تفعلي هذا. سوف تدمرين حياتك».

«اهدئي يا أمي. تتصرفين وكأنني حامل أو شيء من هذا القبيل».

«حامل! لماذا تقولين هذا؟ ماذا كنت تفعلين في الكلية؟».

«لا شيء. إنها شهادة دراسات عليا، وليست عقوبة بالسجن مدى الحياة».

«أنتِ تعيشين في عالم الأوهام!».

في هذه الأثناء، كانت سلمى قد عقدت خطبتها على طارق درويش، وهو زميلها في طب الأسنان هاجر والداه من سوريا في السبعينيات. كانت هي وطارق يخططان لفتح عيادة أسنان مشتركة، وهي حقيقة اعتبرتها والدتي يومئذٍ، وكل يوم بعد ذلك، السلوك المتوقع من طفل منحه والداه كل شيء. اتصلتُ بشقيقتي وطلبت منها أن تقنع والدتنا، لكنها ضحكت فقط. قالت «لحظة. الموسيقى؟ حقًا يا نورا!».

كان والدي الوحيد الذي لم يسخر مني، بل راح يستمع إلى موسيقاي. وعلى الرغم من اعتراض والدتي، فقد أرسل لي شيكات بمبالغ صغيرة كل حين. والآن خصص بعض المال لي، ليشعل ذلك حقد شقيقتي مثل طفح جلدي سيئ. لم تتحمل النظر إليّ ونحن نقف وسط حشد من الثرثارين. فكرتُ في العودة إلى أوكلاند، فقد بقيتُ هنا ما يكفي. لدي لحن يجب الانتهاء منه، وأصدقاء لأراهم، وحياة تنتظرني في منطقة الخليج. بعد ذلك، أقبل التوأم ركضًا عبر فناء المدرسة نحونا. «هل أعجبك ذلك يا خالة نورا؟» سألتني عايدة.

قلت: «كنتِ رائعة. لم أرَ حرسًا ملكيًا أفضل من قبل. كفّكِ».

«وماذا عني؟» سأل زيد.

«لا أحد يستطيع أن يتظاهر بالنوم مثلك. كفّك أنت الآخر».

وقف الأطفال بين والدتهما وجدتهما، ووجهاهما يضيئان فرحًا لم أره منذ عودتي إلى المنزل. عرضتُ التقاط الصور. ومن خلال عدسة الكاميرا، لاحظت أن شعر عايدة أصبح داكنًا، وبات لونه الآن أقرب إلى شعري. كنت على وشك التعليق على هذا عندما أمسكت سلمى يدي الصغيرين وأخبرتهما

أن الوقت قد حان للذهاب. قالت بجفاء: «ليلة سعيدة» واقتادتهما بعيدًا إلى سيارتها.

أثناء عودتنا في سيارة بريوس، استمعتُ إلى والدتي وهي تقول، ربما للمرة العاشرة في ذلك اليوم، إنها لم تكن على علم ببوليصة التأمين على الحياة. قالت: «لا أعرف متى اشتراها. لا بد أنه دفع ثمنها من حساب المطعم».

«هل تلومينني على هذا أيضًا يا أمي؟».

«أنا لا ألومك. لكني قلقة عليك وعلى مستقبلك».

قالت والدتي ذلك بأسى، وكأن مسؤوليتها في الحياة أن تحمل همي. يحدث هذا كلما عدتُ إلى المنزل؛ إذ نقضي بضع ساعات هادئة، ثم ينتهي الانفراج وتبدأ التعليقات، وكلها تدور حول خيبة أملها فيّ. لمَ لا تجدين وظيفة أفضل؟ أو تتقدمين إلى كلية الحقوق؟ ولمَ لا تعودين إلى هنا إذا كنت لن تلتحقي بكلية الحقوق ولا يمكنك العثور على وظيفة أفضل؟ هل أخبرتك أن ابنة السيدة حمادي ستتزوج؟ هل ترتدين هذا على العشاء؟ الأبيض ليس لونًا جيدًا بالنسبة لك، فهو يجعلك تبدين أكثر سمرة. هل شاهدت الفيديو الذي وضعه طارق على اليوتيوب؟ لقد شاهد 313 شخصًا خطابه الرئيسي أمام الجمعية الأمريكية لأمراض اللثة. هل تصدقين ذلك؟ وأخيرًا السؤال الأهم، الذي طُرح بوتيرة متزايدة مع مرور السنين: متى ستتزوجين؟

لا شيء سوى الاستسلام غير المشروط كان سيرضي والدتي. لهذا السبب، تعلمت استخدام ترسانتي الخاصة من الأسئلة المضادة؛ لماذا تركتِ الجامعة بعد الزواج؟ ولماذا نقلتنا إلى وسط الصحراء؟ وما الذي دفعكِ إلى التصويت لجورج دبليو بوش؟ ولماذا تصفين جنينًا عمره ثلاثة أسابيع بطفل رضيع؟ بالقطع أنتِ تعرفين الفرق؛ فقد أردت أن تصبحي طبيبة. وأجل، لقد أخبرتني عن ابنة السيدة حمادي ثلاث مرات. فهل تزوجت ثلاث مرات؟ هل شاهدتِ عزفي على البيانو في حدائق سان فرانسيسكو النباتية؟ إنه موجود أيضًا على اليوتيوب. وكم مرة عليّ أن أخبرك؟ لا أريد الزواج.

لم تنته هذه المعارك قط بنصر بيّن لإحدانا. وأقصى ما كنت أتمناه هو العودة إلى الوضع القائم، وهو ما كان يحدث عادة قبل أن أضطر إلى المغادرة مرة أخرى. الآن، أشعلت وصية والدي جبهة جديدة في الصراع مع والدتي، وقد انخرطت سلمى في الأعمال العدائية هذه المرة أيضًا. لكنني شعرت بضعف شديد يمنعني من القتال. لم أستطع تحمل قضاء يوم آخر في المنزل. لذا، قبل أن أنام ليلتئذٍ، ملأت سيارتي بالبنزين وحزمت حقيبتي ووضعت

الكمبيوتر المحمول في علبته. وقررت أن أغادر إلى أوكلاند مع أول خيوط الصباح.

ولكن لما حان وقت المغادرة، لم أستطع تحمل فكرة العودة إلى شقتي أيضًا. إن العودة إلى تلك الحياة تعني أنني قد تركت موت والدي ورائي، وأنني تجاوزته بطريقة ما، وهو ما لم يحدث. لذلك، طلبت من والدتي مفتاح الكوخ الكائن في جوشوا تري. ربما كان مصطلح «الكوخ» خياليًا جدًا بالنسبة لها. ومع أنه احتلّ مساحة فدان من الأرض، إلا أنه كان كوخًا بسيطًا من غرفة واحدة، مع نوافذ كبيرة وسقف مائل، بناه رب أسرة في الأربعينيات. وفي أحد الأيام، أثناء عودته من الحديقة الوطنية، رأى والدي لافتة *للبيع* على جانب الطريق فاتصل بصاحبه وعرض شراءه من دون استشارة والدتي. قال إنها صفقة رابحة بمبلغ 25 ألف دولار واستثمار رائع؛ لكنها وصفته بالمكب ومضيعة للمال. أخبرها أنه سيجدده ويؤجره، فردت ساخرة بأنه لن يرغب أي سائح في الإقامة هناك. في كل مرة تحدث فيها الاثنان كانا يتشاجران، وقد منحهما الكوخ موضوع خلاف جديد. سلمتني والدتي المفتاح على مضض، وهي تحاول ثنيي عن الأمر. كان الكوخ صغيرًا جدًا. ولم يعمل المكيف الصحراوي بشكل جيد. وقد يكون الجو حارًا جدًا هناك أثناء النهار، ثم ينقلب شديد البرودة ليلًا. وفي بعض الأحيان، كان يُسمع صوت ذئب البراري.

لم أكترث لذلك. أخبرتها أنني سأمكث بضعة أيام فقط. وطوال الطريق إلى الكوخ، فكرتُ في والدي. كان يقود سيارته في هذا الجزء من شارع 62 كل يوم. وهنا محطة الوقود حيث توقف لإعادة التعبئة، وهذا مخزن الكتب المستعملة حيث اختار كتبه، وهنا متجر الخمور حيث اشترى البيرة الخاصة به. لقد مضت الحياة بدونه بالفعل.

عندما وصلت إلى الكوخ، اكتشفتُ أن الباب الأمامي لا يفتح، وقد علق المفتاح. بذلتُ بعض الجهد كي أخرجه وعدت إلى السيارة. لكنني تذكرت خدعة علمني إياها والدي، فتشت صندوق التابلوه للعثور على قلم رصاص، ثم لونتُ أسنان المفتاح حتى أصبحت داكنة بالجرافيت. بعد ذلك، جربتُ القفل مرة أخرى. في هذه المرة، فتح الباب محدثًا صريرًا. وقد تسببت رائحة المسك والغبار في عطسي على الفور.

بدا المكان شبه خالٍ. استقرت أريكة رمادية اللون تحت النافذة، وكانت وسائدها متسخة وبالية. وفي المطبخ الصغير، وُضع كرسيان عند المنضدة، وطاولة مغطاة بالفورميكا ذات ساق غير ثابتة. وقد فصلت مدفأة حجرية

منطقة المعيشة عن الفراش الكبير. وكان الحمام هو المساحة الخاصة الوحيدة. فتحتُ باب المطبخ ودخلت إلى الفناء الخلفي، فوجدتُ العديد من نباتات اليوكا، وشجرة يشوع، وكرسيي حديقة، مكسوين بالتراب ومثبتين بالحجارة لمنعهما من الانجراف مع رياح الصحراء. وقد تناثرت هنا وهناك أدوات اشتراها والدي بقصد البستنة، ولكن بدا من مظهر الفناء أنه لم يستخدمها قط.

عبرتُ الكوخ إلى الشرفة الأمامية، حيث عُلق المكيف الصحراوي. كانت حمامة قد بنت عشها فوقه، والآن أدارت رأسها نحوي، وكأنها تتحداني أن أزعجها. حدقنا في بعضنا للحظة. قلت لها: «حسنًا يا أمي الصغيرة»، ورفعتُ كفيّ استسلامًا، «يمكننا مشاركة المكان». أدخلتُ يدي ببطء خلف الصندوق المعدني وفتحت صمام الماء. وقد ظلت الحمامة تراقبني طوال الوقت. تراجعتُ، وأنا غارقة في العرق، وعدتُ إلى الكوخ.

أردتُ الاتصال بالمحققة كولمان لسؤالها عن آخر المستجدات، لكن الوقت كان ما يزال مبكرًا، وكنت مشغولة بتنظيف الكوخ. غسلتُ الأحواض ومسحت زجاج النوافذ وكنست الأرضيات. وقد استغرق تنظيف الغبار في خزانة الكتب بعض الوقت، حيث جلست على الأرض أتصفح الكتب التي تصطف على جانبيها. روايات جاسوسية وألغاز وإثارة. هل هذا ما أتى والدي إلى هنا ليفعله طوال عطلات نهاية الأسبوع عندما قال إنه يقوم بتجديد المكان؟ أم أن هذه الكتب كانت مخصصة للسياح؟

بحلول الوقت الذي انتهيت فيه من التنظيف، كان النهار في منتصفه وشعرت فجأة بالإرهاق. ذهبت للنوم بملابسي. ومرة أخرى، حلمتُ به. كنا في محطة قطار مليئة بمسافرين يهرعون ويسحبون حقائبهم خلفهم. وكان صرير العجلات يأتي من جميع الجهات، مما جعل من الصعب عليّ سماع ما يقوله، مع أنه وقف بجانبي تمامًا. *هلمّي يا نور عيني. أسرعي، سوف نتأخر.* عندما نزلنا على الرصيف، رأيت أننا لم نكن في محطة قطار على الإطلاق، ولكن في ميناء. كان لون المحيط أزرق فضيًّا ويمتد أمامنا إلى ما لا نهاية. وقد تمكنا من ركوب قارب صغير مع حقائبنا. بدأ والدي في التجذيف، محركًا مجذافه ببراعة، لكنني واجهت مشكلة مع مجذافي. قال: *هكذا يا نورا. انظري، أمسكيه بهذه الطريقة*. لكن المقبض الخشبي ظل ينزلق من يدي.

استيقظت وأنا غارقة في العرق، وملابسي ملتصقة بي ورائحة المنظف في أنفي. بعد الاستحمام، نظرت إلى الساعة. لقد حان الوقت أخيرًا للاتصال بالمحققة كولمان. قالت: «ما زلنا نحقق». وأخبرتني أن هناك

سيارة من طراز فورد فضية اللون في المدينة، وسيستغرق الأمر بعض الوقت لمعرفة أيها متورطة في الحادث - وذلك على افتراض أن السيارة تخص مواطنًا محليًا وليس سائحًا.

«هل تقدم أحد للشهادة؟».

«لا، ليس بعد».

حاولت أن أقاوم المزيد من خيبة الأمل، لكنها حلّت على أي حال. فكرت في الاتصال بكولمان مجددًا غدًا، فلربما حمل الغد بعض الأخبار.

مريم

ظللتُ أشعر أنني عالقة في ضباب كثيف لوقت طويل بعد وفاة زوجي، وأني غير قادرة على تلمس طريقي إلى الأمام، أو حتى إدراك الكثير مما كان يدور حولي، مثل الترتيبات التي أنجزتها بنتاي، في كثير من الأحيان من دون استشارتي. لذلك، عندما تحدثت، كان ذلك فقط للموافقة على قرار اتُّخذ بالفعل. ولكن في ليلة الخميس تلك، أجبرت نفسي على الخروج من الضباب وارتديتُ بعض الملابس الجديدة وذهبتُ لرؤية مسرحية الجميلة النائمة في المدرسة الابتدائية. لقد فعلت ذلك من أجل حفيديّ، اللذين كانا في الثامنة من العمر فقط؛ ولا يعرفان الكثير عن الحياة، ناهيك عن الموت. دخلت إلى كافتيريا المدرسة معتقدة أننا سنحصل على أمسية عادية كعائلة، لكن زوج ابنتي لم يظهر؛ إذ كان لديه حالة طارئة في عيادته، واشتعل الجدال بين بنتيّ حول وصية زوجي. لم تتمكنا حتى من الانتظار حتى نصل إلى المنزل، فقد تبادلتا الصراخ أمام الجميع، ولم تحفلا بتوسلاتي لخفض أصواتهما. استسلمت أخيرًا، وشبكتُ بين أصابع يديّ على حجري، وأغمضتُ عينيّ ورحتُ أرتل سورة الناس مرات ومرات. كم شعرت بالارتياح عندما فُتحت الستائر، وظهر الملك والملكة على خشبة المسرح، فبدأت أصفق مثل امرأة مجنونة.

في طفولتي، كنت أشعر بالافتتان بالأصدقاء الجدد والأماكن والأفكار الجديدة، ولكن السحر كان يتلاشى لاحقًا وأرى الأشياء على حقيقتها. لقد اختلفت طباع الناس، مثل صديقتي كريمة آيت يعقوب، التي أضحت أيقونة الحركة الطلابية في جامعة الدار البيضاء، وظهرت على جميع الملصقات، بعد أن دخلت السجن. جرى القبض عليها في وقت مبكر، في عام 1979 حسبما أظن، وأودعت في درب مولاي الشريف، الذي ربما سمعتم عنه، فقد كان سجنًا مشهورًا، إذا جاز للمرء أن يقول إن السجون مشهورة، فربما يكون هناك كلمة أفضل.

بعد ذلك، تُرك زوجها ليترافع في قضيتها أمام المحكمة وخارجها، إلى أن قُبض عليه أيضًا، على إثر توزيع منشورات لتنظيم احتجاج آخر، وطُرد أطفالهما من المدرسة وأرسلوا للعيش مع جدتهم في ميدلت. لم أرغب في حياة كهذه لي ولإدريس.

بعد اعتقال صديقنا إبراهيم، أخبرت إدريس أنه يتعين علينا الانتقال إلى كاليفورنيا، لكنه لم يوافق. كان لا يزال أسير أفكاره الماركسية، ولم يستطع

رؤية مدى حماقته، ووضع مستقبله في أيدي الآخرين. لست فخورة بما فعلته بعد ذلك، بيد أنه لم يكن لدي خيار آخر، فكيف سأقنعه أنه يعرّض أسرته لخطر كبير وأننا بحاجة إلى المغادرة على الفور؟ عندما عاد إلى المنزل من العمل في اليوم التالي، رأيته عند الباب. قلت: «كان المقدم هنا»، وأنا أمسح يديّ في مريلة المطبخ.

«ماذا أراد؟».

«قال إن مجهولين سرقوا محتويات إحدى السيارات في الشارع، وعلينا أن ننتبه إلى مكان توقف سيارة رينو في الليل، ولكن بعد أن شكرته وكان يهمّ بالمغادرة، بدأ يطرح أسئلة عنك: كيف أحوالك هذه الأيام، وهل أجريت الاختبارات، وما هي خططك».

قال إدريس عابسًا: «لقد ألغيت الاختبارات، لا بد أنه يعلم ذلك». سحب سيجارة من علبة كاسا سبورت ونظر إليّ بقلق. «هل تعتقدين أنه يريد الإبلاغ عني؟».

«لماذا يأتي إلى هنا، ويسأل كل هذه الأسئلة إذًا؟».

مرّ إدريس بجواري صوب الشرفة، حيث جلس يدخن ويفكر حتى رُفع أذان صلاة العشاء، وأضاءت المصابيح في الشوارع، وبدأ الجيران يخبرون أطفالهم أن الوقت قد حان للعودة إلى المنزل.

كل ما أردته هو الحفاظ على تماسك عائلتي. وقد كنا كذلك لعدة سنوات بعد مجيئنا إلى هذا البلد؛ إذ قضيتُ أنا وإدريس ثماني عشرة ساعة في اليوم معًا ونحن نعمل في متجر الكعك، ونتيجة لذلك توطدت علاقتنا، لدرجة أنه كانت هناك لحظات كثيرة قرأنا فيها أفكار بعضنا. وفي الليل، كنا نروي قصصًا لسلمى حتى تنام، ونتدرب على بعض العبارات باللغة الإنجليزية، ونتصل بأخي عبر الهاتف، ونكتب رسائل لأخواتي، ونثرثر حول عملائنا. لكن عندما حملتُ بنورا، جرى تشخيصي بتسمم الحمل، ربما بسبب الارتفاع الشديد بضغط الدم، وما انفك إدريس يقول إن السبب هو أنني أتناول الكثير من الطعام المالح، لكنه بالطبع مرض وراثي، فقد عانت أمي منه أيضًا. أمرني الطبيب بالتزام الفراش طوال المدة المتبقية من الحمل. تخيلوا، لقد منعتُ من ممارسة الأعمال المنزلية، أو المشي، أو حتى أخذ سلمى إلى المدرسة، أو ممارسة أي نوع من الرياضة.

ما زلتُ أذكر كم كانت موحشة تلك الأشهر الستة، لكوني حبيسة حجرتي طوال اليوم، وكأنني في سجن، لا سيما وأنني شخصية نشيطة،

تستمتع بفعل الأشياء، وتكره البقاء في الفراش للحياكة أو النوم. ولم أتمكن حتى من مشاهدة البرامج الحوارية بعد الظهر لأنني عانيتُ من وميض في عيني، وقد زاده التلفاز سوءًا. كنت أنتظر عودة زوجي إلى المنزل كل ليلة، ثم أقول: «تحدث معي يا إدريس. كيف كان يومك؟».

بيد أن كل ما أراد فعله بعد يوم طويل في العمل، ثم الطهي والتنظيف في المنزل، هو أن يأخذ قسطًا من الراحة. ليلة بعد ليلة، كان يجلس على كرسيه، ويغمض عينيه ويقول، «أنا متعب جدًا».

بعد أن وضعت حملي، توقعت أن تعود الأمور إلى ما كانت عليه من قبل، لكن نورا كانت تبكي طوال الوقت، ولم يكن ذلك للأسباب المعتادة؛ فلم تعانِ من مغص، ولم تكن جائعة، وكنت ألبسها دائمًا حفاضة نظيفة. أحيانًا تكون في مهدها، نائمة أو تلعب، وفجأة تبدأ في البكاء، ولم أستطع معرفة ما خطبها قط. في النهاية، تخليت عن العمل في المتجر. ولا أقول إنني نادمة على ذلك، كيف أندم وابنتاي هما نور حياتي. لكنني اعتقدت أنه بعد كل هذه التضحيات، على الأقل ستكون عائلتي متماسكة، لكنني اكتشفت أن لابنتيّ عوالمهما الخاصة.

ربما كان السبب هو فارق السن بينهما. عندما بلغت نورا من العمر ما يكفي للّعب بالدمى والشاحنات الصغيرة، كانت سلمى قد انتقلت بالفعل إلى ألعاب الطاولة. أو ربما تعلق الأمر بطباعهما. لقد أحبت نورا الاستماع إلى الموسيقى وحدها في غرفتها، لكن سلمى كانت دائمًا مع صديقاتها في فريق الكرة الطائرة. ولم تتشابها في الشكل حتى، لأن سلمى بشرتها فاتحة، مثل والدها، أما نورا فسمراء مثلي. ومع مرور السنين، قضيت معظم وقتي بمفردي، بينما كان زوجي في العمل، وإحدى ابنتيّ في مرانها، والأخرى تعيش مع موسيقاها. كنا مثل مجموعة أكواب شاي في متجر الادخار؛ هناك دائمًا قطعة مفقودة.

عادت نورا إلى المنزل بعد وفاة إدريس، وقد شعرت بالارتياح لذلك، لأنني لم أتحمل البقاء وحدي في المنزل، وقد تركتها تعتني بكل الأشياء الصغيرة، مثل إرسال المدفوعات بالبريد إلى المشرحة، والذهاب إلى متجر التنظيف الجاف لأخذ بدلة كان والدها قد تركها قبل أسبوع من الحادث، وهو يقود سيارته عائدًا إلى المنزل. وأثناء قيامها بذلك، كانت تذهب إلى غرفة النوم الرئيسية، وتمرر أصابعها على فرشاة شعر والدها، وتفتح الخزانة وتشم أكمام سترته، أو ترتديها. في اليوم السابق لمسرحية المدرسة، وجدتها جالسة على الفراش، ترتدي سترة والدها، وتحدق في قدميها. قلت: «نورا»، لكنها لم تسمعني، فاضطررت إلى لمس كتفها قبل أن تلاحظ أنني أقف بجانبها.

بدت ضائعة. ولطالما سرحت في عالمها الخاص، وأعتقد أن هذا هو السبب في أن والدها ترك لها القليل من المال، لمساعدتها في بداية جديدة، فربما تختار مهنة أفضل هذه المرة، مع أن ذلك أشعل حقد شقيقتها فحسب، وتسبب في مشادة مؤسفة في كافتيريا المدرسة. بالكاد انتبهتُ إلى المسرحية ليلتئذٍ؛ إذ كان قلبي يتألم من سماع ابنتيّ تتشاجران مثل الغرباء، فتركت نفسي أَغرق ببطء في الضباب مرة أخرى؛ ذلك المكان الضبابي حين كنت أنا وإدريس شابين، ونحن ما نزال معًا عائلة متماسكة.

إفرين

كانت إيلينا ستؤدي دور إحدى الجنيات الطيبات، وقد تملكها الحماس لأنها سترتدي شعرًا مستعارًا أشقر. لاحظتُ كيف تنظر إلى نفسها في مرآة الخزانة؛ فقد راحت تميل رأسها قليلًا، وتبتسم إلى انعكاس صورتها. إنها تبلغ من العمر ثماني سنوات فقط، لكنها تحاكي بالفعل النساء اللواتي رأتهن على التلفاز. بمجرد أن انتهت مارسيلا من تثبيت الشعر المستعار عليها، تمايلت للأمام على الكرسي، في محاولة الوصول إلى الأقراط البلاستيكية الموضوعة فوق الخزانة، بين زجاجة العطر ومرهم مسكن للألم. «لماذا ترتدين شعرًا مستعارًا؟» سألتها من الفراش. كان شعر إيلينا أسود ولامعًا وطويلًا إلى درجة أنه قد غطى نصف ظهرها. وقد ظننت أنه مثالي لأداء الدور. «ألا يمكن أن يكون شعر الجنية أسود؟».

قالت إيلينا: «الجنيات شعرهن أشقر يا أبي».

«هل هذا صحيح؟» سألتُ مارسيلا. كنت قد شاهدت الجميلة النائمة مرة واحدة على التلفاز، لكنني لم أتذكر الكثير عن القصة بخلاف الأميرة التي تنام لمائة عام. لم أحصل إلا على القليل من الراحة مؤخرًا، فتمنيت أن أنام لدهر أنا الآخر.

قالت مارسيلا: «يفترض بالجنيات ارتداء قبعات، لكن المعلمة لم تجد المزيد منها، لذا أعطتنا الباروكة بدلًا من ذلك.» وضعت رداءً ورديًا شفافًا على كتفيّ إيلينا ثم التفتت إليّ قائلة: «هل أنت جاهز؟».

«أجل». أمسكت بيد دانيال وسرتُ في عقب مارسيلا وإيلينا خارج الشقة. يستغرق المشي إلى المدرسة حوالي خمس عشرة دقيقة، وعندما تهب رياح الصحراء، يمكن أن تكون دقائق مزعجة، ولكن بعد ظهر ذلك اليوم كان هناك نسيم بارد هادئ. شعرتُ أن تعب اليوم يتبدد، وتحل محله المتعة البسيطة لكوني مع زوجتي وأولادي. لم يكن لدى إيلينا سوى جملة واحدة، وقد تدربت عليها كثيرًا لدرجة أننا جميعًا حفظناها عن ظهر قلب - «أيتها الأميرة الصغيرة، سأمنحك هدية الجمال» - ثم تلوح بالعصا السحرية. كان هذا هو الجزء المفضل لديها، وهي تلوح بعصاها السحرية.

كان من المقرر إقامة العرض في كافتيريا المدرسة. بمجرد أن اتخذنا مقاعدنا، بحثتُ في كتيب برنامج الحفل عن الجنية الطيبة ذات الشعر المستعار الأشقر. ثمة عشرون اسمًا في قائمة الممثلين، لكنني وجدتها بسهولة: إيلينا أسيفيس منديز. شعرت بقليل من الإثارة، فلم أر مطلقًا اسم عائلتي مطبوعًا على أي شيء آخر غير أوراق الهوية الخاصة بي. وقد أخبرتُ زوجتي بذلك.

قالت مبتسمة: «يجدر بنا أن نحتفظ بالكتيب».

رفع دانيال كمّيه وسألني عن موعد بدء العرض؛ لطالما واجه هذا الصبي مشكلة في الجلوس. بينما حاولت مارسيلا تشتيت انتباهه بلعبة مهد القط، عدت إلى تصفح البرنامج. حينئذٍ، لاحظت الاسم الذي حاولتُ جاهدًا محوه من ذاكرتي. لقد ظهر مرتين على قائمة الممثلين، وكأنه يضاعف عاري؛ عايدة الغراوي درويش، وزيد الغراوي درويش. أغلقت كتيب البرنامج، لكن لم يبدُ أي شيء بعد ذلك على ما يرام. بدأ العرض متأخرًا، وقد تشاجرت امرأتان في الصف الأمامي بصوت عالٍ، وعندما حان الوقت لابنتي لرفع عصاها السحرية ومنح هديتها للأميرة، عطست وأسقطت عصاها. انقلبت الأمسية التي تطلعت إليها طوال الأسبوع - معتقدًا أنها قد تجلب لي السرور، أو على الأقل بعض الإلهاء - إلى عذاب. اضطررتُ للجلوس في الكافتيريا المظلمة، مثقلًا بشعور أن عائلة الغراوي تجلس أيضًا في مكان قريب، في انتظار ظهور طفليهم، الحارسين الليليين.

قلت لنفسي إنها مجرد صدفة - فهذه بلدة صغيرة وهناك مدرستان ابتدائيتان فقط، لذلك كان لا بد لأحفاد الرجل العجوز الالتحاق بواحدة أو الأخرى - لكن ذلك لم يساعد. شعرت أنني فقدتُ القليل من السلام الذي كان لدي، والغريب أن هذا جعلني أفكر في ألونسو. لقد كان ابن خالتي، ووُلد قبلي بيوم واحد فقط، لذلك نشأنا مثل الأخوين ولم نكن مجرد قريبين، بل وكنا نبدو مثل أخوين؛ فلدينا نفس العينين الداكنتين، ونفس ناصية الشعر عند مقدمة الرأس، ونفس الأنف الصغير الذي ضاع في وجه عريض. ذات ليلة، عندما كنا في الثالثة عشرة من عمرنا، غادرت أنا وألونسو المدرسة في الوقت المعتاد، ولكن بدلًا من العودة إلى المنزل معي، ذهب لمساعدة صديق لنا ينتقل إلى منزل جديد. استغرق الأمر وقتًا أطول مما كان متوقعًا، فوجد ألونسو نفسه ينتظر في المساء آخر حافلة في حي غير مألوف. خرج اثنان من أطفال الشوارع يختبئان في الظل وطلبا نقوده. وعندما ضحك ألونسو استهزاءً ورفض، أخرجا مديتين وجرحا الجانب الأيسر من وجهه، فانتهى به الأمر بفقدان أذنه اليسرى. بعد ذلك، تبدل حاله. اختفت نيته الحسنة، وأصبح مليئًا

بالشفقة على نفسه. كان من الصعب التحدث أمامه عن أي شيء؛ فتاة ترغب في مرافقتها، أو وظيفة ترغب في الحصول عليها، أو رحلة تحلم بالقيام بها يومًا ما، من دون أن يسرد ألونسو قائمة حزينة بكل الكوارث التي قد تقع. وكلما جلسنا وحدنا معًا، راح يحدق في أذني اليسرى، وكأنه يحسدني عليها.

هذا هو الشعور الذي ينتابني الآن. كنت أحسد كل من حولي في الكافتيريا، كل من لم يرَ الحادث في شارع 62. ورحتُ أتوق بيأس إلى جهلهم وبراءتهم وراحة بالهم، فقد أدركت أنني فقدت هذه الأشياء إلى الأبد. بعد المسرحية، عندما حان وقت المغادرة، تركت الكتيب ورائي على الكرسي. لقد كلفني ذلك الكثير، لكنني فعلتها على أي حال. لم أستطع المجازفة بأن ترى مارسيلا اسم الرجل العجوز وتخبرني مجددًا أنني بحاجة لفعل الشيء الصحيح. لقد عجزت عن إقناعها بأنني كنت أفعل الشيء الصحيح بالفعل بالنسبة لنا.

جيريمي

دخلتُ ساحة انتظار السيارات في مركز الاحتجاز بويست فالي وجلست في سيارتي الجيب، وتركتُ المحرك يعمل. في المقهى المقابل للشارع، توهجت مصابيح كهربائية داخل النوافذ ذات القضبان. وقد خرج شخصان وتجاذبا أطراف الحديث على الرصيف لبضع دقائق قبل أن يمضي كل منهما إلى حال سبيله. كان هناك وقت للعودة. عُدْ إلى المنزل واترك فييرو يجلس في السجن كي يتأدب. لن يلومني أحد على ذلك. لكن بطريقة مقلقة، أيقنتُ أنني كنت أراوغ فحسب؛ وبأنني سأطفئ المحرك وأدخل وأملأ الأوراق المطلوبة.

بعد ساعة، خرج فييرو من الحبس الاحتياطي. كانت هناك ظلال تحت عينيه وكان لونه شاحبًا، لكن عينيه بدتا حادتين أكثر من أي وقت مضى. بسبب تراكم القضايا، لم يمثل أمام قاض حتى اليوم السابق، عندما حُدد مبلغ الكفالة، لذلك أمضى أربع ليالٍ في ويست فالي. وعند مكتب الاستقبال، وقع اسمه على نموذج وسُلم حقيبة من طراز زيبلوك تحتوي على مفاتيحه ومحفظته. بدا غير متفاجئ برؤيتي. ومن دون أن يصافحني، سار أمامي عبر الأبواب المزدوجة ووقف في الخارج لمدة دقيقة، محاولًا معرفة اتجاه الخروج. كان الوقت متأخرًا بالمساء. وقد طارد زوجان من الطيور أحدهما الآخر على أشجار الأوكالبتوس. وهبت رائحة القهوة واللحوم من المطعم عبر الشارع. قال: «دعنا نخرج من هنا». وعندما ركبنا سيارة الجيب، بدا عليه الارتياح. «شكرًا على سداد مبلغ الكفالة».

بدأ تقرير الحالة المرورية في المذياع، لكنني خفضت الصوت حتى يتمكن من سماعي. «على الرحب والسعة. ولكن ثمة مقابل لذلك».

«وما هو؟».

«ستخضع للعلاج».

كان فييرو يهم بربط حزام مقعده، لكنه توقف فجأة: «اللعنة، لا».

«لا؟».

«لن أتعامل مع إدارة شؤون المحاربين القدامى مرة أخرى» قال وهو يثبّت حزام الأمان في مكانه. «لقد جعلوني أنتظر خمسة أشهر للحصول على معيناتي السمعية الجديدة، وما زلت غير قادر على استخدامها بطريقة صحيحة».

«لن يجري هذا عبر إدارة شؤون المحاربين القدامى، بل من خلال المركز الاجتماعي. إنها مجموعة دعم للأشخاص الذين يعانون من مشاكل في إدارة الغضب. سمعت عنها من ستراتون. أحد رفاقه يديره».

«هل تريديني أن أذهب إلى العلاج مع هاوٍ مغفل؟».

«ليس هاويًا، أيها الغبي. إنه حاصل على درجة الماجستير، ويعرف ما يفعله، ومن المفترض أن يكون جيدًا حقًا. اللعنة، بل إنني حتى سأرافقك، حسنًا؟».

«لن أجلس مع مجموعة من الناس يتذمرون ويتباكون من مشاعرهم. هل يمكننا الخروج من هذا المكان فحسب؟».

شغلت السيارة وخرجت من ساحة الانتظار إلى الشارع. ومع خيوط الضوء الأولى، أخرجت سيجارة من حقيبتي. كانت سيجارتي الثالثة في ذلك اليوم، أو ربما الرابعة. على أي حال، كنت أحرز تقدمًا. لا يمكن أن يكون الإقلاع عن التدخين أصعب من تناول الخمور، ولم أنظر إلى الوراء أبدًا بمجرد أن قررت الإقلاع عنه. أخذت نفسًا عميقًا، واستمتعت بسيجارتى لأنها الأخيرة في ذلك اليوم. أنزل فييرو النافذة الجانبية لإخراج الدخان. قال: «هذه الأشياء ستقتلك».

«لا بد أن يموت كل الرجال».

«بل لا بد أن يُسجن كل الرجال» قال بابتسامة.

التفت إليّ مجددًا بعد لحظات وقال: «ولكن، حقًا، كيف تُدخل السموم إلى جسمك؟ لا أفهم».

«نصائح لحياة نظيفة من دكتور فييرو. ماذا لديك لي أيضًا؟».

«هذه فقط» ثم تنفس. «وابتعد عن العاهرات المجنونات».

كنا على وشك الوصول إلى شارع 10. انتظرتُ ثواني حتى دخلتُ الطريق السريع قبل أن أتحدث مرة أخرى. «يُحتمل أن تتقدم بطلب لإنذار

قضائي ضدك».

«من؟ مريم؟ لم أكن أخطط لرؤيتها».

«آمل أنك تقصد ذلك يا رجل. عليك أن تتركها وشأنها. وللأبد هذه المرة».

«لقد وقعت أوراق الطلاق بالفعل».

«حقًا؟».

«ولم سأكذب؟ لقد فعلت ذلك مباشرة بعد أن حطمت تلك السيارة اللعينة».

«حسنًا. جيد. الجلسة الأولى يوم الخميس المقبل، بالمناسبة».

«هل أنت جاد بشأن هراء مجموعة الدعم هذه؟».

«بالطبع أنا جاد. أنت بحاجة للمساعدة».

«يا صاح، عندما تبدأ في التذمر، تبدو مثل ماري تمامًا. هل تدرك ذلك؟».

«أجل. ربما كان حريًا بك الاستماع إليها».

التزم فييرو الصمت لبقية الجولة. وحتى عندما مررنا على طواحين الهواء، لم يلقِ نكاته المعتادة. س: ما هو شعور طواحين الهواء تجاه الطاقة المتجددة؟ ج: إنها من أكبر المعجبين بها! ولما وصلنا إلى محل إقامته، أدار مرآة السيارة الجانبية ومرر يديه عبر شعره الدهني، وفرده. في معسكر التقدم، كان يقف أمام المرآة الصغيرة في الحمام ويلف منديلًا حول رأسه، ويسحبه حتى حاجبيه. كانت الطريقة الوحيدة لمنع العرق من إغراق وجهه عندما نخرج في دورية. خرجنا معًا في عشرات الدوريات، وفقدنا رفيقًا في إحداها، لكن لم تكن دورية هي التي أوقعتنا. كانت جولة مرافقة؛ فقبل أسبوع فقط من نهاية جولتنا الأخيرة، طُلب منا اصطحاب وزير عراقي اسمه الدكتور جابر إلى اجتماع في الجانب الغربي من الرمادي. كان مسؤولًا عن ترميم أجزاء من شبكة الكهرباء التي دُمرت خلال الغزو، ومع أنه كان يلتقي بالمقاولين الأمريكيين في الأشهر الثمانية الأخيرة لكنهم لم يتفقوا بعد على

خطة. حدث ذلك صباح يوم الإثنين من شهر مايو، على ما أذكر، حيث وصلت درجة الحرارة بالفعل إلى ثلاثة وثلاثين درجة مئوية، لكننا لم نهتم بذلك؛ إذ كنا متحمسين لإكمال وردياتنا القليلة الأخيرة. وأثناء انتظارنا للوزير، تحدثنا حول ما سنفعله بمجرد عودتنا إلى الولايات المتحدة. سنذهب إلى الحانات، ونقابل فتيات، ونغوص في المسبح. قال هيك *انسَ كل ذلك. أريد أن أنتقل إلى مكان ما حيث تمطر ولا يتعين عليّ رؤية أحد.*

بعد الاجتماع، أعدنا الدكتور جابر عبر طريق ميتشيغان. كان الطريق أمامنا أبيض تحت ضوء الشمس. وأثناء جلوسي على سطح المدرعة، حدقت نحو الوهج عبر نظاراتي. جاء صرير عربة خبز وضحك الأطفال من مكان ما في الشارع. وفجأة بلا مقدمات، طرتُ في الهواء، وسقطت بندقيتي من يدي، واستقرت شظية في ظهري. وما عدت أرى شيئًا. الشيء التالي الذي أتذكره هو طعم غبار الحصى في فمي وصراخ فييرو بأعلى صوت: *أنا معك يا جوريكي، أنا معك*. حملني على ظهره وأخرجني من الخندق حيث سقطت. وفي وقت لاحق، عندما استيقظت في العيادة، علمت أنه فقد السمع في إحدى أذنيه.

أغلق المرآة الجانبية وقال. «هل تريد تناول مشروب؟».

«ليس الليلة».

«ماذا؟ ألهذا الحد رائحتي كريهة؟».

«الاستحمام لن يقتلك. ولكن لا، أنا متعب فقط».

«حسنًا. شكرًا مرة أخرى يا صاح».

خرجت من موقف السيارات، وتوجهت عائدًا إلى المنزل. شعرتُ بحمل على كاهلي، من النوع الذي أعرف أنه سيبقيني مستيقظًا طوال الليل. قلت في أعماقي ربما يجدر بي الذهاب في نزهة؛ فأتعب نفسي، وأصفّي ذهني. مررت عبر زاوية الشارع وواصلت السير على الطريق السريع نحو الحديقة الوطنية. كنت أنتظر عند الإشارة عندما رأيت نورا تدخل مطعم ماكلين.

نورا

كنت قد لجأت إلى الكوخ للهروب من المشاحنات مع عائلتي، لكنه مثّل تحديًا هو الآخر؛ فقد كان هادئًا جدًا لدرجة أنه خُيل إليّ أنني أسمع دقات قلبي. لم أكن معتادة على الصحراء. ركبت سيارتي وذهبت للبحث عن مكان لأحتسي فيه شرابًا. لم أدخل مطعم ماكلين من قبل، وقد فاجأني أن أرى مدى ازدحامه في السادسة مساءً. جلست عند الحانة. وكان ثمة سائحان يرتديان ملابس التنزه ويتصفحان قائمة الطعام، ويتجادلان حول ما إذا كان يجب الحصول على بطاطس عادية أم بالثوم. وعلى مسافة ثلاثة مقاعد، جلس رجل يرتدي وزرة زرقاء يكشط بطاقة يانصيب بمفتاح. وأمامي، كان هناك رجلان يتحدثان بهدوء وهما يشربان البيرة. وراح النادل يخلط الكوكتيلات ولم ينظر إلى أعلى عندما حاولت لفت نظره.

«نورا»، نادى صوت من الخلف.

استدرت على كرسي الحانة فسقطت حقيبتي أرضًا، وتبعثرت محتوياتها - مفاتيح، فكة نقود، أنبوب طلاء شفاه لا أتذكر شراءه، علبة حبوب مطلية بالمينا، وهاتفي الخلوي. لقد كانت فوضى كارثية ووقف جيريمي جوريكي فوقها محرجًا. قال وهو يلتقط أشيائي من الأرض: «أنا آسف. لم أقصد أن أخيفكِ هكذا».

أخذت الحقيبة منه وأقفلتها. «ماذا تفعل هنا؟».

«كنت أهم بتناول العشاء. هل تريدين الحصول على طاولة؟».

«كنت أتناول مشروبًا فقط. أو آمل ذلك على أي حال». ألقيت نظرة خاطفة على النادل، الذي كان يعيد ملء كأس أحد الرجال المسنين ولم يعرني أي انتباه. «حسنًا».

نهضتُ عن الكرسي وتبعت جيريمي إلى طاولة بجوار النافذة. لقد اعتاد ارتداء قميص ذي أزرار عندما كان يأتي إلى المنزل، لكنه بدا أصغر سنًا الآن وهو يرتدي قميصًا قصيرًا بدون أكمام وسروال جينز. في واقع الأمر، كان أصغر مني بسنة، إذ أنني تخلفت عامًا في روضة الأطفال. عندما أشار إلى النادلة، أقبلت على الفور، وأخرجت دفتر ملاحظاتها من مئزرها. كانت امرأة شقراء ممتلئة الجسم ترتدي قميصًا بدون أكمام وسروال جينز أسود، وتتحدث

بصوت خشن. «ماذا يمكنني أن أحضر لك يا عزيزي؟» سألته بلطف. مد يده نحوي.

«هل يمكنني الحصول على نبيذ ومقوٍّ، من فضلك؟» سألتها.

«بالتأكيد. أي شيء للأكل؟».

«لا، فقط المشروب. شكرًا لك».

قال «سأحصل على برجر متوسط مع بطاطس مقلية، وكوب ماء».

«على الفور يا عزيزي».

بعد ابتعاد النادلة، أنزلت حقيبتي وعلقتها على ذراع الكرسي.

«كيف حالكِ؟».

طُرح عليّ هذا السؤال عدة مرات من رفيقتي في السكن وأصدقائي، ولم أجد إجابة له حتى الآن. منذ وفاة والدي، بدا أن حياتي قد توقفت وبقيت عالقة في نفس اللحظة، ونفس المكان. قلت له بلا مبالاة: «لا بأس».

«آسف جدًا يا نورا. أدرك حجم المصيبة».

كان هناك الكثير من العطف في صوته. لوهلة، ترقرقت عيناي وبدا أن الدموع تقترب أخيرًا، لكن بطريقة ما مرّ هذا الشعور. أسندت ذقني إلى راحة يدي ونظرت من النافذة للحظات. كانت السماء بلون الخوخ. وقد مرت السيارات كل حين على الطريق السريع. توقفت شاحنة توصيل في الممر الأوسط وصعد السائق لتسليم طرد. كم هو غريب في هذه الساعة المتأخرة. قلت: «لقد ترك لي كل هذا المال»، واستدرت لألقي نظرة على جيريمي. «هل تصدق ذلك؟ أنا، الفاشلة».

«لست فاشلة».

«أنت لا تعرف ذلك».

«أعرف الكثير من الفاشلين. ثقي بي».

عادت النادلة. «هذا هو النبيذ والمقوي. وهذا البرغر الخاص بك يا عزيزي. الكاتشب والخردل موجودان هنا. هل أحضر لكما أي شيء آخر؟».

قال: «لا، أعتقد أننا بخير».

«ألم ترغب في بيرة مع البرغر؟» سألته.

عصر الكاتشب على جانب طبقه وقال «أنا لا أشرب».

«على الإطلاق؟».

قال بعد لحظة من التردد: «لا. أعاني من أرق سيئ حقًا. كنت أتناول خمس أو ست كؤوس حتى أنام، وبعد فترة لم يكن هذا العدد كافيًا. كرهتُ حالي، فقررت التوقف».

«وهل ذهب الأرق؟».

«لا. يأتي ويذهب».

حركتُ الثلج بالقصبة السوداء الصغيرة وأخذت رشفة كبيرة وأنا أراقبه. جلس وظهره منتصب وأكل بسرعة، مع أن لا شيء في رباطة جأشه يشير إلى أنه كان في عجلة من أمره. كان من الغريب أن أعثر عليه في مطعم ماكلين، فلم أفكر به منذ عشر سنوات، والآن رأيته مرتين في أسبوع واحد. وما أدهشني هو أن هذا كان نتيجة أخرى لمصيبتي، وأنه كسر أنماطًا راسخة منذ زمن طويل، حتى لو كانت تافهه كهذه. في الخارج، اختفت شاحنة التوصيل، تاركة منظرًا واضحًا للمجمع التجاري عبر الشارع. كانت امرأة تغلق صالون الأظافر، وتختبر الأقفال بكلتا يديها قبل أن تمضي إلى سيارتها. «أليس هذا حيث كان محل البوظة؟» سألت وأنا أشير إلى الصالون.

«لقد هدموه قبل عامين وأعادوا بناءه من جديد».

«اعتدت الذهاب إلى هناك مع سونيا موخيرجي بعد درس اللغة الإسبانية».

في المدرسة الثانوية، كان لدى سونيا القليل من الأصدقاء. وكنا الفتاتان الوحيدتان في فرقة الجاز. وقد اختصر المعلمون اسمي عائلتينا دائمًا بالأحرف الأولى؛ ورحنا نحتفل بالعطلات التي لم تكن مدرجة في التقويم المدرسي؛ وأدينا دور ماغي في مسرحية الكريسماس كل عام، على الرغم من احتجاجاتنا بأننا فتيات، لكننا دائمًا لعبنا دور ماجي، بأوشحة بيضاء تغطي شعرنا الطويل، وأردية تخفي صدورنا وأردافنا الصغيرة. كان الناس يعتقدون أننا مسلمتان وغالبًا ما اضطرت سونيا للقول *لا، أنا هندوسية*. وفي سبتمبر من

سنتنا الثانية، اصطدمت طائرتان بمركز التجارة العالمي، والغريب أن الاختلاف بيننا لم تكن له أهمية تُذكر؛ فقد نُعتت كلتانا بنفس الصفات: الدخيلتان، فتاتا طالبان. وأحيانًا دُعينا بفتاتي طالبان الدخيلتين. في فصل اللغة الإسبانية، كان جميع الطلاب من ذوي البشرة السمراء، لذا كنا نتوق إلى إخفاء هويتنا بينهم. وبعد ساعة من تصريف الأفعال - yo me voy me fui me iba me iria, me ire - غالبًا ما كنا نذهب لتناول البوظة.

قال: «أتذكر».

«هل درست الإسبانية أيضًا؟».

«لا، لقد عملت في محل البوظة يومين في الأسبوع».

«صحيح. اعذرني». عادت إليّ ذكرى الآن، ضبابية لكنها قوية في نفس الوقت، لجيريمي جوريكي يقف عند ماكينة تسجيل المدفوعات النقدية مرتديًا قميص بولو أبيض ومئزرًا أحمر، ونحن ننتظر سداد ثمن مشترياتنا. شعرت باحمرار وجنتيّ وكنت أدرك أنه يلاحظ ذلك. التزمت الصمت للحظة، وأنا أفكر في تلك الأيام. تُرى، ماذا حدث لسونيا؟ لقد دخلت جامعة نيويورك وراحت تراسلني بحماس في الأسابيع القليلة الأولى، لكنني لم أسمع عنها منذ سنوات. سأضطر للبحث عنها يومًا ما.

«أتذكر في إحدى المرات التي دخلت فيها أنت وسونيا وأنتما تضحكان بشدة لدرجة أنكما أسقطتما رف الملاعق. كان المكان كله في حالة فوضى».

«للتاريخ، أيها الضابط، كان رف الكؤوس، وقد طُردنا بسبب ذلك».

«أجل، بالطبع».

«لكنك لم تقع في مشكلة».

«بالطبع وقعتُ في مشكلة».

«مثل ماذا؟».

«أشياء تافهة. لا يمكنني تذكر أي شيء محدد الآن».

قلت وأنا أبتسم بخبث «لأنه لم تقع أي مشكلة». حدثت نفسي قائلة يا إلهي أنا أغازله. لكنه كان مجرد إلهاء عن حقيقة مصابي والشعور الدائم بالحزن. كان وجهه مألوفًا - احتفظ بعينيه الزرقاوين، وأنفه البارز - ولكن

أضفى البلوغ ملامح جديدة. من الواضح أن السنوات العشر الماضية قد تركت بصماتها. بدت ملامح القسوة حول فكيه، مع علامات مبكرة لتجاعيد في زوايا عينيه.

أنهيت مشروبي وأشرت إلى النادلة بأنني أريد إعادة ملء.

«ماذا يقول؟» سأل وهو ينظر إلى الوشم على معصمي.

«إنه باللاتينية. *صوت يصرخ*».

مد يده عبر الطاولة ولمس معصمي من الداخل، ثم أدار يدي نحو الضوء لإلقاء نظرة أفضل. «هل ثمة سبب لوضعه؟».

«ذهبت إلى تجمع احتجاجي في منطقة الخليج عندما كنت في الجامعة. هل تذكر القانون الذي نص على شطب المجرمين من المهاجرين غير المسجلين؟ في عام 2006؟». كان يعتزم قول شيء عن التجمع أو القانون، لكنه بعد ذلك سحب يده وانتظر حتى أنتهي من القصة. «على أي حال. عندما أمرتنا الشرطة بالتفرق، لم أجد مخرجًا، فقبضوا عليّ وقيدوني وأجلسوني على الرصيف، انتظارًا لوصول عربة الترحيلات. كان هذا أول احتجاج أشارك فيه، ولم أصدق أنني اعتُقلت. فجأة، أدركت أنني بحاجة إلى من يسدد كفالتي، وستكتشف أمي الأمر، وسيكون لديّ سجل اعتقال. ظللت أقول لنفسي إنني على ما يرام، لكن الحقيقة هي أنني كنت فزعة حقًا. جلستُ هناك ورأسي على ركبتي. سألني أحدهم كم عمري، فقلت تسعة عشر، ثم سألني أي مدرسة ارتدت، فقلت ستانفورد، ففك وثاقي وقال: «اذهبي إلى المنزل يا فتاة، واعتني بشؤونك الخاصة». شعرت بالارتياح الشديد لإطلاق سراحي، ولم أفكر في إخباره أن هذا شأني، بل وشأن الجميع».

«أنا متأكد من أنه كان يعلم أنكِ لستِ تهديدًا كبيرًا للمجتمع. ولعله كره التواجد هناك بقدر كرهك للاعتقال».

أحضرت النادلة كأسي نبيذ ومقوٍّ آخرين. حركت الثلج في كأسي وأخذت رشفة. كانت روح شجر العرعر تؤتي أكلها؛ إذ شعرت بالدفء في معدتي وبدأت العقدة بين كتفي في التلاشي. كنت سعيدة لأنني قابلت جيريمي، فمن الأفضل أن تكون لديك رفقة بدلًا من الشرب بمفردك. سألته: «هل أحببت عملك كشرطي؟».

«توجد أيام جيدة وأخرى سيئة».

«هل أستشعر خيبة الأمل في بطلنا؟».

«حسنًا، أنت معلّمة في المدرسة الثانوية، أليس كذلك؟ أعتقد أن الأمر مشابه لهذا. أحيانًا تكون وظيفة مجزية بشكل خيالي، وفي أحيان أخرى تكون مروعة. لكن الأجر رائع وجدول وردياتي جيد. ثلاثة أيام عمل، ومثلها إجازة. لقد نظمته بحيث أتمكن من الذهاب إلى المدرسة في أيام إجازتي. هل تريدين بعض البطاطس المقلية؟» دفع صحنه إلى وسط الطاولة.

«لا شكرًا. لست جائعة. أي نوع من المدرسة؟».

«كوبر كانيون. أنا على وشك الانتقال إلى جامعة كاليفورنيا».

«ألم تلتحق بها من قبل؟».

«لقد تركت الدراسة بعد فصل دراسي واحد والتحقت بالتجنيد».

«انتظر.. ماذا؟».

«انضممت إلى مشاة البحرية».

«عجيب». سألته بعد دقيقة: «أين كنت تخدم؟».

«في العراق».

بدا غريبًا أن جيريمي ضابط شرطة، لكن ما أدهشني حقًا أنه كان في مشاة البحرية. عبر رقعة الطاولة، نظرت إليه بعينين جديدتين. كانت الأصابع الطويلة التي امتدت ذات مرة برشاقة عبر أوتار الجيتار لعزف لحن فا قد حملت بندقية آلية ووجهتها إلى أشخاص في بلد آخر، بلد لم يسبب له أي أذى. والعين التي غمزت لي ذات مرة أثناء قيامها بتمرير الملاحظات في الفصل قد راقبت بهدوء أهدافًا بشرية من خلال منظار بندقية. والصوت الذي خفّ وهو يخبرني أنه انضم إلى مشاة البحرية كان قد صرخ بالتعليمات على سماعة رأس أو مكبر صوت. في بلدتنا الصحراوية، كانت هناك أعلام لمشاة البحرية على المنازل، وشرائط صفراء على السيارات. وقد زُين متجر البقالة باللافتات التي تقول *مرحبًا بقواتنا*. وخاض معظم الأطفال في مدرستنا الثانوية اختبار مجموعة القدرات المهنية للقوات المسلحة. لذا، كان ينبغي ألا أتفاجأ كثيرًا من أن جيريمي قد التحق بالجيش، بيد أنني قد تفاجأت. لم أستطع التوفيق بين

ذكرياتي عن الصبي المتلعثم في المدرسة الابتدائية مع حقيقة أنه كان عميلًا للدولة. «لكن لماذا؟» سألته.

«كنت أرغب في دراسة علم أمراض النطق، ولكن عندما وصلت إلى ولاية كاليفورنيا، كرهت فصولي ولم أحسن الأداء فيها. شعرت كأنني شخص غريب تمامًا في ذلك الحرم المدرسي. وكأنني لا أنتمي إلى هناك. ظننتُ أن الدراسة لن تفيدني في شيء. وكنا في حالة حرب؛ فبدا كأنه الشيء الصحيح الذي ينبغي عمله».

«غزو العراق كان الشيء الصحيح الذي ينبغي عمله؟».

انبرى يقول: «ليس هذا ما قصدته. ما أعنيه هو أنني رغبت دائمًا في الالتحاق بالجيش. كان جدي مسعفًا في الحرب العالمية الثانية، وظل والدي في احتياطي الجيش لمدة أيضًا. كنت في الثامنة عشرة من عمري، وأعتقد أنني أردت أن أكون جزءًا من شيء أكبر مثلهما».

ساد صمت غريب على الطاولة.

«هل أنت متأكدة أنك لا تريدين أي بطاطس مقلية؟» سأل بعد دقيقة.

«أنا متأكدة. شكرًا».

لمستُ قلادتي ذات التعويذة، التي كانت هدية والدي لي بمناسبة تخرجي من المدرسة الثانوية، وقد أخرجتها من صندوق المجوهرات بغرفتي في الليلة التي عدت فيها؛ إنها تعويذة واقية على شكل يد. شعرت بالإرهاق فجأة وأردت بشدة أن أكون وحدي، فأعود إلى حزني، في عزلة ودون مقاطعة من أحد. تشكلت حبات من الماء على كأس النبيذ وكان المنديل الأسود تحتها رطبًا. وعلى بُعد طاولتين منا، أخرجت امرأة مسنة مروحة يد من الدانتيل الأحمر من حقيبتها وبردت نفسها بها. وفي الجزء الخلفي من المطعم، كانت النادلة تعيد تعبئة رشاشة الملح، وتهز رأسها على وقع الأغنية التي جرى تشغيلها على جهاز الاستريو. لم تلاحظني إلا عندما حدقتُ نحوها طويلًا، فأحضرت الشيك أخيرًا.

قال جيريمي: «سأتولى ذلك».

«لا، لا بأس»، وضعتُ نقودًا، وأخرج هو ورقة نقدية من محفظته ووضعها، ثم تبعني إلى خارج المطعم.

في الخارج، أضفت أشعة الشمس الأخيرة اللون البرتقالي الداكن على أزهار شجيرات اليوكا البيضاء. وكانت الأجواء هادئة جدًا.

«حقًا، ينبغي ألا تقودي يا نورا».

«سأكون بخير». عبرتُ موقف السيارات نحو سيارتي وتبعني.

«لماذا لا تدعيني أوصلك إلى المنزل؟».

«لا حاجة لذلك. سأقود أقل من سبع كيلومترات».

«نورا».

«ماذا؟».

«لا يمكنني السماح لكِ بالقيادة. كم طولك، مائة وستون سم ووزنك خمسون كغم؟ لقد تناولت مشروبين في أقل من ساعة ولم تأكلي أي شيء».

عند سماع كل هذا شعرت بأنني ضعيفة وغير مؤمّنة. كل ما أردته هو أن أكون وحدي مرة أخرى. ركبت سيارتي، لكنه أبقى الباب مفتوحًا بيده، فاستقر بداخلي خوف مألوف. قلت بصوت متهدج: «أنا بخير. حقًا».

«بحق الله يا نورا، دعيني أوصلك. يمكنك الحصول على سيارتك غدًا».

خرجتُ من السيارة بعد لحظة وتبعته، وكنتُ أحمل حقيبتي على صدري مثل درع. دخل بسيارته الجيب إلى شارع 62 متجهًا نحو منزل والديّ، لكني طلبت منه الالتفاف وأعطيته الاتجاهات إلى الكوخ. سألني: «هل ستبقين في المدينة لبعض الوقت؟».

قلت: «في الوقت الحالي»، ولم أرغب في توضيح أنني لا أستطيع البقاء في المنزل مع والدتي وأنني بحاجة إلى وقت للتفكير فيما سأفعله بعد ذلك.

وصلنا إلى الكوخ بعد خمس دقائق، فكانت والدتي جالسة على الشرفة تنتظر. قلت في نفسي: عظيم! استجمعت كل طاقتي حتى أبدو متزنة ويقظة. قلت له: «شكرًا على التوصيلة» وخرجت دون انتظار الرد.

نهضت والدتي ويداها على صدرها. «ماذا حدث؟».

«لا شيء يا أمي. لقد فرغت بطارية مفتاحي، فلم أتمكن من فتح الباب».

«أخبرتك ألا تشتري سيارة هجينة. إنها غير موثوقة».

«حسنًا. كنتِ على حق». تنازل لا معنى له لتجنب التصعيد.

كانت رائحة الشاي بالنعناع عالقة في الهواء داخل الكوخ. وكان ثمة كومة من العلب البلاستيكية، كل منها مملوءة بطبق مختلف - فلفل مشوي، دجاج بالجزر، سلطة فواكه - موضوعة على طاولة المطبخ. شعرت بالتوتر عندما أدركت أن والدتي كانت داخل الكوخ. «ما هذا؟» سألت وأنا أشير إلى العلب البلاستيكية.

«هل اتصلتِ بجمعية السيارات الأمريكية؟».

«سأتصل بهم غدًا».

«ومن يكون هذا الرجل؟ يبدو مألوفًا».

«ما كل هذا يا أمي؟».

«جلبت لك شيئًا لتأكليه».

«لم يكن عليك ذلك.» وضعتُ حقيبتي على الأريكة، ثم لاحظت تنسيق الزهور على رف الموقد. قبل بضع سنوات، درست والدتي الفنون والحرف اليدوية وقضت معظم فترات بعد الظهر تعمل على مشروع أو آخر. وكانت أحدث هواياتها هي تنسيق الزهور الجافة. تضمّن هذا الترتيب الخاص أزهارًا وردية وبيضاء موضوعة على شكل قلب! وعلى الطرف الآخر من رف الموقد، كانت هناك ثلاث مزهريات سوداء تقف مثل الحرس. «أمي. ليست هناك حاجة لأي من هذا. يمكنني الاعتناء بنفسي، فضلًا عن أنني لن أبقى طويلًا».

«لكن المكان فارغ للغاية. ألا تحبين الزهور الجافة؟».

«بلى، إنها جميلة جدًا».

«فلمَ لم تعجبكِ إذًا؟».

«هذا ليس نوعي المفضّل من الأشياء».

«تحب أختك تلك التي صنعتها لها».

بالطبع تحبها.

ذهبت والدتي إلى رف الموقد وغيرت ترتيب المزهريات والزهور، ثم تراجعت لتلقي نظرة. «هكذا أفضل؟».

رميت نفسي على الأريكة يائسة.

جيريمي

بالكاد تحدثنا أثناء توجهنا إلى الكوخ، لكن الصمت بيننا كان مختلفًا الآن. لقد تغير كل شيء. أخذت وقتي في قيادة الجيب، وراقبتها حتى دلفت. كم شعرت بالراحة عند التحدث معها عن الأيام الخوالي، وكم بدت جميلة، وهي تجلس بجانب النافذة في مطعم ماكلين مع سقوط آخر خيوط النهار عليها. كانت عيناها دافئتين، قبل أن تكتشف أنني قاتلت في العراق، وتُجبر على الركوب معي، وترى والدتها تنتظر عند الشرفة. تغير كل شيء حينها.

هكذا شعرت أيضًا، قبل عشر سنوات، في الرحلة الميدانية إلى دوروثي تشاندلر بافيليون. كان السيد ميتشل قد نظمها كمكافأة لفرقة الجاز بعد أدائنا أغنية شامبانيا *بجوز الهند* «Coconut Champagne» في الحفل الموسيقي على مستوى المنطقة. كنت متحمسًا للذهاب، في الغالب لأن ذلك يعني الخروج من المدينة وتفويت الحصص المتبقية. لكن الرحلة كانت مقررة في اليوم التالي لعيد ميلاد والدتي، في 13 مارس. وعلى الرغم من مرور ثلاث سنوات على وفاتها، ظل ذلك اليوم يمثّل معاناة. بدأ والدي يشرب الجعة على وجبة الفطور. وقد حصلت على رخصة القيادة حينها، لكنه رفض أن أقود السيارة عندما ذهبنا لزيارة قبرها، لذلك جلست في مقعد الراكب، ورحت أراقب الطريق، في حين جلست آشلي في المقعد الخلفي، وهي تحدق في طلاء أظافرها. بعد ذلك، ذهبنا إلى مطعم يعد أطباق تاكو قالت والدتي عنه ذات مرة إنه المطعم المكسيكي الأصيل الوحيد في موجافي. عندما عدنا إلى المنزل، أوصلنا والدي إلى الباب وقال إنه سيذهب إلى متجر هوم ديبوت لشراء بعض الأسلاك الكهربائية واثنين من لوحات مفاتيح الإضاءة. قال: «سأعود خلال ساعة». لكنه لم يعد بعد ساعة، أو اثنتين، أو خمسة. أعددتُ العشاء، وتأكدت من أن آشلي قد أنجزت واجباتها المدرسية، وصممت على أن تخلد إلى فراشها بحلول الساعة العاشرة. وبحلول منتصف الليل، اتصلتُ بالشرطة، ثم بالمستشفى، لكن لم يقم أحد باعتقال مارك جوريكي أو أدخله إلى غرفة الطوارئ. كانت الساعة الثالثة صباحًا عندما سمعت أخيرًا باب المرأب يُفتح. أطفأت المصباح المجاور للفراش وحاولت النوم ووجهي نحو الحائط. وفي صباح يوم الجمعة، أثناء جلوسي في غرفة الموسيقى، في

انتظار السيد ميتشل ليأخذ الحضور ويجمع رسائل الإذن للرحلة الميدانية، كان تركيزي الوحيد هو البقاء مستيقظًا إلى حين ركوب الحافلة المدرسية.

نادى السيد ميتشل: «فانينغ. جوريكي. غراوي. هندرسون. لورينزو».

فتشت حقيبتي لإخراج رسالة الإذن بالتوقيع المزيف. كنت قد اعتدت التوقيع على جميع أوراق مدرستي بالإضافة إلى أوراق آشلي، ولكن عندما سرتُ نحو المكتب أدركت أنني لم أحمل الرسوم المقدرة بـ 15 دولارًا. عند الفطور في ذلك الصباح، كنت غاضبًا جدًا لدرجة أنني لم أنظر إلى والدي، ناهيك عن طلب أي شيء منه. تمتمت قائلًا: «سيد ميتشل، أنا آسف، لقد نسيت».

عدّل السيد ميتشل بعض الأوراق وقال إنه يحتاج إلى دقيقة لفرزها. عدت إلى مقعدي، محاولًا كتم إحراجي، بينما كرر جوناثان أتكينز، بصوت خافت ساخر، *سيد ميتشل، أنا آسف، لقد نسيت*. كنت أشعر بالهذيان من الأرق. ولم أستطع التفكير في الرد. وكان أتكينز في فريق المصارعة، وله كتفان ضخمان وقويان مثل إحدى شخصيات أفلام الأكشن التي ما زلت أحتفظ بها في صندوق بالمرأب. إنه ليس شخصًا يمكنني بدء عراك معه. وبينما كنت أحدق في حذائي، انحنت نورا عبر المساحة بين مقعدينا وهمست: «تجاهل هذا الفتى، إنه أحمق». نظرت للأعلى، لكنها كانت تغلق حقيبة ظهرها، فقد كنا على وشك المغادرة.

في جناح دوروثي تشاندلر، وبينما كان زملائي في الفرقة معجبون بالنحت البرونزي لحمامة السلام أو يلعبون في نافورة المياه الراقصة، شعرت بالقلق بشأن الغداء؛ فلم يكن لدي المال لذلك أيضًا. ومع الانعدام المطلق للتضامن، بدأت معدتي تصرخ. كنتُ أتضور جوعًا. وعندما ذهب الآخرون لشراء الطعام، بقيت وحدي أمشي على طول جانب المبنى، حيث نُقشت أسماء المتبرعين على ألواح الجرانيت. في نهاية الممشى، وقفت شجرة ماغنوليا عملاقة، وأسفلها مباشرة عبر الشارع استقرت قاعة ديزني الجديدة. وقفت هناك للحظة أتساءل من يصمم شيئًا بشعًا كهذا. ثم سمعت اسمي.

«هل تريد بعض الطعام؟» سألتني نورا. كانت هناك شطيرتان ومشروبان وكوبان من الشوكولاتة على صينية. سارعت معدتي بالرد نيابة عني. شعرتُ بالحرج لكنها تصرفت وكأنها لم تلاحظ. جلسنا وأرجلنا مثنية على الطريقة الهندية، وبيننا الصينية على الأرض. لقد عرفتها منذ أن كنا أطفالًا، ومع ذلك لم ألاحظها حقًا. الآن وجدتُ نفسي أنظر إليها بتمعن. كانت عيناها داكنتين

وجامحتين، وأنفها رشيقًا، وابتسامتها رقيقة. نظرت من فوق كتفي نحو ديزني هول. سألتني «هل تحب فرانك جيري؟».

«هل هذا هو المهندس المعماري؟ يبدو هذا الشيء مثل علبة حطمها بحذائه. كان بإمكاني أن أصممه من أجل ديزني وأوفر عليهم ملايين الدولارات».

ضحكت، فأحببت صوت ضحكاتها.

قالت بعد لحظة: «إنه يروق لي في الواقع، فهو يختلف عن جميع المباني الموجودة هنا. لقد صمم جيري مدينة بلباو أيضًا. أريد أن أراها يومًا ما. هل سبق لك الذهاب إلى إسبانيا؟».

«لم أخرج من البلاد قط. ذهبنا ذات مرة إلى المكسيك، لكنني كنت في التاسعة من عمري تقريبًا. لا تُحتسب». وصلتُ إلى النصف الثاني من الشطيرة. «لا بد أنك تسافرين كثيرًا».

«ليس صحيحًا. لم نتمكن من الذهاب إلى المغرب في طفولتي لأن والدي كان يخشى الاعتقال، ولكن عندما ذهبنا أخيرًا، كل ما فعلناه هو الانتقال من منزل إلى آخر، وزيارة الأقارب. لم نذهب إلى المتاحف أو الآثار أو أي شيء». أضافت بعد لحظة، «لكنني شهدت رقصات شعبية في سوق مراكش».

سألتني عن الكتب التي قرأتها، والعروض التلفازية التي شاهدتها، وقد أصغت باهتمام عندما أجبتُ. لم تتوافق أذواقنا؛ إذ أحببتُ عائلة سمبسون، في حين لم تشاهده هي قط، وقد التهمت كتب هاري بوتر، لكنها تركتها بعد الكتابين الأولين. كانت مهتمة بزورا نيل هيرستون، بيد أني لم أقرأها. اتفقنا فقط على مارك توين والأميرة العروس، ولكن لا شيء آخر. كان شعرها الطويل يتشابك مع أقراطها كلما هزت رأسها، فشعرت برغبة في مد يدي وتخليصه.

ثم عثرت علينا سونيا موخيرجي. كان التدريب على وشك أن يبدأ. «أسرعا. لقد حضر الجميع بالفعل». وقفت نورا ومدت يدها لمساعدتي على النهوض. في ذلك الصباح، كانت مجرد فتاة عادية، ولكن بعدما نهضتُ أمست الفتاة الوحيدة. لأسابيع بعد ذلك، شعرت أنني متعلق بها. لقد كان وجهها أول ما أبحث عنه عندما أصل إلى المدرسة، وكم حاولت انتزاع ابتسامتها بإلقاء النكات، وتمنيتُ الاحتكاك بجسدها ونحن في الطابور. ولطالما انتظرت حصتي اللغة الإنجليزية والموسيقى حتى أكلمها، لكنني لم أجد لحظة أخرى معها.

كانت دائما تندفع من مكان إلى آخر، وكأنها لا تطيق صبرًا لمغادرة هذه المدينة بلا رجعة.

ثم تخرجنا وتفرقت سبلنا. عندما رأيت اسم غراوي على لوحة القضية في مركز الشرطة، شعرت وكأنني تلقيت إشعارًا ضاع في البريد. لقد ذكرني بلطف نورا في ذلك اليوم بالرحلة الميدانية، ولهذا السبب ذهبت إلى منزلها لتقديم التعازي. لكن الليلة في مطعم ماكلين تغير الحال. نظرت إلي بشكل مختلف هذه المرة. ربما بدأ شيء ما بيننا. ولكن أتينا على سيرة الحرب فأصبحت شرسة، بل وحتى واعظة. بطريقة ما، حرك هذا مشاعري؛ فلم يجادلني أحد بهذا الشكل منذ عشر سنوات. عندما أخبرت أبي أنني قد تركت الكلية من أجل الالتحاق بمشاة البحرية، نهض عن كرسيه بشق الأنفس، وقد بات ثملًا بالفعل في الرابعة عصرًا، وعندما ثبت على قدميه ربّت بعنف على كتفي وقال إنه فخور بي.

أندرسون

جاءت المحققة إلى صالة البولينغ في الظهيرة، حين كنت لا أزال أكنس البساط في الردهة. كان لديّ رجل يفعل ذلك، ويفرغ القمامة أيضًا، وينظف الحمامات، لكنني اضطررت للتخلي عنه، لذلك كنت أكنس بنفسي، وأحيانًا يفعلها إيه جي من أجلي. وقفت السيدة صغيرة الحجم أمام الضوء الساطع عند المدخل. في البداية لم أستطع رؤية وجهها، بل هيئتها فقط. أوقفتُ المكنسة الكهربائية بركلة وسألتها «أيمكنني مساعدتك؟». بوسعي القول إنها لم تأتِ إلى هنا للعب، فقد كانت ترتدي ملابس رسمية تمامًا، وتحمل مفكرة في يدها. عندما خرجت من الضوء، فكّت شارة الشرطة من حزامها. حينئذٍ، أدركت أنها هنا بشأن حادثة الاصطدام والهرب.

كان حادثًا مروعًا. وقد كنا بحاجة إلى المزيد من أعمدة الإنارة والإشارات المرورية على طول الطريق السريع. يمكنك القيادة لأميال هنا دون المرور على عمود إنارة أو إشارة واحدة. وعلى الرغم من أن بعض الناس لا يتذكرون هذا، ولكن كان يُطلق على تقاطع شارعي 62 وأولد وومان سبرينغز اسم «ناصية الحوادث» لكثرة وقوع الحوادث هناك، لا سيما المروعة، حيث شُوه الضحايا والسيارات هناك. وقد وضعت الدولة علامة خاصة وممرًا يؤدي يسارًا، لكن حوادث الاصطدام استمرت في ذلك التقاطع إلى أن ثبتوا إشارة مرور. كان ذلك في عام 1973، حين افتتحتُ صالة البولينغ، منذ وقت طويل.

كانت زوجتي قد حصلت على القليل من المال من جدتها في سكرامنتو، ففكرنا في كيفية استخدامه على الوجه الأمثل. في ذلك الوقت، لم يكن هناك الكثير لأفعله في مكان مثل بلدتنا - ولهذا فكرت في افتتاح صالة بولينغ. ولقد كافحت بشدة لإنجاز المشروع؛ إذ اشتريت قطعة أرض، ووجدت مهندسًا معماريًا، وحصلت على التصاريح، واستأجرت مقاولًا، وفعلت كل شيء. وليتكم شاهدتم عدد الأشخاص الذين حضروا الافتتاح الكبير. أتذكر أنه كان قبل أسبوع من عيد الميلاد وقد وضعت هيلين، زوجتي، أشجار تنوب طولها عشر أقدام في الردهة، وكلها مزينة بالأضواء ورائحتها مدهشة. وحتى يومنا هذا، كلما شممت رائحة أشجار عيد الميلاد، أتذكر الافتتاح الكبير، الذي ظهر في الصفحة الأولى من صحيفة هاي - ديزرت ستار.

كانت هيلين شعلة نشاط، وتبحث دائمًا عن طرق لتنمية تجارتنا. لقد ابتكرت شعارات لعروضنا الخاصة، وأمنت لنا صفقة إعلانات جيدة مع محطة الراديو المحلية، وأقنعت بعض أصدقائنا من الكنيسة ببدء دوري البولينغ. لقد عملنا بشكل جيد حقًا لبضع سنوات. ولكن بعد ولادة إيه جي، فقدت الاهتمام بإدارة صالة البولينغ وأرادت قضاء كل وقتها معه. وحتى بعد أن دخل المدرسة، لم ترغب في العودة إلى العمل. كانت تخدمه بتفانٍ دائمًا، وقد حذرتها قائلًا: «أنت تدللين ذلك الفتى يا هيلين»، لكنها كانت تلوح غاضبة، وتقول إنني أقسو عليه جدًا. ولم تنخرط في العمل مرة أخرى إلا بعد ذهاب إيه جي إلى الكلية في فولرتون.

ولكن بحلول ذلك الوقت، كانت هناك صالة بولينغ أخرى على بعد أميال قليلة من الطريق السريع، ودار سينما، وموقف سيارات، والكثير من الحانات والمطاعم، فبات لدى الناس المزيد من الخيارات لما يجب عليهم فعله ليلة الجمعة. تبدل حال هيلين أيضًا؛ فبدأت تأتيها رعشات على الجانب الأيسر من جسدها، وقد شخص الأطباء إصابتها برعاش الراحة. ومع ذلك، تمتعنا بالعيش الكريم. لقد عملنا لأنفسنا، ولم تكن لدينا أية شكاوى. ثم انتقل الرجل المسلم إلى الجوار عام 2002، حسبما أذكر. كان قد اشترى المكان من السيدة سوينسون العجوز، التي أدارته كمطعم هوت دوج وبرغر وما شابه، لكنه حوله لاحقًا إلى مطعم متكامل الخدمات. كان ما حدث له مروعًا. ولكي أكون صادقًا، إنها مسألة وقت قبل أن يحدث ذلك لشخص آخر، لأن هذا المفترق يصبح مظلمًا جدًا في الليل. وكما أسلفت، نحتاج إلى بعض الإضاءة على الطريق وربما حتى إشارة مرور.

عبرت السيدة الردهة نحوي، وعرّفت عن نفسها بالمحققة كولمان. كانت امرأة سوداء تبلغ من العمر أربعين عامًا تقريبًا، وكان شعرها قصير جدًا مثل شعور الرجال. لا أعرف لماذا تفعل النساء هذا النوع من الأشياء، فهو ليس جذابًا على الإطلاق. على أي حال، قالت إنها تحقق في حادثة الاصطدام والهرب التي حدثت قريبًا جدًا من صالة البولينغ. أدركت على الفور أنها لم تكن من هنا، لكني لم أتمكن من تتبع لهجتها. «هل كنت تعمل يوم الأحد يا سيد بيكر؟» سألتني.

قلت: «بالتأكيد. مثل أي يوم أحد آخر».

دوّنت اسمي في دفتر ملاحظاتها الصغير، وراحت تمطرني بجميع أنواع الأسئلة، مثل متى أفتح وأغلق، وهل رأيت أي شيء غير عادي أو مريب، أي شيء على الإطلاق. فكرت في الأمر بينما قمت بفصل سلك المكنسة

الكهربائية ولفه بإحكام حول الخطاف في الخلف. قلت: «كانت مجرد ليلة عادية».

سألتني: «هل لديك أي كاميرات مراقبة؟».

كدت أنفجر ضاحكًا. قلت: «هذه ليست شيكاغو. نحن بلدة صغيرة هادئة. ولا نحتاج حقًا إلى هذا النوع من الأشياء هنا».

«لا كاميرات إذًا؟».

«لا».

صمتت لبعض الوقت، ورأيت أنها أصيبت بخيبة أمل من إجاباتي. سألتني» «ماذا عن عملائك؟» هل هناك فرصة للتحدث معهم؟ ربما رأى أحدهم شيئًا ما.

وقع الحادث ليلة الأحد، وعادة ما تكون ليلة مزدحمة بالنسبة لنا، وقد أغلقنا أبوابنا يوم الاثنين، لذا بحلول صباح الثلاثاء، عندما كانت تسألني كل هذه الأسئلة، لم أستطع أن أتذكر من كان هنا. «أنا لا أراقب عملائي».

«ربما يمكنني الاطلاع على فواتيرك من تلك الليلة؟».

حشرت يدي في جيبي، وعبثتُ بفكة النقود. سألتها «هل هذا قانوني؟».

«أجل، إذا سمحت لي».

لم أقتنع، لكنها طلبت ذلك بلطف ولا أمانع أبدًا مساعدة الشرطة. إن وظيفتهم صعبة، وأحيانًا لا تحظى بالامتنان الكافي. قلت: «حسنًا. أعطني دقيقة فقط». أدخلت المكنسة الكهربائية في خزانة الأدوات وسرت إلى مكتبي في الخلف، فتبعتني عن كثب. «في أي ساعة تبحثين؟» سألتها.

«لا وقت محدد. أي شخص جاء إلى هنا في تلك الليلة».

جلست على مكتبي وتصفحت منظم الأوراق الأزرق بجوار الكمبيوتر. لم أعد شابًا بعد الآن، وحتى مهمة صغيرة مثل كنس السجادة يمكن أن تشعرني بالملل، لذلك أخرجت منديلي ومسحت العرق عن جبيني أثناء فرز الأوراق. كان هناك الكثير من الإيصالات النقدية من ليلة الأحد تلك، لكنني وجدت ست أو سبع قسائم بطاقة ائتمانية وسلمتها إلى المحققة، فالتقطت

صورة لكل واحدة بهاتفها. قلت لها: «نحتاج حقًا إلى إشارة توقف عند هذا التقاطع».

«يجدر بك أن تخبري رئيسك بذلك».

«أخشى أن هذا ليس من اختصاص عمله».

«أستميحكِ عذرًا؟».

«هذا شيء يقرره مجلس المدينة».

«صحيح. كنت أقول فقط، هذا كل شيء».

وضعت هاتفها في جيبها. «ماذا عن موظفيك؟».

قلت: «هل تقصدين بيتي؟». عملت بيتي على ماكينة تسجيل المدفوعات النقدية، وما لم تقم بعملية بيع، كانت دائمًا على هاتفها، أو تلعب سوليتير. ولا بد أنها لم ترَ أي شيء. «إنها لا تبدأ حتى الثالثة. يمكنك التحدث إليها لاحقًا».

قالت كولمان وهي تناولني بطاقتها: «حسنًا. إذا تذكرت أي شيء آخر يا سيد بيكر، اتصل بي من فضلك».

عدنا عبر الردهة معًا. كان مصباح الممر 3 يومض، مما يعني أنه يتعين عليّ فحص الأسلاك مرة أخرى، وهو مصدر إزعاج كنت أتعامل معه منذ أسابيع. عند المدخل، فتحت الباب لكولمان، ثم وقفت خلف الزجاج أشاهدها وهي تعود إلى سيارتها. لم أكن قد رأيت محققات من قبل سوى في البرامج التلفزيونية.

نورا

جاء هديل الحمامة من العش فوق المكيف الصحراوي. كان صوتها قد أيقظني في وقت سابق من الصباح وأنا الآن مستلقية على الفراش، أشاهد عنكبوتًا يتسلق حاجز النافذة، والسماء خلفه زرقاء لامعة. راح العنكبوت يتحرك برشاقة وتروٍّ، غير مهتم بالماضي أو المستقبل، فكلاهما سيان. مرت تسعة أيام الآن، لكنني شعرت بأنني عالقة، وكأنني سمعت بفاجعة موت والدي للتو. في التقليد الإسلامي، تستمر فترة الحداد أربعين يومًا. لماذا أربعين؟ لأن نبي الله موسى قضى أربعين يومًا بدون خبز أو ماء قبل أن تنزّل عليه الوصايا العشر على جبل سيناء. وبين معموديته وعودته إلى الجليل، ظل يسوع في البرية أربعين يومًا يقاوم الإغواء. وكان النبي محمد في الأربعين من عمره عندما اعتكف في غار حراء، وظهر له الملاك جبريل. إن الأربعين رقم بارز، فهو بمنزلة وعد بأن اليسر يتبع العسر، وأن نذير الشؤم ستتبعه بشرى سعيدة. لكن حزني لن ينتهي في أربعين يومًا، أو أربعين أسبوعًا، أو على الإطلاق كما يبدو. كل ما تبقى من والدي هو الذكريات، وكل منها ضبابية مثل الدخان.

فكرت في زيارته الأخيرة لي الربيع الماضي، عندما جاء ليشاهدني أعزف في الحدائق النباتية. كان يرتدي بدلة مقلمة وربطة عنق سوداء. وبينما كان ينظر إلى انعكاس صورته في المرآة الكبيرة في ردهة شقتي، قال: «انتظري يا نور عيني». كنت بالفعل عند الباب، وأنا أضع مجلد موسيقاي تحت إبطي، وأهم بإطفاء المصباح. «انتظري يا نور عيني». خلع والدي سترته وجلس على مقعد البيانو الخاص بي ومسح نعليه حتى لمعا، فقد أراد أن يبدو في أفضل حالاته للحفل. لطالما أراد أن يظهر في أفضل حالاته عندما يغامر بتغيير ملابس عمله، وكأن أي رحلة إلى العالم الأوسع - العالم الأكثر بياضًا - هي اختبار قد لا يجتازه يومًا ما، ما لم يكن حريصًا. في الحدائق النباتية، طلب من أحد المارة أن يصورنا ونحن نقف بجانب خيمة عليها اسمي. تُرى، أين هي تلك الصورة الآن؟ في الدرج أسفل نافذة غرفة نومي؟ أو في مكان ما على المكتب الذي أتشاركه مع مارغو؟ سأضطر للبحث عنها عندما أعود. كنت بحاجة للعودة إلى ألحاني الجديدة أيضًا؛ إذ أريد الانتهاء منها بالتزامن مع المواعيد النهائية للزمالة.

ثم رن هاتف الكوخ، ففزعت. كان هاتفًا أرضيًا قديم الطراز وذا صوت صاخب ومزعج. نهضت عن الفراش لأرد، وأمسكت السماعة بإحدى يدي، ورحت أفرد السلك بالأخرى. سمعت صوت طقطقة على الخط. «هل يمكنني التحدث إلى السيد غراري؟» سأل رجل، بصوت عالٍ، ولهجة أنثوية أوروبية لم أستطع تمييزها.

صححت له النطق وقلبي ينبض: «الغراوي».

«عذرًا، من الصعب تبين خط اليد في هذا الطلب. ليس لدي سوى نسخة كربونية أمامي. هل السيد الغراوي في المنزل؟».

«لا، إنه ليس هنا. لقد توفي».

سادت لحظة من الصمت على الجهة الأخرى من الخط. أثناء ذلك، استعدتُ صدمتي من نبأ موت والدي، ورؤيته في كفنه، وكم كانت بشرته باردة عندما لمستها، والحزن والغضب اللذين يغمران قلبي.

قال الرجل: «أنا آسف. لم أكن أعرف. لقد اتصلت برقم الهاتف المحمول الذي تركه لي، لكنه أحالني إلى البريد الصوتي، ولم يرد أحد حتى اليوم».

«ألم يعطك رقم المنزل؟».

«لا. هذا فقط». بعد لحظة، تنفس الرجل أنفاسه مرة أخرى. «مع من يجب أن أتحدث بشأن الحصول على أموال مقابل تسوية حساب؟».

«أي حساب؟ أنا آسفة، من أنت مجددًا؟».

«حساب خاتم الخطوبة الذي طلبه في أبريل. معكِ موريس من تصميمات موريس ودانا».

واجهت مشكلة في استيعاب عبارة خاتم الخطوبة، فقد بدت وكأنها تنتمي إلى لغة لا أتحدثها أو أفهمها، واستمر هذا الشعور حتى بعد أن دوّنت عنوان محل المجوهرات، وتوجهت إلى بالم سبرينغز للعثور عليه، ووجدت موريس في الداخل. تشبثتُ باحتمالية وجود سوء فهم، وأن والدي قصد «خاتم الذكرى السنوية»، مع أن والدتي أصيبت بحساسية تجاه المنظفات منذ بضع سنوات ولم تستطع ارتداء خواتم من أي نوع. «أنا هنا من أجل الخاتم»، قلت بأنفاس متقطعة أثناء دخولي إلى المتجر.

أومأ موريس برأسه وقد اغرورقت عيناه، وكأنه على وشك الحزن معي. كان قصيرًا جدًا - بالكاد يصل خصره إلى قمة المنضدة الزجاجية التي تفصل بيننا - ويرتدي خواتم ذهبية في آخر إصبعين من كل يد. ومن ملف بجوار ماكينة تسجيل المدفوعات النقدية، أخرج الإيصال وأظهره لي، فبرزت كلمتا خاتم الخطوبة من السطر الأول. «طلب هذا الخاتم منك بنفسه؟».

قال موريس «أجل. كان واضحًا جدًا بشأن ما يريد؛ شيء أنيق لا يصدأ. لم يعجبه أي شيء لدينا هنا، لذلك كان علينا أن نصنعه حسب الطلب. ولهذا السبب استغرق الأمر وقتًا طويلًا».

حاولت أن أتخيل والدي يقف مكاني، وينظر إلى جميع الخواتم المعروضة في هذا المتجر. لا شيء هنا كان جيدًا بما يكفي لعشيقة، أو حبيبة، أو من ستصبح خطيبته. لا، لا بد أن ثمة خطأ ما. شعرتُ أن موريس يتحدث عن رجل آخر، رجل غريب؛ إذ كيف يمكن لأبي أن يفعل شيئًا كهذا؟ وهل عرفت والدتي أنه كان يستعد لتركها؟ لم تُظهر الأيام القليلة الماضية أنها كانت على علم بعلاقة ما. سألته: «لمن الخاتم؟ هل تعرف اسم المرأة؟».

«لا، أنا آسف. لقد جاء وحده. لم أواجه موقفًا كهذا من قبل». راقبني موريس للحظة، ثم أزال الحشرجة من صوته. «بشأن الحساب. لقد سدد والدك النصف، والنصف الآخر كان مستحقًا عند الاستلام». وضع صندوق المجوهرات أمامي. خاتم الماس سوليتير، قطع الأميرة. كان داخل الخاتم ثلاث كلمات ثمينة، محفورة بخط متصل. «المجموع 3250 دولارًا».

«لا يمكنني دفع ثمنه. أنا آسفة، حقًا لا أستطيع».

«لكن لا يمكنني بيع هذا الخاتم لأي شخص آخر، ليس وعليه نقش بالفعل. ماذا يفترض بي أن أفعل؟».

«لا أعرف». دفعتُ صندوق المجوهرات عبر المنضدة الزجاجية وخرجت من المتجر. وأثناء وقوفي في ساحة انتظار السيارات، تساءلت عما إذا كانت المكالمة الهاتفية التي أجراها والدي بي يوم وفاته تتعلق بهذا الأمر. هل كان سيعدّني لما كان على وشك فعله؟ جاء صوت خطى متسارعة من الخلف.

صاح موريس: «انتظري يا آنسة».

بيد أني ركبتُ سيارتي وغادرت. وأثناء عودتي إلى وادي يوكا، استعدت ذكريات الحرب الباردة بين والديّ، والصمت الطويل الذي أعقب ذلك، الذي

حسبته سلامًا. ولكن بدلًا من ذلك، تعمق الخلاف بينهما. تذكرت الآن أنه في أكتوبر الماضي، دعت سلمى والديّ لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في بحيرة تاهو، ولكن والدي اعتذر في اللحظة الأخيرة قائلًا إنه مشغول جدًا. وفي عيد الشكر، اختفى لبضع ساعات ولم يتمكن أحد من الوصول إليه. إذا كانت هذه علامات على علاقة غرامية، فلم تلفت انتباهي.

من كانت المرأة؟ ومنذ متى كان يراها؟ وهل أحضرها إلى الكوخ؟ هل نام معها في الفراش الكبير، ذاك الذي كنت أنام فيه قبل ساعتين؟ اختفت كل الحقائق التي عرفتها عنه ذات مرة. وغمرتني مشاعر لم أتمكن من التعبير عنها بالكلمات بعد. في أوج حيرتي، كان الشيء الوحيد الذي شعرت به بوضوح هو ثقل سره؛ ويتعين عليّ أن أحمله الآن. لا أستطيع إخبار والدتي عن ذلك، لأنه سيفاقم حزنها فقط، ولا يمكنني الوثوق بشقيقتي، لأنها تخبر والدتي بكل شيء.

إدريس

أدرك كيف يبدو هذا؛ فامرأة مثلها، صغيرة بما يكفي لتكون ابنتي. لكنها لم تكن وضيعة أو وقحة. ولم أطاردها أو أقطع الوعود لها. ولم يكن حبًا من النظرة الأولى أيضًا. لم يحدث ذلك فجأة أو خلال لحظة سحرية، بل حدث ببطء، يومًا بعد يوم. دخلت هي المطعم صباح أحد أيام الأحد، وجلست على المنضدة، وطلبت وجبة فطور مميزة. وبسبب قبعة القش عريضة الحواف التي علقتها على ظهر كرسيها، حسبتها سائحة تقضي عطلة نهاية الأسبوع، لكن عندما أحضرتُ لها البيض والبطاطس المقلية التي طلبتها، سألتني إن كنتُ أعرف ما إذا كان متجر الأجهزة على بعد شارعين من المطعم يفتح أبوابه أيام الأحد. كانت بحاجة لشراء طلاء لألواح أرضيتها.

جاءت مرة أخرى في الأسبوع التالي. بدأنا التحدث معًا، فاكتشفتُ أنها من سان يسيدرو، على بعد بضعة أميال شمال الحدود مع المكسيك، وحتى وقت قريب كانت تعمل كنادلة، ولكن بعد انفصال مؤلم عن رجل كانت معه منذ المدرسة الثانوية، قررت أن تبدأ حياتها من جديد. فارتأت أن تنتقل إلى الصحراء، وتفتح متجرًا لبيع الملابس الكلاسيكية. أثناء نشأتها، كانت تتسوق دائمًا من متاجر التوفير أو الصدقة، ونتيجة لذلك، تعلمت اكتشاف الملابس الأنيقة وغير المكلفة. قالت: «أرى ما لا يراه الآخرون». وقد لاحظتُ أنها تتمتع بذوق جيد، من الفستان الكتاني الذي كانت ترتديه، والمنديل الأحمر حول رقبتها، والساعة ذات الرباط الجلدي على معصمها. لكن ما جذبني إليها حقًا هو هدوء ابتسامتها.

استأجرت مساحة تجارية بالقرب من متاجر التحف في شارع 62. في هذا الامتداد الصغير يقف السياح ومرتدو الملابس الكلاسيكية دائمًا في طريقهم لحضور الحفلات الموسيقية في بلدة بايونير. وراحت تعمل على تجديد المكان والاستعداد للافتتاح الكبير. كنت أعرف كيف يبدو ذلك؛ بدء عمل تجاري في مدينة جديدة، لذلك حاولت المساعدة. ذهبت معها لرؤية المكان، وأعطيتها رأيي بشأن المقاولين المحليين، الذين يمكن الوثوق بهم، ومن كان دقيقًا في مواعيده ومن منهم فوضوي. وضعت نصيحتي بعين الاعتبار، فأخذت بعضها وتجاهلت البعض، لكنها كانت تستمع دائمًا إلى ما أقوله. لقد نسيت كيف كان ذلك؛ أقصد أن يستمع أحد إليك. وكان اسمها بياتريس.

لن أطلب منكم تفهّم ما حدث. أريدكم فقط أن تتخيلوه. كنا نقف في منتصف المتجر، وضوء الصباح يتدفق من النوافذ، ورحنا نتحدث عن ورق الحائط. كانت عدة مواضع ملطخة أو متقشرة، خاصةً عند الأبواب الأمامية والخلفية، لذلك أوصيت بمقاول محلي للقيام بمهمة شاقة تتمثل في نزع ورق الحائط وإعادة الطلاء. مررت بياتريس يدها على الورقة، التي كان عليها نقش لنبات الكرمة الوردي على خلفية خضراء فاتحة. قالت: «أنت محق في وجوب إزالته، لكنني سأحتفظ به في هذه البقعة». في تلك الزاوية الصغيرة، كان ورق الحائط في حالته الأصلية، وبدا مثاليًا لعرض إكسسوارات الشعر العتيقة ومجوهرات الأزياء. دوّنتُ اسم المقاول على ظهر بطاقتي التجارية وناولتها إياها. وعندما أخذتها مني، التقت أعيننا وابتسمت. تلك هي اللحظة التي أعود إليها دائمًا عندما أحاول فهم ما حدث بيننا.

أبلغ من العمر واحدًا وستين عامًا الآن، وأنا جد بالفعل. وقضيت مع زوجتي مريم أكثر من نصف حياتنا، واعتقدت أننا سنقضي النصف الآخر معًا. لقد تجادلنا كثيرًا، خاصة في السنوات القليلة الماضية، لكن لم يكن هذا السبب في تباعدنا. الحقيقة هي أننا كنا دائمًا مختلفين، منذ البداية. كنا قد التقينا في عام 1978، في اجتماع للعاطلين عن العمل بالجامعة في الدار البيضاء. كنت هناك لأنني أردت وضع حد للفساد الحكومي، ومدارس أفضل، وأجورًا عادلة، وأشياء من هذا القبيل، في حين أنها جاءت للعثور على صديقة استعارت منها كتابا دراسيًا ولم ترجعه قط. لقد كنتُ مدفوعًا بشعور من التفاؤل، والذي لا أعتقد أن مريم تشاركته معي على الإطلاق؛ فلطالما تحلت بالواقعية. عندما اعتقلت الشرطة إبراهيم وكريمة وآخرين مثلهما، أردتُ البقاء في الدار البيضاء ومواصلة النضال، لكن مريم أرادت الانتقال إلى هنا.

كان علينا أن نفعل ما تريده دائمًا؛ فلم تقبل التنازل قط. أتذكر ذات مرة، عندما كنا لا نزال متزوجين حديثًا، ذهبنا إلى سوق الأقمشة لشراء الستائر. كانت شقتنا في الطابق الأرضي من بناية استعمارية، لكنها كانت تواجه بنايات تجارية من جميع الجوانب، ولم يصلها إلا القليل جدًا من ضوء الشمس. اتفقنا على الستائر الشفافة لأنها ستسمح بدخول القليل من الضوء، وتمنحنا بعض الخصوصية، ولن تكون باهظة الثمن. عرض صاحب المتجر عينة بعد عينة، في حين راحت مريم تهاجمه بالأسئلة: بكم هذا، وبكم هذه، هل تطلب حقًا هذا المبلغ، هل لديك هذا بألوان أخرى. ثم اختارت الستائر الدمشقية. قلت: «لكن هذه ستحجب الضوء».

أجابت: «إن زخرفتها جميلة».

حاولت أن أتخيل غرفة معيشتنا مع تلك الستائر، لكني لم أستطع. في عطلات نهاية الأسبوع، كنت أحب الجلوس بجوار النافذة وقراءة الصحف، لكن مع هذه الستائر أدركت أنني سأضطر للجلوس في الشرفة أو الذهاب إلى مقهى لمجرد الاطلاع على أخبار الصباح. «هل تحبين شيئًا بزخرفة؟» قمت بفرد عينات القماش على المنضدة. «ماذا عن هذا الدانتيل؟ إن له زخرفة».

«لا أحب الدانتيل».

«لنترك الدانتيل. دعينا نجرب القطن إذًا. سيسمح ببعض الضوء».

لكن مريم لم يعجبها أي من الأقمشة التي اخترتها، لذا استسلمتُ في النهاية. اشترينا الستائر التي أعجبتها وعدنا إلى المنزل. ثم أحضرتُ السلم وأخرجت أدواتي، لكن في كل مرة أحدث فيها ثقبًا، كانت تخبرني أنه يجب تحريك القضيب لأعلى أو أسفل قليلًا. وعندما رُكبت الستائر أخيرًا، كانت هناك خمسة ثقوب في الحائط والقضيب مائل إلى اليسار. لا أعرف لماذا أتذكر هذا بعد سنوات عديدة، فهو شيء تافه. ربما لأنني أحاول فهم ما حدث بنفسي. كل ما أعرفه هو أن الحياة قصيرة. ومن دون أن أدرك ذلك، كنت أعبر الطريق منذ الولادة حتى الموت مع الرفيقة الخطأ. لكنني وجدت الآن المرأة المناسبة، ولم أرغب في التخلي عنها.

كولمان

دخلت ابنة الضحية إلى المكتب وعيناها تنبئان بأن لديها بعض الأخبار. استغرق الأمر منها بعض الوقت حتى تدخل في صلب الموضوع، وربما كان حريًّا بي أن أتحلى بالصبر أكثر معها، ولكن صباحي كان عصيبًا. لقد اكتشفت أن مايلز رسب في الرياضيات، وهو ما أثار حنقي لأنها كانت أفضل مواده عندما كنا نعيش في واشنطن، والآن لديه مادتي رسوب في مرحلة ما قبل الجبر. في هذه الأثناء، سألتني سيدات رابطة الآباء والمعلمين عن إمكانية حضوري حفل الصف السابع، لكن كان عليّ أن أرفض لأن لديّ اجتماعًا ليلتها. أيقنتُ أنني قد ضيعت فرصتي الأخيرة معهم، ولن يقبلوني أبدًا في رابطتهم. ولكي تزداد مشكلاتي، كان فاسكو يضغط عليّ بشأن حادثة الاصطدام والهرب، بعد أن هاجمته وسائل الإعلام المحلية بشأن حادثة اعتداء من جانب الشرطة في وقت سابق من فصل الربيع، لذا، فهو في حاجة ماسة إلى بعض الأخبار الجيدة. كان بالي مشغولًا عندما جاءت نورا الغراوي لتتحدث إليّ في ذلك الصباح. تململت في مقعدها، وشربت كوب الماء الذي طلبته، وراحت تفتح وتغلق قفل ساعتها ذات السوار. فكرت في كومة الأعمال الورقية على مكتبي، كل تلك السيارات الفضية التي تنتظر أن يجري فحصها والتحقق منها. «ماذا يمكنني أن أفعل لك يا آنسة الغراوي؟».

«من فضلك، نادِني نورا».

«ما الذي يمكنني أن أفعله من أجلك؟».

واصلت العبث في ساعتها، فمرت دقيقة أخرى. «لقد حصلت على بعض المعلومات».

«حسنًا» قلتُ في نفسي إن هذا يجدر به أن يكون جيدًا.

«لا أعرف ما إذا كانت ذات صلة بالقضية».

«لماذا لا تخبرينني ما هي؟ ويمكننا أن نقرر ما إذا كانت ذات صلة لاحقًا».

«كان والدي منخرطًا في علاقة غرامية».

هكذا إذًا.

«لا تبدين متفاجئة».

«هذه الأشياء تحدث».

«لكنك كنت تعلمين؟».

«أجل».

«كيف؟».

«رسائل نصية على هاتفه الخلوي».

«لم يكن مقفلًا؟».

«لا».

«حسنًا، هذا غباء».

أردت أن أقول إن الحب ليس ذكيًا. لقد رأيت هذا من قبل؛ أناس يفعلون أغبى الأشياء التي يمكنك تخيلها، بدافع الحب أو الشهوة أو سمه ما شئت، معتقدين أنهم سيفلتون بفعلتهم لأنهم مميزون. والحمد لله على ذلك، وإلا فلن يجري القبض عليهم أبدًا.

«من المرأة؟».

«لا يمكنني القول».

«لماذا؟».

«بدافع الأمن والخصوصية، فضلًا عن أن من واجبي الحفاظ على نزاهة هذا التحقيق». سمعتُ نقرة على نافذة غرفة الاجتماعات فرفعتُ عيني. كان مورفي يحمل زجاجة من عصير الليمون البارد. «هل تريدين واحدة؟» تكلمت شفتاه. هززت رأسي بالنفي، مع أنني شعرت بجفاف في حلقي. في عطلة نهاية الأسبوع السابقة، أوصلت مايلز إلى مباراة البيسبول التي أخبرني عنها مورفي، في حديقة المجتمع. كان مورفي هناك مع ابنه براندون. لم أعرف إذا كان قد أعد براندون مسبقًا، لكن الفتى ذهب مباشرة إلى مايلز وبدأ في التحدث إليه. كان مايلز قد كبر بمقدار 30 سم خلال العام الماضي، مما جعله يبدو غريبًا، وكأن دماغه منفصل عن جسده. وقد أصبح صوته أعمق أيضًا، ولم

يكن معتادًا عليه، ولعله السبب وراء كونه هادئًا طوال الوقت. لكنه تبع براندون إلى الميدان، وكلما مر الوقت، اندمج أكثر. بعد برهة، جاء مورفي ليجلس بجواري على المدرجات، فتحدثنا قليلًا. هذا كل ما فعلناه. لكن عندما غادرت الميدان، راودني شعور غريب حيال الأمر برمته. «متأكدة؟». تحدث مورفي من الجانب الآخر من نافذة المكتب، حاملًا عصير الليمون. أومأت: «أجل أنا متأكدة».

«هل تلك المرأة متورطة؟».

«لا، فالمرأة المعنية - وهي شابة يافعة وجميلة جدًا - لديها حجة غياب قوية. لقد جرحت نفسها في تلك الليلة أثناء تقليم نباتاتها وحصلت على غرزتين في غرفة الطوارئ وقت وقوع الحادث. وعندما أجريتُ مقابلة معها، كان كل ما تحدثت عنه هو كيف أحبها الرجل العجوز، وأنه سيترك زوجته من أجلها، وكيف كانا يعدان للانتقال معًا. لم أستطع رؤية دافع للقتل. لقد كان طريقًا مسدودًا بالنسبة لي».

«أخبريني باسمها رجاءً».

«لا يمكنني ذلك».

أستطيع القول إنها ستحاول اكتشاف الاسم بأي طريقة، وهو ما لا ألومها عليه، لكنني لم أرغب في أن يتسبب هذا في فوضى.

«نورا»، قلت بلطف قدر المستطاع. «ما الفرق الذي سيحدث إذا عرفتِ؟ «لن يغير أي شيء مما حدث».

«من الأفضل عدم معرفة ذلك».

«أفضل لمن؟ هذا ليس أفضل بالنسبة لي، يمكنني أن أخبرك بذلك».

«أنا آسفة».

«من تكون؟».

«لا أستطيع أن أقول».

«ولكن إذا كان صحيحًا أنها ليست متورطة، فما المشكلة في إخباري باسمها؟».

«لقد أوضحتُ بالفعل لماذا لا يمكنني فعل ذلك». كانت تحاول أن تدخلني في جدال، وربما تقنعني بقول المزيد، لكنني قاومت. راحت تعبث في سوار ساعتها مجددًا، لقد كان تشنجًا عصبيًا. «وما زال ليس هناك شهود جدد؟» سألتني.

«لا، ليس بعد».

«ثمة خطب ما. إذا كان هذا مجرد حادث فلماذا ولّى السائق هاربًا ولم ينتظر الشرطة؟ لماذا لم يرَ أي شخص أي شيء؟».

«هذا ما أحاول معرفته».

«ماذا لو عرضت مكافأة؟ هل سيساعد ذلك؟».

لقد ساعد أحيانًا، وفي أحيان أخرى سبب إزعاجًا فحسب. إن من يحلمون بالحصول على مكافأة لن يتورعوا عن اختلاق التفاصيل. سيستغرق الأمر مني أسابيع للتحقق من كل تلك السيارات الفضية من طراز فورد، والمكافأة ستسرع الأمور على نحو كبير. كانت هذه فرصتي لتغيير مجرى الحديث. «كم ستعرضين؟» سألتها.

«خمسة وعشرون ألف دولار؟ هل هذا كافٍ؟».

قلتُ في نفسي *هذا كثير بالنسبة لمعلمة*. على الأقل اعتقدت أنها معلمة. لم تتحدث والدتها بوضوح بشأن ذلك، فقد كانت مشغولة جدًا بإخباري عن الابنة الأخرى، طبيبة الأسنان. عندما كان مايلز طفلًا، أردنا أنا وراي إنجاب طفل آخر، لكن كلينا ركز على حياته المهنية ولم ينجح الأمر قط. ثم أصبحنا أكبر من أن نحاول. لذلك لم أعرف كيف يبدو الوضع عندما يكون لدي طفلان، وخاصة ابنتان. ربما لم تستطع الأم إلا أن تكون أكثر فخرًا بطبيبة الأسنان بسبب وظيفتها المرموقة وتوأمها الرائعين. أنا نفسي كنت مجرد مراقبة للأحداث، لكن لم أستطع منع نفسي عن المقارنة بين الابنتين. كانت أصغرهما الوحيدة التي تتصل بي كل يوم لتسأل عن القضية. في البداية، أزعجني هذا، لكنني الآن معجبة بها، إنها تحاول المساعدة فقط. قلت: «خمسة وعشرون ألفًا مبلغ رائع». لم أتمكن من إخفاء ابتسامتي، على الرغم من صعوبة الظرف. وأضفت: «سيتعين علينا نشر إعلان رسمي في الصحف والراديو. ويمكننا حتى طباعة بعض الملصقات».

نورا

إن مشاركة تفاصيل حياة والدي مع شخص غريب تتعارض مع كل قناعاتي، لكنني فعلت ذلك، على أمل أن تمنحني المحققة في المقابل فكرة قد تفتح لغز علاقته الغرامية، حتى لو كان ذلك مجرد اسم. في نهاية المطاف، يمكن للأسماء أن تحكي القصص. إذا كان اسمها فاطمة، على سبيل المثال، فربما التقى بها والدي من خلال أصدقائه المغاربة في لوس أنجلوس. وإذا كان اسمها جينيفر، فلا شك أنها أصغر منه بعقود، وربما التقى بها في حانة أو صالة ألعاب رياضية. أما إذا كان اسمها غوادالوبي، فأراهن على أنه حاول إثارة إعجابها بطلاقته في اللكنة الإسبانية القشتالية. لكن بغض النظر عن مدى سؤالي عن المرأة، فلم تتأثر كولمان.

عندما خرجت من مركز الشرطة، كان الوقت مبكرًا بعد الظهر. هبت رياح جافة وحارة من الشرق، فتطاير شعري بعنف على وجهي، فاضطررت إلى تنحيته بيدي كي أرى طريقي عبر ساحة وقوف السيارات. وقد شعرت بطعم الغبار في فمي. ركبت سيارتي، وشغّلت المحرك، وانتظرت بدء عمل مكيف الهواء. وعلى الجهة المقابلة من الساحة، وقف نائبا عمدة معًا تحت ظلال شجرة نخيل يدخنان ويتحدثان، ولم يبدُ أنهما منزعجان من الحرارة والرياح. راقبتهما للحظة، ثم نزلت من السيارة وعدت إلى مركز الشرطة. «هل يمكنني التحدث إلى النائب جوريكي؟» سألتُ موظفة الاستقبال.

أبعدت طرف شعرها عن عينيها. «من الذي يسأل؟».

«نورا».

«اسم العائلة؟».

«غراوي. غ - ر - ا - و - ي».

بدت محرجة، لكنها سرعان ما طلبت مني أن أجلس. عرضت شاشة التلفزيون في البهو الأخبار المحلية، مع كتم الصوت وتشغيل الترجمة النصية: *اجتمع مجلس المدينة لمراجعة طلبات التمويل للعام المقبل؛ ستؤدي إصلاحات الخطوط الكهربائية إلى وقف جزئي لمحطة يوكا طوال الغد؛ سيُجري سلاح مشاة البحرية تدريبات بالذخيرة الحية في وادي جونسون. ثم*

عُرضت الإعلانات التجارية. كنت على وشك المغادرة عندما فُتح الباب وخرج جيريمي. كانت هناك بقايا خردل عند زاوية فمه. قلت: «لم أقصد مقاطعة غدائك».

قال وهو يمسح فمه: «لا عليكِ. هل كل شيء بخير؟».

أومأتُ برأسي، مع أن لا شيء على ما يرام. بدا طويل القامة ومهيبًا في زيه الرسمي، وهو انطباع تعززه كل الأشياء التي يحملها؛ البندقية، والعصا، ورذاذ الفلفل، والصاعق الكهربائي، وأي شيء آخر معلق على حزامه. لذا، وبطريقة غريبة، بدا ما قلته وكأنه اعتراف. «أردت فقط أن أعتذر عن تلك الليلة في مطعم ماكلين. لقد كنتَ على حق، ما كان يجب أن أحاول قيادة السيارة».

«لا بأس».

«لا، ليس كذلك. كان من الممكن أن أتعرض لحادث وألحق الأذى بشخص ما».

«لقد كنت تتألمين بشدة».

هذا صحيح، وما زلت كذلك. وقد زاد الألم الآن بإدراك أن والدي كانت لديه حياة سرية، جعلته يكذب ويخادع لأسابيع أو شهور أو حتى سنوات. لقد كان أكثر شخص أثق به في العالم، والآن يتبدى لي أنني لم أكن أعرفه حقًا. كان حريًا بي ألّا أرد على الهاتف اللعين في الكوخ، ليتني تركته يدق. شعرت بالدوار من مأساتي.

«هل ترغبين في فنجان من القهوة؟» سأل جيريمي وهو يلمس ذراعي.

لقد تمنيتُ التخلص مما يثقل كاهلي، وإخباره بكل شيء اكتشفته، ومدى إحباطي بسبب ما يخفى عليّ بعد. خلف النافذة الزجاجية، جلست موظفة الاستقبال تنظر في أوراقها، لكنها كانت تسترق السمع بعناية. فُتحت أبواب المصعد وخرج رجل يحمل شارة شرطة مثبتة في حزامه، ونظر إلينا وهو يمر بجوارنا. «شكرًا»، قلت وأنا أستعيد توازني. «لكن يجب أن أذهب حقًا».

«اعتني بنفسك»، قال وأنا أنزل الدرج إلى الأبواب الزجاجية.

اشتدت الرياح في الخارج، فاهتزت نوافذ سيارتي وتناثر الغبار وسعف النخيل عبر الطريق السريع، ومع ذلك لم يستغرق الأمر سوى بضع دقائق للعودة إلى الكوخ. كان السرير الكبير أول ما وقعت عيناي عليه عندما دخلت. منذ متى كان والدي ينخرط في العلاقة؟ كيف فعل هذا بأمي بعد سبع وثلاثين سنة من الزواج؟ لأول مرة، لم أفكر فيه على أنه الأب الذي اصطحبني إلى درس البيانو كل يوم خميس، ولكن باعتباره الرجل الذي يتسلل إلى الكوخ كلما واتته الفرصة. لم أستطع تحمل فكرة النوم على المرتبة حيث نامت تلك المرأة، أو لمس الفراش الذي استخدمته؛ فاستدرت وخرجت.

توجهت إلى متجر الأثاث كي اشتري مرتبة جديدة، ودفعت رسومًا إضافية للحصول عليها في نفس اليوم. ثم توقفت عند متجر وول مارت لشراء وسائد وأغطية ومناشف جديدة. كنت أعاني حالة من الهوس الشديد، وكأنني من خلال التخلص من بعض القطع البالية من الكوخ، يمكنني إخفاء الأسرار التي كشفتها. ولكن عندما تخلصتُ من كل ما تبقى من علاقته الغرامية، جلست وحدي في الكوخ، وأنا لا أستطيع أن أنسى ما عرفته عنه.

أخرجتُ حاسوبي المحمول وفعلت شيئًا لم يخطر ببالي مطلقًا أن أفعله: بحثت عنه في محرك جوجل، فظهر اسمه في قائمة تجارية تخص المطعم، يعود تاريخها إلى وقت شرائه. باختصار، ورد اسمه في مقال بصحيفة هاي - ديزرت ستار من عام 2010، بعد أن اقتلعت عاصفة شتوية شجرة نخيل وتركت بقاياها على الطريق السريع بالقرب من المطعم. كان لديه أيضًا حساب في موقع لتحديد النسب؛ إذ يبدو أنه كان يبحث في تاريخ عائلته لبعض الوقت، وتتبعه من الدار البيضاء إلى قبيلة في الشاوية. هذا ما كنت أفعله أيضًا، بالبحث في ماضيه.

لكن لم تكن حياة والدي فقط التي رأيتها من منظور جديد، بل وحياتي أيضًا. في سنتي الأولى في ستانفورد، انضممت إلى فرقة موسيقى الجاز التي اجتمعت في قبو كنيسة على بعد 800 متر من الحرم الجامعي. وفي أحد الأيام، خرجنا من التدريب مع عازف البوق، فالتقينا بصديق له، وهو طالب في السنة الأولى طويل القامة ونحيف وذو شعر بني وابتسامة هادئة. كان اسمه بيكيت بيرك، وقد تخرج من جامعة هارفارد ويستليك، وقضي بانتظام إجازة الشتاء في سويسرا وعطلة الربيع في كوستاريكا، وكان يخطط للعمل في منظمة تقدم خدمات منع الحمل وتحصين مناعة الرضّع في أوغندا. كان مجرد ذكر اسم هذين البلدين، وهو ما فعله بيكيت ارتجاليًا أثناء طلب وجبة من مطعم بيروفي أخذني إليه في مواعدتنا الأولى، يحبس أنفاسي. وبعد أسبوعين، اصطحبني إلى شقته وأفقدني عذريتي. ولم أمانع ممارسة الحب على عجل

وبلا متعة، مع أنه كان يفترض بي أن أمانع. لقد شعرت بالإطراء لأنه أظهر الاهتمام بي، وكم كنت فخورة بالوقوف بجانبه في الحفلات، غارقة في هدوئه الدافئ. وضع يده على ظهري، وقدمني على أنني «الجميلة نورا الغراوي» فأثار وقع اسمي على شفتيه، بتشديده نطق حرف الراء بشكل مبالغ فيه، إعجابي. ما الذي كان يريده مني فتى محنك مثله؟ ولد يعرف بالضبط ما يريد أن يفعله في حياته - إدارة المساعدات في البلدان النامية -.

لم أستطع التفكير في إجابة شافية لهذا السؤال، لذا رتبتُ حياتي وفقًا لرغباته. لم يحب بيكيت الشعر، فتوقفت عن الذهاب إلى عروض الإلقاء التي أصبحت أبرز أحداث أسبوعي وتبعته بدلًا من ذلك إلى المسرح المستقل حيث جرى عرض أفلام جديدة. في صباح يوم الأحد، كان يحب شرب القهوة وقراءة صحيفة نيويورك تايمز، لذلك سددت ثمن اشتراكي الخاص. في بعض الأحيان، بعد ظهر يوم الأحد، وكثير من التملق، كان يوافق على الذهاب معي في نزهة، لكنها عادة ما تكون قصيرة لأنه ما انفك يتذمر بشأن الطقس؛ إذ كان دائمًا حارًا جدًا أو باردًا جدًا أو ممطرًا جدًا أو أن المكان تغزوه الحشرات. وعندما بدأ بيكيت في إلغاء مواعداتنا أو ترتيبها في اللحظة الأخيرة، ألقيت باللوم على جدول أعماله المزدحم. ولما نسي الاتصال بي، لمتُ نفسي على كوني مملة. فقط حينما رأيته يسير في جادة أربورتم مع مارغريتا سمبريفيو، وهو يلف ذراعه حول خصرها النحيل، أدركت أخيرًا أنه انتقل إلى «الجميلة ريتا».

بطبيعة الحال، لم يكن هناك شيء غير عادي حول ما حدث؛ فالناس ينهون علاقاتهم طوال الوقت، لأسباب مختلفة. لكن الخيانة هزّت ثقتي بنفسي لدرجة أنني استغرقت خمسة عشر شهرًا قبل المواعدة مرة أخرى. كان سمير هانم مختلفًا تمامًا عن بيكيت، فمكان مثل جامعة ستانفورد يليق به. لقد نشأ في بلدة صغيرة في ولاية أوهايو، والتحق بمدرسة خاصة بالعلوم، وحصل على درجات ممتازة في اختبار الالتحاق الجامعة، لكنه لا يعرف ما هي جعة بوليني مونتراشيت أو مكان وجود كلية إيتون أو سبب عدم ارتداء الجوارب الرياضية مع الأحذية الرسمية. وقد تعرض مثلي لضغوط في مجال دراسته - هندسة البرمجيات في حالته - بواسطة أم تحطمت أحلامها وطموحاتها؛ فما أراد فعله حقًا هو صنع الرسوم المتحركة. لكن الرسوم المعلقة في الشقة التي تقاسمها مع اثنين من طلاب الهندسة الآخرين لم تكن لائقة للعرض في معرض فني، أو على الأقل بدت كذلك لعيني غير المدربة. لقد كان فتىً خجولًا وهادئًا يحب قضاء فترة بعد الظهر يوم السبت في مشاهدة المسلسلات التلفزيونية القديمة أو زيارة متاجر الكتب المصورة.

ومع ذلك، عندما كنا نتناول العشاء في الخارج وتمر فتاة جميلة، كانت عيناه تلاحقانها دائمًا. لماذا أفشل في الاحتفاظ بانتباهه؟ لقد استنزفني هذا السؤال وأصبحت مهووسة بمعرفة الإجابة الصحيحة. حصلت على تسريحة شعر جديدة، واشتريت ملابس عصرية، وقضيت ساعات في قراءة فرانك ميلر وآلان مور وجيم ستارلين حتى أتمكن من مواكبة المحادثات حول القصص المصورة. ومع كل تغيير جديد، يستقر انتباه سمير لبضعة أيام، ثم حين نكون في حفلة، ألاحظه وهو يحدق في فتاة أخرى. في النهاية، خانني هو الآخر مع فتاة بيضاء من فصل الخوارزميات. ولاحقًا، أطلقا شركة برمجيات معًا.

حتى ماكس، خطيئتي الحالية، كان مثلهما. الاختلاف الوحيد هو أنه كان يخون زوجته معي. في كلتا الحالتين، لم أكن كافية قط، ولم ألبي تطلعات الرجال. ظللتُ لسنوات أقول لنفسي إن كل هذا مجرد حظ عاثر أو أن ذوقي سيئ في الرجال. لكنني أتساءل الآن عما إذا كانت المشكلة أكثر تعقيدًا: فوالدي خان والدتي، وأحببتُ أنا رجالًا يخونون.

مريم

مرت الأيام، لكنني ما زلت أجد نفسي أخرج كوبين عندما أعد الشاي بالنعناع في الصباح، أو أبحث عن جوارب زوجي أثناء طوي الغسيل، أو أريده أن يناولني منشفة جديدة وأنا أخرج من الحمام. كانت هذه اللحظات الصغيرة مؤلمة، فقد ذكرتني أنني لم أعد زوجته، بل أرملته، وما زلت أحاول تقبّل الأمر. ولكن يجب مواجهة الحياة، حتى عندما لا يمكن قبولها. وبعد تلقيّ مكالمة هاتفية ثانية من مدير المطعم، كي يسألني عن موعد إعادة فتحه، وهو يقصد شيئًا آخر بالطبع - كان يلمح إلى أن الموظفين لديهم فواتير لدفعها وعائلات لإعالتها - أدركت أنه لم يعد بإمكاني تأخير الأمر المحتوم؛ لا بد أن أذهب إلى العمل.

في الخامسة والنصف من صباح اليوم التالي، عندما دخلتُ إلى ساحة انتظار السيارات أمام المطعم، وجدت الطباخ ينتظرني بالفعل، وهو يدخن سيجارة بجوار حاويات القمامة. لطالما حذره زوجي من فعل بذلك، لأن السيد بيكر، صاحب صالة البولينغ المجاورة، شكا كثيرًا من خطر نشوب حريق، لذلك طلبت من خوسيه أن يطفئ السيجارة، فدهسها بحذائه وتبعني إلى الداخل، ولم يتحدث إلي إلا بعد أن جاء أول الزبائن. جلس رجل عجوز على المنضدة، وهو يقرأ الكتاب المقدس وينتظر القهوة؛ واستقرت أسرة مكونة من أربعة أفراد عند طاولة بجوار النافذة، وولداهما يتجادلان حول حزم أقلام التلوين؛ في حين جلس زوجان يعتمران قبعتين متطابقتين في الزاوية، وهما يحدقان في هواتفهما. نظرتُ إلى الطاولة في الجزء الخلفي من المطعم، وبدلًا من أن أجد إدريس يحل الكلمات المتقاطعة أو يقرأ الصحيفة، كان الكرسي فارغًا.

سألني مارتي: «قهوة يا سيدة غراوي؟». على الرغم مما يعتقده الناس، فإن اسمي ليس مريم غراوي، بل مريم بوزيان، لكن الكثير من النساء في هذا البلد يحملن أسماء أزواجهن لدرجة أنني تخليت منذ فترة طويلة عن شرح أننا من عائلتين مختلفتين. كان مارتي أول من وظفه زوجي في متجر الكعك، وهو شاب بالكاد تخرج من المدرسة الثانوية وقتها، والآن لديه نظارة مزدوجة تتدلى حول رقبته، ومع ذلك لم يكن يعرف، أو ربما لم يتذكر، اسمي الحقيقي.

قلت له: «شكرًا»، وأخذت منه فنجان القهوة. بعد أن غادر، بقيت عند المنضدة لبعض الوقت، في محاولة لإقناع جسدي بإنجاز الواجبات التي

تنتظرني. كان ينبغي أن أزيل صندوق المصابيح القديمة الذي تركه إدريس في الردهة، وشراء المناديل وورق الحمام، وتحديد ما إذا كنا سنضع زينة يوم الذكرى هذا العام، ثم العثور عليها. لكن في النهاية، لم أستطع مواجهة أي من هذا، فحملت قهوتي إلى ماكينة تسجيل المدفوعات النقدية وجلست على الكرسي خلفها. يمكنني فعل هذا على الأقل؛ أن أحاسب الزبائن، أو أوزع النعناع، أو أهدي علب أقلام التلوين للأطفال.

في الخارج، نزل شابان يرتديان سترتين وينتعلان حذاءي تريض من سيارة مغبرة ووقفا في ساحة انتظار السيارات، وراحا يفحصان الإطارات كما لو كان هناك تسرب، ثم دخلا المطعم، وألقيا نظرة خاطفة عليّ أثناء سيرهما، وأخيرًا وجدا طاولة لهما. في غضون أسابيع قليلة، سينتهي فصل الربيع، ويرحل السائحون، وستعود المدينة إلى هدوئها المعتاد. ربما حينئذٍ لن تكون هناك حاجة إليّ في المطعم.

لكن هل سبق أن احتاج أحد إليّ حقًا؟ لقد اشترى زوجي هذا المطعم على الرغم من اعتراضاتي، ولعله نادرًا ما طلب مني المساعدة بسبب جدالاتنا حوله. لم آتِ إلى هنا إلا إذا عاني من نقص في الموظفين، أو كان أحد العمال مريضًا، أو إذا كانت عطلة نهاية الأسبوع مزدحمة. ربما لو كنت أكثر انخراطًا، لكنت معه ليلة وقوع الحادث، ولرأيت السيارة، أو سمعتها وهي قادمة، وحذرته حتى يبتعد عن الطريق.

رفعتُ عينيّ على وقع صوت خطوات أقدام. كان شابًا يرتدي زي المستشفى الأزرق، وقد شذب لحيته بدقة وربط شعره على هيئة ذيل حصان، وربما كان يعمل في العيادة الواقعة على بعد مبنيين من المطعم. قال وهو يسلمني الفاتورة ومبلغ الحساب: «رأيتُ النعي في الجريدة. آسف على خسارتك».

قلت: «شكرًا»، وقد بدا صوتي غريبًا. لم أستطع حمل نفسي على قول المزيد، أو أن أتحدث مع هذا الرجل مثلما فعل زوجي؛ فأسأله عن رأيه في الأكل، أو كيف حاله في العمل، أو هل يستمتع بالطقس اللطيف. من المقالة المعلقة على الحائط، تظهر صورة إدريس مبتسمًا، وأمامه على المنضدة مجموعة من فطائر التوت وفنجان قهوة. قال العنوان: *تناول العشاء في الصحراء*. كان زوجي فخورًا بهذا المقال؛ إذ ساعد في تخفيف حدة الإحباطات والإهانات التي طالته أحيانًا أثناء العمل في مطعم وانتظار الناس.

«هل قبضوا على الرجل الذي فعلها؟» سألني الزبون.

«لا»، قلت وأنا أسلمه الفكّة.

«حسنًا، آمل أن يفعلوا ذلك. يقود الناس بسرعة كبيرة على الطريق السريع، وهذا خطير حقًا. نحتاج إلى إشارة عند هذا التقاطع. ربما يمكنك إثارة هذا في الاجتماع القادم لمجلس المدينة؟».

انتظر مني أن أقول المزيد، وأحول وفاة زوجي إلى قضية عامة، وأحشد الآخرين حولها، لكن الألم شأن خاص، وسيكون من الصعب جدًا أن أتحدث عنه أمام الآخرين، ناهيك عن الغرباء في اجتماع مجلس المدينة. لقد لاحظتُ هذا من قبل عن الأمريكيين - فهم يريدون دائمًا اتخاذ إجراء، ويواجهون صعوبة في البقاء صامتين، أو ترك أنفسهم رهينة مشاعر غير مريحة - لذلك عندما هززت رأسي رفضًا، بدا الرجل محبطًا، وغادر بعد لحظة وجلجل الباب وهو يغلق خلفه.

جيريمي

كان فييرو ينتظرني خارج بنايته السكنية، مرتديًا بنطال جينز وقميصًا قصيرًا، ويضع قبعة بيسبول تحمل شعار مشاة البحرية بطريقة كادت أن تخفي عينيه. وفي السيارة، رفع صوت الراديو عندما بدأت موسيقى الميتال، لكنني لم أشتكِ، مع أن كل هذا العويل والصراخ بشأن ضرورة أن يكون المرء متمردًا أصابني بالصداع، ثم تحدث بصوت عالٍ عن توقف سلسلة انتصارات فريق لوس أنجلوس دودجرز، فأومأت فحسب. كنتُ على استعداد لفعل أي شيء لتوفير الدعم الذي يحتاجه. لقد أرسلت بريدًا إلكترونيًا إلى هيك، وهو صديق قديم لنا من سرية تشارلي، لأنني أتذكر أنه التحق بمجموعة مثلها في أوريغون، وقال إنها ساعدته إلى حد ما. وأملتُ أن يساعد ذلك فييرو أيضًا.

أشارت لافتة خارج المركز الاجتماعي إلى أن مجموعة دعم إدارة الغضب ستلتقي داخل صالة الألعاب الرياضية. وعلى الحائط بجوار الأبواب المزدوجة، عُلقت نشرات إعلانية عن دروس السباحة الصيفية للأطفال، والرقص في قاعة لكبار السن، وليلة أفلام عائلية. كانت معظم الكراسي مشغولة بالفعل عندما دخلت أنا وفييرو وانضممنا إلى المتحلقين حول مدير الجلسة، ويُدعى روسي، وقد ارتدى قميصًا أصفر لامعًا يضيق عند الصدر، وراح يتحدث بصوت جهوري لم أتوقعه من أحد أعضاء المهن العلاجية. «من يود أن يشارك الليلة؟» سأل الحاضرين.

ارتفعت يد في الهواء على الفور. كانت لرجل في منتصف العمر راح يهز ركبته لأعلى وأسفل مثل إبرة ماكينة خياطة. «مرحبًا، أنا دوغ. لقد مررت بأسبوع سيئ حقًا؛ إذ دعت ابنتي مجموعة من صديقاتها لممارسة ألعاب الطاولة وكنّ مزعجات جدًا. نزلت لأحصل على مشروب. وأردت أن أطلب منهن الصمت، لكنني امتنعت لأن زوجتي حذرتني بالابتعاد عنهن. وقد وبختني قائلة إنني لا أساعد في مهام المنزل أبدًا. وهذا ليس صحيحًا. أعني، أنا أنظف بالمكنسة وأفرغ غسالة الصحون أحيانًا. على أي حال، لم أستطع قول أي شيء لابنتي وصديقاتها، بيد أني لم أتحمل الضوضاء أيضًا. لذلك وقفت هناك في المطبخ أشعر أنني سأنفجر».

جلست امرأة ترتدي زي ممرضة - كانت مضطجعة في كرسيها وذراعاها مثنيان - باعتدال فجأة وقالت: «هذا يحدث لي أيضًا. بادئ ذي بدء أنا أدريانا. في بعض الأحيان، أريد أن أصرخ فحسب عندما يطلب مني أطفالي

اصطحابهم إلى الحديقة أو السينما. لا أستطيع الخروج وأنا أبدو هكذا». فردت ذراعيها، فرأيت أن يدها اليسرى بدون إصبعي الخاتم والخنصر. أضافت: «لكنني أعلم أنني لا أستطيع الرفض، لأن ذلك سيجعلهم يعتقدون أن حبيبي السابق محق بشأني؛ أعني عن عصبيتي. إني أتألم بشدة طوال الوقت. وهذا ما لا يدركونه».

كان بمقدوري أن أشعر بمدى شعور فييرو بالازدراء. قلتُ في نفسي لعلها لم تكن فكرة جيدة، وربما كان عليّ أن أصر على أنه يذهب إلى دائرة المحاربين القدامى، مع أنهم لن يوفروا له الاستشارة الخاصة التي يريدها وسيرسلونه إلى المنزل مع عقاقير أخرى مثل باكسيل أو زولوفت أو ويلبوترين. لكن فييرو فعل ما لم أكن أتوقعه: رفع يده.

قال روسي: «لدينا عضو جديد الليلة. عرّف عن نفسك رجاءً».

«اسمي بريان فييرو. إن من الصعب العثور على شخص ما للتحدث معه في بعض الأحيان، لذا أقدر لكم جميعًا استضافتي هنا. مشكلتي هي أنني لا أستطيع النوم. لا أقصد الأرق العرضي، فكل شخص يعاني منه أحيانًا. ما أعنيه هو أنني لا أنام أبدًا أكثر من ثلاث أو أربع ساعات، بغض النظر عما أفعله. أنا على هذا الحال منذ سنوات. لقد جربت كل شيء، سموا ما شئتم، حتى شاي البابونج. هل تدركون مدى بؤس المرء عندما يبدأ في شرب شاي لا يستطيع تهجئته. كل شيء فشل. أنا أبقى مستيقظًا طوال الليل وأفكر».

نظرت إلى فييرو مرة واحدة فقط - عندما خرجت كلمة أرق من فمه - ثم حدقت في حذائي حتى انتهى من كلامه.

قال روسي: «الغضب يمكن أن يسبب كل أنواع المشاكل. والأرق بالتأكيد إحداها. تؤدي قلة النوم إلى الإرهاق، مما قد يؤدي إلى ضعف اتخاذ القرار، فيؤدي بدوره إلى مزيد من الغضب. إنه رد فعل متسلسل قبيح. ربما ترغب في التحدث مع طبيبك حول تناول أدوية تساعد على النوم. بدون راحة مناسبة، يكون من الصعب اتخاذ خيارات جيدة، واستكشاف مصدر غضبك، ومحاولة السيطرة عليه».

قال فييرو وهو يومئ برأسه: «صحيح».

رفع رجل مسن ذو ذراعين موشومين يده للتحدث. قال إنه يعمل لدى متجر هوم ديبوت، وقد وُضع تحت المراقبة في العمل لأنه تشاجر مع أحد العملاء بسبب طلب لستائر النوافذ. بينما قال رجل آخر، سائق شاحنة، إنه

يفتقد زوجته أثناء غيابه، لكن بمجرد عودته إلى المنزل، فإنهما يتشاجران حتى يحين وقت المغادرة مرة أخرى.

أخيرًا، دقت ساعة الحائط عند التاسعة لتنتهي الجلسة. انتظرت حتى غادرنا أنا وفييرو المركز الاجتماعي وبتنا وحدنا في سيارتي قبل أن أستدير نحوه. «هل تعتقد أن الحيلة التي قمت بها هناك مضحكة؟».

ضربني بخفة على ذراعي وقال: «نوعًا ما. اعترف، لقد كان ذلك مضحكًا».

« في بعض الأحيان تتصرف بحماقة».

«لقد أخبرتك أنهم حفنة من المخنثين يتحدثون عن مشاعرهم».

«حاول وصفهم بذلك في وجوههم، وانظر ماذا سيحدث».

«استرخِ يا صديقي. إنها ليست مشكلة كبيرة».

«كل شيء دائمًا مزحة بالنسبة لك».

مال فييرو وسأل: «ما هو؟».

«لقد سمعتني، فلا تتظاهر بالعكس».

«بحقك، لا تجعل من الأمر مشكلة كبيرة. لن أفعل ذلك في المرة القادمة».

«لن تكون هناك مرة أخرى»، قلت، ثم شغّلت السيارة وخرجت من مكان وقوفي. لقد سئمت تصرفاته الغريبة. إذا لم يكن يريد الحصول على المساعدة، فلن أجبره. ليفعل ما يشاء بحق الجحيم. شغّلت الراديو، وقلبتُ المحطات. كنت أبحث عن الأخبار، لكن محطة الموسيقى الشعبية والريفية جاءت أولًا، فتركتها. كان والدي عضوًا في فرقة شعبية قبل أن يقابل والدتي، وقد نشأت وأنا أستمع إلى تلك الموسيقى في المنزل، وهذا ما جعلني شغوفًا بالعزف على الجيتار.

خلع فييرو قبعته ومرر يده في شعره. «لقد أعجبني هؤلاء الأشخاص. حقًا».

هنا تكمن المعضلة؛ إذ لا أعرف قط متى يكون جادًا. «أجل. لا بأس».

«ومدير المجموعة، نسيتُ اسمه، كان لطيفًا».

«روسي».

«يبدو طيبًا».

«إنه كذلك. هل ستأتي حقًا الأسبوع القادم؟».

«قلت ذلك، وسأفعل. هل تريد الذهاب للعب البولينغ؟».

«تأخر الوقت».

«إنها التاسعة فحسب يا رفيقي».

فكرت للحظات ثم قلت: «لنذهب إلى صالة ديزرت أركيد».

«كلا. ذاك المكان وضيع».

«هل تريد الذهاب للعب البولينغ أم لا؟».

سلكت الطريق السريع حتى رأيت اللافتة المضيئة الجديدة لمطعم بانتري؛ كانت شديدة الإضاءة لدرجة أنه يمكنك رؤيتها من مسافة حي كامل، بيد أن المطعم كان قد أغلق أبوابه عندما أوقفنا السيارة. وكانت صالة البولينغ المجاورة ما تزال مفتوحة. لم أعرف لماذا أردت المجيء إلى هنا أو فيمَ كنت آمل بالضبط، ولكن منذ أن رأيت نورا في مطعم ماكلين، تتملكني حالة من الحنين إلى الماضي.

«إنها شبه فارغة»، قال فييرو عندما دخلنا الصالة.

ولم يكن صعبًا إدراك السبب؛ كانت السجادة بالية، والإضاءة خافتة، وأجهزة ألعاب الفيديو قد عفا عليها الزمن. بيد أنه كان هناك عشرة ممرات مجهزة بالكامل ومساحة كبيرة للعب. توجهتُ إلى المنضدة، فوضع السيد بيكر العجوز صحيفته ونهض واقفًا. كنت قد ارتدت المدرسة الثانوية رفقة ابنه إيه جي، ولكن بوسعي القول إنه لم يتعرف إليّ؛ فقد تغيرت هيئتي بعد أن فقدت الكثير من الوزن الذي حملته يومًا.

حجزت أنا وفييرو عدة جولات واستأجرنا حذاءين، ثم عبرنا الصالة صوب الممر 2. وعلى بعد ثلاث ممرات منا، كانت هناك عائلة من خمسة أفراد في منتصف مباراتهم. كانوا يرتدون قمصانًا متشابهة؛ خضراء اللون ذات

حواف بيضاء ومطبوع على ظهرها اسم الفريق. *ذا بين بوشرز*. وقد ضحكوا على مزحة خاصة بينهم، وبدوا متحمسين لليلة. شرعنا في اللعب. كانت ليلة في الثمانينيات وقد دندنت بأغنيات سمعتها أول مرة في المدرسة، لكن فييرو قال إنه لا يعرف الكثير منها. كان قد نشأ في هافانا بتكساس، ولم ينتقل إلى ديزرت هوت سبرينغز إلا بعد انفصال والديه. قلت: «ألم تكن لديكم موسيقى في هافانا؟ حسبتكم تحبون المرح».

قال: «لم يكن لدينا حتى مذياع. لقد كان أبي يبحث عن أشياء لبيعها كي يدفع ثمن الهيروين الذي يتعاطاه، وحينما اكتشف أنني أخبئ المذياع أسفل فراشي، أخذه مني وأوسعني ضربًا. كنت في الثامنة من العمر وقتئذٍ. وأول شيء فعلته أمي بعد أن انتقلنا إلى كاليفورنيا هو شراء جهاز ستريو لنا».

ما انفك يقص عليّ حكايات كهذه طوال الوقت. قلت في نفسي، على الأقل أحمل بعض الذكريات الطيبة لأبي، الذي أضحى سكيرًا الآن، لكنه كان أبًا وزوجًا صالحًا ذات يوم، يساعد في أعباء المنزل، ويهرع إلى البقالة لشراء الحليب، ويظهر في اجتماعات رابطة الآباء والمعلمين. وفي أيام السبت، كان يستيقظ مبكرًا ويصنع الإفطار لجميع أفراد الأسرة - ليس فقط الفطائر، ولكن أيضًا البيض ولحم الخنزير المقدد والبطاطس وعصير البرتقال الطازج - وبعد ذلك نجتمع جميعًا في غرفة المعيشة بملابس النوم لمشاهدة فيلم ما. في عطلة ذلك الأسبوع، أثناء إعادة مشاهدة فيلم Freaky Friday، بدأت والدتي في السعال ولم تستطع التوقف. قلت إنه يجب علينا الاتصال بالطبيب، لكن والدي اعتقد أنها أضافت الكثير من الصلصة الحارة إلى طعامها؛ ربّت على ركبتها وأخبرها بأن تشرب بعض الماء. لكنها ماتت بعد يومين، لتنهار عائلتنا مثل بيت من ورق.

تعيش شقيقتي الآن على بعد ثمانية كيلومترات فقط مني، لكن لقاءاتنا اتسمت بالتوتر، وهذا أحد الأسباب التي دفعتني إلى مطالبة فييرو بالذهاب معي إلى حفل الشواء في عطلة نهاية الأسبوع السابقة. جلسنا تحت سلسلة المصابيح في شرفتها، ورحنا نستمتع بالدجاج المشوي وسلطة البطاطس، ثم سألتني عن حالي مع النوم. وعندما أخبرتها أنه قد يتعين علي تناول عقار أمبيان مرة أخرى، حولتها إلى فرصة للالتحاق بالجيش. أعطتني تشخيصًا لعلتي وكيف يمكنني إصلاحها. وقد أدى ذلك إلى دعوة لإحدى مجموعات دراسة الكتاب المقدس التي تعقدها. في هذه الأثناء، جلس والدي على كرسي الحديقة الكبير، وهو يشرب ويتابع بشغف الحرب في العراق. كان قد خدم في

احتياطي الجيش، وقضى فترة قصيرة كفني لإصلاح المعدات في الكويت خلال عملية عاصفة الصحراء، مما جعله خبيرًا بطريقة ما. لكنه لم يضطر قط إلى رؤية أمعاء شخص تتدلى مثل أكاليل من شجرة رمان، ولا إلى تحطيم باب أسرة ما في الساعة الثالثة صباحًا، أو حمل مسدس على امرأة بينما يجري القبض على الذكور في المنزل، أو وضع ضمادة على ما تبقى من ذراع رفيق له، أو السير بين الجثث التي خلفوها في الشارع، وقد شوهت الأعين والأنوف والأفواه على يد إحدى المليشيات. كان الحديث عمن سقطوا قتلى أسهل بالنسبة لأولئك الذين لم يشهدوا سقوطهم. لذا، كان هذا أحد أسباب جدالاتنا، فهو يصر على أن صدام مثّل تهديدًا لحرياتنا، وأننا حررنا البلاد من طاغية، وساعدنا النساء في العراق، فسألته ما علاقة صدام بحرياتنا، وأين هي أسلحة الدمار الشامل وكيف يكون القصف الغاشم لصالح النساء. لطالما تجادلنا حول هذه الأمور. ومهما قلتُ، سيعود والدي دائمًا إلى نفس النقطة. صدام كان رجلًا سيئًا، ونحن الأخيار. لم تكن شجاراتنا بسبب الحرب، بل بسبب شيء آخر، شيء ظل غير معلن بيننا لسنوات عديدة.

«هدف!» قال فييرو؛ إذ أصاب للتو هدفه الأول في المباراة. «ستُهزم شر هزيمة، يا صاح.» جلس على كرسي دوار، وهو يفرد ساقيه بغرور، وأخذ جرعة كبيرة من مشروب الكولا.

قلت بضحكة: «سنرى». أمسكت كرة واندفعت نحو خط الرماية، ثم رميتها لتصيب الأهداف الثمانية.

قال فييرو وهو يلقي نظرة على العائلة في الممر القريب: «يجب أن نقتني لأنفسنا قمصان البولينغ. يمكن أن يكون اسم فريقنا ذا ديدلي بينز. لا، انتظر. ذا مورتال بينز! ما رأيك؟».

التقطت كرة أخرى وعدت إلى الخط. وقد أدركتُ قبل أن أقذفها أنني سأصيب آخر هدفين وأتفوق عليه. وعلى الرغم من أن فييرو كان لاعبًا جيدًا، لكنه كان يفقد انتباهه بسهولة. لقد أخطأ هدفين سهلين لأنه استمر في الثرثرة، فهزمته بسهولة.

بعد المباراة، أعدته إلى ديزرت هوت سبرينغز. كان القمر قد أضاء بالفعل والشوارع فارغة وهادئة، ولكن كان هناك احتفال في الهواء الطلق داخل مجمعه السكني، حيث صدحت الموسيقى الصاخبة ولعب الأطفال في المسبح. نظر إلى الحاضرين بضجر، ثم نزل من السيارة ومد يده عبر النافذة المفتوحة ليصافحني. «أراك الأسبوع المقبل يا أخي».

عدت إلى الطريق السريع، آخذًا وقتي في العودة إلى المنزل. وتحت ضوء المصابيح الأمامية، مرت الخطوط الصفراء التي تميز الشارع بلا توقف. كنت قد سلمت بحثي الخاص بالفصل الدراسي الأخير، ولدي ساعات طوال لأقتلها قبل أن أتمنى النوم. اشتغلت أغنية دوللي بارتون «Do I Ever Cross Your Mind» على الراديو، وبغض النظر عما إذا كان ذلك بسبب الحالة المزاجية التي أدخلتني فيها أو نوبة حنيني إلى الماضي، وجدت نفسي أفكر مرة أخرى في ذلك العشاء مع نورا، وتذكرت كل التفاصيل وكأنني أنقشها في عقلي.

إفرين

غزا الرجل العجوز أحلامي بعد أن سلبني متعة مشاهدة أداء ابنتي في مسرحية المدرسة. في كل ليلة تقريبًا، كنت أحلم بذلك الجزء الصغير من شارع 62، ويدي مغطاة بالشحم، وأراقب جسده يسقط من حافة غطاء السيارة ويستقر على الرصيف. أفكر فيه الآن على أن اسمه غيريرو، وهو يشن حملة شعواء ضدي. في وقت مبكر من الصباح، عندما كنت أحلق ذقني تحت الضوء الأصفر عند مرآة الحمام، باغتتني ذكراه فجرحت نفسي. وفي الشاحنة، بينما كان إنريكي يقرأ الخريطة، ظهر غيريرو في الخلف، وراح يتلف معداتنا بثقب خرطوم تنظيف السجاد أو البصق في إمداداتنا الغذائية. لم أجد علبة إنكا كولا عندما فتحت صندوق غدائي، مع أنني وضعتها هناك بنفسي. قال إنريكي وهو يسلمني علبته: «يمكنك الحصول على القليل مني». وكان ثمة زر مفقود في قميصه المدرسي، قلتُ في نفسي: يا تُرى أهذا من فعل غيريرو أيضًا.

شعرتُ بالحيرة من أن ذاكرتي للحادث لم تتلاشَ بمرور الوقت، بل أصبحت أوضح بكثير. أمسيتُ شبه متيقن الآن من أن السيارة التي صدمت غيريرو كانت فضية، وبصرف النظر عن نوعها أو طرازها، كان لها غطاء محرك طويل، وعُلق ملصق دائري باللون الأحمر على النافذة الجانبية الخلفية؛ إعلان من نوع ما. لعل الذاكرة ليست مجرد مكان لحفظ لحظة ما في العقل، بل والعودة إليها مرارًا وتكرارًا، وتفكيكها بعناية إلى أجزاء وتجميعها مرة أخرى حتى نتمكن من فهم ما نتذكره. لقد تذكرت تلك اللحظة على الطريق السريع أكثر من مرة في اليوم، وفي كل مرة أراها من منظور مختلف، وكأنها قد أُلقيت تحت ضوء جديد.

لم أخبر زوجتي عن التفاصيل الجديدة التي وصلتني، فقد تحاشيت ذكر الحادث ليلة السبت عندما استلقيت على الأريكة ورأسي على حجرها، وأنا منهك من العمل وقلة النوم. كل ما أريده هو أن أنساه، بيد أن عقلي راح يعمل بجد على العكس، مما أعادني قسرًا إلى تلك الليلة في شارع 62. أحسستُ وكأني عالق في الزمن، ومجبر على تذكر ما حدث مرة تلو الأخرى ليلًا. وقد بدت مارسيلا مرتاحة إلى صمتي، لأنها مسدت شعري وهي تشاهد دون فرانسيسكو في سابادو جيغانتي، ولم تطرح أي أسئلة.

لم تأتِ على ذكر الحادث أيضًا صباح الأحد ونحن نصحب الأطفال إلى الكنيسة. من على منبره تحت النوافذ الزجاجية الملونة، تحدث الكاهن عن سر التكفير عن الذنب، مقتبسًا من سفر المزامير: «ثم اعترفتُ لك بخطيئتي ولم أخفِ إثمي». أدركت ما كان يقصده؛ اعترف وسوف يغفر ذنبك.

بيد أني لم أقترف أي جرم، فلماذا أشعر بالذنب؟

ومع هذا، شعرتُ بالذنب، مما أثقل كاهلي، وجعلني أتذكر الحادث كثيرًا خلال الأيام القليلة الماضية. كم كنت أرغب في التحرر من ذلك، ولكن بعد عودتي إلى المنزل، وأنا ممسك بيد دانيال وإيلينا تتخطى الخطوط على الرصيف، تساءلت عما إذا كانت المغفرة تستحق كل ما يمكن أن تكلفني. وبينما كنا ننتظر عبور الطريق، رمقتني مارسيلا بنظرة ساخرة. «ما الأمر؟»، سألتها.

قالت: «جوربك».

نظرت إلى الأسفل فرأيت أن أحدهما أزرق والآخر أسود.

قالت ضاحكة: «لقد لاحظت ذلك عندما كنا في الكنيسة. لكنني لم أستطع قول أي شيء حينها».

يا إلهي، كم عشقت ابتسامتها. كان هذا ما جذب انتباهي حين رأيتها أول مرة في حافلة مزدحمة بتوريون، منذ سنوات عديدة. كانت تبتسم بأدب لشيء قاله قاطع التذاكر. وعلى الرغم من حرارة الصيف، فقد ارتدت فستانًا أسود طويل الأكمام وحذاءً أسود، وسرحت شعرها على هيئة ضفيرة على الجانب. استغرق الأمر أسبوعًا قبل أن أراها مرتين، وأكتشف أنها أرملة. لكنها بالكاد انتبهت إليّ، إذ كانت لا تزال غارقة في ذكريات زوجها الميت، وأدركت أنه سيتعين عليّ التنافس معه لنيل سعادتي. قال ابن عمي ألونسو، كالعادة، لا أمل لدي. «تسعة أشهر وما زالت ترتدي الأسود. لابد أنه كان رجلًا فريدًا من نوعه».

سألته: «إلى جانب من تقف؟».

لم يزدني هذا إلا تصميمًا على التحدث معها. عندما سألت عنها، اكتشفت أن لديها أختين تمتلكان صالونًا لتصفيف الشعر في الحي. أختين غير شقيقتين أكبر سنًا منها بكثير، لكن لم تكن أي منهما متزوجة أو لديها عائلة. بدلًا من ذلك، نصّبت المرأتان العجوزان نفسيهما كحاميتين لمارسيلا الجميلة. إذا كنت أرغب في تقديم نفسي على نحو لائق، فلا بد أن أمر عبرهما. لم أكن

ثريًا أو وسيمًا، لكنني كنت أدخر لسنوات للذهاب إلى الشمال، وأعتقد أنهما وجدا في هذا علامة على الطموح، وهو أمر كان يفتقر إليه زوج مارسيلا الأول على ما يبدو. لقد اتخذت الخطوة الأولى، فتمكنت من التودد إلى مارسيلا. لهذا السبب لا أشتكي أبدًا من أننا نرسل لهما المال كل شهر، مع أننا نملك ما يسد الحاجة فقط. الآن ثمة رجل ميت آخر يقضّ مضجعي، ولكن هذه المرة لا أخوات غير شقيقات سحريات ينقذنني.

نورا

مرّ يوم، ثم آخر. حاولت العودة إلى روتيني السابق، لكني لم أكن مستعدة للقسوة التي استقبلني بها. عندما تصفحت بريدي الإلكتروني، وجدت رسالتي رفض، أولاهما من مهرجان باسيفيك للموسيقى والأخرى من بانف. كانت رسالة مهرجان باسيفيك للموسيقى ودودة، لكن الحكام في بانف كتبوا أن تلحيني «عميق للغاية» و«لا يتناسب تمامًا مع جمالياتنا». كلما حاولت تحليل معنى هذا، لا أفهم شيئًا. لم يكن لدي أي فكرة عما حاول الحكام قوله. ما الغرض من هذا النقد؟ لن يفيدني بأي شيء.

قبل أسابيع عدة من وفاة والدي، كنت أعمل على سلسلة من مقطوعات الجاز مستوحاة من رحلتي الأولى إلى المغرب، عندما أخذني والداي أنا وأختي لمقابلة أقاربهما. كانت جدتي لا تزال على قيد الحياة آنذاك، وقد ركبنا القطار من الدار البيضاء إلى مراكش لزيارتها. وصلنا فجرًا، وسرنا وسط حشود بائعي المواد الغذائية وسحرة الأفاعي والعرافين في ساحة جامع الفناء، وتوقفنا لمشاهدة فرقة من البهلوانيين وهم يؤدون عروضهم. كان بعضهم مراهقين في مثل عمري تقريبًا، لكن البعض الآخر بدا أصغر بكثير، وجميعهم حفاة القدمين ويتحركون بخفة حركة لم أشهدها من قبل. قفزوا وأدوا شقلبة العجلة والشقلبة الخلفية حتى هبطوا في هيئة هرم مثالي. تدافعنا الحشد، فواصل والداي وأختي طريقهم نحو الجانب الشمالي من الساحة، لكنني بقيت في مكاني، مذهولة من حركات البهلوانيين. كان كل طفل يؤدي بمفرده، ولكن بالتعاون مع الآخرين في نفس الوقت. تلك هي اللحظة التي كنت أحاول التعبير عنها بالموسيقى، بعد سنوات.

لم يكن الرفض من جانب بانف غريبًا، على أي حال، فقد رفضوا مقطعًا ما يزال قيد الدراسة بواسطة العديد من المهرجانات الأخرى، لكني استقبلته في حالة من الحزن الشديد، مما حطمني. لقد ظهرت كل مشاعر عدم الأمان في الحال. لم أتدرب في معهد للموسيقى، أو على يد عازف مشهور، ولم أجذب انتباه معلم جيد، ولم أشارك في حفلات بفيلمور أو بلو نوت. لطالما كنتُ المرأة الوحيدة، والغريبة، في فرق الجاز أو أوركسترا الحجرة على مر السنين. وقد أحببت التلحين في أنواع مختلفة، موسيقى الجاز والكلاسيك، مما جعل مكاني في عالم الموسيقى غير مستقر تمامًا، وربما لن يستقر أبدًا.

في ذلك المساء، وبينما أنا وحيدة في الكوخ، فتحت برنامج Sibelius للموسيقى على حاسوبي المحمول، فشعرتُ وكأنني أنظر إلى مدونات شخص آخر. لم أستطع طرد كلمات الحكام من رأسي؛ كان عملي عميقًا جدًا، غريبًا جدًا، أو شيئًا آخر. لا أعرف كم من الوقت جلست على تلك الأريكة القديمة، ساعة أو اثنتين أو ثلاث، لكن اللحن ما عاد يثير إعجابي أو يلهمني أو حتى يبدو منطقيًا بالنسبة لي. ربما يجدر بي التخلص منه، أن أحذفه وأبدأ من جديد. كان المؤشر على زر الحذف عندما سمعت سيارة تقف في الممر. بعد لحظة، طرق أحدهم الباب.

كانت الشمس تغرب، وبدت عينا جيريمي في وهجها البرتقالي خضراوين لا زرقاوين. وقد ارتدى سروالًا وانتعل حذاءً رياضيًّا، وراح يهز مفاتيحه بعصبية. قال: «كنت في طريقي إلى هيدن فالي، وتساءلت عما إذا أردتِ المجيء».

«الآن؟ لقد تجاوزت السابعة».

«لقد انخفضت الحرارة أخيرًا، وسيكتمل القمر الليلة».

كانت السماء بلون المشمش الناضج. وسيحل الليل عما قريب، ويغرق الكوخ في صمت القبور، وأكون وحدي مرة أخرى، أمام مدونتي الموسيقية. هدلت الحمامة فوق مكيف الصحراء، فالتفت كلانا ينظر. قلت: «لديها بيض هناك».

«أو لديه بيض».

«وما أدراك أنه ذكر؟».

«لا أدري، كل ما أعرفه أنهم يتناوبون الحضانة».

لهذا السبب لا يكون العش فارغًا أبدًا. كنت قد بدأت أتساءل كيف تغذي الحمامة المسكينة نفسها وهي لا تبرح مكانها طوال الوقت. الآن تميل رأسها جانبًا وتحدق فينا بفضول. قلت: «تعالَ إلى الداخل بينما أحضر حذائي».

كان الكوخ بالكاد مفروشًا. وكانت الأريكة، والكرسي، وطاولة القهوة، بحالة جيدة ومريحة، لكنها لم تحمل أي تاريخ أو تكشف أي شيء عني. وقد خلت الرفوف من التذكارات، ولم تُعلق صور عائلية على الحائط. أغلقت برنامج Sibelius قبل أن يسأل جيريمي عن موسيقاي. وعندما وجدته ينظر إلى

الترتيب المثير للسخرية للزهور المجففة فوق المدفأة سارعت بالقول: «لقد فعلت أمي ذلك». انتهيت من ربط حذائي ونهضت، ثم قلت وأنا أفتح وأغلق خزانات المطبخ الصغير بشكل عشوائي: «لا أعرف ما إذا كان لدي زجاجة ماء».

«لدي واحدة في السيارة».

«ماذا عن مصباح يدوي؟».

«لديّ هذا أيضًا».

في السيارة، أنزلتُ نافذتي وتركت الرياح تهب من خلالها، ليحل طنينها محل الكلام. توهجت أضواء المدينة في الصحراء، ولكن بمجرد أن دخلنا الحديقة الوطنية، أحاطنا الظلام من كل جانب. كانت هناك صخور عملاقة على مسافة بعيدة، وفي كل مكان أسفل السهل، وأشجار جوشوا. لطالما أحببت أشجار البلوط والصنوبر والأخشاب الحمراء في منطقة الخليج، بأطرافها الطويلة والمورقة، لكنني افتقدت الأشجار الصحراوية: قوية، وشائكة، وبرية، ولكن هشة تمامًا. فقط بعد أن غادرت مسقط رأسي، أدركت حقًا مدى ندرتها.

عندما وصلنا إلى هيدن فالي، وجدنا البوابة المعدنية مقفلة، وقد عُلقت لافتة تقول إن الطريق يغلق بعد غروب الشمس. لكن جيريمي أوقف السيارة على جانب الطريق ونزل منها وقفز بسهولة فوق البوابة. صاح مناديًا: «هل ستأتين؟». ثم بدأنا المشي. وعلى الرغم من أن القمر كان لا يزال منخفضًا في السماء، إلا أنه سطع بما يكفي ولم تكن هناك حاجة إلى مصباح يدوي. طارت بومة فوقنا، وكانت أجنحتها هادئة جدًا لدرجة أننا لم نرَها إلا بعد أن تجاوزتنا بثلاثة أمتار تقريبًا.

قلت: «من اللطيف أن الحديقة هادئة للغاية».

«لهذا السبب أفضل الصيف هنا. لا يوجد سائحون، فقط السكان المحليون».

«مثلي؟» سألته وأنا أضحك.

«مثلك».

مشينا في صمت لبعض الوقت؛ ولم يُسمع سوى صوت سحق الرمال تحت أحذيتنا. كان إيقاعه هادئًا، وقد أخذت نفسًا عميقًا. وبدت رائحة الهواء

مثل المريمية.

على بعد 800 متر من الطريق، أشار جيريمي إلى تشكيل صخري. «ثمة إطلالة جميلة هناك».

«دعنا نرَها، إذًا».

انطلق أولًا كي يحذرني من أي مواضع زلقة، لكنني جاريته بسهولة. بطريقة ما احتفظ جسدي بذاكرة تسلق هذه الصخور عشرات المرات عندما كنت طفلة. جلسنا في الأعلى، وقد مددنا أرجلنا أمامنا، وشاهدنا الوادي في الأسفل. كان ضوء القمر يضيء المناظر الطبيعية، فيلطف معالمها في بعض الأماكن، ويضعها في زوايا قاسية في أماكن أخرى. كانت الأجواء مسالمة، ولكن بين ثنايا الصمت، علمت أن الحياة لا تزال تنبض بكل جمالها وعنفوانها. تتغذى الخفافيش، ويصطاد البوم، وتخرج السحالي زحفًا من جحورها. تساءلت عما إذا كان هناك وقت سأنعم فيه بالسلام، عندما لا يشعر قلبي وكأن الرصاص قد صُبّ بداخله. في الماضي، وجدت في الموسيقى ملاذًا من أحزاني وانكساراتي، لكنني الآن لست متأكدة من ذلك، ليس عندما يمكن أن تختصرها لجنة من الحكام في بضع كلمات قاسية. «هل مازلت تعزف الموسيقى؟» سألته.

«لا، لم أعزف منذ المدرسة الثانوية. أنا لا أعرف حتى أين هو جيتاري. ربما في مكان ما في مرأب والدي».

«هل تتذكر عندما ذهبنا في رحلة ميدانية لمشاهدة أوركسترا لوس أنجلوس فيلهارمونيك؟».

«بكل تأكيد. في سنة التخرج».

«كانت المرة الأولى التي أرى فيها مبنى فرانك جيري، بل كانت أول مرة أدخل فيها صالة حفلات. جلست بجانب امرأة ترتدي عباءة من الساتان وقفازات، وراحت تعرف زوجها على كل الأشخاص الذين تعرفهم من الجمهور. قالت إنها كانت متحمسة لسماع ألحان ماسينت، وأن الأوركسترا نادرًا ما عزفت له شيئًا. لكنها قالت بعد ذلك إن الأداء لم يعجبها لأن العزف كان جافًا كحديد التسليح! إنها كلمة لم أرها إلا في الكتب، فلم أسمع أي شخص يقولها من قبل. اعتقدت أن الجميع في المدن الكبيرة يتحدثون هكذا. ولم أطق الانتظار حتى التحق بالجامعة».

قال بهدوء: «أتذكر ذلك اليوم. لقد تناولنا الغداء معًا».

«حقًا؟» من الطريقة التي نظر بها إليّ، بدا أن هذه اللحظة تحمل بعض الأهمية، لكنني لم أستطع تحديدها. كم هو غريب عمل الذاكرة؛ فما يتذكره بعض الناس ينساه البعض الآخر.

بعد لحظة، سأل: «هل كانت ستانفورد مثلما اعتقدتِ؟».

قلت: «نعم ولا». كانت بنايات الجامعة الشيء الوحيد الصحيح في الكتيب الترويجي؛ إلا أن كل شيء آخر في المكان كان مختلفًا، بدءًا بالناس. لقد كنت الوحيدة التي تنحدر من أصول عربية في مدرستي الثانوية، ولكن الآن هناك أشخاص من خلفيات مختلفة حيث أسكن، فقلّص هذا من إحساسي بالوحدة. ومع ذلك، كلما فتحت فمي، أظهرت نفسي كفتاة ريفية. ذات مرة، في السنة الأولى مع فرقة الجاز، أجبت على سؤال حول التصميم المعماري بالحديث عن «فنون القوس» bow arts، لكن أستاذي صحّح لي ضاحكًا الكلمة Beaux Arts، حيث يتم نطق حرف x على أنه z، وحرفا t وs لا يُنطقان. شعرت أنني لن أتخلص من أثر الريف من حديثي، وملابسي، وهويتي. لكنني في النهاية تكيفت، بل وتعلمت أن أستمتع بكل ما تقدمه المدينة. قلت: «لقد حلمت بهذا الأمر منذ مدة طويلة، وكان من المحتم ألا يكون مثلما تخيلته».

أتى صوت قرع متكرر من شجيرات الصبار البعيدة. ألقيتُ نظرة خاطفة فوق كتف جيريمي في اتجاه الصوت، وعندما توقف، وجدته يحدق بي بعينين تلمعان بالرغبة. من دون أن أعرف السبب، أردت وأدها قبل أن تصبح نارًا لا تنطفئ. «هل سمعت من قبل عن ماكس بلويمهوف؟».

«لا. من يكون؟».

«ألّف كتابًا رائعًا عن نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا، اسمه *قبل أن يحل الليل*. يعتقد بعض الناس أن تصنيفه كلاسيكي معاصر. كما ألّف أيضًا كتاب *نحن أنفسنا* عن أيرلندا الشمالية. لم يكن رائعًا كسابقه، لكنه دخل قائمة أكثر الكتب مبيعًا».

«انتظري، أعتقد أنني أعرف عمن تتحدثين. لقد رأيته في برنامج ذا ديلي شو ذات مرة».

«هذا هو. لقد التقيت به في مستعمرة الفنانين شمالي نيويورك. لم أكن أعرف أحدًا هناك، لكنه جلس بجانبي ذات ليلة وتحدث معي وجعلني أشعر بالراحة. سألني عما كنت أعمل عليه، ثم عندما سمع المقطوعة التي

كنت قد انتهيت منها للتو، قال إنني أكثر الموسيقيين الموهوبين الذين سمعهم في المكان. أعتقد أنني شعرت بالاطراء من اهتمامه بي. وفي وقت لاحق، قال إنني حب حياته، وأنه لا يستطيع العيش بدوني». لففت ذراعيّ حول ركبتي وأرحت ذقني عليهما. وشعرت بالجفاف في حلقي.

قال جيريمي: «ولكن...».

«كان متزوجًا. لكنه قال إنه انفصل عن زوجته بالفعل، وما هي إلا مسألة وقت قبل حدوث الطلاق، وعليه توخي الحذر بسبب أطفاله. لكنه لم ينهِ العلاقة بشكل حاسم. قبل ثلاثة أسابيع، أخبرته أن عليه الاختيار. وأعتقد أنه اختار بالفعل، لأنني لم أتلق أي أخبار عنه منذ ذلك الحين».

هاك، انتهينا. الآن سينسى الماضي، ويتوقف عن التفكير بي كفتاة متجر البوظة، أو فتاة قاعة الحفلات الموسيقية، أو أي خيالات أخرى تدور عني. نهضت ونفضت يدي، كي أزيل الغبار من راحتي. عندما تسلقت الصخرة، لم أتوقع أنني سأتحدث عن ماكس، والآن تمنيت فجأة أنني لم أفعل ذلك. شيء ما بشأن جيريمي جعلني أرغب في الكشف عما بداخلي، ولو كان ذلك فقط لدفعه بعيدًا. وحرصًا على وضع اللحظة ورائي، بدأت أشق طريقي نزولًا.

«انتظري يا نورا».

أجبرتني نبرة صوته على الاستدارة، فانزلقت ساقاي على الصخرة، ليخدش ذراعي وأسقط على ركبتي في التراب. ناداني مرة أخرى وهو ينزل نحوي. ثم رفع ذراعي تحت ضوء القمر، ونظر إلى الخدش. قال: «يجب أن نعود».

«لقد تجاوزنا منتصف الطريق».

مرر أصابعه على الخدش، فوجده جافًا.

قلت: «أرأيت؟»، في محاولة ألا أبدو فزعة. كنت قد جئت للتسلق والآن أردت الانتهاء. «هيا بنا». بعد عشرين دقيقة وصلنا إلى المنعطف الأخير في الممر. كانت هناك شجرة جافة ذات أغصان ملونة بين مجموعة من شجيرات تشوباروسا. على الفور غمرتني الذكريات. «اعتاد والدي اصطحابي أنا وشقيقتي إلى هنا في صبانا. وكنا نتسابق لمعرفة من ستصل إلى أعلى فرع». لم يتغير طول الشجرة عما كان عليه في صغري، لكن الصحراء جردت أغصانها من رطوبتها ولونها. «لا أعتقد أنني رأيتها ليلًا من قبل. تبدو الفروع شريرة جدًا، ومرعبة حقًا».

«ماذا هناك لتخافي منه؟».

قلت: «تأبى الأشباح أن تتركني وشأني».

عندما نظرت لأعلى، وجدته يراقبني. وضع يده على وجنتي، وبعد لحظة لثم شفتي بقبلة. كم كان من السهل الارتماء في أحضانه، وكم شعرت بالرضا لأن أحدهم يشتهيني. لف ذراعيه حولي وجذبني إليه بعنف لدرجة أننا كدنا نفقد توازننا.

جيريمي

حين عدنا إلى السيارة، رفعت ذراعها تحت ضوء القمر، ورأيت أن الجلد قد خُدش من مرفقها إلى معصمها. أخرجت علبة الإسعافات الأولية من صندوق السيارة وجلست على ممتص الصدمات ورحتُ أبحث بداخلها عن مناديل مبللة مطهرة. خفت حرارة الطقس، وعبر الطريق قفز أرنب بري بين الشجيرات. نظفت الخدش بسرعة، حتى لا يلسعها بشدة، ثم دهنته بمرهم مضاد حيوي قبل تغطيته بضمادة. سألتني مازحة: «هل تتجول دائمًا بأدوات طبية، وتنقذ النساء؟».

قلت: «لقد أحضرتها هنا في آخر رحلة تخييم لي. هل ما زلت تتألمين؟».

هزت رأسها نفيًا، فتشابك قرطاها الفضيان مع شعرها مرة أخرى تحت ضوء القمر. لكن الآن يمكنني أن أفعل ما كنت خائفًا جدًا من فعله في السابعة عشرة؛ نحيتُ شعرها بعيدًا عن وجهها وفككت تشابك الأقراط. راحت تراقبني بعينين قاتمتين للغاية، وبنظرات ثاقبة، فشعرت وكأن كل أسراري مكشوفة لها. ولما كنت قد فوتُّ الفرصة في الماضي ولم أكن متأكدًا من أنني سأحصل على أخرى، فقد جذبتها نحوي، وقبّلتها مرة أخرى، وهمست في أذنها. ترددت للحظات، ثم أومأت برأسها.

قدتُ السيارة إلى خارج الحديقة وأنا أمسك المقود بيد وأضع الأخرى على ركبتها. وقد تسلل ضوء القمر عبر الزجاج الأمامي على أنغام باتسي كلاين في الراديو. ولما وصلتُ إلى البقالة، كان البائع يستعد للإغلاق. قلت: «بربك يا رجل. سيستغرق الأمر دقيقة فقط»، لكنه أبى. كان رجلًا ضئيل الحجم بنظارة صفراء وشفتين رفيعتين متبرمتين. أمسكتُ الباب المنزلق بيدي فنظر لي بضيق. قال: «تراجع يا سيدي، نحن نغلق». أقبل حارس الأمن - وهو رجل ضخم ذو وشوم على عنقه وندبات على ذراعيه - ورمقني بنظرة ثم أمر البائع بأن يسمح لي بالدخول.

ولكن عندما عدت أدراجي إلى السيارة حاملا الواقي الذكري، لم أجدها هناك. كدتُ أختنق؛ إذ حسبت حقًا أنها قد رحلت، إلى أن صعدت على الرصيف مجددًا ورأيتها على الجانب الآخر من ساحة انتظار السيارات. مشيت ووقفت بجانبها. قالت: «انظر»، وأشارت عبر الطريق السريع إلى الصحراء المفتوحة.

كان ثمة خروف كبير. لم أر واحدًا قط بهذا القرب من المدينة، وبعيدًا عن القطيع. أمسكتُ بيدها وانتظرت. كان الخروف يرعى في رقعة من العشب الجاف، وبعد لحظة توقف وحدق بنا. إنه كبش من الفراء الداكن وذو قرنين جميلين ملتويين. وقد ارتعشت أذناه عندما مرت سيارة على الطريق السريع. ثم استدار ورحل مسرعًا، بأطرافه الخلفية البيضاء الناعمة التي تشبه الكمثرى من الداخل.

كانت الحرارة شديدة عندما عدنا إلى الكوخ، فأعادت نورا تشغيل المكيف الصحراوي، وفتحت نافذة، وذهبت إلى المطبخ للحصول على الماء. استمعتُ إلى أزيز الثلاجة، ودقات الساعة، وخرخرة الجليد في كوب الماء وأنا أتكئ على المنضدة. قلت لنفسي *انتظر*، وامنحها الوقت. وبعد أن برد الهواء، وخلعت حذاءها، وسكبت كوبًا آخر من الماء، مددتُ يدي فأمسكتها.

ثم وقفنا بجانب فراشها. لم تكن ندوبي هي أول ما لمسته عندما خلعت قميصي، أو الوشم الذي حصلت عليه قبل أن أذهب إلى الحرب، وإنما جفناي، وحاجباي، وعظام وجنتي، وكأنها كانت ترى النسخة القديمة مني. كانت لمسات أصابعها خفيفة للغاية.

تبدد الإحراج الذي شعرت به عندما أحاطتني بذراعيها، فتحسستُ منحنيات جسدها. بكم تقدر العشر سنوات الماضية؟ لا شيء؛ نبضة قلب أو طرفة عين. كنا لا نزال في قاعة الحفلات الموسيقية، وضوء الشمس لا يزال يتدفق عبر أغصان شجرة ماغنوليا، وما تزال هي تقلب الجليد في مشروبها بقصبة حمراء، وتبتسم لي. لم يكن قد جرى استدعاؤها بعد لمشاهدة العرض، ولم تكن قد صعدت على خشبة المسرح عند التخرج واستمرت في المشي، إلى خارج المدينة وحياتي.

على الفور شعرت بنفسي أنجرف للنوم، لكنني تنبهت عندما دخلت هي الحمام. مرت الدقائق. من الخارج جاء عويل حيوان يتألم، ربما أرنب عالق في السياج السلكي الذي يحد الفناء الخلفي. لكن عندما سمعت الصوت مرة أخرى، أدركت أنه قادم من الحمام. طرقت الباب، فلم ترد. ناديتها، لكنها لم تجب.

نورا

كيف أغواني؟ صديق من سنوات خلت، بالكاد أميزه في ذاكرتي عن الآخرين في فرقة المدرسة الثانوية، لكنه أضحى مختلفًا تمامًا الآن لدرجة أنه بدا شخصًا جديدًا تقريبًا. كان مستمعًا جيدًا، وقد تودد إليّ، وحاول مواساتي، ولعل هذا كل ما يتطلبه الأمر. هل كان هذا أيضًا جزءًا من الحزن؟ لما برز السؤال في ذهني، تحطم شيء في قلبي، فانسالت الدموع، وتدفقت بسرعة كبيرة وكأن سدًا قد انهار بداخلي. كتمتُ النحيب بيدي، لكنه حتمًا سمعني، لأنه طرق الباب، وبعد لحظات أدار المقبض ودخل الحمام. عضضت شفتي، بيد أن ذلك زاد من تدفق الدموع. «لا بأس»، تمكنت من القول بعد دقيقة. «يمكنك الرحيل الآن».

«لن أتركك هكذا».

وقف في الحمام لمدة طويلة يحتضنني. وعندما توقفت الدموع أخيرًا، جلب كوب ماء من المطبخ وانتظرني لأشربه. شعرت بالارتياح من انفجاري، فقد مر وقت طويل منذ فعلتها، لكنني كنت محرجة من حدوث ذلك أمام جيريمي. نظرت حولي في الحمام بحثًا عن قميص أو رداء، لكن لم يكن هناك سوى منشفة يد معلقة من القضيب على الحائط، وقد أحاطني بذراعيه مجددًا وكأنه شعر بذلك.

همستُ قائلة: «لماذا هو؟ لماذا؟».

قال بهدوء: «لا يوجد سبب». ثم أخذ يدي وقادني عبر فوضى الملابس المبعثرة والأغطية الملقاة على الأرض. «عودي إلى الفراش».

كانت عيناي منتفختين، وأنفي مسدودًا، ووجهي محمرًا. كم هذا مثير، قلت في نفسي. ماذا أفعل هنا؟ وماذا يفعل هنا؟ كان يفترض أن يكون قد غادر الآن. لكنه رقد بجانبي، وأصابعه ترسم دوائر على ظهري. قال لا يوجد سبب. لم يكن هناك سبب ولا تفسير ولا معنى خفي؛ حظ سيئ فقط. رحت أصغي إلى دقات قلبه. يا له من شيء هش ذلك القلب، فهو سهل الخداع والكسر، ويتوقف عند وقوع حادثة اصطدام في تقاطع معتم. قلت: «لا بد أن هناك سببًا».

«ليس بالضرورة». قال إنه نشأ في كنف عائلة كاثوليكية، وعلم أن الخطيئة تُعاقب وأن الفضيلة تُكافأ. والأشياء الجيدة تحدث للناس الطيبين والسيئة للأشرار. وحتى عندما ماتت والدته، استمر في تصديق ذلك، لأنه تعلم شيئًا آخر؛ هو أن الشدائد اختبار. لكنه بعد ذلك ذهب إلى الحرب، وفقد أي إيمان لديه. في لحظة ما، كان هذا المدعو سانغر يخبره عن نوع ألواح السقف التي يريدها لمنزله في جاكسون هول، وفي اللحظة التالية لم يعد لديه يدان للتلويح في الهواء مرة أخرى. «لم أستطع فهم ذلك. لم أتمكن من معرفة سبب تعرضه للتشويه في حين ما زلت أنا أملك يديّ، مع أنني كنت أقف بجانبه مباشرة. حينئذ، بدأت أدرك أن بعض الأشياء لا يمكن تفسيرها. كانت مجرد صدفة. ولا يمكن الجدال حولها. ولا وجود لسبب أو أمر بها».

لم يكن هذا كافيًا بالنسبة لي. إذا اعتقدت أن وفاة والدي كانت مجرد حادثة مؤسفة، فهذا يعني أن أنسى كل شيء آخر أعرفه عن مسقط رأسي؛ وأن استبعد فكرة الحرق المتعمد للمتجر، وأتجاهل الإهانات التافهة، وأفصل بين حادثة الاصطدام والهرب عن الزمان والمكان اللذين حدثت فيهما. لا يمكنني ذلك.

غرد عصفور في الخارج. قال جيريمي: «لقد تأخر الوقت. حاولي النوم ولو قليلًا».

بيد أني عجزت عن النوم، وقد احتضنني حتى أضاءت الستارة مع طلوع الفجر وبدأت الديوك في فناء الجار تنادي بعضها البعض. ثم نهض ولبس ثيابه وجاء ليودعني راكعًا بجانب الفراش كرجل يصلي.

إفرين

كنت أغادر سوق كاسا في الأسبوع التالي، وذراعاي مثقلان بمشتريات البقالة، وبالي مشغول بالمباراة التي أردت مشاهدتها بمجرد وصولي إلى المنزل، عندما باغتني غيريرو وأسقطني. جثوتُ أمام لوحة الإعلانات، وقد تناثر الليمون من حولي، وتكسرت الرقائق إلى قطع صغيرة في أكياسها. نهضت، لأرى صورته بارزة على ملصق. وقفنا معًا، أنا هو، نحدق في شكله والرقم المدون أسفله، وكان كبير جدًا لدرجة أنني لم أكن بحاجة إلى نظارتي لقراءته؛ خمسة وعشرون ألف دولار. تخيل ما يمكنك فعله بهذا القدر من المال. كل ما عليك فعله هو إجراء مكالمة. قلت، وأنا منحنٍ لالتقاط ليمونتين من تحت رف الحلوى: «لن أتصل». بدت علبة البيض سليمةً بمعجزة ما، لكن عندما فتحتها للتحقق، وجدت بيضة مكسورة. «أرأيت ماذا جعلتني أفعل؟» سألته.

قال ضاحكًا: هذا لا شيء.

لا أعرف هل قصد أن انكسار البيضة لا شيء أم أن بوسعه فعل أكثر من مجرد جعلي أتعثر وأقع في محل البقالة. فكرت في سؤاله صراحة عما إذا كان يهددني، لكنني خفتُ مما قد يقوله في المقابل. لم أكن مستعدًا للقتال. في النهاية تجاهلتُه، وواصلت لملمة مشترياتي المبعثرة على الأرض. كان علي أن أحافظ على رباطة جأشي، فما هي إلا تخيلات في رأسي على أي حال. كنت بحاجة للعودة إلى المنزل لأكون مع زوجتي وأولادي، وأخلد إلى الفراش مبكرًا، وأحصل على قسط من الراحة على سبيل التغيير.

انظر. هذا هو اسم المحققة. اكتبه.

كان ثمة سكون غير مريح في الهواء. وفي مكان ما في المتجر، بدأ طفل يبكي ولم تستطع أمه إسكاته. جمعت كل أغراضي ووقفت، ثم فركت ركبتي. حاولت أن أقرر ما إذا كان يجب أن أعود وأخبر موظف الحسابات أنني بحاجة إلى كرتونة بيض جديدة، أو أذهب إلى المنزل وتسألني مارسيلا لماذا لا يمكن الوثوق بي لإحضار ست بيضات غير مكسورة إلى المنزل. بعد ذلك، مرت فتاة مراهقة بجواري وهي ترمقني بنظرة حذرة لدى خروجها من المتجر. لقد رأيت تلك النظرة من قبل تُلقى على غير الأسوياء والمجانين،

محذرة إياهم بالابتعاد، وكأنهم مرضى بالجذام المعدي وغير القابل للعلاج. أردت أن أقول للفتاة، أنا لست مجنونًا. لكن الباب كان قد أغلق خلفها بالفعل.

اكتب اسم المحققة، وقرر فيما بعد ما تريد عمله.

وضعت الكرتونة ذات البيضة المكسورة في كيس المشتريات وغادرت السوق. وفي ساحة انتظار السيارات، لاحظت وجود سيارة بغطاء محرك طويل، تمامًا مثل السيارة التي صدمت غيريرو - من طراز فورد، لكنها كانت زرقاء، وليست فضية - فزاد هذا التفصيل الجديد، خاصة في هذه اللحظة بالذات، من غضبي وإحباطي. بدأت أدرك أنه كلما حاولت نسيان ما حدث ليلتئذٍ على الطريق السريع، صادفت المزيد من الأشياء التي تذكرني به.

لم أتناول العشاء في المنزل، وتجاهلت مناشدات الأطفال للانضمام إليهم في لعبة، واكتفيتُ بالاستلقاء على الأريكة طوال المساء، ومشاهدة مباراة كرة قدم على التلفاز بلا تركيز. لقد كنت أخشى ما ستقوله مارسيلا إذا أخبرتها بما يحدث لي، ومع ذلك لم أكن متأكدًا من أنني سأحتفظ بذلك لنفسي أيضًا.

أخبرها عن المكافأة. أخبرها.

هززت رأسي نفيًا. أدرك جيدًا ما ستقوله زوجتي إذا أخبرتها عن المال. «أرأيت؟» إنها علامة على أنه يجب عليك الاتصال بهم. أخبر الشرطة بما حدث». كان لدي ما يكفي من الأصوات تدور في رأسي بالفعل.

يا لجرأة غيريرو هذا. لقد اقتحم منزلي، وأخذ راحته على كرسي الزاوية، وحشر نفسه في محادثة بيني وبين مارسيلا. تذكرت الأيام الخوالي، عندما كنت لا أزال أغازلها. في ذلك الوقت، كانت غالبًا ما تسقط في صمت طويل، وتنجرف أفكارها إلى زوجها الأول، الذي مات بعد عام فقط من زواجهما. حتى أنها نادتني مرة أو مرتين باسمه - إرنستو. قال ابن عمي ألونسو وهو يحدق في أذني اليسرى: «هناك الكثير من الفتيات الجميلات في توريون. فلماذا ما تزال تلهث خلف هذه؟» لكنني لم أستسلم، وانظر إلينا الآن. نحن معًا منذ اثني عشر عامًا، ولدينا طفلان.

بعد أن وضعت الأطفال في الفراش، سألت مارسيلا إذا كنت أرغب في تناول العشاء. قالت: «لقد حفظتُ لك طبقًا».

«ربما في وقت لاحق. أنا لست جائعًا الآن».

جاءت لتجلس بجواري على الأريكة. «من المتقدم؟».

لم أنتبه لمجريات المباراة، والآن لا يمكنني إجابتها.

أضفى ضوء التلفاز ألوانًا على حجرة المعيشة بظلال خضراء وحمراء وزرقاء. قبل سنوات، تربصت لزوجها الميت، وقارعته حتى رحل. وبكل تأكيد يمكنني فعل الشيء نفسه مع غيريرو.

كولمان

في المنزل، لم أسمع شيئًا في الأسبوع التالي سوى براندون فعل كذا أو براندون قال كذا. «يعتقد براندون أن فريق دودجرز سيئ هذا العام»، «لقد دعاني براندون للذهاب إلى سينما سيارات يوم السبت»، «سمح لي براندون باستعارة الجزء الجديد من لعبة Call of Duty». لم يكن ثمة الكثير للتحدث عنه، ولكن على الأقل بات مايلز يتحدث إلينا الآن، ولم ينكفئ على نفسه في غرفته طوال الوقت. حتى أنه تطوع لإعداد الكعك على الإفطار، مع الفراولة والكريمة المخفوقة، وهو ما لم يفعله منذ أن انتقلنا إلى كاليفورنيا. «أترين؟» قال راي وهو يملأ غسالة الصحون. «لقد احتاج فقط إلى القليل من الوقت للتكيف. كما أخبرتك يا حبيبتي. إنه على ما يرام». لكنني كنت قلقة بشأن علاماته، لذا بعد إفطار يوم السبت، أخبرت مايلز أنه إذا كان يخطط للذهاب إلى سينما السيارات مع براندون، يتعين عليه أن يأتي إلى المكتبة معي لبضع ساعات. لقد أردت منه الابتعاد عن ألعاب الفيديو وحل مجموعة من المسائل من كتيب الرياضيات الجديد الذي اشتريناه له. قال متذمرًا: «حسنًا»، ثم حدق في هاتفه طوال الطريق إلى المكتبة. وعندما نزلنا من السيارة، أغلق الباب بعنف لدرجة أنني اعتقدت أنه سينخلع من مكانه.

«أخبرتك غير مرة ألّا تفعل ذلك».

«لا يمكنك أن تملي عليّ ما أفعل».

«بالطبع يمكنني ذلك. لقد فعلتها للتو».

«أنت لست أمي».

كم آلمني هذا، وجعلني بالكاد أستطيع التنفس. كان مايلز رضيعًا عندما التقيت أنا وراي، في حفل في عيد الاستقلال أقامه أحد زملائي بمخفر مترو، وهو طبيب شرعي يعيش في بيثيسدا بولاية ماريلاند. كنت قد ضللت الطريق إلى مكان الحفل، ولما وصلت كانت المقاعد الوحيدة المتاحة في الفناء الخلفي بجوار شارون من قسم الموارد البشرية أو بجوار راي والطفل. كان الاختيار سهلًا. وفي اللحظة التي جلست فيها، رفع مايلز ذراعيه الصغيرتين السمينتين لأحمله - وقد فعلت ذلك. ومثلما قلت، كان فتى مدللًا. ثم اكتشفت

لاحقًا أن زوجة راي السابقة قررت بعد وقت قصير من الولادة أنها غير مهتمة بالزواج أو الأمومة، وحررت نفسها بطلب الطلاق والانتقال إلى فلوريدا. لم يكن زواجي من راي سهلًا دائمًا - لقد كان لنا نصيبنا من الأوقات الصعبة، خاصة بعد أن اشترينا منزلنا في العاصمة ومررنا بضائقة مالية لبعض الوقت - ولكن لم يعترِني أي شك مطلقًا بشأن مايلز. لم يكن من لحمي ودمي، لكنه حمل خصالي، إذ كان يبتسم قبل أن ينتصر في الشطرنج، وهو ما فعلته أنا. وقد أظهر المثابرة كلما حاول حل أحجية، وكذلك فعلتُ أنا. كنت أرى نفسي فيه كل يوم. كانت علاقتنا، التي نُسجت بالحب لحظة بلحظة لمدة ثلاثة عشر عامًا، قوية. لكنه الآن، وهو يحدق في وجهي على الرصيف، يحاول تدميرها. لم أفهم ما الذي جعله يتبرأ مني، أو لماذا اختار هذه اللحظة بالذات للقيام بذلك. «لماذا تقول ذلك؟» سألته وصوتي ينخفض إلى همس.

«لأنها الحقيقة».

«كلا. لماذا تتحدث بهذه الطريقة؟ ماذا يجري؟».

«لا شيء».

«حسنًا، هناك خطب ما». وضعت يدي على خده، وعندما رفع عينيه نحوي، رأيت أنه يغالب دموعه. ابني المسكين. «قل لي يا عزيزي. ماذا حدث؟».

«براندون يقول إنه لا يمكننا الذهاب إلى السينما».

«هو قال ذلك؟ متى؟».

«لقد راسلني للتو».

«ربما تغيرت خططه. لماذا أنت مستاء هكذا؟ يمكنك الذهاب الأسبوع المقبل».

«لا، إنه ذاهب مع سام».

«أيهم يكون سام؟ الصبي ذو الشعر الأحمر؟».

هز كتفيه والتزم الصمت مجددًا. تساءلت عما إذا كان الأمر يتعلق بالعرق، كان الأطفال الآخرون من البيض، لكن كلما رأيت مايلز مع براندون، بدا أن الاثنين متوافقان على نحو جيد. إنه لأمر فظيع أن تشاهد طفلك يعاني. أحسستُ بالعجز؛ فلم يكن هناك شيء يمكنني فعله لتخليص ابني من ألمه. لم

أتمكن حتى من تهدئته بعناق، إذ كنا نقف خارج المكتبة وقد يشعر بالحرج فتزداد الأمور سوءًا بيننا. قلت: «سأخبرك بفكرة، لِمَ لا تحل مسائل الرياضيات، وبعد ذلك سيصحبك والدك إلى سينما السيارات الليلة؟ يمكنك الحصول على الفشار وحلوى ساور باتش كيدز التي تعشقها».

هز كتفيه.

«هل هذه أجل؟ قل أجل، سيكون الأمر ممتعًا».

«أجل، ربما».

دلفنا إلى الداخل، ووجدنا مكانًا للجلوس بين رجل عجوز يعتمر قبعة بيسبول ويقرأ إحدى الروايات عن نهاية العالم، وفتاة مراهقة تتصفح الكتيبات لمجتمع الكلية. شرع مايلز في حل مجموعة من المسائل، في حين أخرجتُ حاسوبي المحمول. كان قد جرى الإعلان عن المكافأة البالغة 25 ألف دولار التي عرضتها نورا الغراوي في صحيفة هاي - ديزرت ستار ومحطة كي دي جي أل قبل ثلاثة أيام، ورحتُ أضع ملصقات في كل مكان يخطر ببالي، بما في ذلك محطة الحافلات ومحلات البقالة، لكنني لم أتلقَّ أي اتصال جاد حتى الآن، وإنما الضوضاء المعتادة التي تصاحب أي إعلان عن مكافأة مالية. كتبتُ بريدًا إلكترونيًا آخر إلى فاسكو، حتى أسأله مرة أخرى إذا كان بوسعي إعادة تفتيش مسرح الجريمة؛ إذ لا بد أن شخصًا ما قد رأى شيئًا، وأحتاج فقط العثور عليه.

حينما غادرنا المكتبة، كان الوقت في منتصف بعد الظهر وقد زادت برودة الهواء بدرجة كبيرة. اشتعل ألم التهاب المفاصل في مرفقي عندما تغير الطقس بشكل مفاجئ هكذا، فأغلقت أزرار سترتي في مواجهة الريح. تساءلت عما إذا كنا سنواجه عاصفة رعدية لاحقًا، مما يعني إلغاء رحلة سينما السيارات، وقد نظرت بقلق إلى السماء الرمادية. حينئذٍ، رصدت الكاميرات الأمنية المثبتة على أفاريز مبنى المكتبة.

نورا

تلقيت مكالمة من المحققة كولمان بينما كنت في ممر بقالة الأخوين ستاتر، وما زلت أتذكر كل تفاصيل تلك اللحظة. كان هناك إعلان عن عرض خاص للعنب الأحمر الخالي من البذور ينطلق من مكبر الصوت، وقد احتضنت امرأة طفلها وهي تحمل برتقال السرّة، في حين تجادل متقاعدان حول عدد الموز الذي يجب أن يشترياه، وكنت أنا أختار تمور المدجول حلو الطعم، والمنتج محليًا. لقد أُخذت التمور من أشجار النخيل التي جلبها عالم نبات تابع لوزارة الزراعة الأمريكية إلى وادي كواتشيلا من واحة بودنيب بالمغرب في عشرينيات القرن الماضي. تجذّرت الأشجار بسهولة في كاليفورنيا، وسرعان ما بُنيت صناعة حولها. الآن يمكنك الذهاب إلى أي سوبر ماركت في الولايات المتحدة وشراء التمور التي لم تنمُ ذات يوم إلا في ظلال جبال الأطلس فقط. وكنت قد وضعت صندوقين في عربة التسوق ودفعتها باتجاه الخضر الورقية عندما رن هاتفي.

تركت العربة في مكانها. وبعد عشر دقائق دخلت بالسيارة إلى الممر الخاص بمنزل والديّ، حيث أقللتُ والدتي. تدفق وهج شمس الظهيرة على الطريق أمامي مثل إحدى لوحات ديفيد هوكني، وسلكت شارع 62 باتجاه مركز الشرطة. وقد حلقت مروحية في السماء متجهة نحو قاعدة مشاة البحرية. قالت والدتي: «أنت تسيرين بسرعة كبيرة»، ثم أمسكت بالمقبض فوق نافذتها. حينئذٍ، لاحظت أن مفاصلي قد ابيضت من الإمساك بعجلة القيادة بقوة، فخففتُ من سرعتي. ثم مررنا بسلسلة من الموتيلات ومطاعم الوجبات السريعة، ورافعة طويلة اعتلاها رجل يرتدي زيًا رسميًا ليقوم ببعض الأعمال، وأخيرًا مجموعة البوتيكات العصرية والمطاعم الصحية التي كانت تشكل مدينة جوشوا تري. كان مركز الشرطة يقع على بعد بضعة كيلومترات فقط من حي بارك بوليفارد، في بناية باللونين البرتقالي والأبيض بجوار قاعة المحكمة.

في المخفر، قادتنا المحققة كولمان عبر المكتب الرئيسي، حيث جلس نواب، بعضهم في زي رسمي وآخرون في ملابس مدنية، على مكاتبهم. وقد جاء من مكان ما صوت طنين الطابعة، وحديث الأشخاص، ورنين الهاتف؛ كل العلامات العادية لمكان عمل في صباح يوم الثلاثاء. ومع ذلك شعرت بقشعريرة، وكأنني كنت في مكان ما غريب أو خطير. كانت الغرفة صغيرة،

وستارة النافذة مسحوبة جانبًا، ليتسلل ضوء مائل على الأثاث. وقد وُضعت أربعة كراسٍ حول طاولة غطتها آثار كؤوس وأكواب. «هل ترغبان ببعض القهوة؟ أو ربما بعض الماء؟» سألتنا المحققة.

قلت: «لا، شكرًا».

في حين قالت أمي: «الماء».

بحق السماء، هذه ليست دعوة اجتماعية. لكنني امتنعت عن قول أي شيء لأنه لن يؤدي إلا إلى مزيد من التأخير. خرجت المحقق كولمان وعادت بعد لحظة حاملة كوب ماء. قلت «من فضلك. أخبرينا فقط من يكون».

وضعت كولمان مجلد ملفات على الطاولة وجلست. «سائق السيارة التي صدمت والدك هو أندرسون بيكر. لقد أعطانا إفادة كاملة وسلم مفاتيح سيارته. إنها سيارة فورد كراون فيك الفضية، موديل عام 1992».

«لحظة واحدة. أندرسون بيكر، مالك صالة البولينغ؟».

«أجل».

التفت إلى والدتي، التي جلست على كرسيها ويدها على فمها. وعندما تنفست مرة أخرى، تحدثت بوتيرة سريعة، وقد طغى الإحباط على صوتها، فاضطرب نطقها، وهو ما يحدث دائمًا عندما تهتاج مشاعرها. «لطالما حاول ذلك الرجل إثارة المشاكل. كان يشكو من أن زبائننا احتلوا جميع مواقف السيارات ولم يتبقَّ لديه أي أماكن لصالته، فاشترى زوجي اللافتات الخاصة التي تحمل اسم المطعم...».

قلتُ بدلًا عنها «لافتات مخصصة لموقف السيارات».

«صحيح. لكن السياح القادمين من جوشوا تري لا ينتبهون. إنهم يوقفون السيارات أينما استطاعوا. لذلك كان بيكر غاضبًا».

لا أعرف إلا القليل عن الخلاف مع بيكر. إن أحد الأمور التي ارتحت منها عندما هجرت المنزل في سن الثامنة عشرة هو أنني لن أضطر إلى الاستماع عن تجارة العائلة؛ لا مزيد من الحديث عن جدول الورديات أو طلبات الطعام أو عمليات التوصيل المتأخرة أو التخلص من القمامة أو إصلاح مواسير الصرف. عندما تحدثتُ مع والدي عبر الهاتف، لم أسأله عن المطعم، وإذا أتى على ذكره، كان ذلك عادة يتعلق بفكرة جديدة يود تجربتها، مثل اللافتات المخصصة لموقف السيارات. كان الموقف يضم ثلاثًا وعشرين مساحة ركن،

ثلاث عشرة منها تخص المطعم، والبقية تخص صالة البولينغ. وكان الغرض من اللافتات هو إزالة أي غموض بشأن مساحات الركن، لكن يبدو أن هذا لم يفلح. التفتُّ نحو كولمان وقلت: «ما تحاول أمي قوله إن هذا قتل مع سبق الإصرار والترصد».

قالت كولمان بهدوء: «أفهم ما تقوله». ثم فتحت المجلد على الطاولة. وأضافت: «ذكر السيد بيكر في إفادة خطية أن الظلام كان شديدًا في تلك الليلة، ولا توجد إشارة مرور عند تقاطع شارعي 62 وتشيمهويفي. وادّعى أنه لم يكن يعلم أنه صدم والدك حتى قرأ عنه في الصحيفة».

«من كان يعتقد أنه صدم؟».

«ذئبًا بريًا».

قلتُ بصوت مرتفع: «لذا ترك والدي يصارع الموت؟ إذا كان الأمر مجرد حادث، فلماذا لم يسلم نفسه على الفور؟ لماذا انتظر حتى عثرتِ عليه؟».

«قال إنه كان قلقًا بشأن فقدان رخصته. إنه يعيش في لاندرز ويحتاج إلى سيارته للوصول إلى مكان عمله».

«هذا محض هراء». لم أستطع معرفة ما إذا كانت كولمان تصدق أكاذيب بيكر؛ إذ لم تقدم أي تلميح شفهي بشأن آرائها، واحتفظ وجهها برباطة جأش محققة متمرسة. بعد لحظة، سألتها، «بماذا تتهمونه؟».

«المدعي العام المحلي سيتخذ هذا القرار».

«حسنًا. لكن ما هي التهم؟».

«جريمة اصطدام وهرب».

«هذا كل شيء؟ لقد قتل والدي». خرجت الكلمات بنبرة عاجزة، فبدا لي وكأن الماضي الذي تركته ورائي منذ سنوات قد باغتني فجأة وسيخنقني إذا لم أكن حذرة. قلت: «أوَتعلمين؟ لقد ذهبت إلى المدرسة الثانوية مع ابن بيكر، أندرسون جونيور. كان الجميع ينادونه إيه جي. إنه صبي شرير.

استدارت والدتي إلي وسألت: «متى؟».

«في السنة الثانية».

«لم يسبق أن أخبرتِني».

«وماذا كنت ستفعلين لو أخبرتك؟».

عبر الطاولة، تحركت كولمان في مقعدها. وبظفر إبهامها، حكت الندبة على حاجبها. كان جرحًا قديمًا، لكن الجلد ما زال يبدو ملتهبًا في بعض الأماكن. قالت بنبرة مختلفة تمامًا الآن: «أنا آسفة، لكن ما حدث لك في المدرسة الثانوية ربما لا يكون ذا صلة بقضية الاصطدام والهرب».

«فما الذي يكون ذا صلة إذًا؟ حقيقة أن بيكر كان يتشاجر مع والدي؟».

«منذ متى يستمر هذا النزاع؟» سألتني كولمان.

انتظرتُ أن تجيب أمي. الحقيقة أنه لم يكن هناك دائمًا نزاع، أو أيًّا كان ما تسميه كولمان. كان هناك وقت حين ساد بيننا التوافق. في عام 2002، عندما كان والدي قد اشترى المطعم حديثًا، ذهبت إلى صالة البولينغ معه لمقابلة أندرسون بيكر. حدث ذلك بعد المغرب بقليل، ولكن كانت نصف الممرات محجوزة بالفعل وبدا أنهم يستعدون لقضاء ليلة مزدحمة. كان بيكر يتحدث إلى موظف تسجيل المدفوعات، لكنه استدار عندما أتينا وابتسم وصافح والدي. تصرف بود حينها؛ كان متحفظًا، لكنه ودود. وفي وقت سابق، كان هناك حديث عن توصيل طلبات الطعام إلى صالة البولينغ، لكن الفكرة لم تُنفذ أبدًا واحتفظت الشركتان باستقلالهما. بيد أن كل ذلك تغير بعد سنوات قليلة.

قالت والدتي بهدوء: «منذ أن قمنا بتوسيع المطعم».

قلت: «ما حدث هو أن كاتبة لدى مجلة لوس أنجلوس جاءت إلى هنا لكتابة مقال عن جوشوا تري، وقد أتت على ذكر المطعم فيه. احتوى المقال على صورة لأبي وهو يصب القهوة لأحد الزبائن، وسرعان ما اكتسب المطعم شهرة بين السياح. وقد انتهى الأمر بوالدي بشراء محل التنظيف الجاف الصغير المجاور، فحصل على ثلاثة أماكن إضافية لوقوف السيارات. أعتقد أنه حينها بدأت المشاكل مع بيكر. أليس كذلك يا أمي؟ عندما وسع تجارته».

قالت كولمان: «حسنًا، سأبحث في الأمر. لكن يجب أن أذكر أيضًا أن السيد بيكر لم يحاول إصلاح الانبعاج في سيارته، وهو ما يتفق مع ادّعائه بأنه كان مجرد حادث».

«لم يكن مجرد حادث. لقد سمعت ما قالته أمي».

قالت كولمان مرة أخرى، وهي تغلق مجلد الملفات: «سوف أنظر في الأمر».

«هل تقدم أي شهود؟».

«كلا، للأسف».

«هل يمكنني أن أسألك شيئًا عن التحقيق؟».

«بالتأكيد».

«كيف علمت أن بيكر الفاعل؟».

«هل أخبرتك عن ابني؟».

«أجل. مايلز، أليس كذلك؟».

«صحيح. كنت في المكتبة برفقته يوم السبت، أساعده في حل واجب الرياضيات، فلاحظت كاميراتهم الأمنية. وقع الحادث عند تقاطع الطريق السريع 62 وتشيمهويفي، لكن موقع الجثة يشير إلى أن السائق انعطف يسارًا. إذا فعل ذلك، فسيكون لديه خيار الانعطاف يمينًا في طريق مارتينيز تريل، الذي يمتد موازيًا للطريق السريع وأحيانًا يكون أسرع. إنه طريق مختصر شائع. لكنه سيظهر في كاميرات المراقبة الخاصة بالمكتبة. لقد مرت ثماني وعشرون سيارة فقط بين التاسعة والنصف والعاشرة والنصف مساءً، ثلاث فقط منها كانت فضية. انتهى الأمر بالتحقق منها».

«إذًا، لكان قد أفلت بفعلته لو أنه لم يتخذ طريقًا مختصرًا؟».

قالت كولمان: «لكنه فعل. والآن لدينا اعتراف».

قلت: «حسنًا. شكرًا جزيلًا أيتها المحققة كولمان».

تبعتُ والدتي خارج مركز الشرطة. لم يتحدث أي منا، فقد رحت أحاول تحديد الشعور الذي ملأ قلبي الآن بعد أن عُرف الجاني، بيد أنني عجزت عن ذلك. لم يكن شعورًا بالراحة، على الرغم من وجود القليل منه. ولم يكن استياءً، على الرغم من وجود القليل منه أيضًا. لقد كان نوعًا مختلفًا من الألم. في الخارج، سطعت شمس الظهيرة بقوة لدرجة أن البخار تصاعد من الرصيف. اتصلت بشقيقتي لأخبرها بما عرفناه للتو، لكنها لم ترد، فتركت لها بريدًا صوتيًا أرجوها فيه أن تتصل بي، لأن لدي بعض الأخبار.

بينما كنت أقلّ والدتي إلى المنزل، راجعت كل ما قالته المحققة عن جريمة القتل. هكذا أراها الآن؛ جريمة قتل. كان هذا ما خشيته طوال الوقت، وخطر لي حينها أن ما جعلني أبقى في المدينة بعد الجنازة لم يكن مجرد حزن، بل إحساس داخلي بأن والدي قُتل بدم بارد.

حذرتني والدتي: «الإشارة حمراء. تمهلي».

«آسفة»، قلت وأنا أتوقف فجأة. التفت للنظر إلى والدتي. «هل حدث شيء ما مؤخرًا مع بيكر؟».

«ماذا تعنين؟».

«أعني، شيء يمكن أن يؤدي إلى هذا. لقد تجادلا كثيرًا منذ أن وسع أبي تجارته، أليس كذلك؟ فلماذا الآن؟».

فكرت والدتي لمدة دقيقة. «كانت هناك مشكلة تخص سيارة اللاند روفر».

«ماذا عنها؟».

«الإشارة خضراء».

تدفقت الحكاية في أجزاء، وتطلب الأمر إعادتها مرتين أو ثلاث حتى تكتمل تفاصيلها. بعد ذلك، دخلت إلى الممر الخاص بمنزل والديّ. منزل طفولتي، برواقه الصغير وشجرة المريمية المتضخمة والشاشة التي لم تتناسب قط مع دعامة الباب. إنها المرة الأولى التي بدأ عقلي فيها العمل مرة أخرى منذ أن سمعت بموت والدي. لقد وجد الغضب غير المبرر الذي تبعني منذ أن غادرت البلدة في سن الثامنة عشرة هدفًا: سأحرص على تقديم أندرسون بيكر إلى العدالة، لكنني لم أكن متأكدة كيف سأفعل ذلك بعد.

إدريس

أتذكر أن حراس الحديقة اضطروا إلى وضع لافتة على الطريق السريع لتحذير الزوار من أن المعسكرات في جوشوا تري محجوزة بالكامل. كانت المدينة مليئة بالمتنزهين وراكبي الدراجات والعائلات من لوس أنجلوس وسان دييغو، الذين أرادوا الخروج من المدينة الكبيرة لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في يوم الرؤساء. وقد كان العمل بطيئًا بعض الشيء في ذلك الشتاء، لذلك شعرت بسعادة غامرة لرؤية العديد من الأشخاص ينتظرون عند المطعم، في طابور يمتد إلى الرصيف. جاءت شابة ترتدي قميصًا بوهيميًا لتسأل عما إذا كان بإمكانها طلب جعة الميموزا أثناء انتظارها. لم تكن المرة الأولى التي أتساءل فيها عما إذا تعين عليّ التقدم بطلب للحصول على رخصة لبيع مشروبات كحولية، لجذب الأشخاص الذين يأتون إلى موجافي. وقد كنت أعمل على ماكينة تسجيل المدفوعات النقدية عندما اندفع أندرسون بيكر. «من يمتلك سيارة لاند روفر ديفندر هنا؟» سأل، «إنها تقف في إحدى مساحاتي».

قلت: «دقيقة واحدة». كنت أحاسب زوجين مسنين، وهما زبونان منتظمان. عندما كنت أحسب المال، لم أستطع التحدث، وأجبرتني مقاطعة بيكر على إعادة الفواتير إلى السجل والبدء من جديد.

«إنه موقف مزدوج يشغل مساحتين». رفع إصبعيه على هيئة حرف V، وكأنني لا أعرف ما تعنيه عبارة «الموقف المزدوج».

قلت مرة أخرى «دقيقة واحدة فقط». حسبت بقية المبلغ وسلمته للزوجين، ثم أغلقت درج الماكينة بفخذي. «شكرًا جزيلًا».

ابتعد الزوجان، فأخذ بيكر مكانهما. «لمن هذه اللاند روفر؟».

رفعت عنقي لأنظر إلى ما وراء كتفه نحو ساحة انتظار السيارات. من حيث وقفت، لم أستطع رؤية سوى سيارة بويك قديمة متربة وشاحنة زرقاء مغطاة بملصقات ملونة. كان ثمة مساحة في الزاوية ما تزال شاغرة، وعلى أي حال، لا تزدحم صالة البولينغ إلا بعد الغداء. قبل أن أتمكن من قول أي شيء، قال: «حسنًا؟ لا تقف عندك فقط. اعثر على صاحبها».

لا أدري ما الذي جعله ينفجر هكذا. لقد نشبت خلافات بيننا في الماضي، لكنها كانت تدور حول أشياء جدية، مثل الضوضاء التي سببتها أثناء إعادة البناء قبل مدة، أو الرائحة الكريهة المنبعثة من خط الصرف الصحي الذي انكسر تحت الحمامات في رواقه. والآن هو منزعج بشأن مكان لوقوف السيارات. احمر وجهه غضبًا وهو يحدق في وجهي، منتظرًا مني إصلاح مشكلة لا دخل لي بها. قلت: «حسنًا»، محاولًا تهدئته. «دعني أكتشف ذلك».

التقطت إبريقًا من الماء وذهبت إلى الطاولة الأولى؛ أسرة مكونة من أربعة أفراد، لا تزال ترتدي ملابس تنزه، وتفوح منها رائحة دخان نيران المخيم. أعدت ملء كؤوسهم، وسألت عن طعم شرائح الدجاج المقلية، وما إذا كانوا يستقلون سيارة لاند روفر. ثم انتقلت إلى الطاولة التالية. لكن بيكر لم ينتظر، اندفع بجواري إلى منتصف المطعم، وقد شغل بهيئته الضخمة الممر الأوسط، وبصوت مذيع جهوري، صرخ: «سيارة لاند روفر ديفندر، رمادية اللون. تعالَ وانقلها من مكانها الآن وإلا سوف أقطرها». خيم الصمت على المطعم، ونظر الجميع إلى الأعلى، لكن لم يتبنَّ أحد سيارة لاند روفر. لذا خرج بيكر بسرعة، تاركًا إياي أعتذر للزبائن، وأحضر أقلام تلوين إضافية للأطفال وأعيد ملء سلال الخبز للكبار.

أضحت علاقتنا متوترة بالفعل، لكن جدال ذلك الصباح تحول إلى فوضى. الآن يتعين عليّ أن أكون متيقظًا بشأن كل شيء: أماكن وقوف السيارات التي يستخدمها زبائني، والوقت الذي تقضيه شاحنة التوصيل في وضع الانتظار أثناء جلب المشروبات الغازية، وما إذا كان الطباخ يدخن السجائر بالقرب من صندوق القمامة. شعرتُ بأنني مراقب باستمرار، وأن أدنى خطأ من قبلي سيؤدي إلى انفجار آخر. فكيف أتصرف مع جار كهذا؟ كيف أمنعه من تصيد إخطائي إذا كان هذا هو كل ما يبحث عنه؟

كانت هذه الأسئلة مقلقة للغاية لدرجة أنني تجاهلتها. لعلي تركت مشكلة اللاند روفر تعميني، فأنا وبيكر جاران منذ مدة طويلة جدًا، وعندما تركت عاصفة مرعبة قبل ثلاث سنوات حطامًا في جميع أنحاء الشارع، عملنا معًا لتنظيفه. إنها مجرد سحابة صيف، فضلًا عن أنه يتقدم في السن، مما يعني أنه سيتقاعد عاجلًا أم آجلًا. كنت بحاجة إلى وضع كل هذا في اعتباري. قلت لنفسي *تحلّ بالصبر، ستتحسن الأوضاع قريبًا.*

نورا

وُجهت التهمة ضد أندرسون بيكر رسميًا في صباح صافٍ من شهر مايو، حيث كان الهواء لا يزال يهب بعد عاصفة رعدية، وتبدو الجبال على مسافة بعيدة مثل نقش خشبي. قدت سيارتي صوب قاعة المحكمة في مورونغو باسن يتملكني الترقب المحموم، الذي زاد - عندما مررت عبر جهاز الكشف عن المعادن - بعدما جرى سحبي جانبًا للخضوع لتفتيش عشوائي. لقد بدأت هذه العادة منذ سنوات، ولا مفر منها. وسواء مررت عبر آلة متطورة في مطار سان فرانسيسكو الدولي أو أخرى وضيعة في حلبة رياضية بمقاطعة كيرن، كان دائمًا ما يجري سحبي جانبًا من أجل التفتيش العشوائي. وقد حدث الأمر نفسه في المحكمة المحلية. كانت والدتي قد اجتازت التفتيش بالفعل ووقفت تنتظرني على الجانب الآخر. «أين سلمى؟» سألتها ونحن نتعانق.

«في العيادة».

«لكن هذا مهم جدًا. ألا تستطيع تغيير مواعيدها؟».

«لا أدري».

«هل يمكنك الاتصال بها؟ إنها التاسعة والنصف فقط. إذا غادرت الآن، فلا يزال بإمكانها الحضور».

ترددت والدتي، إذ كان الجدال في مسرحية مدرسة الأطفال قد أرهقها وبدا أنها لا تريد المخاطرة بحدوث جدال آخر هنا في قاعة المحكمة. لم ترد. بدلًا من ذلك، نظرت إلى شاشة الحائط التي أظهرت القضايا المقررة في ذلك اليوم. قالت: «هناك. بيكر. قاعة إم-2».

عندما دخلنا، كانت المقاعد الوحيدة الشاغرة في الصف الأخير. فكرت كم هو غريب أن تضم قاعة المحكمة مقاعد. لقد أضفت على المنظر جوًا أرستقراطيًا، لكن هذا الانطباع انحسر بسبب السقف الشبكي الأبيض، الذي بدا ملائمًا أكثر لمستودع صناعي. كانت الغرفة بلا نوافذ ومضاءة بشدة، وعلى الرغم من وجود محامين ومحضرين وجمهور، إلا أنها كانت هادئة على نحو مخيف. كان القاضي جالسًا بالفعل على منصته، وهو يقلّب الأوراق، في انتظار إخراج متهم وإحضار آخر.

نظر الرجل العجوز الذي جلس بجواري إلى الأعلى فجأة بعد استدعاء صبي يرتدي قميصًا رماديًا بتهمة حيازة مخدرات. تقدم الولد، وكتفاه محدبتان، وذراعاه أبيضين ونحيلين، وتعلو محياه نظرة حيرة. قُرئت التهم، وحددت الكفالة بمبلغ 5 آلاف دولار. كانت معظم الحالات في ذلك الصباح على هذه الشاكلة؛ حيازة القنّب، أو الميثامفيتامين، وأحيانًا الهيروين. إنها مناوشات في الحرب اللانهائية على المخدرات. لم أستطع تحمل شعور بأن مقتل والدي مدفون تحت أنقاض القضايا التي تنتمي إلى عالم آخر.

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة عندما أُحضر أندرسون بيكر أخيرًا إلى قاعة المحكمة. كان طويلًا جدًا - حوالي 190 إلى 200 سم - ولم أجد صعوبة في رؤيته من الصف الأخير. وقد ارتدي قميصًا من الكتان الأبيض وبنطالًا بلون البيج، فبدا وكأنه قد أمضى الليل في حفل زفاف في بالم سبرينغز وهو الآن عائد إلى المنزل، ويا لها من ملابس سيئة. استدار وتفحص قاعة المحكمة، لتستقر عيناه على شخص يجلس في الصف الأول عبر الممر؛ إنها السيدة بيكر. كانت امرأة طويلة نحيفة، وذات ملامح قاسية. وعلى حجرها استلقت فتاة نائمة، ربما تبلغ من العمر ثلاث أو أربع سنوات، ذات شعر أشقر مجعد. أعتقد أنها حفيدتها. وبجانب السيدة بيكر جلس ابنها إيه جي، نجم المصارعة في المدرسة الثانوية، والطفل المشهور والمتنمر والشرير. كان قد التحق بكلية في مقاطعة أورانج، لا أتذكر أيها، وعاش في المنطقة. وها هو الآن يقدم الدعم المعنوي لوالده. على الجانب الآخر من إيه جي جلست امرأة سمراء شابة، ربما زوجته، وفي الصف خلفها جلس رجلان في منتصف العمر تعرفت عليهما كعاملي صيانة في متجر ديزرت بولينغ أركيد.

بدأت أدرك كم كنت غير مستعدة لهذا اليوم في المحكمة. لم يخطر ببالي حتى أن أخبر أي شخص في مطعم والدي عن الاستدعاء، أو أن أسأل عما إذا كانوا يرغبون في القدوم إلى المحكمة معنا. ومجددًا، شعرت بحنق شديد تجاه شقيقتي لعدم إلغاء مواعيد عيادتها في ذلك الصباح. بدا الأمر وكأنها ترسل لي رسالة ضمنية: *تكفلي أنتِ بهذا. لقد فعلتُ ما يكفي*. كنت أدرك، بطبيعة الحال، أنها لا تزال غاضبة بشأن أموال التأمين على الحياة، ولكن من بين جميع الطرق للإدلاء ببيان حول هذا الموضوع، فقد اختارت أكثرها ضررًا بالنسبة لي وللقضية. لماذا سيهتم أي شخص بميت إذا كان من حضر الجلسة هما زوجته وابنته فقط؟ ومن سيصدق أن بيكر قادر على القتل العمد مع حضور جميع أصدقائه وعائلته، بما في ذلك الفتاة الصغيرة الجميلة، لمساندته؟

عاد بيكر لمواجهة القاضي عندما تمت قراءة التهمة: جريمة اصطدام وهرب أفضت إلى الإصابة أو الوفاة. «هل لديك محام يا سيد بيكر؟» سأله القاضي.

«كارولين بيري يا حضرة القاضي».

«سيد بيكر، كيف تترافع عن نفسك؟».

«لستُ مذنبًا».

كنت قد قرأت في مكان ما أن معظم المتهمين يتمسكون بالبراءة في المحاكمات، لذا كان هذا الجواب متوقعًا، لكنني قلقت من أن وجود الكثير من الأشخاص الذين دعموا بيكر في قاعة المحكمة أعطى مصداقية إضافية لدفوعه. أراح القاضي ذقنه على يده وانتظر حتى تتحدث المحامية.

بدأت كارولين بيري بالقول: «حضرة القاضي، إن موكلي ليس لديه سجل إجرامي». تحدثت بأريحية إلى القاضي توحي بأنها تعرفه أو ترافعت أمامه في قضايا سابقًا. في بضع عبارات فضفاضة، رسمت صورة جميلة للرجل الذي يقف بجانبها: إن أندرسون بيكر صاحب عمل له علاقات قوية مع المجتمع؛ وهو ينحدر من موهافي حيث تعيش عائلته على بعد كيلومترات قليلة من بعضها البعض؛ ويبلغ من العمر ثمانية وسبعين عامًا ويمتلك منزلًا هنا منذ خمسة وأربعين عامًا؛ فضلًا عن أنه من قدامى المحاربين في حرب فيتنام. «حضرة القاضي، كان هذا حادثًا مؤسفًا للغاية، لكن الدليل سيظهر أن موكلي اعتقد أنه صدم حيوانًا بريًا؛ وليس إنسانًا. كان هذا خطأً مأساويًا وليس جريمة».

هل كان هذا نذيرًا لما سيحدث عندما تحال القضية إلى المحاكمة؟ ستستمع هيئة المحلفين إلى قصتين عما حدث ليلة 28 أبريل، إحداهما سيرويها المدعي العام والأخرى محامية الدفاع. ليس مهمًا حقًا أيها كانت صحيحة، بل ما يهم هو أيها ستراها هيئة المحلفين أكثر إقناعًا. وأرى بالفعل أن محامية بيكر متحدثة لبقة. لم تستطع التراجع عن اعتراف بيكر أو إنكار الأدلة المادية الدامغة؛ فداحة إصابات والدي، ورقائق الدهان التي استعادها فريق الطب الشرعي، والانحناء الشديد في صندوق السيارة. لذلك اختارت التركيز على الوعي: لم يكن بيكر يعلم أنه قتل رجلًا.

ولكن كم يبلغ وزن الذئب البري، خمسة عشر إلى عشرين كيلوغرامًا؟ كيف خلط أندرسون بيكر بين الاصطدام بحيوان صغير والاصطدام برجل يبلغ وزنه قرابة ثمانية وسبعين كيلوغرامًا؟ بدت القضية واضحة جدًا بالنسبة لي

لدرجة أنني اضطررت إلى كتم الاحتجاج الذي يتصاعد في حلقي، وانتظار المدعي العام ليتحدث.

كان مساعد المدعي العام رجلًا قصير القامة وممتلئ الجسم واسمه توماس ج. فريزر (ج. اختصار جيفرسون). وقد بدا وكأنه في أوائل الثلاثينات من عمره، وأنه جديد في وظيفته أو مرهق تمامًا، إذ راح يرتب أوراقه لبضع دقائق مؤلمة قبل أن يكون مستعدًا لمخاطبة القاضي. «حضرة القاضي، بالنظر إلى سن المدعى عليه، فإن الولاية لا تعارض الكفالة».

«حسنًا. حددت الكفالة بمبلغ 10 آلاف دولار».

التفتُ إلى والدتي في ذهول. «أمي، أعتقد أن هذا كل شيء. قُضي الأمر».

«ماذا تقصدين بقضي الأمر؟».

«أعني، انتهى كل شيء. يمكنه دفع الكفالة والخروج قبل العشاء».

«سيكون حرًا؟».

حر، أجل. دفنتُ وجهي في يدي؛ فلعلي لو بذلت جهدًا أكبر في التوضيح لكولمان والمدعي العام حجم التهديد الذي شكله أندرسون بيكر لوالدي، لوُجهت إليه تهمة أكثر خطورة. أو إذا جاءت سلمى اليوم وأحضرت التوأم معها، لكانت نتيجة جلسة الاستماع عن الترابط العائلي مختلفة قليلًا. غمرني شعور بأنني قد خذلت والدي بطريقة ما. بل إنهم لم يأتوا على ذكره حتى في الإجراءات. كان التركيز على تاريخ وخدمة وعائلة بيكر، لذا فقد حصل على فائدة الشك. لكن إذا عُكست الأدوار ليلة 28 أبريل، وكان محمد إدريس الغراوي قد قتل رجلًا يتشاجر معه منذ سنوات عديدة، فهل ستوجه إليه فقط تهمة الاصطدام والهرب؟ وهل سيوافق المدعي العام بسهولة على الكفالة؟ عندما نشأت في هذه المدينة، علمت منذ مدة طويلة أن وحشية رجل يدعى محمد نادرًا ما تقع محل تساؤل، ولكن يجب إثبات إنسانيته دائمًا.

قالت والدتي: «يجب أن نذهب».

راح الناس من حولنا ينهضون عن المقاعد، فنهضتُ في حالة ذهول وسرت خلف والدتي عبر الأبواب ذات الاتجاهين. وعلى الرغم من تشغيل مكيف الهواء، كان المكان حارًا، والمدخل صاخبًا ومزدحمًا. وبينما كنت أتنحى جانبًا كي أسمح لشخص ما بالدخول إلى قاعة المحكمة، وجدت نفسي وجهًا

لوجه مع إيه جي. لقد بدا كما كان في المدرسة الثانوية؛ طويل القامة وأشقر، عدا أن وجهه امتلأ خلال السنوات العشر الماضية. وفي بدلته السوداء وربطة العنق الحمراء، بدا كرجل أعمال أتى إلى هنا لارتكاب مخالفة بسيطة؛ تذكرة مرور أو انتهاك تصريح صيد، لكن التأثير تبدد في وجود والدته، التي حملت الطفلة النائمة بين ذراعيها، والشابة التي كانت تفتش في حقيبتها. قالت: «عزيزي إيه جي، لا يمكنني العثور على مفاتيحي».

لكن إيه جي لم يسمعها؛ إذ كان يحدق بي. ثم انفصل عن المجموعة وسار عبر الرواق. نادى قائلًا: «نورا».

جيريمي

«إذًا، ماذا قلتِ؟»، سألتها وأنا أتكئ على منضدة المطبخ، وأشاهدها وهي تقلب اللحم في القدر. جلجلت ثلاثة أساور فضية على معصمها مع كل لفة من الملعقة الخشبية. وكانت ما تزال ترتدي القميص الأبيض والبنطال الرمادي اللذين ارتدتهما في ذلك الصباح إلى المحكمة، وقد سرحت شعرها على هيئة كعكة. بدت مختلفة، رسمية جدًا، أو حتى صارمة. كنت أرغب في اصطحابها لتناول العشاء ليلتئذٍ، لكنها قالت إنها ليست في مزاج مناسب للخروج، واقترحت أن نأكل هنا في الكوخ.

قالت: «لا شيء. لقد وقفت هناك كالحمقاء، وتسمّرت في مكاني. لعلك تتذكر كيف كان إيه جي». أخبرتني عن الافتراء الذي كتبه بقلم أزرق على خزانة ملابسها، فأجبره المدير على مسحه والاعتذار لكنه لم يطرده؛ إذ كان فريق المصارعة بالمدرسة يتنافس في نهاية ذلك الأسبوع.

الغريب في الأمر هو أنني بالكاد استطعت تذكر هذه الحادثة بالذات. لقد حدث ذلك في العام الذي فقدت فيه والدتي، عندما كانت الدراسة شيئًا هامشيًا. إن ذكرياتي عن نورا تعود لوقت لاحق. كانت مثل كنوز صغيرة احتفظت بها في صندوق: أتذكر كيف تنكشف ساقاها عندما تجلس أمام البيانو في فصل الموسيقى؛ وكيف كانت ترمي رأسها للخلف وتقهقه عندما تذهب هي وسونيا معًا إلى محل البوظة؛ حينئذٍ وقفت تحت مظلتي، وشعرها يتدلى على ذراعي ونحن ننتظر حافلة المدرسة لتقلنا إلى بحيرة بيغ بير.

قالت: «وكتبها بدون الياء. لم يستطع حتى تهجئة كلمة رجعية».

كانت كلمة سمعتها كل يوم تقريبًا في العراق. اللعنة، بل واستخدمتها بنفسي. كان هذا النوع من الحديث شائعًا حول طاولة الطعام؛ الحاج، فارس الجمال، الراكون الكثيب، علي بابا. حتى إن أحد الرجال في فصيلتي نعت العراقيين بالقرود والمتوحشين. في ذلك الوقت؛ اعتبرت هذا السلوك جزءًا من الحرب: كان علينا تجريد العدو من إنسانيته من أجل محاربته. ولكن الآن، بعد أن سمعت عن سبها على خزانة ملابسها، شعرت بالخزي، تلاه إنكار داخلي. الأمران ليسا سيّان، وأنا بلا شك لستُ مثل إيه جي. «أنا آسف»، قلت وأنا ألمس مرفقها، حيث سقطت الليلة الماضية.

قالت: «أتذكر أننا حضرنا معًا حصة عن الصحة ذات مرة. كان المعلم يتحدث عن الثآليل التناسلية، فقال إيه جي؛ *تعاني أمي منها طوال الوقت*. لقد ذهلت، لذا التفتُّ نحوه. أشار إلى زاوية فمه وقال: *لقد حصلت عليها هنا*. ضحكت - لم أستطع كبح نفسي - وقلت، *ليس هذا ما تعنيه الأعضاء التناسلية*. بعد ذلك، كرهني أكثر. وبعد أيام من أحداث 11 سبتمبر، شوّه خزانتي».

عادت إليّ إحدى الذكريات. قلت: «كان يناديني بجابا».

«جابا؟».

«مثل جابا ذا هوت من أفلام ستار وورز. لأنني كنت سمينًا». حتى بعد مرور سنوات عديدة، ما تزال الإهانة لاذعة. لا يزال بإمكاني سماع صوت إيه جي ورائي في حصة الجبر. هو هو هو هو *جابا جابا*.

قالت: «هذا مقرف». أطفأت النار وقدمت لي اللحم والبطاطس والجزر في طبق واحد.

«ألن تأكلي؟».

«لقد أكلتُ بالفعل، ولست جائعة». ثم وضعت ملعقة صلصة الطماطم فوق اللحم ووضعت الطبق على المنضدة أمامي.

«هلا جلستِ معي؟».

سحبت الكرسي مقابلي وراحت تراقبني وأنا آكل. كان مذاق الصلصة مألوفًا ومختلفًا في آن واحد. لقد ميزت طعم الفلفل الحلو، الذي كنت أعرف مذاقه جيدًا، ولكن ميزت أيضًا الكمون والبقدونس والكزبرة. كان اللحم طريًا وانفصل بسهولة من العظم.

قلت «رائع. يا لك من طباخة ماهرة».

«يعجبني فيك تفاؤلك».

«حقًا؟» أمسكتُ يدها وقبّلت راحتها.

قالت بابتسامة: «لستُ أنا من أعددته؛ فلا يمكنني الطبخ. لا شيء من هذا القبيل على أي حال. أمي هي من طهت. لقد تناولت الغداء معها بعد جلسة الاستماع فأرسلت معي ما فاض من الطعام».

«مذاقه لذيذ على أي حال».

أخذت شوكتي وتذوقت بعض الحساء بنفسها. «إنه رائع. كان يفترض أن تفتتح هي المطعم». ثم أعادت إلي الشوكة وسندت ذقنها إلى يدها، وسرحت مجددًا في أفكارها حول جلسة المحكمة. «لا أستطيع أن أصدق أنني وقفت هناك صامتة، في حين عبّر إيه جي عن أسفه لخسارتي وأن الأمر مجرد حادث مأساوي. هكذا وصفه، مأساوي. وعندما مد يده، صافحته. وكأن شيئًا لم يحدث، ولم يكن على وشك إنقاذ والده». كانت عيناها مظلمتان وتتحركان بسرعة. ولما كانت قد سرّحت شعرها على هيئة كعكة صغيرة، فقد بدت كضابطة في المحكمة، أو مدعية عامة أو محامية دفاع. «في هذه الأثناء، ما يزال والده يحاول جعل الأمر يبدو وكأنه خطأ غير مقصود. وكأنه دهس وقتل خطأ الرجل الذي لطالما تشاجر معه».

«هل تعتقدين حقًا أنها كانت جريمة قتل؟».

«أعرف ذلك في قرارة نفسي. أما وقد خرج بكفالة، فقد يعيد الكرّة من جديد».

باغتتني صورة فييرو في ويست فالي فجأة؛ كم كان متحمسًا لمغادرة السجن، وكيف أنه لم يكلف نفسه عناء مصافحتي قبل أن يخرج عبر الأبواب المزدوجة. تملكني قلق غريب. وقد مسحت فمي بمنديلي.

«لكنك كنت محقًا بشأن كولمان. إنها شرطية جيدة».

أومأتُ بسرعة وذهبت إلى الحوض لأغسل طبقي، وقد نظرت عبر النافذة نحو الفناء الخلفي وأنا أجففه. كان ذلك في الأسبوع الثالث من شهر مايو، حيث الأيام طويلة. وعند شجيرة اليوكا أسفل النافذة، كان النحل الطنان المحمل بالرحيق يقذف بنفسه على أزهار جديدة. سألتها: «هل تريدين التنزه؟».

«بالتأكيد. ولكن دعني أبدل ملابسي».

عندما عادت، كانت ترتدي فستانًا أزرق بلا أكمام، وصندلًا بكعب مسطح، وقد خلعت جميع مجوهراتها، باستثناء العقد الذي أهداها إياه والدها. بدت كما أعرفها، قلت في نفسي، ثم أمسكت بيدها. مشينا مسافة كيلومتر ونصف من الكوخ حتى الطريق الرئيسي. وفي سوق الزاوية، اشترينا عنبًا طازجًا وأكلناه في طريق العودة. مر بنا رجل عجوز مع كلبه، فلمس حافة

قبعته وحيانا. وعلى الجانب الآخر من الطريق، ركض شخصان، فأثارا الغبار في أعقابهما.

كان الظلام قد حل عندما عدنا إلى الكوخ، وبدأت الحشرات بالغناء. وأسفل الهالة الخافتة لضوء الشرفة، راحت إحدى الحمامات تطعم فراخها. راقبناها وهي تسقط بذورًا في فم فرخ جائع، في حين طالب الآخر بنصيبه. وقد تلألأ ضوء القمر على الأجراس الهوائية المتدلية من الأفاريز. قبلُت عنقها من الخلف ونزعت الدبابيس واحدًا تلو الأخرى من شعرها وتركته ينسدل على كتفيها.

استيقظتُ متأخرًا من صباح اليوم التالي، لدرجة أنني استغرقت دقيقة حتى أدركت أين أنا. ثم رأيتها مستلقية بجانبي، فأغمضت عيني مرة أخرى. كان اليوم هو الجمعة، ولديّ عطلة. في العادة، كنت سأذهب إلى صالة الألعاب الرياضية، وأغسل ملابسي، وأنجز بعض المهمات، لكنني الآن استلقي بجانبها، فوق ملاءات مجعدة لا تزال تفوح منها رائحة الجنس، وانتظرت حتى تحركت وبدا أنها على وشك الاستيقاظ. في المطبخ، بدأت إعداد القهوة واخترت كوبًا كُتب عليه بحروف صفراء *مكتبة وادي يوكا*. كانت عائلتي تمتلك مجموعة منها؛ فقد اشترتها أمي في حملة لجمع التبرعات.

قالت نورا: «صباح الخير». ثم ذهبت إلى المكيف الصحراوي وشغلته. «لا أصدق كم الجو خانق بالفعل».

أضفت قليلًا من الحليب إلى القهوة التي صنعتها لنفسي وأعطيتها إياها، ثم سحبت كوبًا آخر من الخزانة. قلت: «ليس إلى هذه الدرجة. تحتاجين فقط إلى فلاتر جديدة لهذا المكيف». شربت من قهوتي وأنا أراقبها. كانت ترتدي قميصًا أصفر اللون وسروالًا قصيرًا أسود، وراحت تتمطط وتتثاءب. بدا هذا غير حقيقي، أن نكون معًا هكذا، ربما كشيء كنت أحلم به في طفولتي. حتى ترتيب الأشياء كان مختلفًا. قلت بعد دقيقة: «يمكنني تغييرها من أجلك».

«لا عليك».

«الأمر السهل. سيستغرق ثلاثين دقيقة تقريبًا».

«أثق أن لديك أشياء أفضل لتفعلها».

«أنا حقا لا أمانع».

بينما كانت تستحم، توجهتُ إلى المتجر لشراء فلاتر جديدة. إنه عمل روتيني بسيط فعلته غير مرة من قبل. لكن العمل على هذا المكيف كان أكثر صعوبة قليلًا بسبب عش الحمامة، التي ظلت تحوم بقلق حولي. ففككت الألواح وأخرجت الفلاتر؛ فوجدتها مليئة بالتراب والرمل وحبوب اللقاح. كانت المشابك المعدنية التي تثبتها في مكانها قديمة وصدئة، لكنني تمكنت من فتحها. عندئذٍ، كانت الشمس قد غابت بالكامل. شعرت بالعرق وهو يتدفق على ظهري. قمت بتنظيف الصواني بفرشاة، تاركًا أثرًا من الأوساخ على الأرض. ثم وضعتُ الفلاتر الجديدة في مكانها، وأغلقت المشابك من حولها.

ناديتها حتى تشغل المكيف، وقد ابتهجت لسماع صوت المحرك يبدأ بالزئير. وبعد رمي الفلاتر القديمة في القمامة، عدت إلى الداخل، فوجدتها واقفة أمام فتحة التهوية، وعيناها مغمضتان وذراعاها مفتوحتان، وهي مستمتعة بالهواء البارد. قالت: «قد لا أبرح مكاني هذا». كان شعرها ينسدل على كتفيها، بالطريقة التي أحبها، وتحت قميصها الأبيض بدت حلمتاها بنيّتي اللون وقاسيتين. اندفعتُ صوبها في ثلاث خطوات سريعة، وعلى الرغم من أن يديّ ما تزالان متسختين بالتراب، ضممتها إليّ.

إيه. جي.

إن إدارة صالة بولينج يعني القلق بشأن أمرين؛ هناك الجزء الفني - آلات رص الأهداف، وقضبان الرمي، وإعادة الكرة - ثم هناك الأشخاص. والتعامل مع الناس هو الجزء الأصعب من العمل إلى حد بعيد. لا أقصد هنا الموظفين، فقد كان لدينا بعض الموظفين الجيدين في صالة ديزرت أركيد، مثل ذلك الشخص الذي عمل معنا منذ افتتاح والدي للتجارة في السبعينيات. ما أعنيه هو العملاء؛ الآباء الذين سمحوا لأطفالهم بالتجول في الممرات، والحمقى الذين قذفوا كرة ثانية ولم يعيدوا الأولى، واللاعبون الذين يصابون بنوبة غضب شديدة عندما لا يؤدون مباراة مثالية. تمثّل التحدي في التعامل مع كل منهم دون أن أفقد أعصابي أو ابتسامتي. وقد شكل الأمر معاناة في بعض الأحيان. لكني اضطررت لمساعدة والدي، إذ كان يبلغ من العمر ثمانية وسبعين عامًا وواجه مشكلة في تسيير أعماله.

كان كلا والديّ مسنّين. في الواقع، لقد صرفا النظر عن محاولة إنجاب طفل بعد ولادتي. كانت أمي في الرابعة والأربعين عندما أنجبتني، وأبي في التاسعة والأربعين. قيل حينها إنها معجزة، إذ استجاب الرب صلواتهما بعد سنوات عديدة. بيد أن كل معجزة تأتي بثمن، هذا ما أدركته لاحقًا، ولا يتحمله دائمًا أولئك الذين يدينون به. في صغري، استوقفني الناس أنا وأبي في حديقة المجتمع أو محل البقالة فقط لإخباره كم بدا مظهر حفيده لطيفًا. «انظروا إلى

ذلك الشعر الأصفر المجعّد» قالوا في إعجاب. وكان دائما يصحِّح لهم قائلًا: «هذا ابني». ولكن عند مرحلة ما، سئم الأمر. وتوقف عن إمساك يدي عندما نخرج، حتى لا يثير ذلك أسئلة أو تعليقات من الغرباء. كان الأمر أسهل بالنسبة له، حسب ظني. ولكن ليس بالنسبة لي.

بيد أن أمي، من ناحية أخرى، لم تكترث قط بما يعتقده الآخرون. وعلى الرغم من أن كبر سنها قد أبعدها عن الدوائر الاجتماعية لاتحاد الآباء والمعلمين، إلا أنها تطوعت بتوفير وجبات الغداء للمدرسة وساعدت في تنظيم كرنفال الهالوين كل عام. لقد قضينا الكثير من الوقت معًا، خاصة في عطلات نهاية الأسبوع حين قضى والدي في صالة البولينغ أربع عشرة ساعة متواصلة. وقد حصلت منها على حبي للكلاب. كانت دائمًا تمتلك كلابًا، وقد وصل عددها أربعة أو خمسة ذات مرة، وكلها من فصيلة الكولي الأسود. إنها سلالة رائعة تتسم بالذكاء وسرعة التعلم والوفاء الشديد. ولما كنت في المدرسة الإعدادية، بدأت أمي بتربيتها وإشراكها في عروض الكلاب في جميع أنحاء كاليفورنيا. لقد سافرت أنا وهي مئات الكيلومترات للتنافس مع أحدهم، وهكذا تمكنت من رؤية الكثير من أنحاء الولاية.

قد يخيّل إليك أن قضاء وقت طويل رفقة أمي جعل من السهل علي التحدث إلى الفتيات، لكن هذا لم يحدث. كانت أمي عجوزًا بسيطة ولطيفة، والفتيات في مدرستي كنّ شابات وجميلات ويبحثن عن المتاعب. كلما حاولت إثارة إعجابهن، أتى ذلك بنتائج عكسية، فكن ينظرن إليّ باستغراب أو يضحكن سخرية. هل تدرك كيف يشعر الصبي عندما تسخر منه فتاة؟ كلما حدث ذلك، حاولت التفكير في شيء ذكي لأقوله، لكن ذلك زاد الأمر سوءًا. وقد كرهت حقًا أن يناديني الجميع بإيه جي، فهو لم يكن اسمي، وإنما اسم مستعار أعطاني إياه المعلم في روضة الأطفال، وبطريقة ما علق بي، حتى مع عائلتي. لقد قضيت معظم وقتي مع كلابي، إذ كانوا أقل تعقيدًا من البشر.

ولكن الحال تبدل تمامًا في السنة الأولى من الثانوية. لطالما كنت طفلًا نحيفًا، لكنني تمتعت بالقوة الشديدة والمرونة، وخلال الاختبارات رأى المدرب جونسون شيئًا فيّ، يمكنك أن تقول إنه القدرة الطبيعية، فضمّني إلى فريق المصارعة. كان هناك خمسة عشر شخصًا منا موزّعون على خمس فئات للوزن، وقد احتللنا المرتبة الثانية بالفعل في المقاطعة حتى قبل انضمامي. لقد أحببتُ المصارعة لبساطتها؛ فلا ركل لكرة أو استخدام مضرب أو ارتداء معدات معقدة، ولن تعتمد على شخص آخر لمساعدتك في تسجيل نقطة. اعتمدت فقط على نفسي وقدرتي الخاصة. وقد أصبحتُ متيّمًا بها؛ فما لم أكن جالسًا في الفصل أو أعتني بكلابي، كنت أتدرب في صالة الألعاب الرياضية.

لقد تعلمت الكثير من المدرب جونسون، ربما أكثر مما علمني إياه أي شخص من قبل أو بعد ذلك. كان يقول: «تذكر، ما تتدرب عليه على البساط يجب أن يمارس خارجه: التركيز، والسرعة، واغتنام الفرص. عليك أن تكون متيقظًا وسريعًا وأن تغتنم أي فرصة تلوح لك، لأن الحياة نادرًا ما تمنحك فرصة ثانية». لقد فزنا بجميع مبارياتنا في ذلك الموسم، وحصلنا على تصنيف على مستوى الولاية لأول مرة في تاريخ مدرستنا. وبسبب التزامي بالتدريب ونظامي الغذائي وحقيقة أنني زدت طولًا خلال تلك السنة، بدوت رائعًا. لعلك ترى أن من الغرور قول ذلك، لكني لا أجد وصفًا آخر: لقد بدوت رائعًا.

عندما بدأت في السنة الثانية، كانت الفتيات هن اللواتي حاولن إثارة إعجابي، عبر تزيين خزانتي أو عمل قوائم موسيقية لتسليتي وقت المران. وذات يوم في حصة علم الأحياء، طلبت منا السيدة بارون أن ننقسم إلى مجموعات صغيرة لمشروع جديد لديها، وهو إعداد كتيب مصور عن التنفس الخلوي. بسبب تلك اللحظة المحرجة، كرهت المشاريع الجماعية بعدما اختار الجميع أصدقاءهم وتُركت وحيدًا أبحث عن شريك. ولكن بعدها على الفور نقر شخص ما على كتفي. كان ذلك نيل جيلبرت، وهو طفل أعرج عاني من حب الشباب على وجهه. كنت ألقبه سرًا بـ «ذي الوجه المبرقش». سألني: «هل تريد أن نتعاون معًا يا إيه جي؟».

قلت: «أنا أتعاون بالفعل مع ستايسي»، ثم استدرت وغمزت في وجه ستايسي بريغز. كانت هذه ميزة أخرى لكوني في فريق المصارعة: لقد منحتني بعض الثقة.

«أجل، نحن نعمل معًا»، قالت ستايسي، وهي تبتسم لي. لم تكن جميلة بشدة مثل مادي كلارك، الفتاة التي أُعجب الجميع بها، لكنها تمتعت بشخصية رائعة وكانت دائمًا على قدر أي تحدٍ، فسميتها ستايسي إنرجايزر. وقد ارتقت إلى ذلك أيضًا، لأنها كتبت المشروع بالكامل، وصنعت مجموعة من الشخصيات للقصة، مثل هيرميون الإنسان، وبتونيا النبات، وجيني الجلوكوز، وموانينغ ميرتل الميتوكوندريا، في حين أنجزت أنا كل الرسوم التوضيحية ولونتها بالكامل. استغرق الأمر مني أسبوعًا، ولكن بدا كتيب مشروعنا وكأنه رواية مصورة.

لقد قضيت أوقاتًا طويلة في شقة ستايسي لأن والديها كانا خارج الصورة ولم يمانع شقيقها لي وجودي في المنزل، وقد عبّر عن إعجابه بكوني في فريق المصارعة، وأشار إلى أنها جزء من الثقافة اليونانية والرومانية. قال وهو يمد ساقيه على طاولة القهوة: «إنها رياضة متحضرة، ليست مثل بعض الألعاب الوحشية التي تراها حاليًا». جلس يشاهد فيلم فولينغ داون أو السقوط

على شاشة التلفزيون، كان مشهدًا مبكرًا، عندما دخل مايكل دوغلاس إلى متجر صغير ليطلب فكة حتى يتصل بابنته، لكن الموظف الكوري طلب منه شراء شيء ما أولًا.

«لماذا لا يعطيه هذا الرجل الفكّة فقط؟» سألت ستايسي وهي تجلس على الأريكة بجانب شقيقها.

قال لي: «لأن كل ما يهمهم هو المال. هل تريدون بعض الفشار يا رفاق؟».

قلت: «ليس أنا».

«صحيح. لا يمكنك تناول الوجبات السريعة». وذهب إلى الثلاجة وأتاني بالجزر لأتناوله أثناء مشاهدة الفيلم.

كان من الجيد التواجد مع شخص بالغ ليس متسلطًا كنوع من التغيير، شخص لا يمانع القيام بأشياء ممتعة معي. في بعض الأحيان، كان لي يأخذنا إلى حفلات موسيقية في بالم سبرينغز أو ريفرسايد أو حتى أبعد من ذلك، في مقاطعة أورانج. لقد انفصلنا أنا وستايسي خلال السنة النهائية، ولكن ظل لي بريغز صديقي. لقد علمني أشياء عن الثقافة الغربية، أشياء لم أتعلمها في المدرسة، وكانت رائعة جدًا. وعندما التحقت بالجامعة في فوليرتون، فكرت في التخصص في الكلاسيكيات، لكن الكلية أغلقت القسم بسبب تقليص ميزانية الولاية. لقد كان عذرًا كاذبًا، بالطبع، لأنهم لم يقطعوا التمويل عن الدراسات الأمريكية الآسيوية أو الدراسات الأمريكية الأفريقية أو حتى الدراسات الأمريكية المكسيكية. لذا، انتهى بي الأمر بالتخصص في إدارة الأعمال.

سارت الأمور على نحو جيد في النهاية؛ إذ بدأتُ عملي الخاص في إيرفين. وكنت سأبقى هناك إلى الأبد لو أن الأمور اختلفت، لكن أمي أصيبت بمرض باركنسون، وعلى الرغم من أنني حاولت زيارتها كل يوم أحد، أيقنتُ أنني سأضطر للعودة إلى الديار في نهاية المطاف. ثم تدهورت حالتها، وباتت تحتاج إلى شخص يساعدها في الأشياء الأساسية مثل الطهي والتنظيف. وكان أبي بحاجة إلى المساعدة في عمله هو الآخر، لأنه لم يعد لديه العديد من الأشخاص الذين يعملون معه. كنت متزوجًا آنذاك ولم يكن من السهل إقناع آنيت بالعيش في وسط الصحراء. ولكن هذا ما نفعله من أجل الأسرة.

مثّلت العودة تغييرًا كبيرًا. إذا كنت تحب المشي لمسافات طويلة وتسلق الصخور، أو إذا عشقت البنايات الفنية الغريبة التي تظهر من العدم،

فهذا المكان مناسب لك. لكن بالنسبة لشخص مثلي، لم تكن هناك ميادين قيادة أو متاجر متعددة الأقسام أو حتى مجمعات سكنية لائقة. وبعد يوم طويل من العمل في صالة البولينغ، تبقى لدي طاقة أريد أن أحرقها، ولم تضم المدينة أي صالات للمصارعة. لم يكن هناك الكثير لفعله، حقًا. ولهذا فوجئت برؤية نورا الغراوي هنا. لقد نشأنا في هذا المكان، وكل ما أراده أي منا هو مغادرته، ومع ذلك انتهى بنا المطاف بالعودة. وهذا لم يكن في الحسبان قط.

نورا

كان عليَّ إثبات أن ما حدث في 28 أبريل ليس حادثًا عرضيًا. ومن أجل تتبع الدافع، تعيّن علي أن أعود بالزمن، ليس فقط للأحداث التي سبقت تلك الليلة، ولكن إلى البداية، عندما اشترى والدي المطعم. شُيد المطعم في عام 1951، على أرض مملوكة لقبيلة تشيميهوي من الهنود الحمر، بواسطة بيل وبرودينس سوينسون، وهما زوجان من ملاك العقارات أتيا من كورونا. وقتذاك، كان المطعم مجرد كشك لبيع الهامبرغر، ويخدم المسافرين في طريقهم من وإلى القاعدة البحرية التي كانت قد افتتحت حديثًا في توينتي ناين بالمز. ولكن مع اتساع رقعة المدينة، ازداد الطلب على أماكن لتناول الطعام. أضاف آل سوينسون بضعة عناصر أخرى إلى قائمة المأكولات، وشيدا مطبخًا كاملًا ومنطقة لتناول الطعام، وأزالا أشجار جوشوا على الجانب الشمالي من المبنى من أجل توفير موقف للسيارات. وبمرور السنوات، افتتحت شركات جديدة من حولهم؛ صالة البولينغ الخاصة ببيكر ومغسلة أوجليسبي المجاورة، ومتجر كيني للإطارات وصالون تجميل ليندن عبر الطريق السريع. ولا أبالغ إذا قلت إنه حينما اشترى والدي المطعم من آل سوينسون المتقاعدين، برز المطعم مثل عشب طويل في حقل مقصوص. ولعله أدرك ذلك، لأن المطعم كان صغيرًا، وقد بذل قصارى جهده للحفاظ عليه كما هو على مدى عقود.

لكنه اضطر لاحقًا إلى توسيع غرفة الطعام وتحديث أدوات المطبخ، ومع أنها كانت خطوة سديدة، إلا أنها أدت إلى توترات مع أندرسون بيكر. عندما توقفتُ في ساحة انتظار المطعم في ذلك الصباح، لاحظت تغييرًا آخر أجراه والدي قبل وفاته؛ لقد وضع لافتة ضخمة جديدة على السطح، بحيث يمكن للمرء رؤيتها من أول الشارع. هل هذا ما أثار غضب بيكر؟ البروز المفاجئ؟ بيد أن والدتي لم تأتِ على ذكر اللافتة عندما سألتها عن الخلافات الأخيرة. كانت الحادثة الوحيدة التي أشارت إليها هي الشجار حول أماكن وقوف السيارات قبل بضعة أسابيع، خلال عطلة نهاية الأسبوع في عيد الرئيس.

عندما دخلتُ المطعم، وجدتُ مارتي عند ماكينة تسجيل المدفوعات النقدية، وهو يثبت لفة جديدة من الورق في الطابعة. جلجل الباب، فنظر إلى الأعلى وقال: «صباح الخير يا آنسة». على الرغم من أنني طلبت منه أكثر من

مرة أن يناديني باسمي الأول، إلا أنه أصر دائمًا على مناداتي بآنسة. كان مرتبطًا بشكليات من هذا القبيل.

«صباح الخير. هل كل شيء على ما يرام اليوم؟» سألته، محاولة أن أبدو حازمة، لكنني أدرك افتقاري للخبرة.

«كل شيء على ما يرام يا آنسة».

«عظيم». سرتُ بجانبه وجلست عند المنضدة. على المقعد المجاور لي، ترك شخص ما نسخة من صحيفة لوس أنجلوس تايمز، فأخذتها. كانت أهم الأخبار هي حريق في غابة أنجلوس الوطنية، وموت نجم بيسبول لم أتعرف على اسمه عن عمر يناهز السابعة والخمسين. وفي الجزء السفلي من الصفحة، كانت هناك أنباء عن محاولة فاشلة للحفاظ على الأرض في موهافي، وهجوم بالقنابل في سوريا خلف 23 قتيلًا. قلتُ في نفسي إن عليّ شراء نسخة من صحيفة هاي - ديزرت ستار لاحقًا من ذلك اليوم، حتى أرى إذا كانوا قد غطوا قضية بيكر.

«ماذا يمكنني أن أحضر لك اليوم؟» سألتني فيرونيكا عندما جاءت إلى الجانب الآخر من المنضدة. كانت طويلة القامة ونحيفة، وبعينين عسليتين وتركيبة أسنان غير جذابة. وقد التحقت هي ومارتي للعمل بالمطعم في نفس الوقت تقريبًا. إنها نوع النادلة القادرة على التعامل مع حفلة من عشرة أفراد مع ثلاثة أطفال يصرخون دون أن تفقد صبرها أبدًا، وهي كثيرة الكلام وخفيفة الظل، من دون مبالغات.

«هل يمكنني الحصول على عجة الجبن؟» سألتها، وأنا أطوي الصحيفة وأعيدها إلى حيث كانت. «وبعض الشاي المثلج، من فضلك».

التفتت إلى نافذة المطبخ لتقديم الطلب. ثم أحضرت لي كوبًا من الشاي المثلج ووضعته على منديل.

سألتها: «هل عملتِ في يوم عيد الرؤساء يا فيرونيكا؟».

دسّت يديها في مئزرها وقالت: «لا نحصل على إجازة في عطلة نهاية الأسبوع. ويجب عليّ دائمًا معرفة ما أفعله مع الأطفال، خاصة خلال عطلة الربيع أو في الصيف. وقد بات الحال أسوأ الآن لأنني أصبحت مطلقة. لديهم معسكرات يومية هناك في المركز الاجتماعي، لكنها مكلفة. لذا أضطر إلى ترك الأطفال عند شقيقتي. إنها تعاني من إعاقة، وليس من السهل عليها أن تراقب ثلاثة أطفال، لكنهم على الأقل مع العائلة».

قلت: «حسنًا»، وسكت لحظة حتى أستجمع أفكاري. «أنا أسألكِ لأن محققة من قسم العمدة قد تأتي للتحدث معك. اسمها كولمان».

«تتحدث معي عن ماذا؟».

قلت وأنا أنتقي كلماتي بعناية: «حول ما فعله أندرسون بيكر في ذلك اليوم. كيف اقتحم المطعم وبدأ بالصراخ في وجه والدي بشأن أماكن وقوف السيارات. والمشهد القبيح الذي أحدثه بخصوص سيارة لاند روفر. تتذكرين ذلك، صحيح؟».

في المطبخ، رمى الطاهي كمية من البطاطس في الزيت الساخن. وعلى بعد أمتار قليلة، تحدث مارتي مع عميل عند ماكينة تسجيل المدفوعات النقدية. قالت فيرونيكا بعد لحظة: «أجل، أتذكر. جاء بيكر وأنا أهم بتدخين سيجارة وقت الاستراحة». أحضرت إبريق الشاي المثلج مرة أخرى وملأت كوبي، مع أنني بالكاد لمسته. «متى ستأتي هذه المحققة وتتحدث معي؟».

«أرجو أن يكون ذلك سريعًا. في أي لحظة».

«تلك العاهرة تعمل في قسم العمدة».

«اعذريني رجاء، عمن تتحدثين؟».

«المرأة التي تركني زوجي من أجلها تعمل في قسم العمدة. تجيب على الهاتف نيابة عنهم. ولا أعرف حتى كيف قابلها، لم يقل قط».

«أنا آسفة».

دام زواجنا خمسة عشر عامًا. هل تصدقين ذلك؟ خمسة عشر عامًا، وثلاثة أطفال، أحدهم وُلد بقيصرية. لقد خانني مرتين من قبل وغفرتهما له لأنه قال إنها مجرد نزوات. قلتُ في نفسي، أنا زوجته، وليس هما، لذلك ربما يكون صادقًا. لكنه بعد ذلك التقى بتلك العاهرة وكاد يفقد عقله. يقول إنها توأم روحه. وأنا الذي حسبتُ أنني توأم روحه».

«آسفة جدًا».

قالت فيرونيكا بلا مبالاة: «إنه ليس خطؤك».

بدا لي أنني لن أستطيع الابتعاد عن قصص الخيانة الزوجية. لكني رأيت الأمر بشكل مختلف الآن؛ هذا خطئي. تذكرت كيف بدا الجلوس في القاعة

الرئيسية بمستعمرة الفنانين شمالي ولاية نيويورك، محاطة بالرسامين والكتاب والفنانين التشكيليين الذين كانوا أكثر إنجازًا مني، وأنا أتساءل كيف تمكنت بحق الله من الدخول إلى هذا المكان. شعرت وكأنني محتالة، وكنت موقنة من أنه سوف يُفتضح أمري ويُلقى بي خارجًا. ثم في إحدى الليالي، أتى ماكس بلومهوف الشهير، ولما رآني منكفئة على كرسي بذراعين وبيدي نسخة من رواية *ذكرى النيران* Memory of Fire، دنا مني وعرّف عن نفسه. تذكرت كيف بدأ كل شيء؛ كيف سأل عن موسيقاي، وكيف جلست على البيانو الكبير وعزفت مقطوعة كنت قد انتهيت منها حديثًا، كيف نظر إليّ. قال: «أوَتدرين؟ لقد شاهدت ذات مرة براد مهداو يعزف على البيانو. وقد جلس حيث أنتِ». طلب مني التوقف عند كوخه في وقت ما حتى يعطيني نسخة من كتابه الجديد. امتدت المستعمرة على مساحة 42 فدانًا من الأرض حيث ترعى الخيول والغزلان، وقد افترشت الممرات المرصوفة لأيام، متجنبة الحقول خوفًا من القراد الذي يحمل مرض اللايم. ومع ذلك، في تلك الليلة، سلكتُ الطريق المختصرة إلى استوديو ماكس هرولة عبر الحقول الخضراء. تذكرت كيف فتح الباب، وعبرتُ العتبة، وأنا أعلم ماذا سيحدث بعد ذلك. وقد بقيتُ لأشهر أتجنب التحدث عن هذه العلاقة أو التفكير في زوجته. بدلًا من ذلك، انتظرت، معتقدة أن قصتنا لن تبدأ حقًا إلا بعد أن يتركها، وتذهب التفاصيل الفوضوية طي النسيان.

بيد أن ذلك لم يحدث؛ ففي شهر مارس، جاء إلى شقتي حاملًا زجاجة شمبانيا وحقيبة من القماش الخشن. كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة وقد ارتديت بيجامة بالفعل، وكنت أحمل قلم رصاص وصفحة من المدونة الموسيقية في يدي. «ماذا حدث؟» سألته مذعورة لرؤيته عند عتبة منزلي في وقت متأخر جدًا، ومع ذلك كان متحمسًا. لعله قفز أخيرًا القفزة التي كان يعدني بها. قال: «لقد ظفرت بدعوة من مؤسسة لانان». كانت أول زمالة هامة له بعد سنوات من الاهتمام الضئيل من مؤسسات المنح. لقد وصف بغضب ذات مرة النقاد الذين خدموا في لجان التحكيم بـ «حفنة من الأغنام» و«مؤلفين بلا ذوق»، لكن عينيه الآن تلمعان بالسعادة وقد تلاشت الخطوط العميقة حول فمه. قال وهو يدخل شقتي: «هيا نحتفل». أما مارغو، التي كانت تقرأ مجلة على الأريكة، فقد مرت بجوارنا صوب غرفة نومها. أخرجت كؤوس الشمبانيا وشاهدت ماكس يصارع الزجاجة. كان شعر ذراعيه داكنًا جدًا، وقد وضع في معصمه الأيمن ساعة يد أوتوماتيكية قديمة، ذات واجهة زجاجية متشققة ولكنها تعمل بدقة. قال: «ستصحب إيفلين إيزابيلا في رحلة ميدانية ليلية، وسيبيت إيان عند صديقه».

«إذًا، يمكنك المبيت الليلة؟».

«يمكنني المبيت الليلة».

انفتحت زجاجة الشمبانيا، وأغلقت مارجو بابها بعنف. تركت عملي جانبًا، وشربت الشمبانيا، واستمعت لماكس وهو يخبرني عن خطط الزمالة. كان من المقرر أن يجول الولايات المتحدة لإجراء مقابلات مع أشخاص ما زالوا أحياء من حركة ركّاب الحرية Freedom Riders، على أمل أن يتمكن من استخدام اقتباسات مختارة لنسج توثيق شفهي لمعركتهم. قال: «مثل سفيتلانا أليكسيفيتش، لكن أكثر صرامة»، الأمر الذي أزعجني بشدة. لطالما فعل هذا كثيرًا؛ السخرية من الكتاب الآخرين، وخاصة النساء. ولم يسأل عن المقطوعة التي كنت أعمل عليها عندما وصل. في الواقع، نادرًا ما أظهر أي اهتمام حقيقي بموسيقاي، باستثناء الليلة التي التقينا فيها. في صباح اليوم التالي، وبينما كنت لا أزال في الفراش وأشعر بدوار من أثر الثمالة، نهض هو وحزم حقيبته. كان يستعد للعودة إلى زوجته وأطفاله ومسؤولياته، وسأبقى أنا بمفردي. أين مكاني في كل هذا؟ كانت الإجابة واضحة بالنسبة له وكأنه قالها علنًا: لستُ سوى زجاجة الشمبانيا، ومتعته الشخصية. اتكأت على مرفقي وأخبرته أن عليه الاختيار.

انتظرت أسابيع لأسمع منه، وكنت على استعداد لأنتظر أكثر من ذلك. لهذا السبب تفاجأت بما حدث مع جيريمي في تلك الليلة بجوشوا تري وفي الليالي القليلة التي تلت ذلك. لم أكن مستعدة للهفة التي أحاطني بها بين ذراعيه، والحنان الذي بدا في صوته عندما تحدث معي. لقد ذُهلت من أن جسدي قد واصل على هذا النحو، وأنه أقبل على الحياة، وأصر على أي راحة يمكن العثور عليها، حتى مع لهفة قلبي للعالم القديم، عندما كان والدي لا يزال حيًا. كان الوقت الذي قضيته مع جيريمي عزاءً خاصًا، فلم أتشاجر مع أختي، أو أتلقى انتقادات من والدتي، أو أشعر بخيبة أمل في نفسي. يمكنني أن أحيا، حتى ولو لبعض الوقت فحسب. لقد أضحى النسخة البالغة من الصبي الذي كنت أعرفه دائمًا، لطيفًا ومضحكًا ودافئًا، لكني خشيت أن يكون وراء هذه الألفة أسرار مزعجة.

كلما جاء لرؤيتي، حاول إصلاح أشياء صغيرة في الكوخ؛ فذات مرة غيّر مرشح الهواء في المكيّف الصحراوي، وفي مرة أخرى ركّب لمبة بديلة فوق الموقد. وفي ذلك الصباح، وجدته يفحص الكراسي غير المستقرة حول طاولة الطعام. قلت: «لا عليك منها. لن أبقى هنا للأبد». لكنه أصر وقال: «سيستغرق

الأمر دقيقة واحدة فقط». بدأت أعتقد أنه كان يحاول التعويض عن شيء ما، مع أنني لم أعرف، أو أرغب في معرفة ما الذي اقترفه. لا يمكنني الانجرار إلى علاقة في مثل هذه اللحظة الصعبة. لقد انصب كل انتباهي على قضية الاصطدام والهرب.

«هل تريدين بعض الخبز المحمص على الجانب؟» سألتني فيرونيكا. وهي تضع عجة الجبن أمامي على المنضدة ثم ملأت كوب الشاي المثلج مرة أخرى.

«لا شكرًا».

«أو ربما بسكويت طازج؟».

قلت «هذا يكفي، شكرًا». ثم تذكرت شيئًا آخر، فسألتها: «تلك اللافتة الجديدة الكبيرة بالخارج، هل عُلقت في الصباح الذي توفي فيه والدي؟».

«أجل».

«أتخيل أنه كان هناك الكثير من الضوضاء؟ أم نوع من الإزعاج؟».

«أجل، أعتقد ذلك».

«هل كان بيكر منزعجًا من ذلك؟».

أمالت فيرونيكا رأسها، لكنها لم تجب بطريقة أو بأخرى، فاعتقدتُ أنه من الأفضل عدم الإلحاح كثيرًا. سارت بعيدًا إلى الطرف الآخر من المنضدة، حيث وُضعت موزعات السكر، في انتظار إعادة ملئها. تناولت طعامي وأنا أشاهد زبائن آخرين من خلال المرآة فوق نافذة المنضدة. مرّت علي أوقات كنت أعرف فيها بعض عملاء المطعم أو على الأقل تعرفت إليهم، لكن كل ما استطعت رؤيته الآن كان غرفة مليئة بالغرباء. أنهى عاملا بناء يرتديان سترتين برتقاليتين وجبتيهما وجلسا وأذرعهما معلقة على مساند الرأس، ووجهاهما نحو النوافذ. وسحب زوجان حلوى صغيرة من المربى من الموزع وصنعوا منها هرمًا لتسلية طفلهما الصغير، في حين جلس رجل في منتصف العمر يرتدي قبعة بيسبول، يتدلى عود أسنان من فمه، يقرأ الصحيفة. كانت كأسه فارغة، لكن مارتي لم يلاحظ ذلك، فحملتُ إبريق الماء وذهبت لإعادة ملئها.

وبينما كنت لا أزال أحمل الإبريق في يدي، ألقيت نظرة فاحصة على المطعم. باتت المنضدة، التي كانت جديدة ولامعة قبل بضع سنوات، كامدة اللون بسبب مسحها باستمرار. وكانت هناك حفرة في أرضية الفينيل عند

المدخل. وقد ملأت الشقوق إزار الحائط، فيما بهت الطلاء الموجود على الحائط البعيد، الذي كان يومًا ما بلون الفستق، وتقشر في بعض الأماكن. أما الأوصاف الموجودة في قائمة الطعام - وصف البيض بـ «طازج من المزرعة»، ولحم الخنزير المقدد بـ «مدخن على خشب التفاح»، والطماطم بـ«الحلوة»، وخبز «الجدة» - لم تعد متوفرة. كما ظهر شق في مسند ظهر الكشك الأخير بجوار النافذة. كانت الأطباق رمادية اللون. وقد غطت الخدوش كؤوس الماء. وأصبحت اللبان فارغة.

لكن المكان كان مزدحمًا.

لعل هذا هو ما أثار حقد بيكر على والدي.

أعدت إبريق الماء إلى المنضدة وسرت حول الزاوية صوب المكتب الخلفي، الذي يقع في غرفة صغيرة تحتوي على نافذة مرتفعة وبالكاد مساحة كافية لمكتب وكرسي وخزانة لحفظ الملفات. وقد فاحت رائحة السجائر والكتب المستعملة في الهواء، وهو مزيج أعاد لي على الفور ذكريات فترات الظهيرة الطويلة التي أمضيتها في القراءة بالشرفة، ووالدي جالس بجانبي يدخن، رغم نصيحة طبيبه له بالتوقف. الآن والدتي تجلس على المكتب، وهي ما تزال تتشح بزي الأرملة الأبيض، ومنكبة على سجل من نوع ما. قلت: «صباح الخير يا أمي. هل وجدت تلك الملاحظة؟».

قالت وهي تخلع نظارة القراءة: «ليس بعد. انظري إلى هذا المكان، يا ابنتي».

تناثرت تلال من الأوراق على المكتب من حولها. وبرزت ملفات من السجلات المدبسة وإيصالات المدفوعات، التي تكومت بالمئات، فدُفن السطح الزجاجي للمكتب تحتها جميعًا.

«ماذا يجري هنا؟».

«لا أعرف ماذا كان والدك يفعل. لا شيء في مكانه».

«هذه ليست عادته».

هزت رأسها وسكتت للحظة. فهل عرفت سبب تشتت انتباهه مؤخرًا؟ لكن لا شيء في تعبيرها يوحي بذلك، وقد تألمتُ من أجلها. «أثق بأنكِ ستعيدين الأمور إلى نصابها سريعًا يا أمي».

«ربما تخلص منها».

«لا آمل ذلك». كانت الملاحظة المطلوبة عبارة عن قطعة ورق مكتوبة بخط اليد تم لصقها على باب المطعم في اليوم التالي لمشاجرة سيارة اللاند روفر. بمجرد أن أخبرتني والدتي عنها، سارعت بالقول إننا بحاجة إلى العثور عليها وتسليمها إلى المحققة كولمان؛ إذ يمكن أن تكون بمثابة دليل. قلت: «دعيني أبحث عنها».

«حسنًا».

عادت والدتي إلى تصفح السجل، في حين بدأتُ أنا تصنيف الأوراق الموجودة على المكتب. كانت هناك فواتير لشراء المناديل الورقية وعصيّ الشرب، وطلبات لحاويات الستايروفوم، ووصفتان لمضادات الهيستامين، ونسخة من مجلة AARP، ولكن لا وجود لأي ملاحظة. بحثت في أدراج المكتب، وألقيت نظرة على كتب الألغاز المتقاطعة، وفتشتُ جيوب سترة البدلة المعلقة على ظهر كرسي المكتب. وأخيرًا، على حافة النافذة، أسفل صندوق نصف فارغ من أعواد الثقاب، وجدت الملاحظة المطوية. كانت قطعة من الورق المبطن كتب عليها بيكر بخط اليد، *اركن في مساحتك فقط!* وقد وُضع شريط لاصق شفاف أعلى القصاصة، وكان هناك خطان تحت كلمة فقط. لم تحمل الملاحظة توقيعًا، لكن من وجهة نظري بدت دليل إدانة. كان هذا تقدمًا. «ها هي»، قلت بصوت حماسي.

جاءت والدتي لتنظر من فوق كتفي. «هذا جيد حقًا».

«هل يمكنك التفكير في أي شيء آخر يمكننا إظهاره للمحققة؟».

قالت بعد دقيقة: «لا». ثم عادت لتجلس خلف المكتب. «ولكن هناك شيئًا أريد أن أخبرك به».

«ماذا هنالك؟».

«أغلقي الباب».

أغلقت الباب ووقفت قبالتها، وأنا في حيرة من السرية. «ما الأمر؟».

«نحن نريد بيع المطعم».

«ما الذي تتحدثين عنه؟ من المقصود بنحن؟».

«شقيقتك وأنا نريد بيعه».

قالت والدتي هذا بحسم أذهلني. دنوتُ من المكتب، لأواجه أكوام الورق التي كنت أفرزها قبل لحظة. «منذ متى وأنتما تتحدثان عن هذا؟ من الجنون أن تجريا هذه المحادثات ثم تخبراني بقراراتكما وكأنها حقيقة لا تقبل النقاش. ألا يجب أن نناقش هذا أولًا؟».

قالت والدتي وهي تطوي نظارة القراءة وتجلس في كرسيها: «السوق بطيء بعض الشيء الآن. لكن أعتقد أنه يمكننا العثور على مشتر».

«ألم تسمعي ما قلته؟ لا يمكننا بيع المطعم».

«لماذا؟».

«لأن أبي لم يكن ليرغب في ذلك. أنت وسلمى تعرفان هذا».

«لكنني لم أرغب مطلقًا في مطعم. لقد كانت فكرة والدك. ما أردته هو مغسلة تعمل بالعملة؛ فلا موظفين، أو نفقات كبيرة، ولا استيقاظ في الخامسة صباحًا»، عددت هذه العناصر على أصابع يدها اليسرى. ثم شعرتُ أنها ستلجأ، بارتياح، إلى حجة قديمة، وستنجح هذه المرة. «لكن والدك لم يستمع لي قط. لا أريد المطعم، ولا أريد أن أرى بيكر يذهب ويأتي كل يوم وكأن شيئًا لم يقع. أريد أن أبيع، وكذلك أختك. قالت إنها بحاجة إلى المال».

«لا يمكننا البيع، بحق السماء، فهذا من شأنه أن يعطي بيكر ما أراده بالضبط بعد كل هذه السنين. لقد أراد أن يرحل أبي من هنا، وأنت تمهدين له الطريق. ولماذا تحتاج سلمى المال؟ إن عيادتها تعمل بشكل جيد».

رأيت أنني قد سجلت نقطة في النهاية، لأن والدتي كانت عاجزة عن الكلام لمدة دقيقة. وضعت نظارتها في علبتها ودستها في حقيبتها. «هل تريدين الاحتفاظ بالمطعم؟».

«أجل».

«ومن الذي سيديره؟».

«مارتي يمكنه ذلك. إنه يديره بالفعل».

«إنه ليس من عائلتنا».

«وماذا في ذلك؟ إنها وظيفة، وهو جيد فيها. هذا سيجعلها رسمية فقط».

«لا. لا يستطيع أن يفعل ذلك بمفرده. فهل تريدين أن تفعلي ذلك؟».

«لكن لدي عملي الخاص يا أمي».

«فلماذا تريدين الاحتفاظ به؟ اذهبي واصنعي موسيقاك. لقد تحدثت أنا وسلمى إلى سمسار العقارات يوم الأربعاء وهو...».

«هل تحدثت بالفعل إلى سمسار عقارات؟ أمي، هلا تريثتِ من فضلك؟ دعيني أفكر في الأمر. إن لي الحق في اتخاذ هذا القرار مثلكما. وعلينا أن ننتظر حتى يتم إغلاق الوصية على أي حال. سيستغرق ذلك شهورًا».

«يمكننا إغلاق المطعم حتى تُغلق الوصية». حينئذ، عندما رأت عينيّ تتسعان غضبًا، قالت: «حسنًا. لا بأس. فكري في الأمر، ثم سنتحدث إلى سمسار العقارات».

تطلب الأمر مني جهدًا مضاعفًا حتى لا أغلق الباب بعنف خلفي عندما غادرت المكتب. لقد فاجأتني خطوة بيع المطعم، لكن حقيقة أن والدتي وأختي شكلا نوعًا من التحالف من وراء ظهري هو ما جعل الأمر مدمرًا للغاية. عندما سرت عبر المطعم باتجاه المخرج، لم يسعني إلا أن أتساءل كيف سيبدو في ظل المالكين الجدد. هل سيبقون المرآة المرقطة على المنضدة؟ أو اللافتة المعدنية الموجودة على الباب الخلفي التي تقول: *الكوكا كولا جيدة مع الطعام*؟ وهل سيظل لدى رافي ومارتي وفيرونيكا وظائف؟ وهل سيواصل بيكر الجدال حول أماكن وقوف السيارات؟ لم يعجبني ما يقودني إليه أي من هذا. ما أردته أكثر من أي شيء، وقد فاجأتني هذه الرغبة بوضوحها، هو أن يبقى هذا المكان مثلما كان ووالدي ما يزال يتنفس.

كولمان

كنت في غرفة الاستراحة أسكب لنفسي كوبًا من القهوة عندما جاء جوريكي، وقد تجاوزت الساعة السادسة صباحًا بقليل، ولا أعتقد أن أيًا منا كان مستعدًا لإحاطة الرقيب، أو حتى مستيقظًا تمامًا. أخذ كوبًا ورقيًا من الكومة المرتفعة بجوار الحوض وأمسك به كالمتسول، وهو يفرك عينيه في نعاس. كان يحضّر شهادة جامعية، في التاريخ الأمريكي إن لم تخني الذاكرة، وهذه الحقيقة تميزه عن النواب الآخرين، وفي بعض الأحيان تتسبب في مشاحنات، لكنني أحببت أنه كان ذا سلوك غريب، مثلي. «كيف حالك؟» سألته وأنا أملأ كوبه.

«جيد جدًا، في الواقع. ماذا عنكِ؟».

قلت: «لا جديد»، وأخذت رشفة من قهوتي. بدا طعمها مرًا ولم تحسّن مزاجي. في الليلة السابقة، بينما كان مايلز يستحم، مررت على حسابه على إنستغرام فوجدت، بخلاف صور السيلفي والمناظر الطبيعية الصحراوية والتركيبات الفنية، صورة لبراندون بدون قميص التُقطت بعد مباراة كرة سلة في المدرسة، حيث نظر براندون مباشرة إلى الكاميرا، مبتسمًا، وذراعه ممتد وكأنه يلمس الشخص الذي يلتقط الصورة: مايلز. كان لدي إحساس بما يحدث، لكني لم أكن أعرف كيف أتحدث عنه مع ابني، ناهيك عن التحدث مع والده. «ينتابني بعض القلق بشأن مايلز».

«هل تقصدين واجباته المدرسية؟ اعتقدت أنك تساعدينه في ذلك».

قلت: «أنا أساعده»، وتمالكت نفسي. انتظر جوريكي أن أقول المزيد، ولكن بدلًا من ذلك سألته عن الرقيب. «كيف هي الأمور مع فاسكو؟».

«لقد ضبطني أقرأ كتابًا أثناء ورديتي بالأمس، ووبخني»، وهز رأسه ببطء. «قد يخيل إلى المرء أن القراءة عمل غير قانوني، بالطريقة التي تصرف بها».

«إنه قلق بشأن المظاهر. بالمناسبة، هناك مقال جديد عن بودين». أومأت برأسي إلى الصحيفة التي تقع على الطرف الآخر من المنضدة. كان بودين سباكًا عاطلًا عن العمل وله صحيفة جنائية طويلة تتضمن السرقة وحيازة المخدرات والاعتداء. وقد صدرت بحقه مذكرة توقيف بتهمة حيازة

مخدرات ثانية، لكنه هرب من الباب الخلفي لمنزله، مما أدى إلى مطاردته في شوارع غير ممهدة في توينتي ناين بالمز، وعلى طول شارع 62، وصولًا إلى متجر الإطارات في وادي يوكا، حيث لحقوا به أخيرًا. كانت صحيفة لوس أنجلوس تايمز قد نشرت لقطات مصورة تظهر بودين مستلقيًا على بطنه، ووجهه على الأسفلت، وتعرضه للضرب المتكرر على رأسه من قِبَل ضابط.

«لقد ألقيتِ القبض على الجاني في حادثة الاصطدام والهرب. وفاسكو سعيد بذلك».

قلت: «ضربة حظ لا أكثر»، وعلى الفور ندمت على التواضع في نبرتي. لقد جُبلت على التواضع، مثل معظم النساء اللواتي أعرفهن، ووجدت صعوبة في التخلص منه، مع أنه كثيرًا ما كان يُظن أنه عجز.

قال جوريكي: «لكن فاسكو جعل الأمر يبدو على نحو مختلف. لقد وصفه بأنه عمل شرطي على الطراز القديم. وضرب بك المثل قائلًا هكذا تنجز الأمور».

«كان الجاني هو العجوز صاحب صالة البولينغ. وليس مجرمًا عتيدًا أو ما شابه».

«وهل تعتقدين أنه كان مجرد حادث؟».

قلت: «الحوادث شائعة على هذا الطريق السريع». ولكن ما انفكت ابنة الضحية تصر على أن الأمر أكثر من ذلك. صحيح أن الانحناء البالغ طوله مترًا تقريبًا في السيارة جعل قصة الذئب أقل تصديقًا، ولكن ثمة فرق هائل بين الاصطدام والهرب، والقتل المتعمد. لم يتحمس فاسكو لمزاعم الابنة - فهذا يعني أنه لن يتمكن من إغلاق القضية - ولكن من واجبي المهني التحقيق في ادعاءاتها، لذا حاولت النظر فيها كلما أتيح لي بعض الوقت.

كانت محطتي الأولى في المطعم، إذ أكد العمال القصة التي أخبرتني بها عائلة الغراوي؛ تحولت الاحتكاكات التي بدأت بسبب الغبار والأوساخ من إعادة البناء قبل بضع سنوات إلى جدالات. لكن لا مدير المطعم ولا النادلات تذكروا تهديدات إجرامية بعينها ربما وجهها أندرسون بيكر ضد الضحية. لم يكن هناك تهديدات من قبيل *سأقتلك أو يجدر بك توخي الحذر* أو حتى *سأجعلك تندم على هذا*، أي منها يمكن استخدامه لإثبات النية. قال لي مارتي هولتز، مدير المطعم، «لقد تجادلا كثيرًا»، وكان يقف في مكتب الاستقبال، يرش

منظف وندكس على قوائم مغطاة بالبلاستيك ويمسحها بمنشفة ورقية. «لقد تجادلا باستمرار بشأن كل شيء».

في هذه الأثناء، في صالة البولينغ، ادعت موظفة الحسابات، بيتي ساندرز، أن المشكلة لم تبدأ بفوضى إعادة البناء، وإنما قبل ذلك ببضعة أشهر. قالت وهي تزيل طلاء الشفاه الزائد بمنديل ورقي، «المشكلة هي أن بيكر كان قد تحدث بالفعل إلى صاحب المغسلة المجاورة حول شراء متجره عندما تقاعد. ثم يأتي الرجل المسلم في اللحظة الأخيرة ويعرض عليه المزيد. لقد انتزعه من بين يديه».

«إذًا، كان السيد بيكر غاضبًا».

قالت: «ما كنت لأقول غاضبًا»، بعد أن أدركت فجأة ما قد تعنيه الكلمة. «فقط - مستاء، على ما أعتقد».

انتابني شعور مزعج بأنني أفتقد شيئًا ما بشأن قضية الغراوي، شيئًا لم أتمكن من رؤيته لأنني لم أكن على دراية بهذه المدينة وأهلها. في نهاية زيارتي إلى المطعم وصالة البولينغ، لم أعرف أي نسخة من الماضي يمكنني الوثوق بها، وما القصة التي تدعمها الحقائق وأيها أعيد تشكيلها لتلائمها، سواء بسبب الحزن أو الحقد.

أمسك جوريكي كوبه وأخذ رشفة طويلة. «ألا تعتقدين أن عدم تقدم السيد بيكر ليدلي بشهادته من تلقاء نفسه هو أمر يثير الشكوك؟».

«ليس بالضبط». عند الاختيار بين الاعتراف بالمسؤولية عما فعلوه أو تجنب الأمر لأطول فترة ممكنة، اختار معظم الناس البديل الثاني. على الأقل، كانت تلك تجربتي. المشكلة أنه لم يكن لدي شهود على الجريمة ولا شيء يمكن استخدامه لإثبات النية. علاوة على ذلك، ومنذ البداية، كان بيكر متعاونًا تمامًا، مع أن زوجته تصرفت بغرابة بعض الشيء. عندما ذهبتُ لمقابلته في المنزل، فتحت الباب وحدقت في باندهاش. إن ظهور محققة شرطة على عتبة دار أحدهم هو تجربة مقلقة، بل وحتى مخيفة لبعض الناس، ولكن معها بدا الأمر أشبه بالخوف العميق. اضطررتُ إلى الانتظار في الحر أثناء ذهابها لاستدعاء زوجها.

في مكان ما في المكتب، رن جرس هاتف، وأُغلق باب. قال جوريكي: «أوَتعلمين؟ ذهبت إلى المدرسة مع ابنة الضحية».

«أيهما؟ طبيبة الأسنان؟».

«بل الملحنة».

قلت: «لم تذكر ذلك قط». رباه، كم أكره البلدات الصغيرة. لقد اشتقت إلى داري في العاصمة. «هل يعرف الجميع بعضهم بعضًا هنا؟».

«تقريبًا».

عندما عملتُ في قسم شرطة مترو، كان روتيني الصباحي مختلفًا تمامًا. كنت أذهب إلى مقهى صغير بجوار محطة القطار وأجلس عند النافذة وأحتسي قهوتي، وأشاهد الناس يأتون ويذهبون، وكلهم غرباء عني، مثلما كنت بالنسبة لهم. لم أعتقد قط أنه كان شيئًا مميزًا، أو أنني سأفتقده يومًا ما، لكن هكذا أشعر الآن، فلا يمكنني العمل دون سماع ثرثرة البلدة.

أزال جوريكي الحشرجة من صوته وقال: «وأنا ونورا... نتواعد أيضًا».

«أنتما ماذا؟» لم أكن بحاجة لهذا، ليس مع مشكلة بيكر، ولا مع إصرار الابنة أنها جريمة قتل. كلما حاولت الحفاظ على هذه القضية منظمة ونظيفة، أصبحت أكثر فوضى. «منذ متى؟».

«لقد بدأ الأمر مؤخرًا».

«عليك أن تكشف هذا للرقيب».

قال وهو يشرب آخر ما تبقى من قهوته: «أعرف ذلك. ستكون محادثة ممتعة».

«وكُف عن طرح الأسئلة حول القضية. هل أخبرتك بأن تسألني؟».

«لا».

«فلماذا تسأل إذًا؟».

«انتابني الفضول فحسب، هذا كل شيء».

«تدرك أنني لا أستطيع قول أي شيء بينما لا يزال التحقيق مفتوحًا».

«وأنت لم تقولي أي شيء. لذا، لا ضرر من ذلك». ثم نقر على الجريدة المطوية على المنضدة، حيث تبرز الصور من حادثة بودين على الصفحة الأولى. «حري بي أن أذهب. لدي مظاهر لأقلق بشأنها، أليس كذلك؟».

نورا

بعد يومين من مشادتنا في المطعم، طلبت مني والدتي الذهاب للتسوق معها في بالم ديزرت. لم نؤدِ قط الطقوس المعتادة بين الأم وابنتها؛ فلم نذهب إلى السبا، أو نخصص وقتًا لتناول الشاي، أو نستمتع بالأفلام الرومانسية الكوميدية، ولم تصنع أو تخبز لنا شيئًا. وجزء من هذا كان خطئي، فأثناء مراهقتي، قضيت أكثر الوقت في غرفتي، أستمع إلى الموسيقى، لكن الجزء الآخر كان أن أختي استمتعت حقًا بهذه النزهات معها ولم أرغب في أن أتطفل. لذلك كانت دعوة والدتي غريبة جدًا، وقد اعتبرتها دعوة إلى هدنة بعد مناوشتنا حول بيع المطعم.

لحسن الحظ، كان يومًا في منتصف الأسبوع، حيث غالبًا ما يكون مطعم ماكي فارغًا. بدت والدتي في حالة معنوية جيدة، وقد تأبطت ذراعي ونحن نتجول في المتجر. اشترت طبقًا خزفيًا ومجموعة من أكواب القياس المصنوعة من الفولاذ المقاوم للصدأ، لكنها أمضت معظم الصباح في مساعدتي على انتقاء بعض الملابس. كنت قد أحضرت معي أشياء قليلة من أوكلاند، وقد احتجت إلى بناطيل، وبعض القمصان، وفساتين. كنا في قسم الأحذية عندما ذُهلت من أننا نفعل شيئًا عاديًا تمامًا، وأننا نعود إلى المهام العادية التي تشكل معظم وجودنا. وقفت أمام شاشة تعلن عن حسم قدره 20% على الأحذية الصيفية، فالتقطت صندلًا داكنًا بحزام كاحل. «ما رأيكِ؟»، سألتها.

قالت والدتي: «لن يتماشى مع بنطالك الجديد».

«حقًا؟» أعدت الصندل إلى المنضدة ورفعت حذاءً كلاسيكيًا أسود بكعب عالٍ. «ماذا عن هذا؟».

«هذا أفضل بكثير».

جاء موظف المبيعات الذي كان يراقبنا عن بعد أمتار قليلة، وأعطيته زوجي الأحذية. ثم جلست مقابل والدتي. غطت بعض خيوط الشيب شعرها وظهرت بقع داكنة تحت عينيها. كانت ما تزال في حالة حداد، وستبقى كذلك لمدة طويلة. لكن ما مدى معرفتها حقًا بالرجل الذي كانت تحزن عليه؟ لقد

أرقني السؤال منذ أن تلقيت تلك المكالمة الهاتفية من محل المجوهرات. قلت: «كنت أتساءل. لماذا بالضبط اشترى أبي ذلك الكوخ؟».

«تعرفين السبب. حتى يتمكن من تأجيره».

«لكنه لم يؤجره للسياح كثيرًا، أليس كذلك؟».

«لقد أجّره في البداية. ولكن كان هناك دائمًا مشكلة؛ إذ يسد شخص ما مواسير المرحاض أو يحرق شيئًا ما في فرن التحميص أو يكسر الأطباق ولا يستبدلها. لقد حذرت والدك من هذا، لكنه بالطبع لم يستمع قط».

عبر طابق المبيعات، كانت شقراء طويلة القامة تحتسي القهوة المثلجة أثناء مرورها على الرفوف، وتفحص كل زوج يناسب مقاسها بإمعان. تُرى، كيف تبدو عشيقة والدي؟ هل هي شابة وجميلة، بالطريقة التي تصورتها في البداية، أم كانت ذات شخصية قوية؟ لعلها خليط من هذا وذاك. ولكن لا بد أنها شخصية مميزة لأنه كان مستعدًا لفسخ زواجه من أجلها. إذا كان الأمر كذلك، فكيف لا تعرف والدتي عنه؟ «إذا كان أبي لم يؤجر الكوخ كثيرًا، فلماذا احتفظ به؟» سألتها.

فكرت والدتي في هذا للحظة. وعندما تحدثت مرة أخرى، كان صوتها أجش. «أعتقد أن والدك أحب حقًا أن يكون مالك عقار. لم يمتلك أحد في عائلته منزلًا من قبل. لا أدري، ربما جعله الكوخ يشعر بالنجاح». فركت عينيها براحة يدها.

إذًا، لم تكن لديها أي فكرة عما كان يحدث، وكل ما أنجزته في مهمة تقصي الحقائق في ذلك الصباح هو إثارة حزنها. ما كان يجب أن أسأل، حدثتُ نفسي. نظرت بعيدًا، ورحت أفكر في موضوع آخر للمحادثة، وشعرت بالارتياح لرؤية البائع عائدًا بصناديق الأحذية. انتعلت الحذاء الأسود أولًا.

قالت والدتي: «يبدو رائعًا».

«هل أعجبكِ؟».

«أجل. هل هو مريح؟ تجولي وجرّبيه».

خطوتُ بحذر؛ فلم أعتد على ارتداء الكعب العالي. «يبدو عمليًا».

قالت أمي وهي تشبك يديها: «بالضبط». كانت تحدق في وجهي بتعبير لم أستطع فك شفرته تمامًا، وقد نظرتُ إلى الحذاء مرة أخرى، وأنا أتساءل

عما إذا كان قد فاتني شيء. قالت بعد دقيقة: «تعلمين؟ لم يفت الأوان بعد على الالتحاق بكلية الحقوق».

«ماذا؟».

«أنت شابة يا نورا. وستمر ثلاث سنوات بسرعة. يمكنك تحمل تكاليف العودة إلى الجامعة الآن، بأموال التأمين على الحياة».

«عم تتحدثين يا أمي؟ لماذا تثيرين هذا الأمر مرة أخرى؟».

«لأنك ستصبحين محامية رائعة، أكاد أجزم بذلك. أخبرني الجيران أمس أن ابنتهم جيسيكا اجتازت امتحان المحاماة. هل تتذكرين كيف كانت تطلب منك المساعدة في واجباتها المدرسية في الرياضيات؟ لم تستطع إنهاء الأمر بدونك، وانظري إليها الآن. باتت محامية! وستعمل في شركة كبيرة في سان دييغو».

لهذا السبب طلبت مني أمي أن نذهب للتسوق إذًا. ليس لأنها أرادت قضاء الوقت معي، بل لإقناعي بالبدء في مهنة مناسبة، أن أكون مثل سلمى، أو جيسيكا، أو أي شخص آخر. لم تكن هذه محادثة جديدة. كنا ننخرط فيها كل حين منذ أن هجرت كلية الطب وقررت دراسة الموسيقى. بدت فكرة خوض هذا الجدال مرة أخرى، هنا في قسم الأحذية في ماكي، لا تُطاق أبدًا.

قبل لحظة واحدة فقط، كنت أشعر بالأسف على والدتي من الخيانة، ولكن الآن تغير كل شيء. أيا كان ما فعله، لم يرغب قط في أن أكون شخصًا مختلفًا. لم ينصب لي فخًا كهذا أو يحاول إقناعي بالتخلي عن الشيء الوحيد الذي أعطى معنى لحياتي. كان حبه بلا قيد أو شرط، لكن حب أمي كان حربًا تشنها كل يوم من أجل تشكيل شخص جديد، شخص أفضل. وحتى لو التحقت بكلية الطب أو كلية الحقوق أو كلية إدارة الأعمال، ستفتش عن شيء آخر فيّ يحتاج إلى التحسين، وستجعله أمرًا تناقشه معي. الأمر الأكثر إثارة للغضب هو أن والدتي لم تتصرف بهذا الشكل مع أختي؛ فسلمى لا يمكن أن تخطئ.

ركلت الحذاء الأسود وجربتُ الصندل الداكن. كان مريحًا وبدا مثاليًا لفصل الصيف. قلت: «سآخذ هذا».

التزمنا الصمت أثناء عودتنا من بالم ديزرت. وعلى الرغم من لطافة الأجواء خلال معظم اليوم، بيد أنها توترت بسبب جدالنا؛ ولم أطق صبرًا حتى أكون وحدي مرة أخرى. أنزلتُ والدتي عند بيتها ولوّحت مودعة سريعًا، ثم عدت إلى الطريق السريع. كان ذلك في منتصف فترة الظهيرة والأرصفة

فارغة، حين مررت بمتجر لوازم الحفلات حيث اشترى لي والدي حلّة في عيد ميلادي الثامن، فشعرت بغيابه من جديد. ولما توقفتُ لدى ستاتر براذرز للحصول على الحليب، كادت رائحة ما بعد الحلاقة لأحد الزبائن أن تجعلني أبكي. وحتى عندما دخلت الكوخ، عادت إليّ ذكرى النزهة التي استمتعنا بها معًا إلى ويلو هول. كم اشتقت إليه.

سلمى

كان أول ما رأيته عندما استيقظت هو حقيبة السفر المتدلية من كتف والدتي، ذات اللونين الأزرق والأبيض وثقب في أحد أركانها. كنت في أحضان والدي، وما زلت لم أستفق من النوم تمامًا، وأثناء حملي إلى الطائرة، سألته، «هل سأذهب إلى المدرسة هنا؟». لم أنفك منذ أسابيع وأنا أتحدث عن المدرسة؛ الجزرة التي أغواني بها والداي لإقناعي بمغادرة المنزل. قالوا إن كل ما علي فعله هو ركوب الطائرة، وستكون المدرسة في الناحية الأخرى. «نعم، هنا»، قال والدي، وهو شارد الذهن. وعند البوابة، كان عمي ينتظرنا، فحملني وقبلني وفرك خدي بذقنه الخشنة. انبعثت منه رائحة السجائر، وهو يضحك بتواضع مثل والدي، لكنه ليس مثل والدي على الإطلاق.

يعيش عمي وزوجته في مدينة كولفر. لديهم أريكة قابلة للطي، وفناء خلفي يضم شجرة ليمون وأرجوحة، وصبيان يقرصانني عندما لا ينظر أحد. في أيام الإجازة، طهى الكبار وجبات متقنة وشربوا الشاي بالنعناع وتحدثوا لساعات عن الملك ورونالد ريغان. لقد جعلوا الملك يبدو وكأنه في الغرفة المجاورة، وريغان في منزل آخر. كان الأطفال يلعبون في الخارج، لكن في معظم الأوقات لم تكن لدي أي فكرة عما يقوله أبناء عمومتي، لذا رحت أحاكي الطريقة التي يمشون بها، والطريقة التي يضحكون بها، وأخيرًا الطريقة التي يتحدثون بها. ألبسوني ثيابًا غريبة وتجولوا بي في الفناء. لقد أصبحت قردًا صغيرًا بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

في الربيع، انتقلت مع والديّ إلى بلدة صغيرة في موجافي، حيث اشتريا متجرًا للدونات. من المستحيل الهروب من الشمس والرياح؛ ففي غضون أيام، احترقت بشرتي، وتشققت شفتاي، وأصبح شعري أفتح بدرجتين. سألتهم عن المدرسة مرة أخرى، فقال والدي بلا مبالاة: «ربما العام المقبل. الآن، أنت صغيرة جدًا». كان مفهوم الخيانة جديدًا علي، فصعب ابتلاعها. تظاهرت بالقراءة وأنا أتصفح مجلات سمسار العقارات من الموزع خارج المتجر، وفي النهاية تعلمت بعض الحروف التي تأتي مع الصور: م - ن - ز - ل. طلبتُ المزيد من المجلات، فحصلت والدتي على اشتراك في مكتبة، وراحت تستعير خمسة كتب كل مرة، وتضعني في زاوية معها. كان لديها متجر لتشغله، وصوان لتغسلها، وأرضيات لتنظفها، ولا وقت لديها للعب. لكن في الليل، عندما يكون كل شيء هادئًا، غنت لي التهويدات بالعربية وسمحت لي

بالنوم ورأسي في حجرها. كنت أضغط بوجهي على بطنها، وأتساءل مندهشة كيف كان الوضع دافئًا في الداخل. ليتني أستطيع العودة إلى الداخل فقط. في أحد أيام الأسبوع، أتى عمي وعائلته في زيارة. وعندما حاول أبناء عمومتي قرصي، لجأت إلى عضهم.

ثم حل اليوم الموعود أخيرًا؛ فذهبت إلى مدرسة يوكا ميسا الابتدائية. أمسيت أتقن الحروف الأبجدية بالفعل وأرفع يدي وأجيب بشكل صحيح في كل مرة تناديني فيها السيدة هاملتون. لم أعد قردًا بعد الآن؛ فقد أصبحت فقمة سيرك. أما عن مخزوني اللغوي، فقد امتلأ بالعديد من الحيل: كنت أنشد «أنا فنجان صغير»؛ وأتهجى كلمات الفتاة والمنزل وتريد؛ وحققت العلامة الكاملة في الاختبار الأول. ثم بدأت والدتي في اصطحابي معها حيثما ذهبت. أصبحت أنطق كلمات مثل السميد والأطعمة المعلبة دون تلعثم، وأسأل عن مكان الكوسة دون قهقهة. ثم بدأت ملامحي تميل إلى الجانب الأمازيغي من الأسرة؛ ففي كل ربيع يصبح شعري أفتح. سألني البائع في البقالة عما إذا كنت أريد ملصقًا، في حين سألني موظف البنك عما إذا كنت متحمسة لمطاردة بيض عيد الفصح. وقد مرت سنوات قبل أن أصادف كلمة *التجاوز*.

ثم فجأة، ظهر فراش أطفال في غرفة والديّ، وعربة أطفال في الردهة، وسجادة أنشطة صفراء لم يُسمح لي بلمسها. داعب والدي المولودة الجديدة وكأنها شيء مميز، مع أنها لا تعرف حاصل جمع اثنين زائد اثنين، ولا تجيد قراءة الساعة، أو الفوز بجائزة أكثر يقطينة مخيفة في مهرجان الهالوين للصف الأول. كانت بشرتها داكنة ورجلاها ثخينين وعيناها كبيرتين تبدوان وكأنهما تراقبانك أينما ذهبت. عندما لا يراني أحد، كنت أقرصها، فتبكي بلا توقف، لتتساءل والدتي بصوت عالٍ قائلة ما خطب تلك الطفلة.

كنت ما أزال أتحدث العربية، لكني لم أعد أحلم بها.

ازدادت قامتي طولًا، لتبلغ 180 سم بحلول الوقت الذي أصبحت فيه بالصف التاسع. كنتُ أمارس لعبة الكرة الطائرة، وأتنافس في مسابقات العلوم، وأجمع أغطية الصناديق لحملة جمع التبرعات الخاصة بالمدرسة، وأخمن على نحو صحيح عدد حلوى الهلام في علبتها. لم أسهر أو أمرض أو أسيئ الأدب قط. وكان جميع آباء أصدقائي يحبونني؛ إذ كانوا يقولون: «يا لكِ من فتاة مرهفة الحس». بعد ظهر أحد الأيام، وبينما كانت عائلتي عند حوض السباحة لدى الجيران، هربتُ مع الفتيات الأخريات لتجربة أساس الماكياج، وتركتُ شقيقتي وحدها، فسقطت في عمق حوض السباحة وكادت تغرق. في

تلك اللحظة، أدركتُ أنني لست مرهفة الحس، وعلى الفور أخفيت هذه الحقيقة عن الجميع.

في الصيف الذي بلغت فيه سن العشرين، وبعد عودتي إلى المنزل من الجامعة، سمعتُ بنبأ موت ملك المغرب. وقد بُثت مراسم جنازته على الهواء مباشرة عبر شبكة سي إن إن، وكان والداي يشاهدان في ذهول، وكأنهما في حاجة إلى دليل دامغ على أن هذا يحدث. احتشد مليونا شخص في شوارع العاصمة، آملين بخطف لمحة على الكفن الملفوف بالحرير وهو يشق طريقه من القصر الملكي إلى المقبرة الملكية. صرخ أبي في التلفاز: «هل نسيتم ما اقترفته يداه؟»، لتسكته أمي وترفع صوت التلفاز. كان بيل كلينتون وجاك شيراك من بين الحاضرين، وكذا حسني مبارك ورفعت الأسد. راحوا يمتدحون الملك الراحل، واصفين إياه برجل السلام ونصير التسامح. قال والدي بصوت خافت: «أحسب أنه يمكنني الذهاب لزيارة أمي الآن».

بعد ذلك بعام، عندما سافرتُ أخيرًا إلى الدار البيضاء رفقة عائلتي، لم أتعرف على جدتي، ولا حتى تعرفت هي علي. كيف ستشتاق إلى شخص لا تتذكره؟ ومع ذلك اشتقتُ إليها. طوال الزيارة، جلستُ بجوارها في صمت مريح. وعندما كنت أخرج من المنزل، راح المرشدون السياحيون يسألونني بالإنجليزية عما إذا كنت أرغب في جولة بالمدينة، ولما تجاهلتهم، ألحوا مجددًا ولكن بالألمانية. وقد ناداني البائعون في البازارات بالآنسة، وعرضوا علي الشاي بالنعناع. كانوا يبيعون كل شيء بأربعة أضعاف سعره الأصلي. راح بعض الصبية عند زاوية الطريق يصفرون أثناء مروري، وأشاروا إلى سوءاتهم بلا خجل.

وبعد أن تخرجت من الجامعة، التحقت بكلية طب الأسنان في لوما لندا. وهناك، التقيتُ برجل واسع العينين، يحافظ على مواعيده ولا يمرض أو يسيئ الأدب قط. عندما كان يتحدث بالعربية، كنت أشعر وكأن موسيقى تتدفق من فمه. بدت كلمات مثل زيتون وسكر وحبيبة العمر وكأنها معزوفة على ناي أصيل. تزوجت منه، وفتحنا عيادة معًا، فبات والداي فخورين بي. «لمَ لا تفعلين مثل سلمى؟» قالت أمي لشقيقتي، وكلما قالت ذلك، أشعر بحماس خاص.

يومًا تلو الآخر، كنت أحدق في أفواه مفتوحة، وأشم أنفاسًا كريهة الرائحة، وأزيل العفن من التجاويف. وكنتُ أقضي فترات بعد الظهر في الجدال مع شركات التأمين حول الفواتير والمدفوعات. كل شيء سبب لي الصداع؛ فرحتُ أتناول الفيكودين. لم أعد فقمة سيرك؛ أصبحت الآن طائرًا يحلّق بعيدًا. اشتكى زوجي من اختفاء عينات المسكنات سريعًا، فأخبرته أنه

ليس ذنبي أن استقبلت ثلاث حالات لعلاج لب الأسنان في أسبوع واحد. لم أكن قد بدأت في طلب صناديق إضافية من الديازيبام ولم يشك فيّ بعد.

لكن ذات يوم افتُضح أمري، وتعيّن عليّ النظر في عينيه عبر مائدة العشاء، وأن أرد على أسئلته، ليجبرني على التخلي عن إجراء العمليات الجراحية. طلب مني مقابلة أخصائي تعاطي المخدرات، لكني أخبرته أنني بخير، فتوسّل إلي بالتحدث إلى شخص ما على الأقل؛ ربما والدتي. كانت فكرة اكتشاف والدتي لعادتي أمر مؤلم؛ فرضاها عني سجن لا أرغب في الهروب منه. قلت إنني سألتقي بمتخصص ولم أحدد موعدًا قط. وبعد أن ينام، كنت أجلس على كرسي في الشرفة، وأراقب المنظر الذي قال سمسار العقارات إنه لا مثيل له في أي مكان في الوادي، وأتناول حبة أخرى.

هذا هو المصير الذي أخذتني إليه الطائرة.

نورا

يمكنني الآن إدراك أن ثمة قدرًا من العناد في ما فعلته تاليًا. ولكن وقتئذٍ، شعرت أنه ليس لدي خيار سوى المساعدة في إدارة المطعم، لأن والدتي توقفت فجأة عن الحضور إلى العمل. لعلها كانت طريقتها في إجباري على البيع، بيد أن ذلك أتى بنتيجة عكسية؛ لقد عوضتُ الفراغ الذي تركته. أدهشني أيضًا كيف تذكرتُ سريعًا كل العادات الصغيرة التي تعلمتها منذ سنوات. كنت أرتدي حذاءً مغلقًا من الأمام، حتى في درجات الحرارة المرتفعة، وبنطالًا مريحًا قابلًا للغسل، وقميصًا بلا أكمام مزين باسم المطعم على جيب الصدر. وقد لففت الأواني الفضية في مناديل، وأعدت ملء رشاشات الملح والفلفل، وتوليت خدمة الزبائن كلما ذهبت فيرونيكا في استراحة كي تدخن، وتأكدت من أن الخزانة فيها أطباق وأكواب وأوعية، وتحدثت إلى الزبائن، وحاولت الابتسام وأنا *أقول كيف حالك هذا الصباح الجميل؟ هل تريد بعض الكاتشب أو الخردل؟ احذر، هذا الطبق ساخن جدًا. يا له من طفل جميل.*

بعد بضعة أيام من العمل في المطعم، وجدت أنه يمكنني الاهتمام بجميع واجباتي ويظل لدي الوقت للذهاب إلى المتجر لشراء المؤن أو إلى البنك للحصول على فكة. لكني نسيت كيف كانت خدمة الطعام مجهدة جسديًا، إذ انتفخت قدمي أو تألم ذراعي من يوم عمل واحد. تساءلت كيف تحمل كل من فيرونيكا ورافي ذلك؟ بحلول نهاية ورديتي، عندما لا أفكر سوى في المدة التي سأستغرقها للوصول إلى الكوخ والارتماء على أحد كراسي الشرفة وشرب البيرة، كانا يبدوان في قمة نشاطهما وكأننا في بداية اليوم.

بيد أن مارتي كان الأفضل في هذا العمل، ولم أستطع مجاراته قط. كانت لديه مجموعة من العادات الخاصة به أيضًا، مثل حمل عصيّ شرب إضافية في جيب مئزره حتى لا يعود إلى الخزانة كلما طلب أحد العملاء واحدة. ومن تلقاء نفسه، كان يبدل قناة المذياع عندما تصبح الموسيقى صاخبة جدًا بالنسبة للمسنين، أو يسدل الستائر عندما تتسبب شمس الظهيرة المتدفقة عبر النوافذ في إغماض طفل صغير عينيه. وقد عرف العديد من عملائنا بالاسم ومازحهم وكأنهم أصدقاؤه. كان يغلق المطعم كل ليلة، وعندما

أفتحه في الصباح، أجد أنه قد أعاد خزن علب المربى أو ملأ موزعات السكر بالفعل.

في ساعة متأخرة من صباح أحد الأيام، حين كنتُ عند الخزانة مع المناديل الورقية التي اشتريتها مؤخرًا أثناء رحلتي إلى كوستكو، ترك مارتي ماكينة تسجيل المدفوعات النقدية وجاء للتحدث معي. قال، وهو يخلع نظارته ويتركها تتدلى من قلادتها: «آنسة غراوي، هل ستحلين محل والدتك؟».

«أحاول المساعدة فقط».

«أرى ذلك».

«إذا فاتني شيء، أعلمني فورًا».

«في واقع الأمر، هناك شيء ما».

«ما هو؟».

«لقد وعدني والدك بزيادة أجري العام الماضي، ولكن اضطررنا لاستبدال المجمِّد وأخبرني أن عليّ الانتظار. وقبل شهرين، طلب اللافتة الجديدة الرائعة التي ترينها في الخارج، فأثرتُ معه موضوع الزيادة مرة أخرى، فقال إنه سيفي بوعده. ولكن بعدها وافته المنية. والآن، من يدري كيف ستسير الأمور؟». ثم أشار إلى أنحاء المطعم بيده وأضاف: «لست متأكدًا حتى من المسؤول هنا».

بلعت ريقي وقلت:. «أنا المسؤولة».

«إذًا، ستعطينني الزيادة التي وعد بها والدك؟ واحد وعشرون دولارًا في الساعة، هذا ما اتفقنا عليه. واحد وعشرون».

قلت بحذر: «هذا منطقي. سأتحدث مع أمي حول ذلك».

ارتسمت على شفتي مارتي ابتسامة تشي بخيبة الأمل، وكأنه خمّن أن هذا سيكون الجواب، فعاد إلى ماكينة تسجيل المدفوعات النقدية. قصدتُ المكتب الخلفي وأنا أتساءل كيف سأعرض هذا على والدتي. كانت لدي فكرة جيدة عما يمكن أن تقوله، هذه مشكلتي الآن، وهي لم ترغب قط في امتلاك مطعم، ولا بد أن نبيعه في أقرب وقت ممكن. لكن هذا من شأنه أن يفجر جدالًا آخر حول المستقبل؛ مثلما حدث في كل محادثة مع والدتي.

خلال الأيام القليلة الفائتة، رحتُ أفكر في السبيل الأمثل لاستخدام أموال التأمين التي تركها لي والدي. كان مبلغًا هائلًا، وقد استخدمت بالفعل بعضًا منه لسداد قروض الدراسة المستحقة علي، لكنه لم يكن كافيًا لشراء المطعم على الفور. إذا أردت الاحتفاظ به، فسيتعين عليّ شراء حصة شقيقتي وإقناع والدتي بطريقة ما بالاحتفاظ بحصتها. وهناك أيضًا نفقات أخرى يجب أن أضعها في الاعتبار؛ فالباب الخلفي للمطعم بحاجة إلى قفل جديد، ويمكن أن تستفيد قاعة الأكل من إعادة الطلاء، ولا بد من تحديث القوائم. إن التمسك بالمطعم يعني وجود موظفين وتتبع بطاقات الوقت واتخاذ قرار بشأن الزيادات وعشرات المسؤوليات الأخرى.

ولكن إذا وافقت على البيع، فإن حصتي من العائدات بالإضافة إلى أموال التأمين على الحياة ستضمن بسهولة بقائي لمدة أربع سنوات في منطقة الخليج، وضعف هذه المدة إذا بقيت في موجافي. وسيتاح لي الوقت والوسائل للعمل على موسيقاي. وسأتحمل تكاليف السفر إلى المهرجانات الموسيقية، أو الحصول على درجة الماجستير إذا أردت، أو البقاء في المنزل والعمل فقط. كان المال هدية رائعة منحني إياها والدي. لكن الشيء الوحيد الذي جعل الأمر أقل روعة هو أن أندرسون بيكر سينجح في إنهاء وجود والدي من المدينة، وهذا ما لا أستطيع قبوله. وعلى الرغم من أن بيع المطعم والمغادرة أمر منطقي للغاية، إلا أن جزءًا مني أراد التمسك به بدافع العناد.

جيريمي

عدا عن التنزّه مرتين في الحي، أجابت نورا بالرفض كلما عرضت عليها ترك الكوخ أو الخروج لتناول وجبة أو مشاهدة فيلم معي. لم ألح عليها؛ إذ علمتني سنوات في الخدمة قيمة الصبر. لقد تعلمت أن أنتظر أمرًا، أو إشارة، أو إسقاطًا جويًا، أو الدعم، أو دخول الحمام، أو الهاتف، أو انتهاء خدمتي. لذلك اعتبرت أنني قد أحرزت تقدمًا عندما وافقت على الحضور لتناول العشاء في منزلي ذات ليلة. توجهت مباشرة إلى ستاتر براذرز بعد العمل لشراء بعض الطعام، وكنت أضع صلصة الدجاج عندما رن جرس الباب. كانت ترتدي الفستان الصيفي الأحمر ذا أحزمة الكتف النحيفة، التي تخيلتها على الفور وهي تنزلق من على كتفيها. تنحيت جانبًا كي أفسح لها الطريق للدخول وأغلقت الباب خلفنا. وقفت في غرفة المعيشة، وراحت تفحص كل شيء فيها: الأريكة الزرقاء التي ورثتُها عن آشلي وتومي بعد أن قاما بتجديد أثاثهما؛ وجهاز الستيريو الكبير الذي اشتريته براتبي ولم يعد يبدو جميلًا كما كان عندما عدت؛ وجهاز ألعاب الفيديو على الأرض. ثم ظلت تحدق في الورقة النقدية العراقية المعلقة على لوح الفلين بجوار الباب المنزلق. أحضرت باقة زهور الفاونيا التي اشتريتها لها. «ما المناسبة؟»، سألت في اندهاش.

قلت: «إنه موسمها»، ثم شعرت فجأة بالحرج الشديد من الاعتراف بأنني كنت أحاول تحويل وجبة منزلية إلى مواعدة لائقة. قبّلتها، فانسحقت الباقة بيننا، وتناثرت أغصانها من الخزامى والتوت الأخضر على أعناقنا. «هل تريدين أخذها معك، أم يجب أن أضعها في الماء؟».

«دعنا نخرجها. رائحتها طيبة جدًا».

أفرغت علبة سباغيتي وملأتها بالماء، ثم وضعت فيها الفاونيا، وتركتها على المنضدة، بحيث يمكننا رؤيتها من غرفة الطعام. «هل تشعرين بالجوع؟».

«أتضوّر جوعًا».

«جيد. لقد أعددت وليمة».

اتكأت على المنضدة وراحت تراقبني. «من علمك كيف تطبخ؟».

«علمت نفسي، بعد أن ماتت أمي». رفعت ملعقة من صلصة الدجاج. «هيا، تذوقي».

اتسعت عيناها.

«ملحها كثير؟».

«لا. إنها مثالية».

حملتُ الصحون إلى الطاولة. خلال السنتين اللتين عشتهما في هذا المنزل، لم أستخدم قط المعتام الموجود على مفتاح الإضاءة في غرفة الطعام، لكنني الآن خفضته إلى مستوى رومانسي قبل أن أجلس مقابلها. كانت المرة الأولى التي أراها تأكل، لا، بل تلتهم كل الطعام الموجود في طبقها - الدجاج، والبطاطس، وقطعتان من الخبز الفرنسي كنت على وشك إعادتهما إلى المتجر لأنني لم أعتقد أنها ستأكله، والفاصوليا الخضراء، كل شيء - وكلما أكلت أكثر، ابتسمت أكثر، وشعرتُ أنا بسعادة أكبر.

أخبرتني عن يومها. توقفت مجموعة كبيرة من سائقي الدراجات النارية النسوة عند المطعم لتناول وجبة فطور وغداء، وكان المكان مشغولًا للغاية واضطرت لإخراج بعض الكراسي القابلة للطي من غرفة التخزين، ولكن بعد ذلك ساد هدوء طويل. ثم تصفحت بريدها الإلكتروني، فوجدت رفضًا شخصيًا من مهرجان موسيقي في سان فرانسيسكو، فابتهجت. شعرتُ بالحيرة من رد فعلها، حتى أوضحت أنها عادة ما تتلقى رسالة رفض مقتضبة، لكن الحصول على ملاحظة شخصية مع بعض كلمات التشجيع كان يعني الكثير بالنسبة لها؛ إذ أعاد لها بعض الثقة في عملها. «ماذا عنك؟» سألتني.

قلت: «كان مجرد يوم عادي». حاولت ألا أفكر في العمل، ولكن دون جدوى. أفادت امرأة في توينتي ناين بالمز أن ابنها طعن كلبها الشيواوا وخشيت أن يعيد الكرّة. عندما وصلت إلى المنزل، وجدتها في الفناء الأمامي، وهي تحتضن الكلب بين ذراعيها مثل الرضيع، ورجلاه الخلفيتان ملفوفتان بضمادة زرقاء. قالت إن ابنها في غرفته يستمع إلى الموسيقى، أو ما يسميه الموسيقى، وأنه عاطل عن العمل أيضًا. قادت الطريق في الداخل، عبر سجادة زيتونية خضراء مغطاة ببقع البول، إلى غرفة نوم الابن؛ فقفز في اللحظة التي رآني فيها وصرخ قائلًا: «هل استدعيتِ الشرطة لي؟». استغرق الأمر خمس عشرة دقيقة لسماع جانبه من القصة، إذ قال إنه لا علاقة له بهذا الشيواوا اللعين وأنه ربما جُرح عبر مشيه على شفرة حلاقة تركتها الأم ملقاة. «انظر حولك يا رجل. أوَيبدو هذا المنزل نظيفًا بالنسبة لك؟» سألني، لترد الأم:

«أي شفرة؟ ليست لدي ماكينة حلاقة؛ فأنا لست الشخص الذي يحلق في هذا المنزل». بينما هنا يتجادلان، رحت أراقب وأنتظر. كان من الصعب ألا ألاحظ ذراعي الابن النحيفين، وعينيه الجاحظتين، ويديه المرتعشتين أثناء حديثه. لذا، أسفر تفتيش سريع عن استخراج بضع غرامات من مخدر الميثامفيتامين. ولكن بمجرد أن ألقيت القبض على الفتى، انقلبت الأم عليّ. وراحت تتوسل وتبكي وتهدد، ثم تبعتني إلى السيارة والكلب يئن بين ذراعيها. عندما ركب الفتى في الخلف، عاد الكلب إلى الحياة فجأة، وحاول أن يندفع نحوي، كاشفًا عن أنيابه. طلبت من المرأة كبح جماح كلبها، ولكن بدلًا من ذلك أطلقت سراحه وقذفت به صوب نافذة السيارة، فانزلق نحو الأرض، وخدش الزجاج، ولم يتوقف عن النباح.

قالت نورا: «يبدو الأمر سرياليًا».

قلت: «هذا هو الحال». كانت السريالية عادية والعادي كان سرياليًا. «هل أنت جاهزة للتحلية؟»، أخرجتُ صينية كعك الشوكولاتة من الفرن. كنت قد صنعتها من العلبة، لكنني أضفت القليل من الكريمة المخفوقة إلى كل طبق قبل أن أحضرها إلى الطاولة. قلتُ في نفسي *ليست سيئة للغاية*، ثم أضفت القليل من الفانيليا أيضًا. لكنها لم تأكل منها. «ألا تحبين الكعك؟».

قالت وهي تربت على بطنها: «بلى أحبه، لكني ممتلئة عن آخري. وإذا أكلت أي شيء آخر، سيسقط على فخذي».

ضحكتُ ثم رأيت أنها جادة. قلت: «تعالي إلى هنا لدقيقة».

التقت أعيننا، فنظرت بعيدًا. «لا تقل أشياء من هذا القبيل يا جيريمي».

«لماذا؟».

«سوف يجعل الأمر معقدًا».

«إنه معقد بالفعل».

في الخارج، كانت الصراصير تغني أغنية ليلية لم ألتفت لها حتى الآن، إذ كنت أنتظر حديثها. عندما نظرت إليّ أخيرًا، رأيت أنها تقدرني بطريقة جديدة. كان هناك شيء يتكون بيننا في تلك اللحظة. أرحت رأسي على ثنية رقبتها، لكن جرس الباب دق، فاضطررت للرد عليه.

«أين أنت يا صاح؟ لقد تأخرت».

كان فييرو على عتبة منزلي مرتديًا قميصًا وبنطلون جينز وقبعة بيسبول يعتمرها عادةً في ميدان الرماية. كنت غاضبًا منه لمقاطعته العشاء، ومن نفسي لأنني نسيت أنني وافقت على الذهاب معه، وغضبت منه مرة أخرى لتذكيري بالتزامي. «اللعنة. لقد نسيت تمامًا». وعلى الرغم من أنني وقفت في المدخل، إلا أنه تجاوزني، وقد تفطن بطريقة ما لرائحة الطعام والزهور والوجود الأنثوي. تبعته إلى غرفة الطعام، وقلبي منقبض. وفي حركة سريعة، وقفت نورا من مكانها وسحبت حزام فستانها الذي سقط عن كتفها.

قال فييرو: «لم أكن أعرف أن لديك رفقة».

ابتسمت نورا لفييرو فبادلها الابتسام ثم نظرا إليّ.

قلت «آسف. نورا، هذا بريان فييرو. بريان، هذه نورا الغراوي».

قالت وهي تمد يدها: «تسرني مقابلتك».

«وأنا أيضًا».

«هذا قميص رائع».

«هل تحبين فرقة كيوس؟» قال فييرو بابتسامة. «أنا أحبهم. لقد رأيت جوش هوم في حفلة موسيقية منذ عامين في بالم سبرينغز. كان رائعًا. أريد الذهاب مرة أخرى عندما يأتي إلى لاس فيغاس في أكتوبر».

قلت: «ربما يمكننا الذهاب إلى ميدان الرماية ليلة الغد».

«هل رأيتِ هوم في حفلة موسيقية من قبل؟» سأل فييرو.

قالت نورا: «لا. لكني أراهن أنه رائع».

«إنه كذلك».

«قرأت في مكان ما أنه كوّن فرقة جديدة مع جون بول جونز؟».

«هذا صحيح، لقد غنوا في كوتشيلا قبل عامين».

«اسمع يا رجل. يمكننا الذهاب إلى ميدان الرماية غدًا».

نظر فييرو إليّ بغضب. «لديهم الثلاثاء ليلة خاصة. وأريد أن أجرب مسدسي الجديد».

قالت نورا وهي تمد يدها إلى حقيبتها: «لا بأس. كنت أهم بالمغادرة».

لكنني لم أردها أن تغادر؛ إذ أردتها أن تبقى وتكلمني وتقضي الليل معي، وتعانقني أثناء نومها. وأردت أن يغادر فييرو ويتوقف عن اعتماده الشديد على غيره ويواصل حياته. بينما كانت تشق طريقها نحو الباب، تبعتها، وأغلقته بحرص خلفنا. في الخارج، كان الطقس قد برد، فارتجفت في فستانها الصيفي.

قلت: «أنا آسف. لقد نسيت تمامًا أنه قادم».

«لا بأس، حقًا».

«متأكدة؟».

«أجل».

«وكيوس؟».

ضحكت وقالت: «ماذا؟ حاولت أن أكون لطيفة».

قبّلتها مودعًا، ثم راقبتها وهي تركب السيارة وتنسحب بصمت من الممر الخاص. عندما عدت إلى الداخل، وجدت فييرو واقفًا عند الحوض، ويأكل أفخاذ دجاج أخذها مباشرة من المقلاة. أخليتُ أطباق العشاء وبدأت في ملء غسالة الصحون، متنقلًا بكفاءة عملية في مطبخي الضيق.

ابتعد فييرو عن الحوض. «إنها مثيرة جدًا يا رجل. من أين اخترتها؟ أعلم أنه ليس من صالة الألعاب الرياضية؛ فلم أرها هناك من قبل».

«لم أخترها. لنذهب إلى ميدان رود أند غان. لا أريد القيادة طوال الطريق إلى توينتي ناين بالمز الليلة».

«هي من اختارتك؟ عجيب».

«لم يختر أحد أحدًا. رود آند غان؟».

« رود آند غان يغلق مبكرًا. هل هي مكسيكية؟».

«لا. لنذهب إلى بيستول أند رايفل، إذًا».

«تبدو مكسيكية إلى حد ما».

« ليست كذلك».

«ما أصولها، إذًا؟».

«مغربية».

«مغربية» كررها وكأنها كلمة لم يسمعها من قبل. «هل أقمت علاقة معها؟».

عادة، كنت سأقول نعم، فلم أتورع عن التفاخر. في زاوية عميقة ومظلمة من نفسي، كنت لا أزال ذاك السمين ابن السابعة عشرة الذي رفضته كل الفتيات - ولما رحل في عمر التاسعة عشرة، لاحظته جميع الفتيات فجأة. اللعنة، نعم، كنت سأقول: نعم على هذه الطاولة هنا مرتين. لكن علاقتي بنورا لم تكن كغيرها من العلاقات. كانت قديمة وجديدة في آن واحد، ومتقلبة بطريقة مختلفة تمامًا ولم أرغب في التحدث عنها، لا سيما مع فييرو. ابتعدتُ وشرعت في مسح المنضدة. «يمكنني القيادة إلى ميدان الرماية. لكن اغسل يديك، فلا أريد بصماتك في كل مكان».

عصر فييرو بعضًا من صابون الأطباق على يديه وفتح الصنبور. ثم نظر وراءه، وقال: «أخبرني أنك لم تكن جالسًا هنا فقط تتحدث معها عن الكتب أو تفاهة ما».

مررت بجانبه صوب غرفة النوم، حيث فتحت الخزانة وأخرجت مسدسي. وعندما استدرت، كان فييرو يقف عند المدخل. أمسك بإطار الباب وقام بخمس تمرينات عقلة، هكذا بلا سبب. ثم نزل وحدق في وابتسم ابتسامة عريضة. «لقد أقمت علاقة معها أليس كذلك؟ هنيئًا لك يا صاح»، وضربني على ذراعي. «الآن هيا نطلق بعض الرصاصات».

اتضح أن الكثير من الناس أرادوا الاستفادة من عرض ليلة الثلاثاء؛ إذ كان ميدان الرماية مكتظًا للغاية واضطررنا لانتظار دورنا. ألقت مصابيح الفلورسنت وهجًا أصفر على أرضيات الفينيل، وعلقت في الهواء رائحة الرجال والبنادق والعتاد الصناعي. أتى من مكبر الصوت إعلان عن توفر حارة لكيسي. طقطق فييرو أصابعه بينما كنا ننتظر، في حين اضطجعتُ أنا في مقعدي ورحت أفكر في تعجيل نورا بالمغادرة عندما اكتشفت أنني ذاهب إلى ميدان الرماية. في الواقع، لم أتخيل وجودها في مكان كهذا أنا أيضًا.

«هل أخبرتك أنه قد أُمسك بجوني في قسم المناشف نهاية الأسبوع الماضي؟» قال فييرو فجأة. «لقد جرى رفضه، مما يعني أن ديكستر سيكون

مشرقًا، وأنا سأصبح مدير قسم».

«هل حصلت على ترقية؟».

«أجل، نوعًا ما. كان بإمكانهم اختيار فرانك للوظيفة، لكنهم اختاروني. ولا أعرف السبب حقًا».

«لا يهم. عندما يحدث لك شيء جيد، تمسك به. لا تسأل لماذا. فقط استمتع به. مبارك عليك».

«شكرًا يا صاح. أقدر لك ذلك».

«أورى؟ تساعدك مجموعة الدعم».

أصدر صوت صفير خافت، وهو سلوك غريب أخذه عن فليتشر. استدار نحوي بعد دقيقة مرة أخرى. «مهلًا، هل أخبرتك أنني سمعت من سارج؟ بدأ تجارة تربية النحل».

قلت مندهشًا: «تربية النحل؟».

«أجل. لديه مكان بالقرب من وينسبورو. يبدو بخير حال».

لطالما نظر فييرو بإعجاب شديد إلى الرقيب فليتشر، وقد كنت مثله في البداية. عندما رأيته أول مرة، كان يقف في شمس صباح أحد أيام شهر يناير ويداه على فخذيه، في انتظار أن نصطف. كانت ملامحه دقيقة للغاية - عينان بنيتان، وأنف صغير، وأسنان مثالية - وهو ما جعله يبدو غريبًا في ثكنة مليئة بالرجال الذين بذلوا قصارى جهدهم ليبدوا قساة. وكان هادئًا طوال الوقت؛ فلم يجهد نفسه، أو يرفع صوته قط. وهو ينحدر من مقاطعة فيرفاكس بولاية فيرجينيا، حيث ينشأ الأطفال على دروس المبارزة، ومعلمي الرياضيات، والرحلات إلى الحدائق النباتية. ويمتهن الآباء الطب، في حين تعمل الأمهات محاميات. لم يعرف أحد كيف انتهى المطاف بشخص مثله في مشاة البحرية. سرت شائعة عن مشاجرة في أحد الأندية الريفية عندما كان طالبًا في المدرسة الثانوية، ولكن بدا هذا لي مجرد ثرثرة. كان قد خدم في أفغانستان والآن هو هنا في العراق، بثلاثة أشرطة على كمه الأيمن. في البداية بدا منعزلًا، إما بسبب نشأته أو خبرته، لم أكن متأكدًا. وقد زاد الأمر سوءًا عندما حدث تغيير في القيادة بواسطة كبار المسؤولين وعُين الملازم كارتر في المفرزة. كان الملازم عكس فليتشر في كل شيء؛ فهو عادي المظهر، ومرح، وودود،

مستعد دائمًا لممارسة لعبة هالو أو كول أوف ديوتي مع الرجال بعد عودتهم إلى القاعدة، ولم يتورع عن السب عندما يخسر.

ذات يوم، أعلن الملازم أن علينا تفتيش مقر سري خارج الرمادي. اتضح أنها مزرعة، والأرض المحيطة بها شبه قاحلة، والحيوانات الوحيدة التي ترعى فيها هي ثلاث نعاج نحيلة على رقعة صغيرة من العشب الأصفر. كان الرقيب فليتشر يتمتع بخبرة كبيرة، لذلك، عندما اقترح الدخول مع المترجم واثنين آخرين للتحدث مع المالك، وافق الملازم. كان الهواء ساكنًا ومثقلاً بالحرارة. وانتظر الرجال، وراحوا يشربون من قواريرهم بين الحين والآخر. ولكن بعد مرور ثلاثين دقيقة، ارتفعت الحرارة بشدة في عربات الهمفي، فشعرنا بالراحة عندما أعطى الملازم أمرًا بالنزول وبدء البحث. وجدت نفسي برفقة بيريز وسانجر، حيث جلنا في المزرعة نحو البئر. وقد عثرنا على جرار قديم مقلوب على جانبه، وعجلاته في الهواء، ومغطى بالغبار. وتناثرت كل أنواع الأدوات الزراعية هنا وهناك.

أتى صوت رفرفة أجنحة طير من شجرة الأوكالبتوس المجاورة، فنظرت للأعلى بدافع الغريزة. ثم شعرت بقدميّ تزلان، والشيء التالي الذي أدركته هو أنني انزلقت إلى أسفل حفرة مظلمة، وسحبت معي غبارًا وغطاء تربولين وأغصانًا إلى أسفل، لأسقط فوق جثة، وأنا أرتدي صفيحة واقية من المقذوفات ثقيلة. لكنها لم تكن جثة، بل رجل حي ومستيقظ. التقت عيوننا، وقد صُدمت عندما وجدت هلعي باديًا عليّ. ملأت رائحة عرقنا أنفي. وحتى مع صراخ سانجر وبيريز من أعلى الحفرة، سمعت صوت الطقطقة المميزة لبندقية الرجل تحتي، تلاه، بعد ثانية بدت كدهر، الصوت المريح لماسورة سلاح فارغ.

بعد ذلك، حدث كل شيء بسرعة - قفز سانجر في الحفرة، وساعدني في تقييد المشتبه به، واستدعى بيريز الطبيب جونز. حينئذٍ، كل ما فكرت فيه هو أنني كدت أن ألقى حتفي، قبل أن أبلغ العشرين، وتتاح لي الفرصة للتنزه في غراند كانيون أو رؤية مبنى إمباير ستيت أو ركوب أحد تلك المصاعد الزجاجية التي لطالما أردت تجربتها. كان قد مضى عليّ وأنا في العراق تسعة عشر يومًا. وفكرة أن هذه ستكون حياتي في المستقبل المنظور بدت وحشية جدًا. لاحقًا، بينما فحص الطبيب جونز ركبتي، شاهدت الرقيب فليتشر يسحب الملازم جانبًا. «سيدي، لم تكن هناك حاجة لإرسال الرجال بهذه الطريقة. كان المزارع يتعاون، فقد أخبرنا عن المخبأ».

قال الملازم: «لم يتأذَّ أحد».

«ليس هذه المرة».

«في المرة القادمة، سننتظر حتى تنتهي من ثرثرتك الفارغة».

قال الرقيب فليتشر، «نعم سيدي»، لكن الطريقة التي تحدث بها بدت أشبه بتحذير. لا ترتكب هذا الخطأ مرة أخرى، أيها الأحمق. نظر الملازم بعيدًا، وعبث بسماعة رأسه، وقال: يجب أن نكون مستعدين للتحرك قريبًا. جاء فليتشر إلى حيث جلست على التراب مع الطبيب جونز. «كيف حال تلك الركبة يا جوريكي؟».

أجاب جونز: «إنها ملتهبة. سأعطيه بعض الموترين، لكنه سيضطر إلى الراحة ليوم أو يومين».

قال فليتشر مبتسمًا: «يبدو أنك حصلت على استراحة صغيرة».

أومأُت برأسي، مع أنني لم أستطع التخلص من الشعور بأنني مدين بحياتي للصدفة؛ سلاح فارغ. ولم أنسَ أن الملازم هو سبب سقوطي في تلك الحفرة. أمسيت أكره كل شيء أحببته فيه الآن؛ نكاته، ألعابه، وكيف تفاخر على كل فرد في الفصيلة بأنه تخرج من جامعة ديوك؛ لم يكن ذكيًا في تفاخره. وثمة شيء آخر: كان الملازم يحب أن يقف الجنود وهم يرتدون معداتهم تحت أشعة الشمس بينما هو يتكلم عن ملخصات اليوم، بغض النظر عن مدى وضوحها. وجدت نفسي أتمنى لو كان الرقيب فليتشر مسؤولًا؛ فهو ذكي وحذر، ويعتني برجاله وكأنهم أطفاله. ما زلت أحيانًا أجد نفسي أفكر فيه بهذه الطريقة.

كنت أراه كأب.

الأمر الذي جعل ما حدث لاحقًا أكثر إيلامًا.

استُدعينا أخيرًا إلى الممر رقم 8. بدت البندقية باردة وقاسية ومألوفة في يدي، وقد أصبت مركز الهدف أكثر من مرة. لطالما كنت راميًا محترفًا. في المعسكر التدريبي، منحتني مهاراتي في الرماية الثقة في أن التدريب البدني الشاق قد انتهى. لا شيء يضاهي اندفاع الأدرينالين قبل انطلاق الرصاصة، والهدوء اللطيف في أعقاب ذلك، وموثوقية التمرين في عالم بدا واضحًا أنه لا يمكن الاعتماد عليه.

في السيارة، قال فييرو إنه أحب المسدس الجديد كثيرًا لدرجة أنه ربما سيشتري واحدًا لأخيه الأصغر في عيد الميلاد. ثم التزمنا الهدوء ونحن نستمع

إلى الراديو. سعل في يديه عدة مرات، وقال: يا صاح، أعتقد أنني التقطت عدوى ما. ولما دخلنا في الممر الخاص، ودعنا بعضنا بعضًا بالمصافحة وضرب الكتف، واتفقنا على أننا سنتحدث مرة أخرى خلال أيام قليلة. عندما عدت إلى منزلي، استقبلتني رائحة الفاونيا والشوكولاتة في الردهة. وقد وضعت مسدسي في الخزنة وخرجت مرة أخرى.

كان ضوء الشرفة مطفأ في الكوخ. لكنني جربت المقبض؛ ففُتح الباب. وقد وجدت نورا نائمة على الأريكة، وهي تضع إحدى يديها تحت رأسها. بدت مسالمة ورقيقة في آن واحد، وقد ساءلت نفسي عما إذا كان ينبغي عليّ إيقاظها. ثم مررتُ إبهامي على قوس قدمها، فتحركت، ونظرت إليّ بارتباك وأنا راكع بجانبها. «لا تتركي الباب مفتوحًا هكذا. هذا ليس آمنًا».

قالت وهي تجلس فزعة: «لا بد أنني غفوت». انزلق حزام فستانها، كاشفًا سترها. انحنيتُ لأقبلها، فسقطت صفحات من مدونتها الموسيقية، التي كانت مستقرة فوق بطنها، على الأرض. تناثرت كتابات بالأسود بين السطور وعلى هوامش كل صفحة. لملمت الأوراق، ووضعتها في حجرها، ثم حملتها بلطف وكأنها ابنتها. قالت: «إذًا»، ومن نبرة حديثها، عرفت ما الذي ستسأل عنه. «هل تذهب إلى ميدان الرماية كثيرًا؟».

«أنا شرطي يا نورا».

«أعلم، ولكن حتى لو لم تكن كذلك، هل كنت ستقتني سلاحًا؟».

«ربما».

«لماذا؟».

«للحماية».

«من ماذا؟».

«من أشخاص يدخلون منزلك دون استئذان»، قلت مازحًا. انتظرتني لأقول المزيد، لكن كان لدي شعور بأن الحديث عن الأسلحة قد يؤدي إلى الحديث عن الحرب، وهو ما كنت أحاول تجنبه، لذلك سلمتها صفحات المدونة الموسيقية التي سقطت على الأرض وغيّرت الموضوع. سألتها: «هل يمكنني سماع هذا في وقت ما؟».

«هل ترغب في ذلك؟».

عثرت على مقطوعتين من تأليفها على الإنترنت، إحداهما كلاسيكية والأخرى جاز، وقد أحببتهما، لكنهما كانتا تعودان إلى ثلاث سنوات مضت، وقد تملكني الفضول بشأن ما تعمل عليه الآن. «أجل، بكل تأكيد».

قالت مترددة: «لم يكتمل بعد».

«لا مانع لديّ».

تمددت وتثاءبت، ثم ذهبت إلى الحمام لغسل أسنانها. وقفتُ لدى المدخل لدقيقة ثم اقتربت منها. حول الحوض، كانت الجلفطة التي أنجزتها في اليوم السابق تلمع على البلاط الوردي المكسور. أخبرتني بألا أشغل نفسي بها، ولكن عندما علمت أن الجلفطة السيئة يمكن أن تدمر الجدار، رضخت. حركت إصبعي على طول خطوط الجص؛ لقد جف وبدا الحوض أفضل الآن. سألتها: «هل يمكننا إنهاء محادثتنا؟».

«أي محادثة؟».

«ما كنا نتحدث عنه قبل ظهور فييرو».

نظرت إلي من خلال المرآة، فعادت النظرة الفاحصة التي رمقتني بها في وقت سابق من ذلك المساء. غسلت فمها، ووضعت فرشاة أسنانها في الكوب البلاستيكي المجاور للصنبور، ووقفت ثابتة، بعناد. أسقطت حزام فستانها عن كتفها. ولما قبّلت عنقها، أصابتني موجة من الحزن؛ هذا كل ما سأحصل عليه منها، لا أكثر. أستطيع بالفعل أن أرى كيف سينتهي الأمر. قلت لنفسي يجب أن أستمتع بهذا على أي حال.

لكنها بعد ذلك استدارت لتواجهني. «هل تريد حقًا سماع تلك المقطوعة؟»، ظهرت نبرة تحدٍ في صوتها. كانت تسألني عن شيء آخر؛ عما إذا كنت مستعدًا حقًا للشيء الذي قلت إنني أريده. في الخارج، بدأت الأجراس الهوائية ترن، لتنهي حالة الصمت. وردًا على ذلك، هدلت الحمامة.

قلت: «أجل، بالطبع».

توجهت إلى حاسوبها المحمول وتنقلت بين ملفاتها حتى وجدت الملف المنشود. أثناء عزف الموسيقى، جلستُ على الأريكة وأغمضت عيني، غارقًا في جمال المقطوعة، ومتفكرًا في السهولة التي فتحت نورا قلبها لي. لم تخفِ أي شيء، وقد أفزعني أنها قد تتوقع نفس الشيء مني ذات يوم.

أندرسون

لقد كان حادثًا عرضيًا. ولكن بالطبع، حاولت الابنة أن تجعل الأمر يبدو أكثر من ذلك، وأثارت غضب بعض الناس، لكنها لم تعِش هنا ولا تعرف كيف كان الحال. كان مجرد حادث مؤسف لا مفر منه، كما قال المحامي. لم أعتزم حتى توكيل محام، لكن هيلين أصرت لأنها لم تثق بالشرطة، وأعتقد أنها محقة. كنت سعيدًا بوجود الآنسة بيري بجوارنا، وأنها بحثت عنا، مع أننا بالكاد نستطيع تحمل أجرها. ما لا أفهمه هو ما الذي كان يفعله ذلك الرجل عند عبور التقاطع تحت جنح الظلام؟ والمشكلة هي أن ما يجب التحدث عنه حقًا، هو أننا نحتاج إلى إشارات وأعمدة إنارة على ذلك الطريق السريع. لكن ليس من المنطقي اتهام الناس بشيء لا يمكن تجنبه. وقوع الحوادث أمر وارد، فلماذا يصعب على البعض فهم ذلك؟

بعد أن أخبرتني المحامية عن الاتهامات الجنونية التي وجهتها ابنته لي، فكرت في زيارة المطعم والتحدث مع تلك السيدة الشابة، وأخبرها كيف أساءت فهم الأمر برمته. بيد أن الآنسة بيري أثنتني عن ذلك، قائلة إن هذا سيجعل الأمر يبدو وكأنني قد ارتكبت خطأ، وهو ما لم يحدث. كنت أحاول فعل الشيء الصحيح.

كان الناس مختلفين في الماضي. أتذكر حادثة أخرى، في عام 75 أو 76، بعد عامين من افتتاحي أنا وهيلين صالة البولينغ، ولم ينتهِ الأمر بهذا الشكل. حدث ذلك في ليلة العائلة، وهو عرض خاص يمتد من الساعة الثالثة إلى السادسة مساءً بعد ظهر يوم الخميس، وما نزال نطلق عليه اسم ليلة العائلة، حتى يتماشى مع الأفكار الأخرى التي تنشرها هيلين على اللوحة الأمامية. وذات يوم، أتت عائلة ومعها ستة أطفال. قلت للأب: «قد ترغب في الحصول على ممرين». كان ذا شارب كثيف، من النوع الذي شاع وقتئذٍ، وبدا شابًا جدًا لدرجة أنه يصعب تصديق أن لديه ستة أطفال. لكنه لم يسمع عن دفع ثمن ممرين، فأخذ هو وزوجته قبيلتهما الصغيرة إلى الممر 8.

استغرق الأمر منهم وقتًا طويلًا لإنهاء مباراتهم، خاصة وأن الطفل الأصغر بدا في الثالثة من عمره تقريبًا. وبعد ذلك، بدت منطقة جلوسهم وكأنها حظيرة خنازير. كانت المقاعد مغطاة برقائق البطاطس، على الرغم من أن اللافتة في المقدمة تشير بوضوح إلى عدم السماح بتناول الطعام في منطقة البولينغ.

كان لديّ فريقان ينتظران في الردهة، لذلك طلبت من الحمال غريغ أن يسرع وينظف وراءهم. وبينما هو يكنس الأرضيات، صدم قضيب الحماية بمكنسته، فسقط. لكنه ركله لأعلى بقدمه، دون أن يفكر كثيرًا في ذلك، ليسقط القضيب مجددًا ويشق حذاءه. كان غريغ رجلًا ضخمًا قوي البنية من وادي مورينو، ومع ذلك، فقد تألم لدرجة أنه أغشي عليه. ركضت صوبه وساعدته على النهوض، وأحضرت له هيلين بعض الماء المثلج. ثم أخذناه إلى المستشفى - التي كانت حينها هاي ديزرت ميموريال في وادي يوكا - وانتظرنا معه لنرى ما الذي سيقوله الطبيب. وقتئذٍ، لم يمتلكوا التكنولوجيا التي لديهم الآن، ففقد إصبعين من قدمه اليسرى. كان غريغ صلب العود، وعاد إلى العمل بعد أسبوعين. وقد وضعنا لافتات جديدة حول عدم إدخال الأطعمة في منطقة البولينغ، وكنا صارمين في تطبيق قواعد السلامة. لكننا تفهمنا عندما يكون الأمر غير مقصود. ولم نحاول إلقاء اللوم على الآخرين بشأن ما حدث.

تغيرت هذه المدينة كثيرًا منذ ذلك الحين، فقد اختفت بقالة هاردستي، وشركة ستيلي للمعدات الرياضية. الآن لدينا وولمارت وأبل بيز، بل وحتى لدينا ستاربكس. يستقبل المكان الناس من كل المشارب. عندما أذهب إلى المتجر هذه الأيام، لا أتعرف إلى أحد. لقد اعتدت أن ألتقي بأصدقاء أو جيران أو حتى معارف من الكنيسة، ولكن ليس بعد الآن. حدثت التغييرات بسرعة كبيرة. قبل عشر سنوات، كان لا يزال بإمكان المرء الحصول على بعض الهدوء والسكينة هنا، ولكن لديك الآن صفوف من السياح، سياراتهم متوقفة، تنتظر دخول الحديقة الوطنية، أو البحث عن أماكن للإقامة، أو تعاطي المخدرات. أخبرني بعض الناس أنني يجب أن أكون ممتنًا للعمل الذي يجلبه الوافدون الجدد إلى المدينة، لكن من وجهة نظري، إنهم يغيرون المكان ويريدون مني أن أكون ممتنًا لذلك. لم يسألوا إذا كنا نريدهم هنا أم لا، لقد جاؤوا فحسب.

كولمان

عندما لا أملك كل الأدلة التي أحتاجها، أتتبع قصة من التفاصيل القليلة التي بحوزتي، وأرى ما إذا كانت ستصمد. في وقت متأخر من بعد ظهر يوم أحد، بعد أن وجدت مايلز ممددًا على الأريكة مرة أخرى، وهو منكب على تصفح موقع إنستغرام، أخبرته أنه يمكنه دعوة صديقه الجديد لتناول العشاء. وما إن أرسل لبراندون رسالة نصية تفيد بأنه يستطيع الحضور، حتى ركض مايلز لتنظيف غرفته؛ فمسّد فراشه، وأزال ملابسه المتسخة، وأخرج القمامة. ثم استحم لمدة ثلاثين دقيقة. بطبيعة الحال، لم يلاحظ راي أي شيء؛ فقد التصقت عيناه بالتلفاز. كان فريق لوس أنجلوس ليكرز يلعب في ذلك المساء، ولا يوجد شغف يضاهي شغف المشجع الذي غير ولاءه. قشرت البطاطس، وتبّلت الدجاج، وأعددت المائدة لأربعة. وعندما عاد مايلز إلى غرفة المعيشة، كانت تفوح منه رائحة عطر أولد سبايس، فأسقطت شوكة حتى أجعل راي ينظر، ولكن بلا طائل. الليكرز متقدم على ناغتس بنتيجة 78-75، وهم على وشك بدء الربع الثالث.

قرع براندون جرس الباب عند السابعة مساء. كان يرتدي قميصًا قديمًا وباليًا كاكي اللون، لكنه بذل بعض الجهد في تثبيت شعره الناعم بالجل. وقد وضع دراجته بجوار سيارتي في المدخل، ولاحظت أن الزجاجة الموجودة في الحامل مغطاة بملصق كتب عليه *الرجال الأشداء يركبون الدراجات*. قال وهو يدخل: «أشكركِ على دعوتي يا سيدة كولمان».

قلت: «هذا من دواعي سروري».

أوقف راي مباراة كرة السلة مؤقتًا ونهض عن كرسيه المريح ليصافح ضيفنا. «مرحبًا أيها الشاب».

قلت: «هذا براندون. إنه في صف مايلز».

قال راي وعيناه تندفعان نحو شاشة التلفزيون مجددًا: «آه!».

سار مايلز بجواري. سأل: «هل تريد لعب باتلفيلد على جهاز إكس بوكس؟»، ثم قاد براندون إلى غرفته. وخلال دقيقة، أغلق الباب خلفهما، وعاد راي إلى كرسيه، وأصبحتُ وحيدة مرة أخرى.

عندما يشغل بالي أمر ما، أحاول أن أمنح يدي شيئًا لفعله، فقط لأمنع نفسي عن الجنون، لكنني نظفت المنزل من أعلى إلى أسفل بالفعل ولم يكن لدي أي فكرة. لذلك، جلست بجانب راي على الأريكة، أقضم أظافري، وهي عادة لم أتمكن من كسرها على الرغم من تذمره المستمر بسببها. وعندما انتهت مباراة كرة السلة أخيرًا، تبّلتُ السلطة ودعوت الأولاد إلى الطاولة. فاز فريق ليكرز، والحمد لله، وكان راي في مزاج رائع. وقد أخذ إبريق عصير الليمون وبدأ في ملء أكواب الجميع. «إذًا يا براندون. أنت ومايلز في نفس الفصل؟».

«لا يا سيد كولمان. لسنا في نفس الفصل. نحن فقط في نفس الصف».

«صحيح. هذا ما قصدته».

بدأ الأولاد في ملء صحونهم من طبق البطاطس المشوية. التقط مايلز زجاجة الكاتشب، ودون أن يُطلب منه ذلك، نقل جرة الخردل إلى جوار صحن براندون.

سألته: «هل نشأت هنا يا براندون؟».

«أجل، لكنني ولدت في تورانس. كانت أمي ترتاد مدرسة بالقرب من هناك ولم تعد إلى هنا إلا بعد أن تخرجت».

سأل راي: «ماذا كانت تدرس؟».

قال براندون «صحة الأسنان»، ثم بدأ هو ومايلز يتبادلان إلقاء بعض النكات الخاصة بينهما ويضحكان.

كانت قد مرت أسابيع منذ أن سمعت ضحكة مايلز، وقد أبهجني الصوت لدرجة أنني ضحكت معهما. سألتهما: «ما المضحك جدًا؟».

قال مايلز: «لا شيء يا أمي».

حسنًا، على الأقل عدت والدته مرة أخرى. كان هذا تحسنًا، مع أنه ما يزال غير ودي ويرفض شرح النكتة لي. شعرتُ بالأسى لما وجدت نفسي عاجزة عن اختراق هذا الحاجز الجديد الذي بناه حول نفسه، مع أنني كنت قريبة جدًا منه لمدة ثلاثة عشر عامًا. قلبتُ الطعام في صحني، وانتظرت أن يقول راي شيئًا ما، لكنه هز رأسه ببطء فقط.

بعد وقت متأخر من تلك الليلة، عندما كنا نستعد للنوم، سألته عن رأيه في براندون. قال: «الأمر حمّال أوجه». كانت عادة مزعجة لدى زوجي، إذ لطالما لجأ إلى الحكمة الشعبية عندما لا يعرف ماذا يقول.

ماذا لو أخبرته أن براندون لم يكن مجرد صديق لمايلز؟ قبل بضع سنوات، توقف راي عن زيارة ابنة عمه في نيويورك بعد أن انتقلت للعيش مع صديقتها، مع أنه نفى دائمًا أن يكون هذا هو السبب. كان يقول: «لقد تغيرت بعد أن ذهبت إلى المدرسة الثانوية، هذا كل ما في الأمر». والآن يتظاهر بأنه لا يلاحظ ما يراه بأم عينيه، وهو أمر غريب، لأنه كان أبًا يقظًا. لقد جعلني أشك في نفسي، فربما ليس هناك شيء يثير الشكوك. لعلي أصنع من الحبة قبة فحسب. كان مايلز سعيدًا، لدرجة أنني لاحظت ذلك. أوَليس هذا كل ما يهم؟

ذهبت إلى العمل في اليوم التالي وأنا أشعر بالإرهاق من قلة النوم. جلست في غرفة الإحاطة، وشربت فنجانًا كبيرًا من القهوة وحاولت الانتباه إلى التقارير اليومية. كان فاسكو مبتهجًا - إذ امتدحته الصحافة بعد إنقاذه طفلًا مهجورًا، ويبدو أن حادثة بودين قد انحسر ذكرها في الأخبار. أثناء خروجنا من غرفة الاجتماعات، سألني أين وصلت في قضية الاصطدام والهرب. قلت له الحقيقة: لم أتمكن من اكتشاف دليل قوي على النية، لذلك، فإن التحقيق في شبهة القتل العمد بلا طائل إلى حد كبير. قال: «هذا جيد. حان وقت المضي قدمًا».

عدت إلى مكتبي، ورددت على بعض رسائل البريد الإلكتروني، ثم حاولت متابعة الأعمال الورقية. وعبر الردهة، أصدرت آلة الإسبريسو ضجيجًا في مكتب مورفي. هل لاحظ أي شيء على طفلينا؟ لم يظهر أي علامة على ذلك. عندما قابلته في غرفة الاستراحة في وقت سابق من ذلك الصباح، منحني ابتسامة ودية، لكنه لم يتحدث معي. كنت على وشك القيادة إلى مترو الأنفاق لتناول طعام الغداء حين تلقيت مكالمة من مكتب الاستقبال تفيد بوجود شخص ما هنا للتحدث معي بشأن قضية الغراوي؛ شاهد.

أسفر الإعلان في الصحيفة والملصقات التي نشرتها في جميع أنحاء المدينة قبل شهر تقريبًا عن بضع عشرات من المكالمات، لكنها كانت جميعًا بلا فائدة، وعلى أي حال أُغلقت القضية الآن. لذلك عندما دخلت إلى الردهة، شعرت بالغضب أكثر من الإثارة، إذ كنت مقتنعة أن هذا سيكون مجرد مضيعة لوقتي. نهض السيد أسيفيس بسرعة لتسقط قبعته من حجره، فالتقطها بيسراه، وصافحني بيمينه. كانت بجانبه امرأة شابة قدمت نفسها على أنها زوجته. قالت: «يمكنني أن أترجم له».

قلت: «لا حاجة لذلك. لدينا العديد من الأشخاص هنا يتحدثون الإسبانية».

جاء هذا بمثابة خيبة أمل للزوجين؛ إذ أعتقد أنهما أرادا البقاء معًا. عندما دعوت السيد أسيفيس إلى غرفة المقابلة، تقدم ورائي ببطء مثل رجل يُساق إلى حبل المشنقة.

إفرين

جلسنا في غرفة رمادية صغيرة، حيث أسدلت الستائر على النوافذ. كان هناك مسجل فيديو، فشعرتُ بالتوتر، لكن النائب الذي استُدعي للترجمة، وهو رجل ذو شعر مجعد ويثبت دعامات على أسنانه، أخبرني أن هذا أمر طبيعي. قال: «El Protocolo»، أي أنه أمر روتيني، وسألني إذا رغبت في بعض الماء أو القهوة. قلتُ لا. كنت حريصًا على إنهاء الأمر ووصف ما رأيته في تلك الليلة والمغادرة. لذا، رويت القصة مثلما تذكرتها. «أثناء قيادة دراجتي في شارع 62، متوجهًا إلى المنزل بعد العمل، سقطت السلسلة عن الإطار الخلفي». كنت أتحدث إلى المحققة كولمان، التي جلست أمامي، لكنني انتظرت حتى يترجم لها النائب.

كانت طريقة غير مألوفة لرواية قصة؛ إذ أتوقف بعد كل جملة، وأنتظر سماعها بلغة أخرى، مما جعلني أكثر وعيًا بتفاصيلها على نحو عجيب. بعد برهة من الوقت، غمرني الارتياح لوجود شريط فيديو، لأنه بمجرد تسجيل كلماتي، سأغدو حرًا في نسيانها. هذا هو كل ما أريده الآن؛ أن أرمي كل هذا وراء ظهري، فما عدت أستطيع تحمل تطفل غيريرو على حياتي بعد الآن، أو صمت مارسيلا خلال الأسابيع القليلة الماضية. وعلى الرغم من توقفها عن سؤالي عن الحادث، أيقنت أنها تريدني أن أتحدث إلى الشرطة وقد كرهت رؤية خيبة الأمل في عينيها، يومًا بعد يوم، عندما أرفض. لقد أردت أن تعود المياه إلى مجاريها بيننا.

بمجرد أن انتهيت من قصتي، طلبت مني المحققة أن أرويها مرة أخرى، ولكن هذه المرة قاطعتني بأسئلة قد تجعلني أناقض نفسي، أو على الأقل، هكذا بدا لي، لأنها تحدثت معي بطريقة عدائية. «انتظر، هل كنت تتجه شرقًا أم غربًا على الطريق السريع 62؟».

قلت: «شرقًا».

«كم كنت تبعد عن التقاطع عندما توقفت؟».

«حوالي 30 إلى 45 مترًا».

«وماذا حدث بعد أن صدمت السيارة السيد الغراوي؟».

«انعطفت السيارة يسارًا في شارع تشيمهويفي، فتدحرج الرجل عبر غطاء المحرك وسقط على الرصيف».

«ألم تحاول مساعدته؟».

قلت: «لم يكن يتحرك»، وألقيت نظرة سريعة على المترجم طلبًا للمساعدة.

«لم يكن يتحرك على الإطلاق. كنت متأكدًا من أنه قد مات».

قلت سابقًا إن الحادث وقع في التاسعة والنصف. لكن كيف عرفت الوقت؟ أنت لا تحمل ساعة».

«لا. لكني أترك العمل في حوالي الساعة التاسعة، وعادة ما أعود إلى المنزل بحلول العاشرة. ويقع التقاطع في منتصف الطريق تقريبًا بين عملي وشقتي، لذلك، خمنتُ أنه حدث حوالي الساعة التاسعة والنصف، ولكن ربما أكون مخطئًا».

«وما لون السيارة؟».

«فضية، على ما أعتقد».

«نوعها وطرازها؟».

«لست متأكدا. رأيت السيارة من الجانب فقط عندما انعطفت في شارع تشيمهويفي. لكنها كانت سيارة سيدان ذات غطاء طويل. أعتقد أنها ربما كانت سيارة فورد».

«هل قرأت عن هذا في الصحيفة يا سيد أسيفيس؟».

«أي صحيفة؟ لم أقرأ أي شيء عن هذا. لقد رأيت للتو سيارة مثلها في ساحة انتظار السيارات في سوق كاسا».

«ماذا عن الملصق الموجود على النافذة الجانبية؟ كيف كان؟».

«كان مستديرًا وأحمر اللون، مثل تفاحة».

«هل كان هناك أي ركاب في هذه السيارة؟».

«لم أر أي ركاب».

«ماذا عن السائق؟».

«لم أره حقًا».

«لكن هل كان هو؟».

«أعتقد ذلك. كان يرتدي قبعة بيسبول».

«وهل هدّأ من سرعته؟».

لا، لم يفعل. لقد أخبرتها بذلك في المرة الأولى، لكنها سألتني مجددًا على أي حال، وطلبت مني أن أغمض عيني والعودة إلى تلك الليلة، لمعرفة ما إذا كان السائق قد توقف في أي وقت، سواء قبل أو بعد صدمه غيريرو. أخبرتها مرة أخرى أن السائق لم يهدئ من سرعته أو يتوقف. إذا كان قد فعل أي شيء، فهو الفرار فورًا. هذا ما جعلني أرفع نظري عن دراجتي - صوت السيارة وهي تسرع.

«متى أسرع؟».

«متى؟».

«قبل أو بعد صدمه الضحية؟».

«قبل».

«هل أنت متأكد من هذا؟».

لقد سمعت صوت السيارة وهي تسرع ثم صوت الاصطدام. قلت: «أجل. لقد أسرع قبلها. وبعد أن صدم الرجل، انعطف وأسرع مرة أخرى في شارع تشيمهويفي».

مجددًا، طلبت مني أن أبدأ من جديد، وأسرد القصة من البداية. عندما خرجت من تلك الغرفة، كان وقت الغداء قد فات وشعرت بالتعب. ولم أعرف حتى ما إذا كانت شهادتي ذات فائدة، لأن المحققة رفضت الإجابة. كل ما قالته هو إن شخصًا ما من مكتب المدعي العام سيتواصل معي عندما تنتقل القضية إلى المحكمة.

عندما خرجت إلى الردهة، نهضت مارسيلا. «كيف سارت الأمور؟».

قلت: «انتهينا. لنذهب».

أمسكت بيدها ونزلت السلم إلى الأبواب الزجاجية. كانت مارسيلا قد أخذت إجازة من العمل كي ترافقني، ولكن عندما خرجنا في ضوء الشمس أحسست بالقلق من أنني قد أشركتها في هذه الفوضى. لقد أمضيت أسابيع مثقلًا بالذنب والخوف، وما زلت لم أخل منهما. إذا انتقلت القضية إلى المحاكمة فسيتعين علي أن أتذكر الحادث مرة أخرى وأتحدث عنه أمام الآخرين، وإذا لم تُعقد محاكمة، فإن اسمي بات في ملفات الشرطة الآن، ويمكن العثور عليه بضغطة زر. «ماذا عن المكافأة؟»، سألتني وهي تلمس ذراعي.

«قالوا إن عليهم التحقق مما إذا كانت المعلومات التي قدمتها صحيحة».

اكفهرّ وجهها. لعلها توقعت أنني سأخرج من مركز الشرطة بشيك ضخم، من النوع الذي يحصل عليه الناس عندما يفوزون باليانصيب، والآن بدا لها أن الأمر سيستغرق بضعة أيام، وربما حتى أسابيع، للحصول على المال. في غضون ذلك، إنهم يعرفون أين يجدوننا. عبرنا موقف السيارات، مرورا بمحكمة مورونغو باسين، ومشينا في الشارع صوب محطة الحافلات.

كانت السماء ملبدة بالغيوم، والحرارة شديدة. جلسنا معًا تحت المظلة نتعرق وننتظر. ثم أخذت مارسيلا يدي وضغطتها. قالت: «كل شيء سيكون بخير». كانت تحاول أن تمنحني الأمل، ولمرة واحدة، تركت نفسي أصدقها. إن خمسة وعشرين ألف دولار مبلغ ضخم، أكثر مما امتلكناه على الإطلاق. كان يكفي أن نبدأ حياتنا في مكان جديد، حيث لا تعرف الشرطة لنا سبيلًا. امتد الطريق السريع أمامنا لكيلومترات إلى خارج الصحراء باتجاه المحيط. كل ما كان علينا فعله هو استلام المكافأة.

نورا

كنت أساعد مارتي في تعليق لافتة يوم الذكرى على النافذة الأمامية للمطعم عندما اتصلت المحققة كولمان كي تخبرني أن لديها شاهدًا؛ عامل فندق كان يركب دراجته على الطريق السريع ليلة 28 أبريل. وقد ذكر رؤيته ملصقًا أحمر على الجانب الخلفي من نافذة بيكر، وهو تفصيل لم يُعلن عنه، وأخبرها أن السائق أسرع مرة عندما اقترب من التقاطع ومرة أخرى بعد الاصطدام، مما يشير إلى أنه كان يعلم أنه قد أصاب أحدهم، ويتعين عليه ألا يغادر المكان. قالت إن هذه الشهادة هي أول دليل قوي يثبت أن السائق كان متهورًا عن عمد.

كادت كلمة قوي أن تحبس أنفاسي؛ فجثة والدي، وادعاءات والدتي بشأن بيكر، والقصاصة حول أماكن وقوف السيارات؛ لم يكن أي منها قويًا بدرجة كافية. لولا هذا الشاهد لكانت القضية قد تبخرت مثل الأثير. امتلأت عيناي بالدموع، واضطررت إلى الابتعاد عن السلم والجلوس على الرصيف لالتقاط أنفاسي. بدأت في البكاء، ولم أستطع كبح مشاعري. مسحت خديّ براحة يدي، وسألتها: «إذًا، لديكم الآن دليل على أن بيكر قتل والدي؟».

«دليل على درايته بأنه صدم الضحية».

«ولكن ليس أنها جريمة قتل؟».

«تتطلب تهمة القتل العمد مستوى أعلى من الإثبات. أعتقد أن المدعي يبحث في القتل غير العمد».

«ألا يصدق الشاهد؟».

«لا أعرف ماذا يصدق، لا أستطيع القول. ولكن يجب أن نتذكر أنه لا يوجد عمود إنارة عند هذا التقاطع وأن السيد بيكر يبلغ من العمر ثمانية وسبعين عامًا. وبعض الناس يجب ألا يقودوا سياراتهم في هذا العمر».

بقيت صامتة لبعض الوقت، وأنا أحاول استيعاب كل ما قالته لي المحققة. في غضون ذلك، جاءت سيارة زرقاء إلى ساحة الانتظار، وهي تنفث عادمًا كثيفًا، وقد جلس السائق والمحرك يعمل وراح يعبث بشيء في المقعد

الخلفي. ومن خلفي، جلجل باب المطعم وخرجت امرأة تحمل بقايا طعام في حاوية ستايروفوم.

قالت كولمان: «اسمعي. أتفهم إحباطك. لكن القتل العمد دهسًا تهمة خطيرة للغاية، وربما لم نكن لنصل إلى هذا الحد لولا المكافأة التي عرضتِها. لقد فعلتِ ما بوسعك».

كانت الشمس قد أشرقت فوق شجرة بالو فيردي على جانب المطعم، وسقطت أشعتها على وجهي. خلال الأسابيع الخمسة الماضية، بدأ كل يوم بحقيقتين مؤلمتين لا تتغيران؛ لقد مات أبي وقاتله حر طليق. لكن الآن، ولأول مرة، يمكنني أن أطلق العنان لمخيلتي وأتصور يومًا يضطر فيه بيكر للرد، جزئيًا على الأقل، على ما اقترفته يداه. «هل سيُسجن؟».

«ربما. لكن هذا يعتمد حقًا على هيئة المحلفين».

فكرت في القصص التي رواها كل من الدفاع والادعاء في المحكمة. سألتها: «هل يمكنني على الأقل مقابلة هذا الشاهد؟ أريد أن أشكره على تقدمه».

«لا أنصح بذلك. أعتقد أنه قد يكون من الأفضل الانتظار حتى ما بعد المحاكمة».

«ماذا عن المكافأة؟».

«إذا وقّعت على الشيك، فسنحرص على حصوله عليه».

قلت: «حسنًا. شكرًا لك على كل شيء أيتها المحققة».

نهضتُ ونفضت الغبار عن نفسي. وقد سار مارتي بجواري حاملًا السلم، وألقي نظرة خاطفة على اللافتة المكتوب عليها *يوم ذكرى سعيد* باللون الأحمر والأبيض والأزرق. أسفل التحية، وبأحرف كبيرة، كُتب النداء، أو ربما النصح، لتذكير أولئك الذين قدموا التضحية الكبرى. قريبًا ستقيم الصحف احتفالاتها السنوية بالجنود الأمريكيين، ويتناوب السياسيون على تقديم المساعدة لهم. أما بالنسبة للمدنيين الذين قتلوا في الحروب الأمريكية، فلا بواكي لهم. لقد بنيت الذاكرة الوطنية على المحو.

لكن الذاكرة الخاصة لم تكن سوى صراع ضد المحو؛ إذ أردت التأكد من أن والدي لن يُنسى. في المطعم، احتفظت بكل شيء تمامًا كما كان قبل

وفاته. لقد دشنتُ روتينًا بالفعل. في الصباح، كنت أفتح المطعم وأنجز كل ما يلزم - أتولى تسجيل المدفوعات النقدية، وأعيد تزويد الحمامات بالمناشف الورقية، وأتصل بمتجر الكهرباء لاستبدال مصابيح المطبخ. وفي العادة، كنت أتناول طعام الغداء وأنا واقفة عند المنضدة. وفي فترة ما بعد الظهر، أعود إلى الكوخ وآخذ قيلولة، وغالبًا ما يقطعها صوت الحمامة وهي تعلم فراخها الطيران. ثم أصنع القهوة وأخيرًا أجلس على البيانو. بعبارة أخرى، كنت أحاول التمسك بالماضي بأي ثمن. لكن والدتي كانت أكثر حكمة؛ فلم تحاول محاربة شعورها بالألم أو الخوف، بل قبلتهما وكأنها تستقبل زائرين غير مرغوب فيهما، مع إدراكها أنهما سيغادران ذات يوم، حتى لو كان هذا في المستقبل البعيد. إنها قوة استمدتها من إيمانها العميق، وقد حسدتها على ذلك في تلك اللحظة؛ فلا أملك إلا الشك.

جيريمي

ذهبت نورا إلى الحمام لاحقًا. ومن دون قصد، وجدت نفسي أسترق السمع، وأتساءل عما إذا كانت قد دخلت هناك للبكاء. ولكن بعد لحظة، سمعت صوت تدفق المياه في المرحاض، ومن الصنبور، ثم عادت إلى غرفة نومي، مرتدية أحد قمصاني. وقفت تنظر إلى رفوف كتبي، وتميل رأسها جانبًا لتتمكن من قراءة العناوين؛ أسيموف، برادبري، بتلر، كلارك، وديك. خلال نوبة الأرق الشديدة قبل بضعة أشهر، رتبتُ كل كتبي وموسيقاي وأفلامي أبجديًا، ونظمتها حسب النوع. في ذروة الأرق، كان بإمكاني أن أنهي ثلاث روايات في الأسبوع. والآن أراقبها وهي تمرر إصبعها على أقراص دي في دي تيري جيليام، وتفحص المنارة الورقية التي صنعتها في المدرسة الابتدائية واحتفظتُ بها، بصرف النظر عن عدد المرات التي انتقلت فيها. ثم أخرجت صندوق صور من الرف بجانب السرير. قلت: «اتركي هذا»، ورفعت نفسي على يدي. «الوقت يتأخر».

رفعت الصندوق بعيدًا عن متناول يدي على نحو لعوب.

قلت بعد دقيقة: «حسنًا. ولكن اجلسي هنا» ربتُّ على المساحة المجاورة لي.

لم تكن الصور مرتبة؛ إذ كنت أرميها هناك بعد تجميع عدة لفات من الصور. التقطت الصورة الأولى، وهي صورة لي في معسكر تقدم. وفجأة، كنت أنظر إلى نفسي من خلال عينيها؛ غازٍ، محتل، إمبريالي. إنها المسميات التي سأطلقها بسهولة على نفسي إذا كنت أتجادل مع والدي أو مع المحاربين الآخرين، سواء وجهًا لوجه أو في منتديات المناقشة عبر الإنترنت التي شاركت فيها عندما لم أستطع النوم. لكنني واجهت صعوبة في إقناع المدنيين البعيدين عن ضباب الحرب. التقطت صورة تلو الأخرى، فرأيت نفسي وأنا أنتظر في شمس الظهيرة الحارة حاملًا أربعين كيلوغرامًا من العتاد، ثم وأنا في عربة همفي، وحزام الذقن مشدود للغاية لدرجة أنه ترك أثرًا على جلدي. وفي صورة ثالثة، كنت أستند إلى جدار الثكنة، والإرهاق الشديد بادٍ في عيني ووجهي محروق من الشمس. وأخيرًا، ظهرت واقفًا عند نقطة تفتيش ممسكًا بسلاحي. سألتني: «ما المكتوب؟»، مشيرة إلى اللافتة الكبيرة المعلقة على عمود إنارة خلفي.

«لا أدري، إنها لافتة عراقية، ولا تتبع لنا. ألا تقرئين العربية؟».

«لم أدرسها قط، لكني أتحدثها جيدًا».

مددت يدي. «يدك من فضلك».

«استمع إليك! لقد علموك ذلك في التدريب؟».

أعطتني يدها فانكببت على تقبيلها. ثم همست في أذنها: «كيفك يا سكر؟».

قالت ضاحكة: «بالتأكيد لم يعلموك ذلك أثناء التدريب».

«لقد كان مترجمنا معسول اللسان. ظل يحاول مغازلة امرأة سودانية تعمل في غرفة الغسيل».

«هل كانت هناك أية نساء في مفرزتك؟».

«لا، ولكن كان هناك في المفارز الأخرى».

«ماذا عن العرب؟».

«رجل واحد من فلوريدا، يدعى حيدر. وما يزال في العراق. إنه ضابط صف الآن». وضعت ذراعي حول خصرها فمالت عليّ، فبدا ثقلها أشبه بالدرع.

«كم كان عمرك هنا؟»، أشارت إلى صورة التُقطت في مطعم تشاو، خلال جولتنا الأولى. ارتسمت على وجهي أنا وفييرو ابتسامات عريضة حيث لطّخ مربى التوت أسناننا. لقد بدونا مثل الحمقى.

«تسعة عشر».

«تسعة عشر. يا إلهي» حدقت في الصورة لمدة طويلة، ثم انتقلت إلى صورة أخرى، حيث كنت أقف مع الآخرين في وحدتنا، وتتدلى من أكتافنا بنادق إم-4. «كيف بدا حمل هذه؟».

«تعوّدنا عليها. أظن أننا تعوّدنا على كل شيء. عندما أخذوها مني بعد انتهاء جولتي، شعرت أنهم سلبوني أحد ذراعيّ. لقد استغرق الأمر بعض الوقت كي أعتاد التجول بدونها».

نبح الكلب في فناء جاري. كان جروًا ودودًا من فصيلة جيرمان شيبارد، وقد اعتدت مداعبته في الماضي، لكنه ما يزال يتوتر عندما يسمع ضجيجًا، حتى لو كان مجرد صوت طائر أو بوق سيارة في الشارع. اختارت صورة أخرى، ظهرنا فيها جميعًا حول الرقيب فليتشر، ونحن نحدق في ضوء الشمس.

كفى، قلتُ في نفسي. أغلقتُ الصندوق، ووضعته على المنضدة، وأطفأت المصباح. ثم استدرت لأواجه الحائط. في الظلام، شعرت بها تتحسس الندبة على ظهري؛ التي بدأت عند خاصرتي وامتدت حتى كتفي، مثل شجرة تنحني جانبيًا ضد الريح. مررت يدها على خط النقاط السوداء الذي ينفتح من وقت لآخر، ويخرج شظايا. أيقنت أن هذه اللحظة ستأتي، وستبدأ في طرح أسئلة حول الحرب؛ فكل النساء اللواتي واعدتهن فعلن ذلك. كنت أخبرهن بالخطوط العريضة لرحلتي إلى العراق، فتتسع أعينهن رعبًا ويرغبن في تقبيلي مواساة لي. لم يكن الأمر صعبًا، وقد نجح في كل مرة. بيد أنه كان هناك شيء خاطئ بشأن ذلك. حتى عندما استمرت علاقاتي بهن بضعة أشهر، فإن نظرات أعينهن التي تقول إنني بطل أبعدتني عنهن. لكن نورا لم تنظر إلي بهذا النوع من الدهشة. قبل وقت طويل من ذهابي إلى الحرب، عرفت هي معنى الحرب - إذ ألقيت طوبة على نافذة والدها، وكُتبت كلمات مسيئة على خزانة ملابسها. ولن ترضى بالإجابات التي قدمتها للأخريات، وحتى لو أرضيتها، لم أكن متأكدًا من رغبتي في ذلك. حين أكون معها، أصبح أقل ميلًا للتحدث عن الحرب بصوتين؛ الصوت الحزين الذي استخدمته مع رفاقي، والصوت المرهق الذي أبقيته للمواعدات. ولكن معها، شعرت أن الفرق قد زال.

في الخارج، نبح الكلب مجددًا، مع أن الصمت لم يقطعه صوت غير عادي. وقد أرعب النباح الصراصير، لكنها عاودت الغناء بعد دقيقة، ثم انضمت بومة إليها. نهضت لإغلاق النافذة وتعديل الستائر على نحو مناسب، متحاشيًا نظراتها طوال الوقت. قلت: «أعتقد أنني سأستحم، فهذا الكلب اللعين لا يريد أن يتركني أنام في سلام».

دخلت المرحاض وجلست في حوض الاستحمام وهو يمتلئ بالماء، ودفعت المحبس نحو المياه شديدة السخونة. أن يُسأل المرء عن الحرب يعني أن يتذكرها، فيعيش أحداثها مرة أخرى. واسترجاع الذكريات على نحو لاإرادي شيء، مثل تلك المرة عندما دخلت محطة وقود في ريفرسايد وشممت رائحة عطر على الموظف أعادتني فورًا إلى ساحة سوق مزدحمة في الأنبار لدرجة أنني كدت أسقط من التأثر، لكن استرجاع المرء الذكريات بإرادته شيء آخر تمامًا. فُتح الباب مصدرًا صريرًا، ثم دخلت نورا وركعت بجانب حوض

الاستحمام. مررت إصبعها على الوشم، والندبة عند خاصرتي، والخدوش التي تركتها بنفسها أثناء العلاقة. لقد حمل جسدي علامات أدركت أنها تريد فك طلاسمها وتجميعها معًا في قصة، لكنها ستبقى دائمًا غير مكتملة. إن إخبارها بالقصة كاملة قد يجعلها تحكم علي، مثلما رحت أحكم على نفسي بالفعل كل يوم. سألتني: «هل ستخلد إلى الفراش؟».

قلتُ متحاشيًا نظراتها: «خلال دقيقة».

بعد أن خرجت من الحمام، بقيتُ أنا في الحوض. لعله يجدر بي الكف عن التفكير في رحلتي إلى الحرب كقصة، وأرويها لها بالطريقة التي تذكرتها بها في جوف الليل حين يهزمني الأرق؛ في شظايا، مرتبة أحيانًا ومبعثرة أحيانًا أخرى، وأتوقف عندما أقترب جدًا من عيش الحدث مجددًا. أصبح ماء الاستحمام باردًا على نحو مزعج، وقد ارتجفت وأنا أجفف نفسي. وجدتها في غرفة النوم المظلمة جالسة على الفراش، مرتدية بالفعل القميص الأزرق وتنورة الكتان التي ارتدتهما لتناول العشاء في المطعم الإيطالي ببالم سبرينغز. سألتها: «هل ستغادرين؟».

قالت وهي تنتعل حذاءها: «اعتقدت أنك تريد أن تكون بمفردك». ثم مدت يدها نحو ساعتها على الطاولة بجانب الفراش ونهضت. وأغلقت المشبك في صمت. «لقد تأخر الوقت، على أي حال».

قلت وأنا أسير تجاهها تحت جنح الظلام: «لا تذهبي. ابقي رجاءً».

كنت عاريًا وأرتجف من البرد، وقد نظرت إليّ للحظة فاحتضنتها ملصقًا ركبتيّ بركبتيها، ومستشعرًا دفئها. ولما تحدثت، كان صوتي بالكاد أعلى من الهمس. بعد شهر من جولتنا الثانية، تلقى الرقيب فليتشر بعض المعلومات حول مكان قناص قتل أحد رجالنا وجرح أربعة آخرين، وهو محترف لدرجة أننا ظننا أنه قد تدرب في الجيش العراقي. كان من المفترض أن الهدف مختبئ في مبنى سكني شرقي الرمادي، فانطلقنا عند الرابعة فجرًا، حين كان الظلام يكتنف الحي والهواء لا يزال لطيفًا. كان بيريز أول من ترجل من المدرعة، وقد أطلقنا عليه اسم تشيوي بسبب شعره الأحمر وشاربه، ثم تبعه بقيتنا. وبعد أن قطعنا حوالي ثمانية أو تسعة أمتار، انفجر لغم في بيريز. كان كل ما عثرنا عليه فيما بعد من جثته هو ساقه التي سقطت على غطاء محرك السيارة، وأمعاؤه التي تدلت من شجرة. طلب منا الرقيب جمع ما يمكننا وضعه في كيس، لإرساله إلى عائلته في تكساس لإقامة جنازة.

بعد ذلك يومين، أخذنا الرقيب فليتشر لرؤية المخبر الذي أخبره عن مكان اختباء القناص، واسمه بدوي، وهو موظف سابق بوزارة الداخلية. كان لديه منزل جميل، مع زخرفة زرقاء على النوافذ ومساحة إضافية فوق المطبخ قيد الإنشاء. هبت رائحة خبز محترق من الردهة - وما زلت أشمها في أحلامي - وكان الأشخاص الوحيدون بالداخل هم زوجة بدوي وأطفاله. وبخلاف تقديم الشاي أثناء الزيارة، لم تتحدث الزوجة مع أي منا. وعندما سألها فليتشر عن مكان زوجها، قالت إنها لا تعرف، وأنه لم يعد إلى المنزل في الليلة السابقة. كانت ترتدي ثوب منزل أخضر بزخرفة هندسية، وقد غطت شعرها بمنديل مربوط في مؤخرة عنقها. وجلس أطفالها على الأرض، يلعبون الورق؛ فلم يعد وجود المارينز شيئًا جديدًا بالنسبة لهم، لكنها بالكاد استطاعت إخفاء ازدرائها لنا. امتلأت عيناها باللوم. وقد أجابت على كل سؤال طرحه فليتشر بنعم أو لا.

قال فليتشر: «ربما لا تستطيع قول أي شيء أمام الأطفال». أخذها إلى الغرفة الخلفية، وبقيت أنا وفييرو في الردهة، فرحنا نراقب الأطفال. كانت اللعبة التي يمارسونها غير مألوفة بالنسبة لي، فحاولت معرفة القواعد من خلال مشاهدتهم. ولكن بعد عشر دقائق، خرج المترجم، وتجاوزنا صوب الباب الأمامي.

سأله فييرو: «انتهينا هنا؟».

«لا، لكن الرقيب لا يحتاجني. تلك المرأة تتحدث الإنجليزية».

تبادلنا أنا وفييرو النظرات في ذهول. خلال الأشهر الستة التي كنا نأتي فيها إلى هذا المنزل لزيارة المخبر، لم تعطِ زوجته أي مؤشر على أنها تفهمنا. الآن تساءلت عما قلناه في حضورها؛ هل كانت له أي قيمة استخبارية، وهل استُخدم ضدنا. كانت هناك تعليقات أخرى أيضًا عنها، أشياء بذيئة تأكدنا من إخفائها بلغتنا الدارجة. بعد ذلك، جاء صوت كرسي يجر على الأرض من الغرفة الخلفية. «أيها الرقيب؟» ناديته. لكني لم أتلقَّ إجابة؛ لقد أغلق فليتشر سماعة رأسه.

عبرت الردهة، مبقيًا الأطفال ضمن مجال رؤيتي. وحتى مع صوت الفيلم الوثائقي عن الطبيعة الذي كان يُعرض على التلفزيون، سمعت الفرقعة بوضوح. مددت يدي إلى الباب، لكنه فجأة انفتح وخرج فليتشر بجسده الضخم. «ماذا يحدث هنا؟» سألته.

«لقد حاولت سرقة سلاحي».

من ورائه، كانت المرأة طريحة الأرض، ولديها ثقب رصاصة في خدها، ومختنقة بدمها. دخلتُ الغرفة، لكن عينيها لم تتبعاني، بل ظلتا ثابتتين صوب السقف. وبعد دقيقة، توقفت عن الحركة. ركبنا المدرعات وغادرنا، ولكن طوال طريق العودة إلى المخيم، استعدت تسلسل الأحداث التي بدأت بمقتل بيريز وانتهت بقتل زوجة بدوي. فهمت من القصة، أو ما يمكن أن أفهمه منها، أن ما حدث كان خطأ، وبمجرد أن كنا وحدنا في الثكنات، حاولت أن أسأل فييرو عمّا جرى.

قال: «وما أهمية ذلك بحق الجحيم؟».

«ألا يزعجك أنه لا علاقة لها بهذا؟».

«أنت لا تعرف ذلك».

«وأنت لا تعرف أنها فعلت ذلك أيضًا».

«أحد رجالنا مات وأنت تريدني أن أقلق عليها؟ اذهب إلى النوم».

في وقت الطعام صباح اليوم التالي، جلست بجوار فليتشر، ووجدت طريقة لتوجيه المحادثة إلى الليلة السابقة، لكنه هز كتفيه وقال إن الزوجة أصيبت بالجنون عندما أخبرها أنه سيجد بدوي مهما استغرق الأمر. عندئذٍ، حاولت الوصول إلى سلاحه. سألته: «ولم تتمكن من منعها؟ امرأة صغيرة الحجم مثلها؟».

قال عابسًا: «لقد منعتها بالفعل. ماذا دهاك يا جوريكي؟ خذ بعض الوقت للتفكير فيما أشرت إليه للتو هنا. فكر في الأمر بعناية؛ فربما تصل إلى استنتاج مختلف».

لم تكن وجهة نظري لتتغير لو أنني بقيت حيث أُمرت بالبقاء، في غرفة المعيشة مع فييرو. حينئذٍ، لم أكن سأرى أو أسمع أي شيء. لكنني اتخذت أربع خطوات فضوليّة عبر الردهة، وهذه الخطوات الأربع جعلتني أشك في كل شيء. لم يحاول فليتشر الفوز في الحرب؛ كان هذا أمرًا يخص كبار المسؤولين. كل ما اهتم به هو حماية رجاله. وقد أراد الانتقام لهم أيضًا. ولكن يبدو أن أسئلتي قد أزعجته بشدة لدرجة أنه أرسلني في مهمة للتخلص من أوعية تغوط لمدة ثلاثة أيام كاملة. أتذكر إخراج الوعاء الأول، وسكب الوقود فوقه، قبل أن ألقي عود ثقاب لإشعاله، فشعرت بالغثيان وتقيأت.

سألتني نورا: «ماذا كان اسمها؟ المرأة التي قتلها فليتشر».

«لا أدري. لقد قدم تقريرًا، لكنني لم أره مطلقًا».

بينما كنت أحكي لها القصة، استدارت لتواجهني. وبطريقة ما، بددت كل حججي. بدا الأمر وكأنها قد عثرت على المفتاح الصحيح لفتح خزانة قديمة صدئة، وأخرجت محتوياتها. بيد أني لم أستطع معرفة ما إذا كنت قد أسهبت في الحديث، وكشفت الكثير. بقينا هادئين لبعض الوقت. وفي النهاية، أغمضت عينيها، وظللت أحتضنها حتى الصباح، عندما قامت للذهاب إلى العمل.

نورا

كنت أتصارع مع القفل الموجود على خزانة الأدوية في غرفة التخزين عندما دخلت فيرونيكا بكيس من أكواب ديكسي. وقد ربطته في عقدة ووضعته وقذفته صوب الرف العلوي، مما أحدث جلبة عالية أزعجتني. كان رأسي يؤلمني، وزاد القفل من معاناتي. راقبتني فيرونيكا لمدة دقيقة ثم، في حركة متمرسة، أعادت ضبط المفتاح وفتحت خزانة الأدوية لي. قالت: «تفضلي. إنه يعلق أحيانًا».

قلت: «شكرًا». كانت هناك زجاجات مطهرة ومراهم مضاد حيوي وضمادات من جميع الأحجام داخل الخزانة، ولكن لا وجود لمسكنات الألم. «ليس لدينا أيبوبروفين؟».

«لا بد أنه نفد من عندنا».

على الحائط بجوار الخزانة كانت هناك صورة مؤطرة لموظفي المطعم، التقطت في اليوم الذي افتتح فيه والدي المكان، قبل اثني عشر عامًا. كان مارتي، بشعره الكثيف قبل أن يصبح أصلع، يحمل قائمة طعام، في حين ابتسمت فيرونيكا اليافعة، التي بدت جميلة في زيها الجديد، بخجل أمام الكاميرا. بعد ذلك، أتى صوت قعقعة الأكواب من المطبخ.

قالت فيرونيكا: «اسألي رافي». أصبحت نبرتها جافة فجأة. «إنه يعبث دائمًا في الأشياء هنا، وربما أخذه». ثم سحبت علبة سجائر وولاعة من جيب المئزر وخرجت.

أغلقتُ خزانة الأدوية بعنف. خلال الأسابيع القليلة الماضية، فتحت إدارة المطعم عيني على جميع الشكاوى التافهة التي حملها العاملون تجاه بعضهم البعض؛ فيرونيكا لا تحب رافي، الذي كان معجبًا بريناتا، والتي كانت بدورها على علاقة بجوزيه، الذي اعتقد أن مارتي يحاول النيل منه. لم أستطع المواكبة. لذا، عدت إلى قاعة الطعام، حيث جلس زوجان رفقة ثلاثة أطفال. راح أصغرهم يصرخ، رافضًا الجلوس على الكرسي المرتفع، مما زاد ألم رأسي.

صببتُ لنفسي كوبًا من القهوة، وجلست عند المنضدة لتناولها. في الليلة الفائتة، بقيت أنا وجيريمي مستيقظيِن حتى ساعة متأخرة نتحدث، ولم

أنم إلا قليلًا. لا أدري لماذا أقضي وقتًا طويلًا بصحبته؛ فلم يكن الفتى اللطيف الذي عرفته في المدرسة الثانوية، فقد خاض حربًا وحشية كرهتها. إن معرفتي بالأشياء الفظيعة التي رآها أو ارتكبها في العراق جعلتني أشعر بأنني متورطة معه، وهو ما لم أدركه حتى فوات الأوان. لم أكن أعرف كيف أعود إلى حالة جهلي، فليس هناك خريطة يمكنني اتباعها.

في وقت لاحق من ذلك الصباح، وبينما كنت أنقل المخلفات إلى القمامة، رأيت سيارة عائلية زرقاء تقف أمام صالة ديزرت أركيد. كان أحد مصابيحها الخلفية مكسورًا، وقد وُضع شريط أصفر على النافذة الخلفية، وملصق على ممتص الصدمات كُتب عليه *أب فخور بابنته المتفوقة*. ترجلت منه عائلة من أربعة أفراد؛ الأب والأم، وفتاتان. «أمي، هل يمكنني الحصول على حلوى سكيتيز؟» سألت الفتاة الكبرى. كان شعرها مضفورًا ومثبتًا على رأسها فبدت وكأنها عاملة في محلبة. أما الفتاة الصغيرة، فكانت ذات شعر داكن، وسارت وراءهم على نحو أعمى، وعيناها مثبتتان على الكتاب الهزلي الذي كانت تقرأه.

إنها عائلة سعيدة.

لقد انجذبت إليهم لدرجة أنني تبعتهم عندما دخلوا صالة البولينغ. وقد استغرقت عيناي دقيقة للتكيف مع ردهة صالة ديزرت أركيد ذات الإضاءة الخافتة. على الحائط البعيد، أُلصق إعلان يمتد من الأرض إلى السقف عن بيرة بادوايزر، لكن ألوانه بهتت مع الوقت وتقشر أحد أركانه. وعلى جهاز الإستريو، عزفت جوقة لموسيقى البوب لم أتعرف عليها بأعلى صوت. كما عُلِّق علم ضخم فوق المنضدة الأمامية، حيث وقفت العائلة في انتظار أحذية البولينغ. وعندما توجهوا إلى ممرّهم، التفت إلي الموظف وقال: «هل يمكنني مساعدتك؟».

لفت صوت اصطدام كرة بالهدف انتباهي إلى منطقة البولينغ. في أحد الممرات البعيدة، كان رجلان أكبر سنًا، يثبّتان نظارتيهما الشمسيتين على حافتي قبعتي البيسبول، وينظران إلى الشاشة لمعرفة نتيجتهما. وقد استقرت الأسرة المكونة من أربعة أفراد عند الممر رقم 5، وراح الأب يدخل الأسماء في الجهاز، في حين ساعدت الأم الفتيات في اختيار كرات البولينغ.

سألني الموظف مرة أخرى: «هل يمكنني مساعدتك؟».

استدرتُ لأقول لا، وأنني على وشك المغادرة، لكني رأيت إيه جي واقفًا بجوار آلة الحلوى على أحد جانبي الصالة. كان يتحدث عبر هاتفه الخلوي، لكن عينيه كانتا ثابتتين عليّ. هل أمسى يعمل في صالة البولينغ الآن؟ لقد بدا كذلك حقًا، لا سيما في قميصه الأسود وبطاقة التعريف المعلقة على صدره. لعله تولى إدارة الصالة مكان والده، تمامًا مثلما توليتُ إدارة المطعم مكان والدي. سرت قشعريرة في أطرافي؛ فقلت لنفسي هذا بسبب مكيف الهواء فحسب. لم أعد في السادسة عشرة من عمري حتى أخاف من إيه جي.

«هل يمكنني مساعدتك؟».

قلت: «أجل، هل يمكنني حجز ممر من فضلك؟».

«ما مقاس الحذاء؟».

«سبعة».

«تفضلي. الممر رقم 3».

سددتُ الثمن، وأخذت حذاء البولينغ الأحمر والأزرق إلى ممري. لم يكن لديّ جورب، وبدا نعل الحذاء خشنًا. ولكن لا بأس؛ عقدتُ رباط الحذاء ونهضت. كانت جميع كرات البولينغ الموجودة على الرف ثقيلة جدًا بالنسبة لي، لكنني اخترت واحدة على أي حال، بسبب لونها، أحمر غامق. ذهبت إلى خط الفاول، ورميت الكرة في الممر، فسقطت بصوت عالٍ وانتهى بها الأمر في القناة الجانبية. وقد أخطأت الكرة الثانية الهدف أيضًا، والتي تليها، لكنني أصررت، وفي النهاية أصبت قطعة خشبية واحدة.

نورا

استدرت لأجد إيه جي يقف على مسافة قريبة مني. وقد ثبّت عينيه عليّ بطريقة أفزعتني، فشعرت أن الزمن قد توقف. بدا لي أننا عدنا إلى ردهة المدرسة مرة أخرى، حين كنت أقف عند خزانتي، والكلمة المسيئة مكتوبة باللون الأزرق، وذراعه حول ستايسي بريجز. سار الطلاب الآخرون على عجل في طريقهم إلى الفصل؛ فلم يقترب مني أحد، أو يدافع عني حتى بكلمة.

قال بصوت متزن: «أنت تفعلين هذا بشكل خاطئ. لا بد أن تفردي معصمك، دعيني أريك».

التقط كرة البولينغ ووضعها في يدي، وأدخل أطراف أصابعي في الثقوب؛ أولًا إبهامي، ثم الخنصر والوسطى. كانت المادة الصمغية جافة، فلما أدخل أصابعي في الثقوب، خدشت بشرتي على نحو مؤلم. تسارعت مشاعر الخوف والاشمئزاز بداخلي. «الحيلة»، كما قال وهو يمسك بيدي ويؤرجح الكرة، «هي أن تبقي يدك مستقيمة، وإلا فعندما تقذفين الكرة، سيكون مرفقك مثنيًا». كان قريبًا جدًا مني لدرجة أنني شعرت بأنفاسه الساخنة على عنقي. تسارع نبضي. ولكنني تمكنت من تحرير نفسي من قبضته، وبكل القوة التي استطعت استجماعها، رميت الكرة في الممر، فأصابت أربع قطع خشبية.

قال: «أترين؟ هذا أفضل بكثير».

أزال شريط الاحتراف القطع الخشبية المتساقطة وأعاد ضبط مكان المتبقية. وقد مشى إيه جي نحو خط الفاول مع كرة جديدة، وهي زرقاء تزن حوالي 7 كيلوغرامات. ورفعها إلى صدره للحظة ثم، بحركة انسيابية ولكن قوية من معصمه، قذفها في الممر، لتسقط القطع الخشبية المتبقية محدثة قعقعة. التفت إلي وقال «هكذا». ثم ابتسم، «استمتعي باللعب».

انتظرت حتى ابتعد، ثم ذهبت إلى المنضدة، وبدلتُ حذائي، وهرعت إلى أمان المطعم. كان قلبي ينبض بسرعة كبيرة لدرجة أنني اضطررت للجلوس على المقعد الخشبي عند المدخل. وبعدها بلحظة، رأتني فيرونيكا. قالت وهي تلوح بزجاجة من الإيبوبروفين: «لدي شيء لك».

قلت: «أنتِ منقذة»، أخذته منها وسرت إلى المنضدة للحصول على كوب من الماء.

«لقد أخفاه رافي في دولابه».

«أنا متأكدة من أنه نسي إعادته فحسب».

رمقتني بنظرة تقول إنني ساذجة، لكن ربما في يوم من الأيام سأنضج.

إيه جي

لم أتمكن من ممارسة المصارعة في هذه المدينة، ليس باحترافية على أي حال، لذلك انتهى بي الأمر بقضاء كل وقت فراغي مع صديقيّ الكلبين، جوردون وآني. كنت أمشي وألعب معهما، وعلمتهما كيفية تجنب الأفاعي الجرسية والعقارب، وأحيانًا بعد أن أعود من العمل، كنت أخرجهما إلى الفناء الخلفي وأدربهما على المشي بشكل صحيح. وقد فكرت بكلِّ جدية في إشراكهما بالمسابقات، مثلما فعلت أنا وأمي في صغري. لقد عشقت السفر معها إلى أجزاء مختلفة من كاليفورنيا ورعاية الكلاب ومشاهدتهما يتنافسان. كنا فريقًا مثاليًا؛ إذ كانت والدتي تملأ الأوراق وتتحدث إلى المدربين والمربين والحكام، في حين أجهزهما أنا وأبقى معهما حتى العرض.

ذات مرة، سافرنا مسافة طويلة إلى فريسنو لمسابقة ينظمها نادي بيت الكلب الأمريكي. كانت أبعد مسافة قطعناها عن المنزل، لكننا اعتقدنا أن الأمر يستحق ذلك لأن كلبنا رويال كان يبلي حسنًا في ذلك العام لدرجة أنه حظي بفرصة جيدة للفوز بالجائزة الأولى. يشاهد الكثيرون مسابقات الكلاب على التلفزيون ويحسبون أن الفوز يتعلق بالمظهر، ولكن الحقيقة هي أن الأمر أكبر من ذلك بكثير؛ فقد يبدو الكلب رائعًا ولا يفوز أبدًا، لأنه بصرف النظر عن المظهر والسلوك، فإن ما يبحث عنه الحكام حقًا هو نقاء السلالة، أي نوع السمات التي ستُنقل إلى الأبناء. هذا لا يعني أن المظهر غير مهم، بالطبع هو كذلك. كانت وظيفتي التأكد من أن رويال يبدو مثاليًا، وأن فروه ناعم ولامع، وأذناه نظيفتان، وأسنانه مشرقة. وعندما فاز بجائزة *أفضل سلالة* في عرض فريسنو، شعرت أنني الفائز، وهذه هي نتيجة الجهد الذي أبذله.

لكن في وقت متأخر من ليلة الأحد، عندما عدنا إلى المنزل، كان والدي ينتظرنا. أتذكر أنه جلس يتابع ديفيد ليترمان على شاشة التلفزيون، وأنه رفع مستوى الصوت بشده، إذ كان قد بدأ يفقد بعضًا من سمعه.

صحتُ قائلًا: «لقد فزنا»، فقط حتى يتمكن من سماع قائمة العشرة الأوائل، ورفعتُ شريط رويال الذي احتل المركز الأول كإثبات.

أطفأ والدي التلفاز وعانى للنهوض من الكرسي. لقد كان ضخم الجثة، فتعين عليه النظر إلى الأسفل كي يلتقي بعيني أمي. «هل تعلمين كم

الوقت؟» سألها.

قالت: «لم نغادر فريسنو حتى وقت متأخر». ثم وضعت حقيبتها على طاولة القهوة وفكّت سترتها الصوفية، لكنها لم تخلعها. كانت ليلة باردة من ليالي فبراير، ولم يشغل والدي المدفأة. لقد كان شديد البخل.

«قلتِ لي إنك ستغادرين بحلول الساعة الرابعة على أبعد تقدير».

«أعرف ذلك. لكني قابلت الكثير من الأشخاص بعد العرض. أحد الحكام وهي امرأة تنحدر من آشلاند، وقالت إننا يجب أن نشرك رويال في عرض هناك».

«آشلاند. على طول الطريق صوب ولاية أوريغون؟».

«أجل».

اقتربت منه حتى أريه الشريط. كان باللونين الأزرق والأصفر وعليه شعار نادي بيت الكلب الأمريكي. قلت: «فزنا بالجائزة الأولى».

لا أدري ما الذي فجر غضبه. لعلها نبرة صوتي، أو حقيقة أن رويال راح يزاحمه، محاولًا الجلوس على الكرسي بذراعين. قال: «الجائزة الأولى، أليس كذلك؟ وكم تكلف هذا؟».

لم تكن لدي فكرة. ألقيت نظرة خاطفة على أمي طلبًا للمساعدة، لكنه وضع ذراعه الثقيل على كتفي، ثم دفع رويال جانبًا بعنف، وأجلسني على كرسيه. على طاولة القهوة، كانت هناك مفكرة صفراء مليئة بكتاباته، فمزق صفحة منها وأخبرني بأن أدوّن تكلفة كل ما أنفقناه في نهاية هذا الأسبوع: وقود السيارة، والإقامة في فندق الكلاب، ووجباتنا، ورسوم العرض، كل شيء.

راحت أمي تقول أشياء مثل *بربك يا عزيزي، ليس الآن. ولماذا لا نفعل هذا في الصباح*؟ لكن والدي لوّح لها بيده، ثم جعلني أكتب الأرقام وأجمعها. لم أكن جيدًا في الرياضيات، واستغرق الأمر بعض الوقت حتى انتهيت.

سألني: «كيف تخطط لدفع ثمن هذا؟».

لم أفهم لماذا سألني هذه الأسئلة. كنتُ في الثالثة عشرة من عمري، ولم أتعامل مع المال من قبل. استنجدتُ قائلًا: «أمي».

«أمي!» قلدني ساخرًا. ثم استدار نحوها: «حسنًا يا أمي. هل لديك أي فكرة كم يتكلف استئجار الأحذية والكرات في عطلة نهاية الأسبوع التي قضيتماها للتو؟».

قالت: «بحقك يا أندرسون. ليس الآن. نحن متعبان».

«أنتما متعبان؟ وكيف أشعر في رأيك؟ لقد أمضيت طوال اليوم أعمل، ولم أستطع حتى أن آخذ قسطًا من الراحة لأن غريغ طلب إجازة مرضية، في حين ذهبتما إلى فريسنو تستمتعان بوقتكما. هل تعرفين كم كسبتُ اليوم؟ وكم صرفتِ أنت؟».

حينما يدخل في إحدى نوبات غضبه، كان الجدال معه بلا طائل، لأنه قد يستمر لساعات. وإذا نفدت حججه، فإنه يعود إلى حجته الأولى ويبدأ من جديد. الأمر لا يتعلق بالمال، فحتى إذا صرفنا 50 دولارًا أو 5 آلاف، سيتشاجر معنا، لأنني وأمي فعلنا شيئًا معًا جعلنا سعيدين، في حين شعر هو أنه منبوذ. خلدنا إلى النوم وفي اليوم التالي عاد كل شيء إلى طبيعته. ولكن بعد أسابيع قليلة، عندما ذهبنا أنا وأمي إلى عرض كلاب آخر في سان دييغو، رأى صورة لنا ونحن نركب الأرجوحة الدوارة عند الشاطئ، فانفجر غاضبًا مرة أخرى. وبعدها بمدة، فاض كيل أمي، فباعت الكلاب التي ربتها، وتوقفنا عن ارتياد العروض. لكنها أبقت على اثنين فقط؛ رويال ولويال.

عندما عدت إلى المنزل بعد سنين، كان الكلبان يتقدمان في العمر. أصيب رويال بالعمى في إحدى عينيه وعانى لويال من التهاب المفاصل، فأخبرت أمي مرارًا أنه سيتعين عليها عاجلًا أم آجلًا التخلص منهما. كان الكلبان جوردون وآني من فصيلة الكوليز أيضًا، لكن آني لديها دماء بطلة. ففي الثالثة عشرة من عمرها، بدت أفضل من رويال في أوج تألقه. ولهذا، فكرت في إدخالها بعروض الكلاب. ولكن الفرصة لم تواتني، بسبب ما حدث في ذلك الصيف.

جيريمي

أخبرتني نورا أنها تفكر بجدية في الاستيلاء على المطعم من والدتها، ومع أنني لم أتخيلها كمالكة مطعم، أو رائدة أعمال من أي نوع، فقد شجعتها. سافرت معها إلى كوستكو في بالم سبرينغز عندما احتاجت شراء لوازم المطعم، وساعدتها في تركيب ثريا خشبية في الكوخ، وهي قطعة أثرية عثرت عليها في متجر للأغراض المستعملة، وعرضت عليها إعادة طلاء المطبخ. لقد بذلت قصارى جهدي لربطها بهذه المدينة وبي. ولكن تغير شيء ما في تلك الليلة بمنزلي؛ فكل ما كنت أخشاه بشأن الحب - المخاطرة التي يتطلبها، والألم الذي قد يسببه - بدا لي الآن غير مهم. منذ أن رأيتها في شرفة والديها، بعد عشر سنوات قضيتها تائهًا، بثَّ على استعداد لتحمل المخاطرة. وأضحى من السهل عليّ طرد الألم الذي يعتريني من ذهني كلما ضممتها إليّ.

وفي أحيان كثيرة، ذكّرتها بأحداث بدت وكأنها قد نسيتها؛ مثل أنها قدمت عرضًا في الفصل عن الصفات الوراثية لنباتات البازلاء أمام جريجور مندل، وقد توقف بسبب تدريبات على الإخلاء عند وقوع الزلازل، وأنها من أشعلت نار المخيم في رحلة ميدانية ليلية إلى محمية وايت ووتر؛ وأنها كذبت بشأن النوم في منزل أحد الأصدقاء في الليلة التي ذهبت فيها مجموعة منا إلى أنهايم لحضور حفل موسيقي. لكنني الآن أكتشف أشياء جديدة عنها؛ مثل كيف تبدو عند الفجر، قبل أن يتدفق الضوء عبر النافذة فوقنا؛ وكيف خفتَ صوتها وهي تتحدث مع والدتها بالهاتف، واحتد عندما تحدّثت مع أختها. باتت تبتسم بسهولة، وللمرة الأولى منذ سنوات بدأت أفكر في المستقبل.

الشيء الوحيد الذي قد يجعل حياتي أفضل هو أن يتوقف مديري عن كونه صعب المراس للغاية، وهذا بدوره تغير فجأة في نهاية شهر مايو. في ذلك الصباح، لم أسمع جرس المنبه، فتأخرت خمس عشرة دقيقة على الإحاطة، الأمر الذي جعلني عرضة للسخرية من فاسكو، إذ قال: «شكرًا لك على انضمامك إلينا»، وأُسند إلي تنفيذ ثلاثة أوامر قضائية. كان الأمران الأولان يتعلقان بحيازة المخدرات وقد مضيا بسلاسة، ولكن عند تنفيذ الثالث، فرّ الجاني من الجزء الخلفي من المنزل ما إن رآني، فطاردته، وقفزت فوق السياج، وركضت في الصحراء لمسافة ثلاثمائة ياردة قبل أن ألحق به، ثم طرحته أرضًا وجلست فوقه. كانت ركبتي على ظهره وأنا أقيده، وراحت نبضات قلبي تتسارع، وشعرت أن وزن معداتي تضاعف. كان ذلك وقت

الظهيرة، حيث تبلغ الحرارة حوالي 39 درجة مئوية، وحولنا قطعة أرض فارغة. إلى أي مدى يعتقد أنه يمكن أن يذهب؟ قال: «اسمعني أيها الضابط، لم أكن أتوقع شرطيًا. لذا، أُصبت بالفزع».

وكل هذا من أجل سرقة تافهة. لقد فتشته بالكامل، متوقعًا أن أجد مبلغًا من المال أو مخدرات أو حتى سلاحًا بحوزة هذا الأحمق، لكني لم أعثر على شيء. كانت ملابسي مغطاة بالغبار والرمل، واكتشفت ثقبًا كبيرًا في الساق اليمنى من سروالي. أردت اعتقاله والعودة إلى المخفر لتغيير ملابسي، ولكن أتاني استدعاء إلى مكان قريب؛ إذ وقع شغب في جوشوا تري، في ذلك الجانب الصحراوي حيث توجد كبائن منزلية قديمة بجوار المقطورات المحاطة بأسوار من أسلاك رفيعة وتحرسها كلاب تبدو قذرة. عندما وصلت إلى العنوان، وجدت رجلًا عجوزًا جالسًا على كرسي الشرفة بدون قميص وبيده زجاجة خمر. قال: «طاب يومك أيها الضابط». ثم اقترب من السيارة لدرجة أنني تمكنت من رؤية الشعر الأبيض على صدره. «أنا من اتصل. اسمي جيم. جيم نوفاتشيك».

«ما الأمر يا سيد نوفاتشيك؟».

«اسمك جوريكي» قال وهو ينظر إلى بطاقة الاسم على الزي الرسمي.

«هل أنت بولندي؟».

كان يومًا حارًا في الوادي، حتى في شهر مايو، والهواء محملًا بالغبار والأتربة. وهذا النوع من الطقس جعل الناس غريبي الأطوار، لا سيما كبار السن الذين ليس لديهم ما يفعلونه، فراحوا يستنجدون بالشرطة بشأن أتفه الأشياء ثم أرادوا الدردشة. «ما الأمر هنا، سيد نوفاتشيك؟».

«مثلما قلت للسيدة عبر الهاتف، هذا الحي لم يعد كما كان من قبل. إنه يعج بالمكسيكيين في كل مكان الآن».

في المقعد الخلفي، أصدر المشتبه به صوتًا بفمه تأييدًا لما قاله الرجل.

لطالما افترض الناس أشياء عني. وكان جزء من هذا بسبب اسم عائلتي، لكن الجزء الآخر هو بشرتي الفاتحة. ذات مرة، في المدرسة الثانوية، بدأ فيكتور ألكالا، وهو فتى وسيم كان يحظى بشعبية لدى الفتيات، بالسخرية مني. قال بصوت عالٍ عبر الرواق: *مرحبًا يا كبير الثديين. ما هو موعد الحفلة*

الليلة؟ أبقيت عيني على خزانتي، وعبثت في دفاتري، وحاولت تجاهل الضحك من حولي. ولكن جاءت المساعدة بسرعة، ومن مصدر غير متوقع؛ إذ ردت ستايسي بريغز بسلسلة من التهكمات العنصرية الوحشية لدرجة أنها تركت فيكتور عاجزًا عن الكلام، فلم يتعرض لي مرة أخرى. ولم أصحح لستايسي قط، أو أخبرها أن لدي الكثير من القواسم المشتركة مع فيكتور أكثر مما تتخيل.

«سيد نوفاتشك»، قلت، وأنا أكافح لإبقاء صوتي منخفضًا. «لقد اتصلت بسبب مصدر للإزعاج، لكني لا أسمع أي شيء».

«إنه قادم من مكب النفايات هنا». أشار الرجل العجوز إلى المنزل المجاور. كان له سقف مسطح ونوافذ مغطاة، وقد ملأت القمامة الفناء، وعُلق حبل غسيل بدون دبابيس، وكان بيت الكلب فارغًا. «المواء لا يتوقف أبدًا».

«هل هي قطة؟ كان عليك الاتصال بمنظمة لرعاية الحيوانات».

«لكني أرى أطفالًا مكسيكيين يدخلون ويخرجون من هذا المنزل طوال اليوم. يشربون الخمر ويتعاطون المخدرات والله وحده أعلم ماذا أيضًا. لعلهم عذبوا تلك القطة المسكينة هناك. لهذا السبب اتصلت بالشرطة».

نزلت من السيارة ووقفت ويداي على حزامي. أسفل الزي الرسمي، تساقط العرق على ظهري، ونزل أسفل سترتي المضادة للرصاص. تساءلت؛ متى سينتهي هذا اليوم؟

ثم ارتفع صوت مواء ناعم.

«هل سمعت ذلك؟» قال الرجل العجوز.

«أجل، أسمعه».

حسمتُ أمري، ومشيت صوب المنزل ويدي على سلاحي. لم يكن هناك قفل على الباب الأمامي، فقط القليل من الأسلاك التي تدور عبر فتحة المقبض ومتصلة بإطار الباب. ففككت السلك، لكن الباب كان ثقيلًا واضطررت إلى الضغط بشدة حتى انفتح بصوت عالٍ. ولما دخلتُ، أحسست بالغثيان بسبب رائحة الغبار وفضلات الطيور والصحف القديمة. كان المنزل مظلمًا لدرجة حملتني على الظن بأنني قد سقطت في هاوية. أشعلت المصباح

اليدوي ووجهته إلى الأمام مباشرة، فظهرت غرفة معيشة صغيرة ذات سقف منخفض ومدفأة من الطوب. وعلى الحائط البعيد، كتب شخص ما عبارة *عُد إلى بيتك* GO HOME بأحرف كبيرة حمراء. وكانت هناك علب بيرة محطمة على الأرض، وحُقن، وأعقاب سجائر، وورق لعب. وباستثناء الأريكة القديمة ذات الثقوب الكبيرة التي توضع فيها وسائد المقاعد، لم يكن هناك أي أثاث.

ثم حدثت حركة؛ حفيف خافت لم أكن سأسمعه لولا أنني وقفتُ ساكنًا. وجهت المصباح صوب الأريكة واقتربت أكثر، فتسارعت نبضات قلبي. في أعماق الحفرة، كانت هناك كومة من البطانيات الزرقاء، برزت منها قبضة صغيرة. كانت رائحة اللبن المنبعثة من الرضيع قوية جدًا في أنفي الآن لدرجة أنني تساءلت لماذا لم ألاحظها من قبل. وضعت المصباح على الأرضية الخشبية المتسخة وجثوتُ على ركبتي. كانت عينا الطفل مفتوحتين على مصراعيهما وبمجرد أن رآني بدأ البكاء، ولكن هذه المرة بكل قوة. أدخلت كلتا يدي في الفتحة وأخرجت البطانيات الزرقاء. عندما احتضنتُ الرضيع بين ذراعي، أزلت البطانية وشعرت بالارتياح لعدم رؤية أي آثار إصابة عليه. لكن حفاضاته كانت متسخة. اشتد بكاؤه، فهمست له: «صــه، لا بأس يا صديقي الصغير». أعطيته إصبعي السبابة فأمسك به على الفور. حملته بين ذراعيّ، وخرجت بعد أن دفعت الباب الأمامي بقدمي لفتحه. في الفناء، كان الجار ينتظر، ويحدق في ضوء الشمس. قال: «يا ويلي!».

أدرتُ ظهري للشمس، كي أبقي الطفل في الظل، وأرسلت رسالة عبر اللاسلكي مرة أخرى. لم أستطع تذكر الإجراء المتبع في مثل هذه الحالة، وكان عليّ انتظار التعليمات من الرقيب. ويا للعجب، كان فاسكو لطيفًا. قال: «ابقَ عندك يا جوريكي. سنرسل المساعدة على الفور».

في اللحظة التي وضع فيها المسعف السماعة على صدر الطفل، بدأ الأخير يبكي مرة أخرى، وراح يركل بقدميه داخل البطانيات. قال المسعف مبتسمًا: «نبضات القلب جيدة». لقد كان رجلًا كبيرًا في السن يصبغ شعره ويضع طبقة سميكة من طلاء الشفاه، في محاولة، حسبما أظن، للتمسك بما تبقى من مظهره الشبابي.

عندما انتهى من قياس الوظائف الحيوية للطفل، أحضر زجاجة ماء.

«لديه كريستالات في حفاضه. إنه يعاني من الجفاف تمامًا».

سألته: «كم من الوقت مضى عليه هناك في رأيك؟».

«من الصعب القول. إذا كان عليّ أن أخمن، ربما أربع وعشرون ساعة. أو ست وثلاثون».

«ربّاه».

من خلفنا، كان الجار يدلي بإفادته للمحقق، موضحًا اسمه الأخير بعناية «ن. و. ف. ا. ت. ش. ي. ك». أما المشتبه به الذي كدت أنسى أمره، فقد كان لا يزال ينتظر في الجزء الخلفي من السيارة. وقد تفقد نائبان المنزل مرة أخرى للحصول على أدلة. في غضون ذلك، كان الرقيب فاسكو يجري مقابلة مع مراسل من صحيفة هاي - ديزرت ستار. وفي صباح اليوم التالي، ظهرت صورته على الصفحة الأولى من الصحيفة والرضيع بين ذراعيه تحت عنوان: «الشرطة تنقذ طفلًا مهجورًا».

لم يزعجني كثيرًا بعدها.

مريم

الذاكرة زائر لا يمكن التعويل عليه؛ فلمدة طويلة، لم أستطع تذكر اسم الشاب الذي أحضر نورا إلى الكوخ عندما انكسر مفتاح سيارتها، مع أنه بدا مألوفًا بالنسبة لي، وأيقنت أنني رأيته في مكان ما من قبل. وذات يوم، بينما كنت أنقل المخلفات إلى المرأب، تذكرتُ كل شيء فجأة، ليس اسمه فقط، ولكن اسم والده أيضًا. في الصيف، قبل ذهاب نورا إلى الكلية، كنت بحاجة إلى كهربائي لإصلاح الأسلاك في باب المرأب، فقالت إحدى الأمهات في المدرسة إنها وظفت هذا الرجل، مارك جوريكي، لذا، اتصلت به. لم يكتفِ بإصلاح باب المرأب فحسب، بل استمر في العثور على أشياء جديدة يجب إصلاحها، مثل مفتاح ثلاثي الاتجاهات لا يعمل، أو مصابيح مكسورة في الشرفة. لقد أصلح كل شيء باحترافية، لكن كان بإمكاني شم رائحة البيرة تفوح منه في الظهيرة، ولم يعجبني أنه طلب 300 دولار عندما انتهى من إصلاحاته، فلم أتصل به مرة أخرى، حتى عندما تعطلت المروحة في غرفة النوم واضطررنا للنوم والنوافذ مشرعة.

عند عودتي من المرأب، ذهبت إلى المدخل الأمامي ووقفت أنظر إلى الصور المعلقة على الحائط؛ صور جميع اللحظات المهمة في حياة عائلتي، وخاصة حياة ابنتيّ، مثل أعياد ميلادهما وتخرجهما وإنجازاتهما. ثم وجدت صورة للشاب وهو يقف في حلة بدت صغيرة جدًا عليه، وسط فرقة نورا لموسيقى الجاز. مرّرت إصبعي على القائمة في الأسفل، ووجدتُ اسمه: جيريمي جوريكي. كان تصرفًا شهمًا أن يعيدها إلى الكوخ يومئذٍ؛ إذ أن انتظار المساعدة من جمعية السيارات الأمريكية في الحر صعب، لا سيما أنها كانت بمفردها.

لم أتوقع رؤيته مرة أخرى، ولكن بعد بضعة أسابيع، بينما كنت أنتظر في الممر السريع في ستاتر براذرز، جاء ليقف خلفي في الصف. في البداية، لم يرني؛ إذ كان يراسل أحدًا على هاتفه، وهو يبتسم. وبعد أن انتهى، وضع مشترياته على حزام النقل؛ علبة قهوة، وعلبة سكر، وعلبة واقٍ ذكري، وحقيبة محمولة باللونين الأزرق والأبيض مع جيب بسحاب على أحد جانبيها. لقد كانت حقيبة التسوق الخاصة بي، التي استخدمتها لإحضار أدوات الطعام إلى الكوخ، وقد تركتها معلقة على مسمار في المطبخ، في حالة احتاجت نورا لها لشراء

الطعام. ولكن ها هي الآن، في أيدي جيريمي جوريكي. اقتربت من الحاجز البلاستيكي ووضعتها على الحزام الناقل بيننا.

قال تلقائيًا: «شكرًا لك»، ولكن عندما نظر إليّ، بدا وكأنه قد تعرف عليّ. التفت لتصفح الصحف الشعبية، التي ركزت عناوينها على إدمان المشاهير للمخدرات أو العلاقات مع جليسات الأطفال، ثم أخرجت نسخة من مجلة بيبول، فقط لأمنح نفسي شيئًا أفعله، وتظاهرت بقراءتها. سألني: «سيدة غراوي؟».

كم كان غريبًا أن أسمع اسم زوجي من فم هذا الغريب. ما الذي يعرفه عنا؟ ولماذا أراد التحدث معي هنا في محل البقالة مع هذه الحقيبة على الحزام الناقل بيننا؟ لحسن حظي، تحرك صف المشترين للأمام، فأعدت المجلة مكانها على الرف وأخرجت بعض النقود من محفظتي لدفع ثمن مشترياتي من البقالة. كنت أخطط لصنع أكلة فلفل حلو محشو بلحم ضأن لزوج ابنتي - فهذا هو الطبق المفضل لديه، وهو وسلمى سيأتيان لتناول العشاء معي - لكن التفكير في طهو وجبة شهية لم يشغل بالي الآن؛ فكل ما أردته هو الخروج من هذا المكان.

قالت البائعة: «يتبقى لك أحد عشر دولارًا وثمانين سنتًا». أخرجت فاتورتين من السجل، ثم توقفت. «لكن آلة التغيير معطلة، ولدي نقص في الفكة».

«لا بأس».

«لا تمانعين ترك الكثير من السنتات؟».

«لا»، أردتها أن تسرع، لكنها عدت السنتات ببطء وحذر، وهي تهمس لنفسها حتى لا تفقد العد.

حاول جيريمي مرة أخرى. قال: «سيدة غراوي. مرحبًا» كان صوته عميقًا وواضحًا، ولم أستطع التظاهر بأنني لم أسمعه أكثر من ذلك.

قلت وأنا أتظاهر بالدهشة: «مرحبًا». كان طويل القامة، فتعين عليّ النظر إلى الأعلى لأرى عينيه، اللتين بدتا زرقاوين جدًا على وجهه الأسمر. كما أن وجهه مريح، بيد أن شفتيه حملتا صبغة أرجوانية بسبب التدخين، وهي عادة سيئة. وكان ثمة وشم على ذراعه، وهو أمر شائع للغاية في هذه المدينة، إذ يمكنك رؤيته في كل مكان، خاصة لدى الأشخاص من الطبقة الدنيا والمجرمين، على الرغم من أن الفنانين يحصلون عليه في الوقت الحاضر

أيضًا. وحتى ابنتي لديها وشم صغير جدًا، وعادة ما تخفيه تحت أساورها. لكن الوشم على الذراع مختلف، فهو يدلي ببيان، ويريد صاحبه أن يُرى، وربما كان ذلك ما أراده هذا الشاب.

كانت البائعة ما تزال تحسب ما تبقى لي من نقود، في حين أنهى الشيال، وهو فتى في سن المراهقة يركب تقويم الأسنان، جمع مشترياتي.

«هل تحتاجين إلى مساعدة في ذلك؟» سألني جيريمي، واقترب مني.

قلت: «أنا بخير»، ومددت يدي بسرعة إلى الكيس وحملته، لكنني أخطأت في تقدير مدى ثقله، وواجهت مشكلة في رفعه فوق كتفي.

قال: «اسمحي لي»، وحمله بسهولة. «دعيني أساعدك».

قالت البائعة: «سيدتي، هذه الفكّة الخاصة بك».

أخذت منها ورقتين نقديتين وحفنة من السنتات، وبينما كنت أضعهما في محفظتي، بدأت في فحص مشتريات جيريمي، لذا لم يكن لدي خيار سوى انتظار أن يدفع.

بعد ذلك، خرجنا معًا من المتجر. كان صباحًا مشمسًا من شهر يونيو، والحرارة ترتفع بسرعة. وقف طفلان على الرصيف يتناولان الآيس كريم، فراحت الشوكولاتة تذوب وتلطخ ملابسهما، لكنهما لم يكترثا بذلك، وواصلا الاستمتاع بالحلوى. مشيت عبر ساحة الانتظار صوب سيارتي، ورافقني جيريمي حاملًا مشترياتي. ظل الصمت بيننا لبرهة طويلة فشعرت بأنني مجبرة على الدردشة. سألته: «كيف حال والدك؟ اسمه مارك، أليس كذلك؟».

نظر إليّ بدهشة وقال: «أبي؟ إنه بخير... على ما أعتقد. لم أره منذ مدة».

«لقد أصلح باب المرأب الخاص بي قبل وقت طويل».

«لكنه لا يعمل كثيرًا هذه الأيام. لقد تقدم به العمر».

لم أشعر بالحزن عندما سمعت هذا، لعل السبب هو أن الأمر مألوف بالنسبة لي - ففي نهاية المطاف، خبرتُ كيف يمكن للعائلات أن تتفرق، ومدى صعوبة لم شملها مرة أخرى. وصلنا إلى سيارتي، وبعد أن سلمني جيريمي كيس مشترياتي، وقفتُ في الشمس وشاهدته يبتعد، معتقدة أننا لم نعد غرباء عن بعضنا البعض.

نورا

بعد أسبوعين، دعتني سلمى إلى منزلها في عيد الأب. لم أكن أرغب في رؤيتها، لكنها قالت إن وجبة الفطور المتأخرة ستتبعها زيارة إلى قبر والدنا في روز هيلز، مما جعل من المستحيل بالنسبة لي أن أتوصل إلى سبب وجيه لتخطي أحدهما. بمزيج من الرهبة والاستسلام، قدت سيارتي في طريق أولد وومان سبرينغز، متجهة نحو لاندرز، المدينة الصغيرة التي انتقلت إليها أختي وزوجها قبل بضع سنوات. كان المنزل يمتد على مساحة 2800 قدم مربع مع عارضة على الباب الأمامي ونوافذ ضخمة إلى جهة الشرق. بدا كل شيء فيه باهظ الثمن - الحديقة، وصندوق البريد، واللافتة التي كُتب عليها *أمن سيمبسون: الرد بالسلاح*. الغريب في الأمر هو أن الباب تُرك مفتوحًا، وكنت في منتصف غرفة المعيشة قبل أن أرى زوج شقيقتي. قلت: «كان مفتوحًا».

قال طارق بلطف: «لا داعي للتبرير. هذا منزلك. مرحبًا بك هنا في أي وقت».

قلت: «عيد أب سعيد»، وأعطيته بطاقة التهنئة التي اشتريتها ذلك الصباح من متجر والغرينز. كان قسم الأدوات المكتبية ممتلئًا بالأطفال الصغار والكبار، ولكن بطريقة ما تمكنت من الحفاظ على رباطة جأشي حتى رأيت فتاة صغيرة، ربما تبلغ من العمر ثماني أو تسع سنوات، تسأل شقيقها الأكبر عما إذا كان يعتقد أن والدهما سيحب البطاقة التي اختارتها له. بعد ذلك، اضطررت للجلوس في سيارتي لبعض الوقت، في محاولة للملمة شتات نفسي قبل أن أتمكن من قيادة السيارة إلى منزل أختي. «أين الجميع؟».

قال طارق: «شكرًا لك على هذا». بدا مسرورًا حقًا وتمسك بالبطاقة ونحن نتحدث. «والدتك لم تأتِ بعد. والأطفال يلعبون، وسلمى في الشرفة. لمَ لا تذهبين للتحدث معها؟ سأحضر لكما بعضًا من عصير الليمون».

من غرفة العائلة جاء صوت ارتطام - هل هذه لعبة البرج؟ - تبعه الضحك الساخر لعايدة. فتحت الباب الزجاجي ودخلت الشرفة؛ حيث جلست سلمى على الكرسي الطويل تحت المظلة بلا حراك لدرجة أنني اعتقدت للحظة أنها نائمة. كانت ترتدي قميصًا بلون أخضر نعناعي وبنطلونًا من الكتان الأبيض؛ تجسيد حي لما قد تعرضه مجلة أورانج كوست ضمن ملابس عطلة

نهاية الأسبوع غير الرسمية، وبدت تسريحة شعرها متقنة ولا بد أنها استغرقت ساعات لإنجازها. لكن عندما نظرت لأعلى، لاحظت وجود انتفاخ تحت عينيها، لا يمكن أن يخفيه حتى مكياجها الموضوع بعناية. قالت: «لقد فعلتها».

قلت: «بالطبع» وانحنيتُ لتقبيلها على خديها. «ولكن لا يمكنني البقاء سوى لبضع ساعات فقط، فلا بد أن أعود إلى العمل». ثم جلست على الكرسي بجانب كرسيها. شعرت بألم في ظهري من حمل صناديق البقالة صباح ذلك اليوم، فمددت ساقي وأخذت نفسًا عميقًا. وقد هبت رياح خفيفة، مما تسبب في حفيف أوراق شجيرات المريمية المحيطة بالشرفة. وخلفها انحدرت الأرض إلى وادٍ من أشجار جوشوا، واستقرت تشكيلات صخرية عملاقة على مسافة بعيدة. «يا له من منظر رائع هنا يا سلمى».

ابتسمت. «أجل، اليوم لطيف وصافٍ أيضًا».

ربما كانت نبرة الرضا في صوتها هي ما أدهشني، أو رؤيتها مسترخية هكذا، لكن على الفور وجدت نفسي أفكر في محاكمة بيكر. لم تبذل سلمى أي جهد للتواجد في المحكمة، فلم تُعد جدولة مواعيدها بالعيادة، أو تتصل لاحقًا لسماع تفاصيل الجلسة. كنت أحاول التفكير في طريقة لإثارة هذا عندما انفتح الباب مرة أخرى وظهر طارق حاملًا إبريقًا.

قالت له أختي فجأة: «أعاني من صداع نصفي».

لم يرد طارق. قلّب عصير الليمون بملعقة معدنية، ووضع أوراق النعناع لدقيقة، ثم سكب كأسين.

قلت: «لا يمكن أن يكون الضوء الساطع مفيدًا لك. ربما يجدر بنا أن ندخل».

«لا، يروقني المكان هنا». ثم التفتت إلى زوجها مرة أخرى وسألته: «هل يمكنني الحصول على حبة؟».

هبط غراب بالقرب منا وراح ينظر إلى الأرض بحثًا عن أي فتات، فلوَح له طارق وأبعده. قال: «اشربي عصير الليمون. سيساعدك».

«أفضل الحصول على شيء»، كانت عيناها تتوسلان.

«سأترككما بمفردكما».

لم أعرف ماذا أفهم مما دار بينهما، أو التوتر الذي شعرت به في ثنايا مجاملاتهما. لماذا لا يعطيها شيئًا من أجل الصداع النصفي؟. «هل أنت بخير؟» سألتها بعد مغادرته.

قالت: «أنا بخير».

لأول مرة، تجلّى لي أن عباءة المثالية التي ترتديها أختي مثل الدرع بدأ يظهر بها بعض الثقوب. قلت في نفسي لعله مجرد حزن؛ لقد فعل الحزن هذا بها. اختفى ضيقي فجأة، فمددت يدي عبر الطاولة الجانبية لألمس ذراعها، وعلى الفور وضعت يدها على فمها لكتم النحيب. قلت: «آه يا سلمى».

قالت مجددًا: «أنا بخير»، وأخذت رشفة طويلة من عصير الليمون. من فناء الجار جاء صوت حفيف السياج السلكي الذي جرى فتحه، تبعه نباح كلب متحمس. «لماذا عليك المغادرة مبكرًا على أي حال؟» سألتني.

«أخبرتك، يجب أن أعود إلى العمل».

«تقصدين المطعم؟».

«أجل».

«نورا، لماذا تفعلين هذا؟» سألتني بحذر. «لا تريد أمي أن تدير المطعم بعد الآن، ولا يجب عليها ذلك. إنها تتقدم في العمر وتريد التقاعد فقط».

«لا يزال بإمكانها التقاعد. يمكنني شراء حصتها من المطعم طالما ستحتفظين بحصتك». بعد ذلك، كشفت عن فكرتي وقلت: «يمكننا أن نصبح شريكتين، أنت وأنا، الأختان الغراوي. ما رأيك؟».

«هذا يبدو لطيفًا، ولكن ماذا بعد؟ من سيدير المطعم؟».

«ألا تعتقدين أنني أستطيع ذلك؟».

«ليس هذا ما قصدت. لكني اعتقدت أنك تريدين كتابة ألحان موسيقية».

«صحيح، لكنني أيضًا لن أترك بيكر يفلت من العقاب ولن أتخلى عن حلم أبي».

«كان حلمه يا نورا وليس حلمك. أنت لا تريدين أن تعيشي حلم شخص آخر، صدقيني». بدا صوتها مليئًا بالغضب. ثم أنزلت ساقيها عن المتكأ وجلست في مواجهتي، ونظرت إلي باهتمام شديد لدرجة أنني اعتقدت أنها قد تمسك بي من كتفي وتهزني. «انظري، إذا كنت ستفعلين شيئًا مجنونًا مثل كتابة الألحان، يجب أن تلتزمي به أيضًا. تخلصي من المطعم وامضي لتأليف أفضل موسيقى لديك».

أذهلني تعاطفها المفاجئ. ما سببه يا تُرى؟ وهل يرتبط بالتوتر الذي لاحظته سابقًا مع زوجها؟ لقد شكلا زوجين مثاليين، أو هكذا ظننت دائمًا. «ماذا يحدث معك؟» سألتها وأنا مندهشة من المنعطف الذي اتخذته محادثتنا.

رمقتني أختي طويلًا، وكأنها تقرر ما إذا كانت ستبوح لي بكل ما يزعجها. هرعت سحلية ذات قرون عبر الشرفة، ووجدت بعض الظل تحت دراجتي التوأم. وعاد الغراب، متخذًا بضع خطوات مترددة نحو مائدة الطعام. انتظرتُ في صمت، وبدت سلمى على وشك أن تفرغ من أعبائها، لكن الباب الزجاجي انفتح وظهرت والدتي. كانت قد تخلت عن لباس الأرملة الأبيض، وبدت أصغر بكثير في فستانها الأزرق الفاتح. وقد حملت في يديها صينية مليئة بأطباق الصيف - كباب خضار وسلطة كاليماري وباذنجان مشوي وقطع بطيخ، وتبعها التوأمان، وهما يتجادلان حول من فاز في المباراة. كما حضر طارق أيضًا وهو يحمل إبريقًا من القهوة. وهكذا، انتهت اللحظة الحميمية بيني وبين أختي.

انتقلنا إلى الطاولة، حيث فتح طارق هداياه، وعلق على كل واحدة ببضع كلمات لطيفة. من عايدة، حصل على ربطة عنق حريرية لا تصلح للارتداء، ومزخرفة بخطوط زرقاء على خلفية صفراء زاهية. («شكرًا يا حبيبتى. الأصفر هو لوني المفضل») وأهداه زيد قلمًا فاخرًا. («سأستخدمه لكتابة الوصفات الطبية») ومن سلمى، حصل على نظام صوتي حديث («لا أطيق الانتظار حتى أجربه»). ومن أمي، علبة شوكولاتة بلجيكية («هذه هي نقطة ضعفي») ومني، البطاقة التي قدمتها له سابقًا («أنت مبدعة»).

وجدت نفسي في خضم حزن عميق بقية اليوم. كان من النادر أن نتحدث أنا وأختي عن أي شيء، ناهيك عن شيء حميمي، ولما كنا على وشك الحديث، ضاعت الفرصة.

جيريمي

في نهاية شهر يونيو، تعين عليّ حضور دورة تدريبية لمدة يومين حول تقنيات وقف التصعيد التي طلبها فاسكو قبل بضعة أسابيع، عندما كانت حادثة بودين لا تزال تتصدر الصفحة الأولى من صحيفة لوس أنجلوس تايمز. عُقد التدريب في سان برناردينو، وبدلًا من القيادة لمسافة ثمانين كم ذهابًا وعودة، قررت البقاء في المدينة مع أحد النواب الآخرين. لمدة يومين، جلسنا في فصل دراسي وقيلت لنا أشياء مختلفة تمامًا لما تعلمناه في الأكاديمية؛ حاولْ نزع فتيل موقف متوتر بالكلمات وليس بالأسلحة؛ إذا كان المشتبه به مضطربًا، أظهِر التعاطف بإعادة صياغة أقواله؛ ولا تنخرطْ عاطفيًا في الموقف؛ وقيّم النتيجة قبل اللجوء إلى القوة. لكن في نهاية كل وحدة، شدّد المدرب على أنه يتعين علينا القيام بكل هذا مع وضع سلامتنا أولًا.

عدت إلى المنزل في فجر اليوم الثالث، وتوجهت مباشرة إلى مركز الشرطة من أجل ورديتي المعتادة، ثم انطلقت إلى المركز الاجتماعي، حيث التقيت فييرو في مجموعة الدعم الخاصة به. كنت متعبًا جدًا، فذهبت لتناول القهوة التي وُضعت على الطاولة أسفل ساعة الحائط. سكبتُ لنفسي فنجانًا ممتلئًا على أمل أن يكون ذلك كافيًا لإبقائي مستيقظًا خلال جلسة المساء. كان فييرو في مزاج سيئ؛ إذ أخبرني أن الترقية التي كان قد وُعد بها في وول مارت لم تتحقق، وسيظل مساعد مبيعات في المستقبل المنظور. قلت: «ستحصل على شيء آخر»، لكني لم أكن متأكدًا من أنني بدوت مقنعًا.

اضطجع في كرسيه انتظارًا لوصول مدير الجلسة. لكن قبل الثامنة ببضع دقائق، اكتشفنا أن روسي لم يحضر في تلك الليلة. كان بديله معالجًا ضعيف المظهر يُدعى دكستر، الذي ظل ينقر ويعبث بقلمه الجاف. «من يود أن يبدأ الليلة؟».

تحدث دوغ، الرجل الأصلع الذي كان يرفع يده دائمًا أولًا، عن مدى غضبه طوال الوقت، وكيف أنه لا يستطيع أن يأكل أي شيء، وأنه مر بيوم عصيب. بعد عشرين دقيقة من الثرثرة الفارغة، غضبت الممرضة أدريانا وقاطعته. قالت بحدة: «ثمة آخرون هنا».

«الآن»، أجاب دكستر، وكفاه مرفوعتان. «دعونا نهدأ».

ردت بسرعة: «أنا هادئة».

كان فييرو جالسًا عاقدًا ذراعيه ويصغي بإمعان لأدريانا. وقد دعمها قائلًا: «لم تقل شيئًا. إنها هادئة».

احتجّ دوغ على المقاطعة، فسألته أدريانا عما يعتقد أنه سيحدث إذا لم يصمت، ليدعمها فييرو مرة أخرى. استغرق الأمر من دكستر وقتًا طويلًا لاستعادة السيطرة على الغرفة. ولكن بعد ذلك دعا شخصًا آخر للتحدث، مما أزعج دوغ وأدريانا وفييرو في آن واحد. أملتُ معصمي للنظر إلى ساعتي. كان لا يزال يتعيّن عليّ فعل الكثير في تلك الليلة؛ ملء السيارة بالوقود، وكتابة شيك لقسط التأمين على سيارتي، وغسل ملابسي، فلم تعد لدي جوارب نظيفة. فجأة شعرت بعيون كثيرة مثبتة عليّ، فأدركت أنني قد فاتني شيء. «آسف. ماذا كان هذا؟».

سألني دكستر: «هل ترغب في مشاركة شيء عن بواعث غضبك؟».

بواعث غضبي؟ لا بأس، طالما أنه سأل. لقد كنت غاضبًا لأن فاسكو استخدم هذا الطفل المهجور للترويج لنفسه. وغضبتُ لأنه أرسلنا إلى جلسة تدريبية في سان برناردينو فقط كي يبدو بمظهر جيد. كنت غاضبًا لأن الناس يفزعون من بدلتي الرسمية. بداخلي، أنا مثلهم تمامًا، لكنهم رأوني فقط كأداة سياسية أو شخصية سينمائية خيالية، لا شيء بينهما. وغضبت من الحرب؛ يا الله كم كنت غاضبًا منها. كان الناس يُقتلون في حين راح بوش يرسم الطبيعة الصامتة، ويؤلف رامسفيلد الكتب، ويأبى تشيني التوقف عن الثرثرة. كنت غاضبًا لأنني اضطررت لقضاء أمسيتي هنا، والاستماع إلى أشخاص غاضبين آخرين. قلت: «أنا هنا فقط من أجل الدعم».

«إنه برفقتي»، قال فييرو وهو يرفع يده، وقد بدا مرتاحًا لأنه حصل أخيرًا على فرصة للكلام. وقد تحدث عن المعتاد؛ عن زوجته، وكيف أنها مضت في حياة جديدة مع شخص آخر، وتركته وراءها. أومأت أدريانا برأسها بعناية أثناء حديثه، وكأنها تتفهمه أو تتفق معه. شعرتُ أن مجموعة الدعم هذه تساعده في رمي الحمل عن كاهله، وكنت سعيدًا لأنه تمسك بها، لكنني تساءلت عن حال ماري الآن أيضًا، فقررت الاتصال بها أو زيارتها في صالون تصفيف الشعر؛ كنت بحاجة إلى قصة شعر على أي حال.

في نهاية الجلسة، بينما كنا نعيد الكراسي القابلة للطي إلى خزانة المرافق، سأل فييرو متى سيعود روسي، فقال له دكستر «لست متأكدًا. أعتقد أنه سينتقل من الولاية. لكني سأكون هنا».

كان الظلام قد حل عندما خرجنا، وكان الهواء رطبًا.

قال فييرو وهو يخرج مفاتيح سيارته: «لا أحب هذا الرجل الجديد».

«ما زال يتعرف إلى الجميع فحسب. أنا متأكد من أنه سيكون جيدًا».

«ربما»، قال فييرو ونحن في ساحة انتظار السيارات. «هل تريد أن نذهب إلى صالة البولينغ؟».

«ليس الليلة».

«بربك يا صاح. مباراتان فقط».

«لا، أنا متعب للغاية».

«لم تكن تريد الذهاب الأسبوع الماضي أيضًا».

«لدي الكثير من المشاغل».

«ماذا عن لعبة البوكر؟ جيراني سيلعبون الليلة».

«كلا يا رجل. أشعر وكأني أقود سيارتي منذ ثلاثة أيام متتالية. أنا مرهق».

«حسنًا إذًا». تصافحنا، وركبتُ سيارتي الجيب ثم خرجتُ من موقف السيارات إلى شارع 62. كان زجاجي الأمامي متسخًا فبدا الطريق ضبابيًا تحت الوهج الأصفر لمصابيحي الأمامية. قلتُ في نفسي لا داعي لملء السيارة بالوقود الآن، أو كتابة شيك التأمين، أو غسل الملابس؛ فكل ذلك يمكن أن ينتظر. ما أحتاجه الآن هو بعض الرعاية وقليل من النوم. فتحت المذياع، وضبطه على محطة موسيقى الروك الكلاسيكية، وتوجهت إلى الكوخ.

كانت جميع الأنوار مضاءة في الكوخ، بحيث يمكن رؤية كل شيء بالداخل، وكأنها دار سينما؛ ترتيب الزهور على رف الموقد، والرفوف التي عانت تحت وطأة الكتب، والثريا الخشبية العتيقة، وقبعة البيسبول المعلقة من مشبك. وقد بدا المطبخ جديدًا بسبب طبقة الطلاء الجديدة، وما أذهلني أن نورا نفسها بدت جديدة عبر النافذة. بعد أن أخبرتني عن لقائها بإيه جي في صالة البولينغ، أصررتُ على أن تثبت قفلًا آخر للباب الأمامي، وما زلت أخطط لإصلاح الستارة الفالتة على نافذة المطبخ. رفعت عينيها عن الحوض عندما

سمعت صوت إطاراتي على حصى الممر الخاص، فجففت يديها وأتت نحو الباب. سألتني: «كيف كان التدريب؟».

«كان شاقًا». عبرتُ العتبة، وأخذتها بين ذراعي، وركلت الباب بساقي. تبددت كل مخاوفي عندما أصبحت معها؛ لقد اختفى الإحساس بالوحدة التي كنت أعتبرها ذات مرة أمرًا مسلمًا به في حياتي وحل محلها شيء لم أختبره من قبل؛ الشعور بأن عزلة كلينا قد انضمتا معًا. لم أعد أنتبه إلى أي شيء؛ أزيز المكيف الصحراوي، وهديل الحمامة، وموسيقى جهاز الاستريو. كانت هي كل شيء. بعدها بلحظة، انتقلنا إلى الفراش، تجمدت ودفعتني بعيدًا وهي تصرخ. «هناك شخص ما عند النافذة».

تدافعت بحثًا عن الملاءات كي تغطي نفسها، لكنني أمسكت بها من معصمها وسحبتها نحو الأرض بجانبي. غطيت فمها بيدي، واستمعت إلى الأصوات التي تأتي من الجزء الخلفي من المنزل؛ كرسي يسقط، مفاتيح ترتطم، ووقع خطى في الفناء الخلفي. «ابقي هنا»، همست وأنا أرتدي سروالي. «لا تتحركي».

أطفأت الأنوار، والتقطت إحدى عصي التنزه الموضوعة عند ركن الغرفة، ثم ذهبت إلى الباب الأمامي. وفي الخارج، كان ضوء القمر الجديد ضعيفًا لدرجة أنني لم أتمكن من رؤية سوى بضعة أقدام في أي اتجاه. تسللت على طول الجدار، متجاوزًا مكيف الهواء وعش الطيور، وانعطفت نحو الفناء الخلفي. حينئذٍ، سمعت صون انبعاج السياج السلكي، فهرعت نحوه دون تفكير. وعندما أصبحت على بعد حوالي ست أقدام، حصلت على زاوية رؤية جيدة للدخيل وهو يحاول تسلقه. أرجحت عصا المشي ونزلت بها بكامل قوتي على فخذه، فأطلق صرخة ألم ثم سقط على الأرض، ثم أرجحت العصا مجددًا، لكن صوتًا مألوفًا أوقفني. «على مهلك يا صاح. هذا أنا فقط».

«ما هذا بحق الله؟».

بدت بشرة فييرو شاحبة في الظلام وكأن ملامحه مرسومة بالفحم. نهض وفرك موضع الألم من فخذه. «أنت تؤرجح هذا الشيء مثل مضرب بيسبول. هذا مؤلم».

«ماذا تفعل هنا بحق الله؟».

«لقد فاتتك ليلة البولينغ مرة أخرى».

«لذا، سرت في عقبي؟».

«شعرت بالفضول بالتعرف إلى المكان الذي قصدته في الأسابيع القليلة الماضية، وجعلك لا ترغب أبدًا في التسكع بعد الآن». نفض الغبار عن نفسه وغطى رأسه بسترته. ثم أصدر صوت الصفير الذي أخذه من فليتشر، وهز رأسه في إشارة إلى ما كان يجب أن يفهم منذ مدة طويلة. «لم أتخيل قط أنك متيم بالمسلمات كثيرًا».

لكمته بسرعة شديدة فمال رأسه للخلف. قلت: «ابتعد عنها».

تعثر، ثم أطلق شهقة، ووضع يده على فكه، لكنه ثبّت نفسه وقال: «سأذهب أينما أريد».

عاجلته بلكمة أخرى، لكنه توقعها هذه المرة، وتفاداها. وقد حاول توجيه لكمة لي أيضًا، فتدحرجنا معًا على الأرض، ورحنا نركل بعضنا البعض. التصقت الأوساخ بصدري وشعرت بالرمال تتساقط بين كتفي. ثم اصطدم رأسي بشيء قوي؛ ربما صخرة على حافة السياج. أصبحت محاصرًا، فركلته بين ساقيه، ثم رفعت نفسي، وجلستُ فوقه، وبدأت في كيل اللكمات له، ولم أتوقف حتى بعد أن شعرت بالدماء على يدي.

قالت نورا: «جيريمي. كفى يا جيريمي».

نهضتُ وأخذت لحظة لالتقاط أنفاسي. ثم تلاشى الخدر، شعرت فجأة بجرح في حاجبي وألم في يدي. لكن بصرف النظر عن ذلك، شعرت أنني بحالة جيدة، بل وحتى رائعة، كما لو أنه جرى الترحيب بي في مكان مألوف.

«ماذا حدث؟» سألت وهي تقترب.

كانت ترتدي سروالًا قصيرًا وقميصًا أبيض ضيقًا جدًا كشف عن ملامح ثدييها. أخذت خطوة للأمام، واضعًا نفسي بينها وبين فييرو.

«هل أنت بخير؟».

«أجل. عودي إلى الداخل يا حبيبتي».

خلفي، كان فييرو يكافح من أجل النهوض.

«ماذا يحدث هنا؟» قالت وهي ترفع عنقها لتنظر إليه.

«ماذا يفعل هنا؟».

«ارجعي للداخل».

«أخبرني ما الذي يحدث».

«اذهبي رجاءً». تنقلت نظراتها بيني وبين فييرو. وبدت وكأنها على وشك أن تقول شيئًا، ثم تراجعت عنه وعادت إلى الكوخ. راقبتها حتى انعطفت عند الزاوية، ثم استدرت. كان فييرو لا يزال على الأرض، وسترته مرفوعة حتى منتصف صدره، وسرواله مغطى بالتراب. بقليل من الجهد، وقف ونفض الغبار عن نفسه. تبادلنا النظرات، في محاولة لاستيعاب ما كان يحدث هنا في ساحة مظلمة وفارغة لكوخ قديم. ثم فعل شيئًا صدمني؛ إذ بدأ في البكاء.

قلت: «هيا يا رجل، استجمع قواك. عليك أن تذهب».

لكنه كان لا يزال يبكي. لم أره قط على هذا الحال. مسح الدموع والدم بكُم سترته، ونثر الأوساخ عن عينيه. قال: «أذهب إلى أين؟ ليس لديّ أحد».

تبدد الغضب مني ببطء، وحل الشعور بالذنب مكانه؛ الشعور بالذنب لأنني نجوت بينما مات الآخرون في فصيلتي، واستمتعت بصحتي في حين فقدها الآخرون، وعثرتُ على حبيبة بينما الآخرون بمفردهم. قلت: «أعطني مفاتيحك».

«لماذا؟».

«فقط أعطني مفاتيحك. وانتظر هنا».

عندما عدت إلى الداخل، وجدت نورا واقفة خلف الباب. كانت ترتدي سترة صوفية وعاقدة ذراعيها. قالت: «إنك تنزف. هذا يكفي، سأتصل بالشرطة».

«أنا شرطي. وأنا بخير يا حبيبتي. إنه مجرد جرح». ارتديت قميصي مجددًا وبحثت عن مفاتيحي.

«أخبرني ماذا يحدث بحق الله».

«لاحقًا. أوصدي الباب خلفي».

انتظرت حتى سمعت صوت القفل، ثم أخذت فييرو إلى سيارته الشيفروليه وانطلقنا معًا. كان الزجاج الأمامي مغطى بطبقة من الغبار، وتسربت رائحة العادم إلى داخل السيارة، لتختلط برائحة عرقنا ودمائنا. كم

مرة افتعلنا شجارات وطرحنا بعضنا البعض أرضًا، في الليالي بقلب الصحراء، ونتج عنها إصابتنا؟ وقد ظننا أن كل هذا سينتهي ما إن نعود بعد الحرب.

عندما أضاء فييرو مصابيح شقته، هرع صرصور عبر الجدار الأبيض واختبأ خلف التلفاز، وقد استند إلى الحائط. كان هناك جبل من علب البيتزا الفارغة وبدت مثل مذبح الكنيسة عند أحد أركان الغرفة، وقد أحاطت بها علب بيرة مسحوقة. ولم يكن ثمة أثاث باستثناء فراش وطاولة قهوة، وقد فاحت رائحة مقرفة من الشقة. قال وهو يستدير نحوي: «حسنًا، ها قد وصلنا. يمكنك المغادرة الآن».

«لستُ في عجلة من أمري».

«أعد لي مفاتيحي».

«لِمَ لا نطلب شيئًا؟ يمكنني أن آكل».

«أنا لستُ جائعًا». أخرج علبة بيرة من الثلاجة. على بابها، حمل مغناطيس عليه شعار والاس للتأمين قصاصة ورق مدوّنًا عليها رقم هاتف. وبحروف كبيرة بجانبه كان ثمة اسم؛ سامانثا. إنها الفتاة التي التقى بها في حفل شواء أختي، ثم أخذها في مواعدة، ولكن لم يسمع منها ثانية. نظرتُ في أنحاء المطبخ، فلم أرَ كؤوسًا ولا سكاكين.

سألته: «بيتزا أم مأكولات صينية؟».

«أنا لا أهتم».

«بيتزا إذًا».

بينما كنت أتصل بالمطعم، وضع مجموعة من المناشف الورقية تحت الحنفية ومسح الأوساخ والدم عن وجهه. كانت عينه اليمنى تتورم بسرعة واليسرى تتحول إلى اللون الأزرق. قال: «أعتقد أن لدي كوكاكولا في مكان ما في الثلاجة. ساعد نفسك».

وجدت كيسًا من البطاطس في المجمِّد، عالقًا خلف زجاجتي فودكا فارغتين، وأعطيته إياه، فوضعه على عينيه، الواحدة تلو الأخرى. شعرت بصداع شديد، وبنبض في جرح حاجبي. كم تمنيت الاستحمام الآن، ثم أعود إلى الفراش، بعيدًا عن كل هذا. بينما كنا ننتظر وصول البيتزا، فتح علبة بيرة أخرى. ثم سألني: «هل تتذكر رودريغيز؟».

قلت: «رودريغيز من تكساس؟».

«لا، بل رودريغيز من نيو جيرسي. لم أرَ أحدًا قط يشرب كمية من الكوكاكولا مثله. الرجل يمكنه شرب ثلاث علب خلال ساعة بسهولة».

«دعني أخبرك قصة عن رودريغيز من نيو جيرسي. كان يقودنا في رحلة استكشافية، وقد شرب الكثير من الكوكاكولا لدرجة أنه كان عليه أن يتبول. لكنه لم يستطع السيطرة على نفسه، ظل يقول: «يجب أن أتبول. يجب أن أتبول». وجدنا له زجاجة بلاستيكية فلبى نداء الطبيعة، لكنه عندما حاول غلقها أسقطها على الأرض، فاضطررنا للجلوس في عربة الهمفي لمدة ثلاث ساعات نشتم رائحة بوله».

«يا لغبائه».

«أتساءل ماذا حدث له».

« آخر ما سمعته عنه أنه عاد إلى نيو جيرسي. يعمل فتى توصيل مشروبات غازية».

«مستحيل».

«أقسم لك يا صديقي».

عندما وصلت البيتزا، التهمناها بسرعة، وكدسنا الشرائح واحدة فوق الأخرى مثل كعك الهمبرغر. ثم مسح فييرو فمه بمنديل وقال: «هذا جيد».

«صحيح. ليست سيئة بالنسبة لكونها من دومينوز».

«لا، أقصد وجودنا هنا معًا».

«لا يمكنني أن أكون بجوارك طوال الوقت يا رجل. لدي حياتي الخاصة».

راقبني للحظة ثم قال: «حسنًا. اسمع، أنا آسف لأنني ذهبت إلى منزل حبيبتك. لم أكن أحاول إخافتها، حقًا لم أقصد ذلك. لكني لم أعرف إلى أين أذهب، هذا كل شيء. أنا لستُ منحرفًا أو ما شابه. كما أنك لا تتحدث عنها أبدًا. ولم أكن أعرف حتى أنك ما زلت تواعدها. لقد كنت تتجنبني، وكأنك تخجل مني أو شيء من هذا القبيل».

لكنني لم أخجل من فييرو، بل كنت أحمي نورا. ولهذا السبب، منذ البداية، حاولت أن أفصل بينهما. ربما ذلك جعل الأمور أسوأ. «أنت تحتاج الى مساعدة طبية. لقد اعتقدت أنه يمكنني مساعدتك، لكني لا أستطيع».

«لا تقلق بشأني».

«لقد قلتَ هذا من قبل، ولكن ها نحن ذا».

هز رأسه ببطء، وكأنني لم أفهمه. «قال سارج إن بوسعي البقاء معه لبعض الوقت. وأساعده في تربية النحل».

«فليتشر اتصل بك؟».

«لا، أنا الذي اتصلت به».

بدا وكأني تلقيت لكمة في بطني؛ إذ كان يعرف شعوري تجاه فليتشر، ومع ذلك فقد تواصل معه وطرح الأمر في هذه اللحظة بالذات. تملكني الغضب، لكنني كنت متعبًا جدًا في الغالب. أدركتُ أنه لا يزال غير مستعد لمواجهة كل ما يزعجه، وأنه يحاول الهروب فقط. قلتُ في نفسي لقد اتخذ قراره، وسوف أتخذ قراري.

كانت تلك آخر مرة رأيته فيها، مع أنني سمعت منه عدة مرات؛ أولاها بعد حوالي شهرين، أثناء ورديتي في عيد العمال، وأنا بمفردي في المكتب. أخبرني أنه كان يتعلم الكثير عن النحل، لأن فليتشر يمتلك 40 ألف نحلة منها. يمكن للملكات وضع ما يصل إلى 1500 بيضة كل يوم، ويُطرد ذكر النحل من العش كل خريف، وإذا ماتت الملكة فجأة، يمكن للنحل العامل أن يطور أعضاء تناسلية وينجب ملكة بديلة. لكن منطقة وينسبورو لم ترق له كثيرًا، فاشتكى من أن الناس في الجنوب ليسوا لطفاء كما توقعهم. بعدها بثمانية أشهر تقريبًا، اتصل بي في منتصف الليل ليسألني إذا كنت أرغب في مقابلته لتناول المشروبات، وأنه على بعد أربع ساعات فقط في نيفادا. وقد اتصل بي من هاتف عمومي بالقرب من ممر علوي للطريق السريع، وكان من الصعب عليه سماعي بسبب المرور، فأخبرته مرتين أنني لا أستطيع الذهاب إلى أي مكان، إذ سأذهب إلى العمل في وقت مبكر من صباح اليوم التالي. ولم أسأله عما كان يفعله في نيفادا.

لقد جمعتنا الزمالة في فيلق المارينز معًا؛ صبيان أخرقان من الصحراء، ومع أننا حاربنا جنبًا إلى جنب لسنوات، فقد خرجنا في النهاية تمامًا

كما دخلنا: شخصان مختلفان. والآن حان الوقت لأن يذهب كل منا في حال سبيله.

نورا

في مكان ما بمنطقة غريب فاين، تحطمت شاحنة شاحنة على الجانب الشمالي من شارع 5، لتتناثر حمولتها من الألعاب، ويتحول الطريق السريع إلى مسار مليء بالحطام من البنادق وشخصيات الحركة والدمى المتنوعة. وقد حُظرت حركة المرور لكيلومترات طويلة. لذا، كان منتصف الليل قد حل تقريبًا لما وصلت إلى شارع 880 ولمحت، بارتياح، الأضواء البرتقالية والخضراء لبرج تريبيون. لقد عملت هناك كمتدربة في الصيف، عندما كانت أوكلاند تريبيون لا تزال تحتفظ بمكاتبها في المبنى، في أحد الأماكن المفضلة لدي في المدينة. كانت شقتي في الطابق الثالث من منزل فيكتوري وردي اللون بلا مرأب، ولا مصعد، ولا غرفة غسيل، وقد استطعت تحمل تكاليفها حتى وقت قريب فقط لأن لديّ رفيقة في السكن. عندما وصلتُ ليلتئذٍ، وجدت مارغو في الردهة، وهي لا تزال ترتدي سترتها، بعد أن عادت لتوها من عشاء متأخر في منزل شقيقها. «كيف حالك؟» سألت ونحن نتعانق. «دعيني أساعدك في حمل حقائبك».

قلت: «ليس معي سوى هذه»، وأسقطت حقيبتي من القماش الخشن على الأرضية الخشبية.

«ليتني تمكنت من حضور الجنازة». علقت سترتها في خزانة المعطف. «ولكن لم أستطع المغادرة».

«لا بأس». وضعتُ مفاتيحي في الوعاء على حامل الإفريز وخلعت حذائي. راحت مارغو تقرأ ملامحي، وكأنها تحاول أن تقرر ما إذا كانت ستخبرني بشيء ما، ولكن استقر صمت غير مريح بيننا. قلت: «حسنًا. سأخلد إلى النوم».

وبدون أن أشعل الضوء في غرفتي، خلعت ملابسي وذهبت إلى الفراش، ثم غطيت نفسي بالبطانية التي اشتريتها بعد أن اشتكى ماكس من أن شقتي رطبة جدًا. أضاءت لافتة النيون لصالة السينما المقابلة السقف باللون الأحمر المتقطع، فاستدرت نحو الحائط، وسقطت سريعًا في نوم ثقيل بلا أحلام. بقيت نائمة حتى الظهر تقريبًا من اليوم التالي، حيث أشرقت الشمس على ستائر النافذة. كنتُ قد أمضيت شهرين فقط في الصحراء،

لكنني اعتدت بالفعل على اتساعها وصمتها المستمر. ولما فتحت عينيّ، بدت غرفتي مزدحمة، وسريري ضيقًا جدًا، والشارع صاخبًا للغاية.

عندما خرجت من غرفة نومي، وجدت مارغو على طاولة الطعام ومعها كمبيوترها المحمول. إنها تعمل معلمة رياضيات في شركة إعداد الاختبارات، وغالبًا ما كانت تقضي أوقات الصباح في الرد على طلبات إعادة الجدولة من الآباء الغاضبين، الذين تعاملت معهم بصبر يميز سكان الغرب الأوسط، وسعي العامل الحر إلى جني المال. كانت موسيقى دفورجات تصدح من جهاز الاستريو، وهي قطعة بيانو وكمان غطت على صخب الشارع. وبعد أن سكبت لنفسي كوبًا من القهوة، جلستُ مقابلها على الطاولة.

سألتني: «كيف سارت الأمور؟ أخبريني بكل شيء».

في الرسائل النصية والمكالمات التي تبادلناها منذ مغادرتي، لم أطلعها إلا على الخطوط العريضة لما حدث، لكنني بدأت الآن في ملء الصورة، فأخبرتها عن رفض والدتي الاحتفاظ بالمطعم، ومحاولتي إدارته حتى مع بقاء آل بيكر في الجوار، وعلاقتي التي بدأت مع جيريمي وكيف انتهت. أثناء حديثي، شعرت بشيء يتغير، وكأن التعويذة التي كنت أخضع لها منذ عدة أسابيع قد انكسرت أخيرًا. لقد حاولت ملء الفراغ الذي تركه والدي في حياتي من خلال التمسك بأشيائه - كوخه، وحجرة طعامه، وأسراره - فرأيت بوضوح الآن أن أيًا منها ليس حصنًا ضد الموت. الحزن يقتضي الاستسلام. وعلي أن أمضي في حياتي، وأتعلم كيف أعيش مع الذكريات فقط، ولا شيء آخر.

ولكن إما أنني تحدثت لوقت طويل جدًا أو أن قدرة مارغو على المواساة لم تتعمق بسبب تجربة الموت، لأن عينيها كانتا تتحركان. قالت: «أنا آسفة». وبعد صمت قصير، سألت: «هل عدت إلى هنا نهائيًا؟».

«هذه هي الخطة». كانت كومة البريد التي حفظتها هي لي تنتظرني، فبدأت في تصفحها. لقد تراكم الكثير في تسعة أسابيع فقط؛ الفواتير، وعروض بطاقات الائتمان، والمجلات، ورسائل من المؤسسات الفنية أو الموسيقية.

«لأن هناك شيئًا كنت أريد أن أخبرك به».

رفعت عيني عن البريد غير المرغوب فيه. «ما هو؟».

«سأغادر».

«ماذا؟ إلى أين؟».

«فريمونت. لقد استأجرت كلير مكانًا».

«هل ستنتقلان معًا؟».

قالت بابتسامة: «أجل».

«مبارك عليكما». كانت مارغو وكلير زميلتان منذ ما يقرب من ثلاث سنوات، ولا بد أن أكون سعيدة حقًا من أجلهما، لكن أثناء جلوسي على الطاولة، كل ما استطعت أن أجده عندما بحثت في قلبي هو الشعور بالضياع. لقد عدت إلى أوكلاند معتقدة أنه يمكنني العيش كما كنت من قبل، لكن ذلك لم يعد ممكنًا. «متى سترحلين؟» سألت، وأنا عاجزة على إبقاء نغمة اليأس بعيدة عن صوتي.

«خلال عشرة أيام».

«بهذه السرعة؟ لم تمنحيني الوقت الكافي».

«لكنك غبتِ طويلًا يا نورا. لقد توقعت أنا وكلير أن نبحث عن مسكن لبعض الوقت، ولكن حالفنا الحظ في هذه الشقة. حري بك رؤيتها. ثمة رفوف كتب مدمجة، وزخارف للسقف، ومنظر مطل على الفناء الخلفي. لقد أدركنا أنها فرصة لا تُعوّض».

قلت: «هذا رائع». وبسرعة وغضب شديد، مزقت عروض بطاقات الائتمان، ورسائل سماسرة العقارات، وتذكيرًا بموعد مع الطبيب فاتني بالفعل، وتجديد الاشتراك في مجلة نيو يوركر، وبطاقة تعزية من مدير مدرسة باي الإعدادية، وأخيرًا، دعوة إلى حفلة صديقتي أنيسة بمناسبة انتقالها إلى بيت جديد. بعد ذلك، وتحت بقايا الحياة التي تمنيت أن أعيشها مرة أخرى، وجدت ظرفًا من مركز سيلفوود للموسيقى، مع ملاحظة تخبرني بأنه قد جرى قبولي في مهرجان الصيف. أراد المنسقون تضمين إحدى مقطوعاتي في برنامج مسائي يضم ملحنين أصغر سنًا. قلت بصوت مفعم بالحماس: «لقد قُبلت للتو في سيلفروود».

قالت مارغو: «تهانينا! مبارك على كلتينا إذًا. نحن ننتقل إلى أشياء أكبر وأفضل».

كانت هذه الانطلاقة التي أقرأ عنها كل خريف؛ مقال طويل يحتفي ببروز موهبة جديدة في الموسيقى الأمريكية، ولكن هذا أقصى ما حققته على الإطلاق - مجرد قصة، وليس شيئًا حقيقيًا قد حدث، لا سيما لأناس مثلي. تمنيت لو كان بإمكاني الاتصال بوالدي كي أزف له الخبر - *هل تصدق ذلك؟* كنت سأقول. *وكدت أفوت الفرصة!* - والآن أشعر بالألم من فكرة أنه لم يعش طويلًا لسماع ذلك. كان بوسعي الاتصال بوالدتي بدلًا منه، لكني أعرف أنها ما تزال مستاءة مني. ظللنا لسنوات نتبع سياسة لا للسؤال أو الحديث عن حياتي الجنسية، لكن انتهاكنا المتبادل لهذه الاتفاقية أثناء وجودي في المنزل أعطاها سببًا آخر للشعور بخيبة الأمل فيّ. تذمرت قائلة: لِمَ لا أسير على درب سلمى، وأعثر على طبيب أو مهندس مسلم لطيف وأتزوج منه؟ قبلها يومين، عندما أخبرتها أنني سأغادر المدينة، بدت مرتاحة.

كذلك كنتُ أنا. لقد سئمت الشجار مع والدتي، وكنت أخشى من الاتجاه الذي تسير نحوه الأمور مع جيريمي. لعلي وجدت السلوى معه، بل وحتى لحظات من الفرح لم أعشها من قبل، لكننا مختلفان جدًا، وقد ثبُت أنه لا بد من ألا تستمر علاقتنا، إذ أوضحت حادثة فييرو بالنسبة لي مدى الفرق بيننا. لم أستطع إخراج العينين المتلصصتين عبر نافذة الكوخ من ذهني. وكلما حاولت تفسير تعبيرات وجه فييرو، عجزت أن أقرر ما إذا كان ذلك اشمئزازًا أم رغبة، لكن كليهما جعلني أشعر أنني مجرد جسد، أو حتى سلعة. تبع هذه الذكرى شيء آخر؛ الطريقة التي وقف بها جيريمي فوق جسد صديقه الذي أبرحه ضربًا، وهو يتنفس بصعوبة، ويده ملطخة بالدماء، مع ابتسامة على شفتيه. كانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها هذا الجانب منه. قال عندما جاء لرؤيتي في اليوم التالي في المطعم: «أنا آسف بشأن ما حدث».

انحنى ليقبّلني، لكنني ابتعدتُ عنه. قلت بصوت يرتجف: «كان صديقك يحدق بي مباشرة».

«لا تخافي. لن أسمح بحدوث أي مكروه لك».

قلتُ في نفسي: يا لجرأته، يطلق وعدًا يستحيل فعله، ناهيك عن الوفاء به. كنا نقف تحت مظلة المطعم. خرج فتى الحافلة من الباب الجانبي ومعه كيس نفايات، وألقاه في صندوق القمامة. انتظرت حتى عاد إلى الداخل قبل أن أتحدث مرة أخرى. «أشعر بانتهاك شديد لخصوصيتي».

قال مرة أخرى: «أنا آسف».

«لماذا تبعك إلى الكوخ؟».

«لا أدري». اتكأ على الحائط الجصي، وراح يفكر في السؤال لبرهة طويلة. كان هناك قطع مغطى بضمادة على حاجبه الأيمن، وظهرت على فكه الأيسر كدمة لا تزال رطبة وردية اللون. «أعتقد أنه ربما شعر وكأنني نسيته أو تجاوزته بطريقة ما».

قلت: «لكن هذا ليس منطقيًا. هل هناك ما تخفيه عني؟».

فجأة، انطلق لسانه يحكي القصة. كان فييرو يمر بأزمة طلاق بغيضة، فقد هدد زوجته بالقتل وحطم سيارتها وقُبض عليه. لكن جيريمي أخرجه بكفالة من مركز احتجاز ويست فالي، ثم ألحقه بمجموعة لإدارة الغضب، وقد ساعدته في البداية، لكن المساعدة أصبحت بلا فائدة.

قلت: «يا إلهي، وأنت تذهب إلى ميادين الرماية معه. إنها أسلحة يا جيريمي. ماذا سيفعل بعد ذلك؟».

خرجت امرأة عجوز تتكئ على عصا من المطعم، فتحرك كلانا جانبًا للسماح لها بالمرور، لكن لا بد أنها سمعت كلمة أسلحة، إذ واصلت التحديق فينا وهي تعبر موقف السيارات. يا لها من صورة يجب التقاطها، حدثت نفسي؛ أنا في الفستان الذي ارتديته في جنازة والدي وهو في زي الشرطة ووجهه يحمل كدمات. عندما دفعت خصلة من شعري بعيدًا عن وجهي، لاحظ فجأة الكدمة على معصمي.

«لم أدرك أنني أمسكتك بقوة». وضع يده على خصري، وحاول مجددًا أن يجذبني نحوه، لكني قاومت. «آسف يا عزيزتي. كنت أحاول حمايتك فحسب».

«لم أطلب منك قط أن تحميني. لم أطلب أيًا من هذا مطلقًا».

كانت الشمس في كبد السماء، ومع أننا وقفنا أسفل المظلة، إلا أننا شعرنا بالحرارة، مما جعلنا غير مرتاحين. أصدر جهاز اللاسلكي المثبت على زي جيريمي أزيزًا، فاستمع إلى المرسل لمدة دقيقة قبل أن يخفض الصوت وينظر إليّ مرة أخرى. «أعلم أنك خائفة ومستاءة يا نورا. لكن لا تفعلي هذا؛ لا تحمليني ذنبًا لم أرتكبه. أنا لا أسيطر عليه، ولم يخطر ببالي أنه سيظهر عند منزلك قط».

«أوَتحسب أن الجهل والبراءة سيان؟ تقول إنك لم تكن تعلم أن هذا سيحدث، لكنك من دفع كفالته. لم يكن ليأتي إلى منزلي أبدًا لولاك. لا يسمح لك بجلب هذا العنف إلى عتبة بابي وتتوقع مني ألا أشعر بالصدمة».

جفل عندما سمع الكلمة. كان هادئًا، وعيناه قاسيتان. قال: «كل هذا الحديث عن البراءة. وقد لهوتِ مع رجل متزوج لعدة أشهر. ماذا يجعلك هذا؟».

لم أصدق أنه يستخدم هذا ضدي. ما كان يجب أن أبوح له بأسراري قط، فكم كنت حمقاء لأجعل موقفي ضعيفًا هكذا. بدأ الغضب يتصاعد بداخلي، وعلى وشك الانفجار في أي لحظة. قلت: «لا فائدة من هذا حقًا»، محاولة بكل جهد الحفاظ على صوتي منخفضًا.

قال بنبرة مختلفة: «لا تقولي ذلك، فعلاقتنا بخير. لنتحدث عن ذلك الليلة. يجب أن أعود إلى العمل الآن».

لكني لم أرغب في التحدث بعد الآن. بدا لي حينها أن علاقتي مع جيريمي كانت جزءًا من الرغبة، المولودة من رحم الحزن، في التمسك بالماضي بأي ثمن. بعد أسبوع من وفاة والدي، شارك صديق حسن النية على صفحتي على فيسبوك مقالًا مليئًا بنصائح لمن فقدوا أحبة لهم: لا تشربوا كثيرًا، ولا تتخذوا قرارات مالية كبيرة، ولا تنخرطوا في علاقة عاطفية. وكأن الحزن صفقة تجارية يمكن التفاوض بشأنها بنجاح إذا اتبع المرء بعض القواعد البسيطة. ولكن يبدو أنني فشلت في ذلك.

الآن، وأنا جالسة على مائدة طعامي وأمسك بيدي خطاب القبول من مهرجان سيلفروود الموسيقي، كنت ممتنة للعودة إلى أوكلاند؛ على الأقل، لدي دائمًا موسيقاي. إنها عزائي، وأملي الوحيد، والإجابة على ما لم أفهمه وما لم أستطع تغييره.

ساعدتُ مارغو في حزم أغراضها والانتقال إلى فيرمونت، وبقيتُ في الشقة بمفردي، لأنني لم أتحمل المزيد من التغيير. استيقظتُ كل صباح في مكان فارغ مدمر، وما انفككتُ أقنع نفسي أني كنتُ على حق في العودة إلى المدينة. وغالبًا ما وجدت نفسي أفكر كيف كان جيريمي يحضنني بحنان، وكيف كسر شعوري بالوحدة، ولكن في كل مرة حاولتُ تنحية هذه الذكريات. بدا أنه من الأفضل وضع حد قاطع الآن، ومحاولة إعادة حياتي إلى ما كانت عليه من قبل.

كانت مقطوعة البيانو مبعثًا للراحة في تلك الأيام الأولى. لقد أثر فيّ شيء ما عن هؤلاء البهلوانيين الاثني عشر في مراكش لدرجةِ أنني كنت لا

أزال أفكر فيهم بعد سنوات ومن قارة بعيدة. أدى كل منهم عملًا منفردًا، ومع ذلك فإن التأثير لم يتحقق إلا بتناغمهم التام. لم أنتمِ قط إلى أي قبيلة، وربما لن أفعل أبدًا، لكن يمكنني محاولة دمج هذا الشعور في موسيقاي. رحتُ أعمل لساعات متتالية، وكنت أحيانًا أذهب إلى غرفة الطعام لأفاجأ بأن المساء قد حل، بيد أن أطباق الفطور ما تزال على الطاولة. كنت أعيد تسخين بيتزا مجمدة، وأتناولها وأنا واقفة عند الحوض، ثم أعود إلى البيانو.

في صباح أحد أيام أغسطس، قبل أن أذهب إلى سيلفروود، توقفت لدى مكتب البريد لملء نموذج بريد إلكتروني. كانت المسافة أقل من كيلومتر ونصف، لكن على طول الطريق لاحظت أن المتجر الصغير الذي يبيع القهوة الإثيوبية كان يتوسع إلى مقهى كبير، والمطعم الكوري الذي ذهبت إليه أنا وصديقتي أنيسة في عيد ميلادها قد تحول إلى بار سوشي، وانتقل استوديو اليوغا. بينما كنت أنتظر إشارة المرور عند التقاطع، فكرت في الأشياء الأخرى التي تغيرت خلال الصيف؛ لم أضطر لملء طلبات التقديم على وظائف التدريس في الخريف، وسأشارك في مهرجان موسيقي كبير، وبت أعيش بمفردي.

ثم انفتح الطريق للمشاة، لكن بدلًا من العبور، سرتُ ثلاثة شوارع أخرى باتجاه لا كوكسينيلا. قلت لنفسي سأعبره فقط، لا أكثر؛ إذ سيكون من الجيد القيام بنزهة صباحية طويلة، وممارسة القليل من التمارين قبل رحلة اليوم التالي إلى بوسطن. لكن مع اقترابي من المقهى، بدأت شروط وأحكام ذلك الوعد في التغير. إذا كان ماكس بلومهوف موجودًا، قلت في أعماقي وكأنني أتضرع، سأدخل وأتحدث معه.

عندما وصلت إلى المقهى، رأيت جاري أندرو جالسًا مع حاسوبه المحمول بجوار النافذة. كان يعمل على أطروحة حول محاولة رجل من نخبة الحقبة الفيكتورية ترسيخ الذكورة عبر الموضة؛ وهو موضوع بدا مشروعًا ومثيرًا للاهتمام عندما أخبرني عنه، لكنه قد يبدو غير معقول تمامًا لأي شخص في موهافي. وفي الكرسي المريح، كانت لينا تعمل على مدونة الطعام الخاصة بها، في حين بقيت كعكة التوت خاصتها دون أن تمس. وبجانبها جلس طفل لا أعرف اسمه لأنه لطالما وضع سماعات رأس ولم يرفع عينيه عن مذكرته. وقفت خلف النافذة وعيناي تنتقلان من طاولة إلى أخرى بحثًا عن ماكس. أخيرًا، رأيت سترته على طاولة فارغة أسفل ساعة الحائط المذهبة. لطالما أحب تلك البقعة، لأنها كانت الأبعد عن صخب طابور الطلبات. في بضع خطوات سريعة، عبرت الباب الأمامي وكنت أقف عند طاولته. وقد استدرت

عند سماعي رنين كؤوس، لكن بدلًا من أن يأتي ماكس إلى الطاولة، جاءت زوجته إيفلين.

كان قد مر على زواجهما سبعة عشر عامًا، أي بعد ثمانية أشهر من ولادة ابنهما البكر. لقد كان زواجًا خاطئًا، كما قال لي ماكس كثيرًا، فقد أجبر على فعله عندما أدرك أن إيفلين حامل. كان كلاهما هولنديًا، وقد شغلا منصب أستاذ زائر في كلية صغيرة بتكساس، ولم يشعرا بالسعادة لأن المطاف انتهى بهما في إحدى أكثر الولايات المحافظة في البلاد. ولكن بعد أقل من عام، نُشرت روايته *قبل أن يحل المساء*. وقد فازت بجائزة دائرة نقاد الكتب الوطنية، وأصبحت أحد أكثر الكتب مبيعًا. كما حصلت إيفلين على وظيفة ثابتة في معهد سان فرانسيسكو للفنون. ثم اشتريا منزلًا، وأنجبا ابنتهما. كلما أخبرني ماكس بهذه القصة، بدا وكأن حدثًا قد أدى إلى الآخر، دون أن يكون له يد في ما يحدث.

أصبح شعر إيفلين أطول الآن، وكانت ترتدي قلادة فيروزية بدت مبهرجة، ولكن بخلاف ذلك، حافظت على نفس مظهر الأستاذة الذي ميزها في المرة الوحيدة التي التقينا فيها سابقًا، في حلقة نقاشية عن الكتب الأدبية بسان فرانسيسكو قبل عام تقريبًا. كانت المكتبة مزدحمة ليلتئذٍ، لذلك لم أرها إلا بعد أن وضعت يدي على ذراع ماكس وانحنيت لألقي التحية. نظرت إليّ بثبات، فسحبت يدي على الفور. راح ماكس يعرفنا على بعضنا ثم تحدث لثوانٍ، لكنه سارع بأخذها عبر الحشد نحو الصف الأمامي، تاركًا إياي وراءه. باتت إيفلين الآن عند طاولته وهي تحمل فنجان شاي إيرل جراي وطبقًا من المعجنات. قالت: «أنتِ».

«أنا...».

خذلتني الكلمات. كنت أرغب في رؤية ماكس لمعرفة ما إذا كان لا يزال يثير المشاعر بداخلي، ولكن بدلًا من ذلك ظهرت إيفلين. وضعت الشاي على الطاولة ونظرت إليّ لوهلة، وقد ارتسمت على وجهها نصف ابتسامة، قبل أن تمد يدها وتصفعني بشدة لدرجة أن أذني رنّت. التفت الجميع ينظرون.

قالت: «ابتعدي عنا».

دون أن أنبس ببنت شفة، استدرت وغادرت المكان. طوال طريق العودة إلى شقتي، أدخلت يدي في جيوب السترة ذات القلنسوة. وفي المنزل، ذهبت مباشرة إلى خزانة الردهة وأخرجت حقيبتي. وبمهارة اكتسبتها

من سنوات الممارسة، بدأت في حزم أغراضي، متحاشية انعكاسي في المرآة فوق الخزانة. لم أشعر بالوحدة هكذا من قبل.

مريم

كان صوم رمضان صعبًا في ذلك العام - ليس بسبب الحرمان من أشياء كثيرة أو لأنه حل في منتصف الصيف، حين يطول النهار، ولكن لأنني افتقدت زوجي كثيرًا. ومع ذلك، كان للصيام تأثير علاجي عليّ أيضًا، إذ أعاد لي كل شروق وغروب للشمس قدرًا أكبر من السلام، حتى أنه بحلول عيد الفطر، استجمعت شجاعتي للعناية بشيء كنت أتجنبه. لقد بدأت في المرأب؛ فقد افترضتُ أنه سيكون من السهل التخلص من راديو الترانزستور الذي فقد أزراره، أو الصناديق المليئة بالمجلات القديمة، بيد أن ذلك أعاد لي على الفور ذكريات متجر الكعك، حينما كنا نستمع معًا إلى الموسيقى، ونتصفح مجلتي نيوزويك والتايم بحثا عن أخبار الوطن.

انتقلت من المرأب إلى الحمام، فوجدت في خزانة الأدوية قطرة للعين وصفها الطبيب لزوجي بعد جراحة إعتام عدسة العين، وأنابيب لكريم تبريد استخدمها لفرك ركبتيه عندما آلمتاه، وعلبة كالسيبرونات، التي قال إنها الشيء الوحيد الذي نجح في علاج الصداع. في الدرج السفلي، وجدت برطمانًا فارغًا من فيكس فابوراب ذي ملصق شفاف متسخ، وزجاجة الماء الساخن التي وضعها تحت بطانيته كلما انخفضت درجة الحرارة إلى أقل من عشر درجات مئوية. كان هناك الكثير من الحبوب والوصفات والمراهم، وكلها أدوات حماية غير مجدية من المحتوم؛ إذ تعلّمنا سورة آل عمران أن كل نفس ذائقة الموت، وأن الحياة في هذا العالم ليست سوى متاع الغرور.

في خزانة الردهة، وجدت حذاء زوجي الذي انتعله في العمل، وكان ما يزال ملطخًا بالأوساخ، والنعل الرمادي الذي كان يرتديه في المنزل، فضلًا عن حذاء المشي ذي الأربطة المهترئة. وفي غرفة النوم، فتحت أبواب الخزانة الأكورديون، ومررت يدي على صف الملابس المتدلية من القضيب، ثم فحصت كل سترة وقميص وزوج من السراويل، وكأنها ستنحفر في ذاكرتي إذا نظرت إليها بما فيه الكفاية.

وضعتُ جانبًا أي أشياء قد تهم ابنتيّ، وجمعت الملابس والأحذية التي يمكن التبرع بها للجمعيات الخيرية في حقائب ضخمة، ثم جلست على الأريكة ويداي على حجري، ورحت أراقب القطة تداعب نفسها أسفل بقعة من ضوء الشمس. بدا المنزل أكثر هدوءًا من أي وقت مضى. وما انفكت ذكريات السنوات الطويلة في زيارتي، حاملة معها الفرح والألم في آن واحد، وقد

مرت عدة لحظات قبل أن أتوضأ وأفرد سجادة الصلاة. لا أعرف كيف صمدت في ذلك اليوم الصعب، لكنني فعلتها، مما اضطرني إلى تكرار الأمر مرة أخرى بعد بضعة أسابيع، في مكان احتقرته، وما كنت أطيقه.

حاولت إقناع نورا بترك العيش في الكوخ في جوشوا تري حيث أحضر إدريس المرأة الأخرى، لكن ابنتي كانت صماء لكل التلميحات التي أسقطتها. ابنتي المسكينة الساذجة؛ تُرى ماذا ستقول لو أخبرتها أن والدها قد خان الثقة التي أوليتها له؟ لعلها ستكذبني، فهو ليس إلا بطلًا بالنسبة لها، لا رجلًا من لحم ودم، مليئًا بنفس نقاط الضعف وقادرًا على ارتكاب نفس أخطاء الرجال الآخرين.

أفزع صوت إطارات سيارتي وأنا أقف عند الكوخ عائلة من طيور السمان الصحراوي في الفناء الأمامي، فهرعت للاختباء تحت شجيرة الكريوزوت. سحبتُ صناديق القمامة التي تركت بالقرب من صندوق البريد إلى باب المطبخ قبل أن أدخل. وقد تفاجأت حين وجدت أن كل شيء بدا وكأن ابنتي خرجت للتو وستعود في أي لحظة، فقد تركت كوبًا نصف فارغ من الماء على المنضدة، وزوجًا من الجوارب تحت طاولة القهوة، ونوتة موسيقية على البيانو. البيانو! لقد نسيت أنه كان هنا، والآن أدركت أنه سيتعين علي استدعاء شركة نقل أثاث من ريفرسايد لإعادته إلى المنزل. ماذا عن الثريا الخشبية؟ وهذه السجادة الجديدة؟ اتصلت بها على هاتفها الخلوي لأسألها، لكنها تجاهلتني. قالت: «افعلي ما تشائين». لقد كانت في بوسطن، وبدا أنها مشغولة جدًا.

أخرجت كيس قمامة من درج المطبخ وأفرغت بغضب الثلاجة من الحليب والبيض منتهي الصلاحية والخبز المتعفن. وقد وجدت نفسي أتخيّلهما عند طاولة المطبخ، أو جالسين على الأريكة، أو يستمعان إلى مشغل الأسطوانات. عندما سألت نورا عن الشاب الذي أحضرته إلى هنا، إلى المكان الذي أردت بشدة أن أنساه، لم تحاول حتى إنكار ذلك. لكن لماذا هو بالذات؟ سألتها. أخبرتها أن سلمى متزوجة ولديها طفلان وتعيش حياة محترمة، لكن ابنتي الصغرى ضلت طريقها. عندما أخرجت بقية أغراضها من الكوخ، دعوتُ الله لها، كما فعلت مرات عديدة في الماضي، لكني هذه المرة لم أدعُ لصحتها أو سلامتها أو سعادتها فحسب، وإنما ألححت في الدعاء، من أجل الشيء الذي تخليت عنه منذ سنوات ولم أجده مرة أخرى.. الأسرة.

نورا

طُلب مني الحضور، مثلما نصت الدعوة الموجودة في مظروف الترحيب الخاص بي، في حفل كوكتيل أقيم على شرف الملحنين المميزين. وقد مُوّل الحفل بواسطة متبرعين أثرياء، ودلّ كل شيء في المكان على أنهم غالبية الحاضرين في قاعة الرقص ليلتئذٍ، ببدلات رسمية وأردية ساتان. وصلت طائرتي متأخرة ساعتين ولم يكن لدي أي شيء لآكله، ولكن عندما وصلت إلى البوفيه، كانت الأطباق المتبقية هي بعض الروبيان الذي يعوم في صلصة مجهولة الهوية، ونبات الهليون الجاف تحت الأضواء الساطعة للثريات. بخيبة أمل، التقطت كأس شمبانيا من نادل عابر وخرجت. اتضح أن الشرفة كانت أقل ازدحامًا، ووجدت نفسي أقف بجوار زوجين مسنين. «الجو أكثر برودة هنا، أليس كذلك؟» قالت الزوجة.

قلت: «يا إلهي». كان الجو أيضًا أكثر رطوبة مما توقعت، والهواء ينذر بعاصفة رعدية، فقلت في نفسي: ليتني تذكرت أن أجلب مظلة. ورحت أرى ما إذا كان أي من المتاجر القريبة من فندقي يبيع مظلات. ثم تصفحت الحشد مجددًا، بحثًا عن أحد الملحنين الخمسة الآخرين، أو على الأقل شخص من طاقم المهرجان، لكني لم أرَ سوى وجوه غير مألوفة.

سألتني: «هذه أول مرة لك في سيلفروود؟».

«أجل»، قلت وقد شعرت بالارتياح لوجود بعض الصحبة. «ماذا عنك؟».

قالت: «نحن هنا منذ زمن طويل» وابتسمت لي بحرارة. كان ثمة شريط أبيض مثبت على خط العنق لفستانها المسائي، على الأرجح لصالح غرض خيري تدعمه. «أنا وزوجي نأتي إلى هنا منذ عام 1989. إنه أحد الأعمال المفضلة لدينا؛ إذ نتطلع إليه طوال العام. لقد اكتسبنا الكثير من الأصدقاء هنا».

«هذا رائع».

سألني زوجها: «ومع من حضرتِ؟».

«المعذرة؟».

«لا بد أنك ضيفة أحد الملحنين؟».

«أنا أحد الملحنين».

نظر إلى زوجته كمن يحتاج إلى مساعدة في التعامل مع هذا الموقف الغريب، ثم أخرج كتيبًا مطويًا من جيبه ونظر فيه. «لا بد أنك... كيف ينطق الاسم؟».

«الغراوي».

«وماذا يمثل حرف النون؟».

«نورا».

قال وهو يصافح يدي بقوة: «أنا ديفيد فورد. وهذه زوجتي، ليز».

تحدث آل فورد معي لبضع دقائق قبل الابتعاد، لكن تجربتي معهم تركت طعمًا سيئًا في فمي. لذا، في صباح اليوم التالي، وبقدر كبير من الخوف، التقيت مع جيري تيرنر عازف الباس، وروي غيلمور عازف الطبول، اللذين سيعزفان معي في نهاية الأسبوع. لقد عمل كل منا بأساليب مختلفة، لكن كان من السهل جدًا التعامل مع جيري وروي. لذا، في نهاية بروفتنا الأولى، شعرت وكأنني عزفت معهما عدة مرات من قبل. أتذكر أنني رفعت عيني عن البيانو لأرى جيري ترمقني وهي على وشك أن تبدأ عزفها، أو روي وهو يومئ لي عندما أبدأ عزفي.

ومع ذلك، فإن المتعة التي اكتسبتها من العزف مع هذين الموسيقيين قد طغت عليها في كثير من الأحيان على تجاربي خارج البروفات؛ إذ أوقفني أحد الحراس عندما حاولت الدخول إلى المسرح في صباحي الأول، وطلب مني إبراز بطاقة هويتي وإخباره عن العمل الذي أمارسه في المبنى. وذات يوم، وقفت في منتصف المقهى، محاولة اتخاذ قرار بشأن الغداء، وقد تلقى أحد الحاضرين صينية من الأطباق المتسخة، فافترض أنني جزء من فريق المساعدة. وفي مرة أخرى، تحدث معي ناقد موسيقي لمدة خمس عشرة دقيقة ظنًا منه أنني طاهرة خان، إحدى وكيلات الدعاية في المهرجان، والشيء الوحيد المشترك بيننا هو لون البشرة، ولكن كان كل شيء آخر مختلفًا؛ كانت هي أطول وأثقل وأجمل، بل وتحدثت بلكنة بريطانية. أردت لسنوات الانضمام إلى أحد هذه الأماكن المرموقة، والآن بعد أن جرى قبولي أخيرًا في أحدها، شعرت بأنني لست في مكاني.

لقد علقت بين الحاجة المتناقضة للهروب من سيلفروود وإثبات نفسي أمام جميع الحاضرين لدى ديفيد فورد. تملكني قلق لم أعرفه من قبل خلال

أسبوع التدريب، وعندما حان يوم أدائي كنت أفكر بجدية في التحجّج بالمرض. لقد خرجتُ كل يوم تقريبًا، لذلك، أدركت أنه لا يمكنني الادعاء بأنني مصابة بالأنفلونزا، ولكن يمكنني بسهولة الشكوى من التسمم الغذائي؛ ربما من المحار، أو من بيض حار للغاية. كنت في غرفتي بالفندق أبحث بتوتر عن رقم هاتف مدير المهرجان عندما اتصلت أمي. أرادت أن تخبرني أنها ستخلي الكوخ وتغلقه حتى ينتهي التحقيق في أكتوبر، وحينها سيتم بيعه مع المطعم. وقالت إنها ستتكفل بنقل البيانو القديم، ولكن هل أريد الاحتفاظ بالثريا العتيقة التي اشتريتها؟ أم يمكن تركها لمن سيشتري المكان؟

«لا يمكنني الحديث الآن يا أمي. أنا في بوسطن».

«ماذا تفعلين في بوسطن؟».

«سأشارك في مهرجان سيلفروود».

«سيلفر ماذا؟».

«سيلفروود. إنه حدث كبير جدًا».

«هل تريدين ترك الثريا هنا؟».

«افعلي ما تشائين».

تنهدت في سخط.

سألتها: «ماذا الآن؟». وأثناء وقوفي عند النافذة، رأيت السحب تتجمع مما ينذر بعاصفة رعدية بعد الظهيرة، وكان ضوء الشمس خافتًا. وفي الشارع، أسرعت سيارة لعبور الإشارة قبل تحولها إلى الضوء الأحمر، فأطلقت سيارة أخرى البوق وهي تنتظر الانعطاف. لقد أدهشني كم كرهت ضجيج المدن الكبرى، وكم كان لا يلائمني. في أعماقي، كنت مخلوقة صحراوية.

قالت متهمة: «لقد تركت كل شيء».

«لا أفهم. أليس هذا ما أردتِه؟ لقد أردتِ بيع المطعم فقلت لا بأس. الآن تريدين إخلاء الكوخ، وأنا أقول لك لا بأس أيضًا. أنا أتفق معك».

«لم أقل إنني أريدك أن تغادري».

حتى بعد أن أعلنت الهزيمة وابتعدت عن معارك والدتي، أرادت جرّي إلى معركة جديدة. كنت عاجزة عن الكلام، وعانيت للتفكير في رد من شأنه أن يضع حدًا للصراع بيننا، لكني فشلت. ولا بد أنها شعرت بذلك، إذ واصلت ضغطها قائلة: «أنت تهربين دائمًا يا نورا. عندما يصبح الأمر صعبًا، تهربين بعيدًا. لقد فعلت هذا أيضًا عندما كنت في عمرك».

عندما كانت في مثل عمري، انتقلت إلى منزل جديد، ودولة جديدة، وقارة جديدة. كانت تنوي تغيير مجرى حياتها، لكنها غيرت حياة أختي وحياتي أيضًا. كيف كانت الأمور ستختلف بالنسبة لنا لو أنها بقيت في المغرب؟ ربما عشتُ الحياة العادية التي طالما أردتها، ولشعرت بأنني أنتمي إلى مكان ما، ولما تعلمت من الكتب المدرسية والصحف والأفلام أن أرى نفسي مرة من خلال عينيّ وأخرى من خلال عيون الآخرين، أو رغبت بشدة في الاندماج، وللمفارقة، أن أكون بارزة.

يمكنني أن أستمر هكذا إلى الأبد، وأتخيل العالم الآخر الذي ربما عشته. ثم خطر لي أن والدتي أيضًا كانت تتخيل عالمًا مغايرًا؛ منزل جميل في الجانب الغربي من الدار البيضاء، وزوج يدرس الفلسفة في الجامعة، وإحدى ابنتيه طبيبة أسنان والأخرى طبيبة، وكلتاهما متزوجتان من رجلين ذوي حسب ونسب، ولا وجود لدفاتر حسابات ملطخة بالدهون أو مدونات موسيقى ذات الأذنين. لقد أمضت سنوات في محاولة وضعي في قالب شخص يمكن أن تفخر به، لكنني كنت مشغولة للغاية في الخروج من هذا القالب لدرجة أنني لم ألاحظ كم كنت أشبهها؛ إذ كنت أتغاضى عن الخيانة، وأهرب بعيدًا عندما تصبح الأمور صعبة.

حينئذٍ، وأنا أقف عند نافذة غرفة الفندق أتحدث إلى والدتي، قررت أن أصعد إلى المسرح في تلك الليلة. لن أكذب وأقول إنني لم أشعر بالخوف؛ فالمكان، والجمهور، والموسيقى؛ كل هذا كان على نطاق أكبر مما اعتدت عليه في كاليفورنيا. وأثناء سيري عبر المسرح إلى البيانو، اضطررت إلى اللجوء إلى الأسلوب الذي تعلمته في المدرسة الإعدادية؛ تخيلي أنك تعزفين لشخص واحد فقط.

جيريمي

يصعب عليّ وصف الحال في الأسابيع التالية. كان قلبي منفطرًا. وماذا عساي أقول غير هذا؟ لم يخبرني أحد أن العشق سيهد حصونك، ويجعلك مكشوفًا تمامًا، ثم يختفي ويتركك بلا دفاعات. مرّت سنون منذ ذلك الحين، لكني لم أنسَ هذا الشعور. وقتئذٍ، حاولت نسيان الأمر بالانغماس في الشرب، فعاد الأرق أسوأ من ذي قبل. في بعض الليالي، كنت أقضي ساعات أقتفي أثر نورا على الإنترنت، سواء على الفيسبوك أو أحد مواقع الموسيقى التي زارتها، بخلاف ذلك، كنت أتصفح بعض الصور لكلينا على هاتفي. كانت الصورة المفضلة لدي هي سيلفي التقطناه في ويلو هول، وقد غطت الحمرة وجهينا بسبب المشي الطويل، وأعيننا نصف مغمضة بسبب ضوء الشمس، وكل منا يحيط الآخر بذراعه. بدا الأمر مثل النظر إلى تاريخ طي النسيان، محاولًا إقناع نفسي أن هذا قد حدث بالفعل مثلما أتذكره. لقد كان ما بنيناه معًا هشًا لدرجة أنه انهار عند أول إشارة إلى المتاعب. حاولت أن أقول لنفسي إنه ما يزال ثمة أمل، وكل ما تحتاجه هو القليل من الوقت، لكن بمرور الأيام وجدت صعوبة في تصديق ذلك، إذ واجهت كل محاولاتي للتحدث معها بصمت عنيد.

الشيء الوحيد الذي جعلني أصمد خلال تلك الأيام الصعبة هو العمل. كان فاسكو قد فقد نائبين فجأة؛ أحدهما انتقل لقسم الشرطة منطقة سان دييغو والآخر أحيل للتقاعد المبكر، وعندما طلب مني العمل لبعض الورديات الإضافية في أغسطس، وافقتُ بكل سرور. ذات صباح، بينما كنت أعاني من صداع بسبب الثمالة، قررت أن أتوجه إلى ستاربكس في وادي يوكا لتناول القهوة المثلجة. كانت درجة الحرارة حوالي ثلاثة وثلاثين درجة مئوية في الظل ذلك اليوم، ومن المتوقع أن ترتفع إلى قرابة تسعة وثلاثين درجة. أبقيت عينيّ على الطريق السريع أثناء مروري بالمطعم، حيث ظهرت لافتة *للبيع* خارجه قبل بضعة أسابيع، وقد حاولت عدم التفكير في ما يعنيه هذا على المدى الطويل. لذا، لم أرَ شاحنة جي إم سي الحمراء وهي تحاول الخروج من ساحة الانتظار بجوار صالة البولينغ، واضطررت إلى الضغط على الفرامل بقوة لإفساح المجال لها. كان إيه جي هو من يقودها.

كانت الجي إم سي شاحنة من طراز حديث، بمقابض أبواب من الكروم، وطلاء لامع، وإطارات عالية الأداء، شبيهة بتلك التي كنت أرغب في

شرائها لسيارتي الجيب. وعلى أحد جانبي النافذة الخلفية كان هناك ملصق أصفر يقول «ادعموا قواتنا»، وعلى الجانب الآخر عُلق ملصق أحمر دائري بشعار صالة البولينغ. وعلى الرغم من كل الأغراض التكميلية، فلم يعتني إيه جي بها كما ينبغي؛ إذ تسرب دخان أسود من أنبوب العادم، مما يعني أن المحرك يحرق الكثير من الوقود. ولا بد أنه قد رأى سيارتي في مرآة الرؤية الخلفية، لأنه أمسك المقود من الجانبين وقاد لبضعة كيلومترات بالكاد تحت الحد الأقصى للسرعة. وبعد نصف كيلومتر آخر، أضاء إشارته وانعطف يمينًا، لكنني لم أتركه وشأنه. لقد غيرت وجهتي أيضًا، وواصلت تتبعه من مسافة قصيرة. ويجب أن أعترف، كنت أستمتع بجعله يتعرق قليلًا.

ولكن بطبيعة الحال، فإن تسرب الدخان المفرط مخالفة بسيطة، فضلًا عن أنها من اختصاص دوريات الطرق السريعة، وليس قسم رئيس الشرطة. ولكن لِمَ لا يوجد بعض التعاون بين الوكالات؟ أطلقت صفارة الإنذار الخاصة بي وأوقفتُ الجي إم سي. لا يكشف فحص لوحة الترخيص سوى عن معلومات عادية. كانت الشاحنة من طراز 2012، مسجلة على الأرجح باسم زوجة إيه جي، هيلين د. بيكر، وعنوانها في ساني سلوب درايف، وهو حي ذو طريق دائري تحيط به الأشجار، وله مسار حجري خلفي يؤدي إلى سطح وحوض استحمام ساخن. لطالما حصل هذا الرجل على كل شيء بلا عناء. حتى في المدرسة الثانوية، أكسبه أداؤه في فريق المصارعة درجات سهلة أو إعفاء من عقوبة كان يجب أن يتلقاها بسبب تنمره. ترجلت من سيارتي، واقتربت من الشاحنة من جانب الراكب، ثم طرقت النافذة.

أنزل النافذة وهو متجهم. «هل هناك مشكلة يا حضرة الضابط؟».

«صباح الخير. العادم يطلق دخانًا زائدًا. أحتاج إلى الرخصة ووثيقة الملكية والتأمين».

«حقًا؟». نظر إلى مرآة الرؤية الجانبية الخاصة به وفك حزام مقعده.

قبضت على السلاح في جرابه. «ابقَ في مقعدك».

«آسف أيها الضابط. سأصلح العادم. لم ألاحظ أنه كان يسرب».

«الرخصة ووثيقة الملكية والتأمين».

نظر إيه جي في عيني، فشعرت فجأة أنني بحاجة إلى قصة شعر، وأن نظارتي الشمسية رخيصة الثمن، وكانت لدي بقع من العرق على قميصي. بدا الأمر أشبه بالنظر إلى نفسي في مرآة حمام محطة وقود؛ إذ فضحت كل خطأ

وعيب. تحول نظر إيه جي إلى بطاقة الاسم على الزي الرسمي خاصتي، فارتسمت علامات ارتياح على وجهه. «جوريكي. جيريمي جوريكي؟ لقد ارتدنا المدرسة الثانوية معًا يا رجل. ألا تتذكرني؟ أنا إيه جي بيكر».

«سيدي، الرخصة ووثيقة الملكية والتأمين».

«كنتَ في فريق البيسبول. وقد حققتم اللقب على المستوى المناطقي في إحدى السنوات».

«لآخر مرة، الرخصة ووثيقة الملكية والتأمين».

انحنى نحو جانب الراكب للوصول إلى صندوق التابلوه. كان على ذراعه وشم من الورود المتشابكة وارتدى في إصبع الخاتم خاتمًا ذهبيًا منقوشًا. قال، بعد أن أخرج وثيقة الملكية والتأمين: «أنا متأكد من أننا حضرنا بعض الفصول معًا. أعتقد أنه كان علم الأحياء. أو ربما الجبر».

أخذت منه الأوراق. «أحتاج إلى رخصتك أيضًا».

«كما قلت يا رجل. سألقي نظرة على العادم فورًا».

«الرخصة».

«ليست بحوزتي الآن».

«ما هو تاريخ ميلادك؟».

انحنى إيه جي إلى الخلف في مقعده وحدق في الطريق، وقد تمتم بشيء لم أفهمه؛ شكوى أم سباب. كان إحساس الرضا الذي تملكني بعد إيقافه قد اختفى بالفعل، وكل ما شعرت به الآن هو نبضات قلبي والعرق على جبيني. أردت أن أحرر له مخالفة في أسرع وقت حتى أتمكن من الحصول على قهوتي. «ماذا كان هذا؟».

«8 مارس من عام 1985»

قلت: «حسنًا. انتظر هنا». ثم عدت إلى سيارتي، وشغلت مكيف الهواء، وشربت من زجاجة الماء المثبتة على حامل الأكواب. راح إيه جي يدخن سيجارة، مما جعلني أشتهي واحدة أيضًا، لكنني تركت حقيبتي في خزانتي بالمركز. أدخلت بيانات وثيقة الملكية والتأمين في الكمبيوتر المحمول الخاص بي وكذا تاريخ الميلاد، فلم تظهر أي سجلات. لقد طغت الثمالة على تفكيري،

فاستغرق الأمر مني دقيقة لأدرك أنني أدخلت لقبه في نظام الكمبيوتر. كان الاسم القانوني لإيه جي هو أندرسون. أدخلته لتظهر بيانات الرخصة على الفور؛ *معلقة* منذ تسعة أشهر بسبب القيادة تحت تأثير الكحول. ولكن لا بد أن حادثًا كبيرًا أو مخالفة ثانية وقعت حتى يستمر التعليق طوال هذه المدة. هل كان يتعاطى المخدرات؟ لا أظن ذلك. لقد بدا دائمًا مستقيمًا؛ أو ربما تمكن من تجنب افتضاح أمره. حسنًا، ليس هذه المرة. التقطت زجاجة الماء مرة أخرى، لكنني وجدتها فارغة. شعرت أن لساني جاف وثقيل مثل الطوب. ثم خرجت من السيارة التي كانت ساخنة بسبب الحرارة. وعلى مسافة بعيدة، حولت شمس الظهيرة الأفق إلى ضباب سائل. حاولت اتباع البروتوكول - ذكرت إيه جي لماذا تم توقيفه، وأخبرته بما ظهر عند فحص الترخيص، ولماذا هو الآن قيد الاعتقال - ولكن منذ البداية، تعمد إيه جي جعل الأمور صعبة. قال: «بربك يا رجل. إنه مجرد عادم».

«اخرج من السيارة. وتحرك ببطء. وابقِ يديك حيث يمكنني رؤيتهما».

«يمكنني إصلاحه اليوم. أرجوك».

«استدر وضع يديك خلف ظهرك».

«تعليق الرخصة سينتهي في غضون أسبوعين. أسبوعين يا جوريكي».

قرأت عليه حقوقه وكبّلته. «افتح ساقيك، لا بد أن أفتشك».

«كيف سأخبر زوجتي عما حدث؟ كانت تنتظر مني استعادة رخصتي، والآن يحدث هذا. هذا ليس عدلًا يا جوريكي».

«هل لديك أي شيء في شاحنتك يجب أن أعرف عنه؟ مخدرات؟ أسلحة؟».

«لا. لماذا تفعل هذا بي؟».

«أنا أقوم بعملي فقط».

«تبًا لك يا متيـ...».

أقفلت أصفاده بشدة لدرجة أن الكلمة تبددت بسبب صراخه، ثم جررته إلى السيارة ودفعته إلى المقعد الخلفي. أبطأت سيارة أثناء مرورها، وراح السائق يرفع رقبته لإلقاء نظرة جيدة. وعند متجِر الإطارات المجاور،

لوحت الدمية القابلة للنفخ بذراعيها البرتقاليتين بجنون. أخذت نفسًا عميقًا، ثم قلت لنفسي، لا تدعه يصل إليك. وابقَ هادئًا. جلست في مقعد السائق واتصلت بالقسم لأطلب شاحنة سحب. كانت السيارة متوقفة لبعض الوقت، وتفوح الآن منها رائحة العرق وأيًا كان ما يأكله الضابط الذي قادها في اليوم السابق. تحركت في مقعدي، وحاولت أن أجد وضعًا مريحًا، لكن وزن سترتي الواقية من الرصاص وزاوية حزامي جعلتا الأمر مستحيلًا. وكان رأسي يؤلمني.

هدأ إيه جي عندما وصلنا إلى السجن، مع أنه ظل غير متعاون. طلب التحدث عبر الهاتف ثلاث مرات، فأخبره الرقيب لوميلي أنهم سيسمحون له بذلك بمجرد انتهائهم. «لا يمكنك الخروج بكفالة حتى يتم حجزك، ولا يمكن احتجازك حتى ننتهي هنا، فهمت؟».

أخذ إيه جي نفسًا عميقًا.

سألته «هل تتناول أي أدوية؟».

«أحتاج جهاز الاستنشاق الخاص بي. ثمة واحد في صندوق التابلوه، لكنك صادرت شاحنتي».

قلت: «سنحضر لك جهاز استنشاق. أي وشوم أخرى بخلاف الموجود على ذراعك؟».

«لديّ واحد على ظهري وآخر على كتفي اليمنى».

«اخلع قميصك».

«لماذا؟».

«لماذا في رأيك؟ لا بد أن أراهما، أيها اللعين».

خلع إيه جي قميصه. كان فتى نحيفًا في المدرسة الثانوية، لكن كتفيه الآن عريضتان، وعضلاته بارزة، وخصره ضيق مثل السباح؛ وهي هيئة ما كنت لأحققها مهما تمرنت. لكني لا أتمرن كثيرًا هذه الأيام، على أي حال. وكان هناك وشم نبات كرمة بألوان زاهية على ظهر إيه جي، ولا بد أنه استغرق عدة جلسات تحت الإبرة لإكماله، لكن التصميم الأبسط على الكتف جعلني أتوقف للحظات. «ما هذا؟».

«إنه صليب».

«ليس مجرد صليب. إنه صليب سلتيّ. لماذا تضعه؟».

«لأنني مسيحي، أيها الأحمق. أم أن هذا مخالف للقانون الآن؟».

«خمِّن ما حصل؟»، قال لوميلي من خلف المنضدة، «لقد تعطلت خطوط الهاتف للتو».

لا تستفز لوميلي؛ درس يحفظه عن ظهر قلب مدمنو المخدرات والعاهرات واللصوص الصغار وغيرهم من مرتادي السجن. وقد حان الوقت كي يتعلمه إيه جي أيضًا. لقد بات مجبرًا الآن على الانتظار حتى نهاية اليوم لإجراء مكالمته.

وقعتُ الأوراق وغادرت، ثم عبرت موقف السيارات نحو مركز الشرطة للحصول على التايلينول من مكتبي. وقد ارتفعت أصوات ضحك من المنطقة المشتركة. كانت فران، مأمورة الإرسال المفضلة لدي، على وشك التقاعد فأقام أحدهم لها حفلة. عندما اقتربتُ لألقي التحية، كان صوتي ضعيفًا، وكأنه جاء من مكان بعيد. شربت كأسين من عصير الليمون قبل الانتقال إلى البوفيه، حيث ملأت طبقًا باللازانيا والكوسة المشوية وأعواد الجبن بالبقسماط. وقد أكلت الطبق الأول واقفًا، وأنا بالكاد أستمع إلى الثرثرة من حولي. وبعد أن ملأت طبقًا ثانيًا، نظرت في أرجاء الغرفة ولاحظت مورفي يتحدث إلى كولمان، وهو يقف قريبًا جدًا منها، كمن يشارك شائعات فضائحية أو يخبر سرًا. لمحتني كولمان وأنا أراقبهما، فاعتدلت في جلستها ولوّحت لي.

كولمان

سائقان متهوران في عائلة واحدة. أي صدفة عجيبة هذه؟ قد يقول زوجي هذا شيء عادي. من شابه أباه فما ظلم، والتفاحة لا تسقط بعيدًا عن الشجرة، وذاك الشبل من ذاك الأسد. لكنني لم أهتم كثيرًا بحكم راي الشعبية، ولم يعجبني أن جوريكي هو من اعتقل إيه جي، فقد يؤدي تورطه إلى منح مظهر انتقامي للشرطة ضد عائلة بيكر، وربما حتى خلق مشاكل لمحاكمة مرتكبي جريمة الاصطدام والهرب. لذلك، مشيت المسافة القصيرة من المخفر إلى السجن، وطلبت من لوميلي أوراق اعتقال إيه جي. وضع جانبًا الرواية الرومانسية التي كان يقرأها وأحضر الأوراق إلى المنضدة، وظل جوريكي يحوم حولي بعصبية طوال الوقت. سألني: «ما الخطب؟».

«هل اعتقلته بسبب دخان العادم؟ هذه مخالفة إصلاح».

«وهذا ما كنت سأفعله، ثم اكتشفت رخصته المعلقة».

«هل تخبرني أن لا علاقة لهذا بحبيبتك؟».

«لا. وقد انتهت علاقتنا على أي حال».

كنت على وشك إعادة الأوراق إلى لوميلي عندما لاحظت أن عنوان إيه جي مسجل على أنه 8500 ساني سلوب درايف، وهو عنوان والديه أيضًا. وقد تذكرت فجأة أنه عندما التقيت بهما، كانت زوجة ابنهما في غرفة المعيشة، تشاهد مسلسل دايز أوف أور لايفز، وقدماها مسندتان إلى الأريكة. كان من الممكن تتبع قصة مختلفة من هذه التفاصيل. ربما كان آل بيكر يتقدمان في العمر، فانتقل إيه جي لمساعدتهما، أو اصطحابهما إلى مواعيد الأطباء أو تتبع أدويتهما. أو ربما مر هو بأوقات عصيبة، ولهذا السبب انتقل للعيش معهما حتى يتمكن من الوقوف على قدميه مرة أخرى. كيف كان ذلك؟ لم يكن الأمر سهلًا، أن تعيش مع أفراد عائلتك وأنت متزوج بالفعل وتبلغ الثلاثين من العمر. هل أدى ذلك إلى إدمانه الكحوليات، وفيما بعد، إلى سحب رخصته؟ أم أن سحب الرخصة هو السبب وراء عودته إلى المنزل في المقام الأول؟ سألت: «أين هو الآن؟».

قال لوميلي: «الزنزانة ب-8»، وضغط زرًا لفتح الباب.

عبرت الردهة، وجوريكي يسير في عقبي. كان الضوء المنبعث من نوافذ الزنزانات يتساقط في خطوط حادة على الأرضيات الخرسانية، وظهرت رائحة مطهر خفيفة في الهواء. عند سماع وقع خطواتنا، جلس إيه جي على سريره. لاحظت المفاجأة في عينيه عندما رآني بدون زي رسمي ولكن بشارة محقق مثبتة على حزامي. انتقل بعينيه إلى جوريكي، وكأنه يلومه على هذا التحول الجديد في الأحداث، ثم استلقى على سرير الزنزانة وحدق في السقف. قلت: «مرحبًا يا إيه جي. هل يمكنني مناداتك بإيه جي؟».

التزم الصمت. وعبر الردهة، جاء صوت انغلاق باب معدني.

«هل تحتاج إلى أي شيء؟ شطيرة أو بعض القهوة؟»، ظل يتجاهلني، فأدركت أن وجود جوريكي لم يكن مفيدًا. «لدينا بوفيه في الطابق العلوي اليوم، أليس كذلك؟ هل يمكنك أن تحضر له طبقًا؟».

«أنا لست خادمته اللعينة. سيحضرون له شيئًا الليلة».

لم أكن بحاجة إلى السؤال عما إذا كان جوريكي يعرف الرجل، فموقفه العدائي يوحي بكل شيء. وقف بجانبي ويداه على خصره، منتظرًا ليرى ما سأفعله تاليًا. لقد لفحت شمس الصيف بشرته، وكانت هناك تجاويف رمادية تحت عينيه. قلت: «هذا وقت طويل من الآن. يمكنه تناول وجبة خفيفة».

قال: «أنت تضيعين وقتك، فلن أتحدث».

فقلت: «نحن لا نتحدث. إننا نلقي السلام فقط».

«يمكنك أن تسلمي على المحامي الخاص بي. عندما أجري مكالمتي».

التفت جوريكي إلي. قالت عيناه: *أترين؟ إنه أحمق، كما أخبرتك*. لكن هذا جعلني أكثر فضولًا بشأن القصة التي بدأتُ في تجميع أجزائها معًا.

«اذهب وأحضر لإيه جي شيئًا ليأكله»، قلت بنبرة توضح أن هذا أمر. انتظرت حتى غادر، ثم عدت إلى الزنزانة. «حسنًا، بتنا بمفردنا الآن. ربما يمكننا تسوية هذا الأمر برمته بسرعة، وإعادتك إلى المنزل وعائلتك. أنت تعيش معهما، أليس كذلك؟».

أصدر إيه جي صوتًا بشفتيه. لعل هذا قد يعني *وما شأنكِ يا امرأة؟* أو *أجل، أنا أعيش معهما وهذا أمر مزعج*، أو شيء آخر تمامًا.

قلت «اسمع. لا تقسو على نفسك. هذه الأشياء تحدث. إن عمي واعظ معمداني، وهو أكثر الرجال استقامة ممن قابلتهم على الإطلاق. ذات مرة في عيد الميلاد، نسيت عمتي طلاء لحم الخنزير، فقرر أن يذهب سريعًا إلى المتجر، مع أنه تناول مشروبًا أثناء انتظار العشاء؛ فانتهى به الأمر بالحصول على مخالفة القيادة تحت تأثير الكحوليات. هذا وارد. وسحب الرخصة أمر قاسٍ يا رجل. يحتاج المرء للتنقل من مكان إلى آخر ولا يمكنه أن يجد توصيلة. إنه حظ سيئ. أتفهم ذلك».

قال بصوت حاد: «أنت لا تفهمين».

«ما الذي لا أفهمه؟ سُحبت رخصتك، أليس كذلك؟ كما قلت، هذا صعب. خاصة مع مدة تسعة أشهر. الآن عليك أن تطلب من الناس أن يقلوك أو تستعير سيارة والدتك لمجرد التجول».

قال: «إنك تضيعين وقتك» واستدار نحو الحائط. كان رجلًا طويل القامة، مثل والده، فتدلت قدماه عن الفراش. «على أي حال، أنا لا أتحدث إلى زنجية».

قالها بصوت منخفض، ومع ذلك، سمعتها. عبر الردهة، جلجل الباب المعدني عندما انغلق خلف جوريكي. كنتُ بمفردي، فعادت بي الذاكرة إلى سن تسع سنوات وإحدى عشرة وأربع عشرة. لم يكن هناك فرق؛ إذ تألمت بنفس القدر في كل مرة. الشيء الوحيد المختلف هو من قالها، وردة فعلي. تركت الفناء وأنا أذرف الدموع، أو شكوت إلى المعلم، أو انخرطت في معركة على الدرج نتج عنها ثلاث غرز على حاجبي. وحاولت دائمًا التخلص من أثر الإهانة، بيد أني كنت أشعر بأن الوقت قد فات، لقد لطختني بالفعل. بعد ذلك، انصرفت أفكاري صوب ابني. في ذلك الصباح، كان يقود دراجته إلى المدرسة مع براندون، فلوّح لي عندما قلت: توخّ الحذر لدى عبورك سكك حديد يوكا. «لا تقلقي يا أمي!» لكني كنت قلقة عليه طوال الوقت؛ هذا معنى أن أكون أمًا.

بكلتا يدي، أمسكت بالقضبان المعدنية للزنزانة. «ماذا قلت لي للتو؟».

التزم الصمت. كان ينتظر مغادرتي.

«أنت. أنا أتحدث إليك».

عندما شعر أنني ما زلت أقف عند باب الزنزانة، تحرك سريره مرة أخرى وجلس في مواجهتي. ثم تحدث ببطء ووضوح، مشددًا على كل كلمة. «قلت: أنا لا أتحدث إلى زنجية لعينة. هل سمعتني هذه المرة؟».

شددت يديّ على القضبان. وفكرت في ما قالته لي نورا الغراوي، وما قلته في المقابل؛ أن ما حدث لها في المدرسة الثانوية منذ سنوات عديدة لم يكن ذا صلة بقضية الاصطدام والهرب. لكنني كنت مخطئة. لا يمكن فصل الحاضر عن الماضي قط، ولا يمكنك فهم أحدهما دون الآخر. قلت: «سمعت»، ثم استدرت وغادرت. عند المكتب الأمامي، طلبت من لوميلي أن يمنحني القليل من الوقت، لأنني بحاجة للنظر في شيء ما.

بعد عشرين دقيقة، عندما توقفت لدى المنزل في ساني سلوب درايف، وجدت هيلين بيكر في الخارج، ترفع العلم الأحمر على صندوق بريدها. كانت امرأة طويلة القامة، بشفتين رفيعتين لم يمسهما الماكياج وشعر أشيب هلى هيئة ذيل حصان عال، مثل مدربة في صالة الألعاب الرياضية. راحت تحجب عينيها عن الشمس بيدها وهي تراقبني أترجل من السيارة وأتجه إليها. وقد وقف كلباها، وهما زوجان من الكولي، عند قدميها، وهما يلهثان بشدة بسبب الحرارة. قلت: «طاب يومك يا سيدة بيكر». مددت يدي لأصافحها، وعلى الفور اقترب الكلبان لشمها. «يا لها من كلاب لطيفة. ما اسمهما؟».

قالت على مضض: «هذا لويال». بدت رعشاتها أسوأ من المرة السابقة التي رأيتها فيها، عندما جئت لمقابلة زوجها حول حادث الاصطدام والهرب. «وهذا رويال».

«يلح ابني عليّ لشراء كلب، لكنني لست واثقة من السلالة الأفضل».

«لن تندمي على اقتناء واحد من فصيلة الكولي».

«توصيني بها إذًا؟»، فركت ذقن رويال - أم أنه كان لويال؟ - فمد رقبته بسرور واضح. أطلق الكلب الآخر صرخة احتجاج. «المشكلة هي أن ابني مستعد بالفعل لامتلاك مختبر شوكولاتة. تعرفين كيف هم الأولاد. حين تخطر فكرة في رؤوسهم، من المستحيل إخراجها».

سألتني: «ما سبب زيارتك؟».

نظرت خلفها نحو المنزل، تحت شمس العصر الشديدة. كان المرأب مفتوحًا وفارغًا. «هل يمتلك ابنك سيارة يا سيدة بيكر؟».

قالت بعد لحظة من التردد: «ليس في الوقت الراهن. لماذا تسألين؟».

«كنت أتساءل فقط. لم أر أي مواقف حافلات في الطريق إلى هنا. إذا كان إيه جي لا يمتلك سيارة، فكيف يتنقل؟ هل يستعير سيارتكم؟».

وضعت يدها على صندوق البريد، كما لو كانت توازن نفسها. اقترب منها أحد كلابها، وطلب أن تداعبه، لكنها تجاهلت ذلك. كانت تراقبني، وتحاول أن تقرر ما يجب أن تقوله تاليًا.

«ولعله استعار سيارة زوجكِ أيضًا في أبريل الماضي».

قالت بنبرة توسل: «لقد كان مجرد حادث. هذا كل شيء».

بدت وكأنها تقول، كلتانا أم. ألم أدرك أن رغبتي في حماية ابني كانت أمرًا فطريًا؟ حككت الندبة على حاجبي بإبهامي، وهي عادة قديمة أعود إليها من وقت لآخر. وفي رأسي، كنت قد رتبت قطع القضية بطريقة ما، لكنني أرى بوضوح الآن أنها تنسجم معًا بطريقة مختلفة. بطبيعة الحال، كان من الطبيعي أن ترغب السيدة بيكر في حماية ابنها. ولكن من الذي يحمي الآخرين منه؟

أندرسون

أصبحت أبًا في وقت متأخر من حياتي. كم تمنيتُ أن أُرزق بابن، ولما تحققت أمنيتي بعد خمسة عشر عامًا، تفاجأت كيف أن الوضع مختلف بشدة عما تخيلته. لقد كان أحلى من أكثر أحلامي جموحًا. أتذكر فصل الصيف الذي وُلد فيه إيه جي، وكيف كنت أجلس على الأريكة وهو في أحضاني، نائمًا، ويسيل لعابه على قميصي. كان طفلًا سعيدًا ولطيفًا، فقد نام بسلام ليلًا وهو في شهره الثالث، ومر بمرحلة التسنين دون ضجة أو متاعب. كلما حاولتُ أن أفكك رموز الماضي وأختار اللحظة المحددة التي ساءت فيها الأمور، أفشل. ولا أستطيع أن أجدها أبدًا. ربما كان ذلك عندما بدأت هيلين في تدليله، ولم أتحرك لوقف الأمر، أو عندما كان في فناء المدرسة، وجلس بمفرده بدلًا من اللعب مع الأطفال الآخرين. أو ربما بعد سنوات، في المدرسة الثانوية، عندما تحول إلى متنمر. من الصعب أن تحب المتنمر، ولكن يعلم الله أنني أحببته من صميم قلبي.

حاولت أن أساعده، لكنه لم يصغِ إليّ، على الأقل في المسائل المهمة؛ كما جرى عندما أراد أن يبدأ تجارة رعاية الكلاب، فأخبرته على الفور أن التوقيت غير مناسب، وأن البلاد تمر بحالة ركود، لكنه اعتقد أنني بخيل فقط، ولا أرغب في إقراضه مبلغ الـ50 ألف دولار الذي طلبه، وجعل والدته تضغط علي لإعطائه إياه. لقد خسره كله بطبيعة الحال. وأعتقد أن هذا سبّب له الكثير من الإحراج، وبعض الغضب أيضًا بسبب الطريقة التي خسر المال بها. كان يتشاجر كثيرًا مع زوجته، ويخرج للشرب، فانتهى به المطاف مع مخالفة القيادة تحت تأثير الكحوليات. لم نكن نتحدث مع بعضنا قط في ذلك الوقت، بل اكتشفت كل هذا لاحقًا من والدته. لذلك، عندما اتصل بي في وقت متأخر ذات ليلة، صُدمت. كنت قد عدت للتو إلى المنزل من العمل وأفتح علبة بيرة عندما رن هاتفي. سألته: «ما الخطب؟» معتقدًا أنها حالة طارئة، فلم أكن معتادًا على أن أسمع منه مباشرة.

«لا شيء يا أبي».

لم يقل أي شيء آخر؛ فلم يسألني عن حالي، أو يوضح سبب اتصاله. لعله حاول الاتصال بهيلين، لكنها كانت في كانساس في عطلة نهاية الأسبوع لحضور جنازة ابنة شقيقتها. متى غابت عن البيت، كانت تترك تعليمات على

الثلاجة بشأن ما يجب أن آكله وكيف أحضّره. وقد كتبتها بخط جميل، وأتذكر قراءتي الخطط التي وضعتها لي ليلتئذٍ. الثلاثاء: *تناول خبز زيتي. اضبط الفرن على درجة 350 وسخنه لمدة 15 دقيقة.* تركتُ المطبخ وعبرت غرفة المعيشة، حيث كان الكلبان نائمان، وخرجت إلى الفناء الخلفي مع البيرة. كانت ليلة صافية. قلت: «النجوم ساطعة الليلة»، لكسر حدة الصمت.

قال: «فكرت في أن...»، ثم سكت مجددًا.

جلست على كرسي فوق العشب، ولم أعبأ بكونه مغطى بالغبار والرمال، ثم أخذت رشفة من البيرة. سألته: «كيف حال أنيت؟ هل كل شيء على ما يرام بينكما؟».

«نحن بخير. الأمر لا يتعلق بذلك».

«ما الأمر إذًا؟».

«لقد بعتُ لافتة متجري اليوم».

يجب أن أصف هذه اللافتة، لأن إيه جي أنجزها بنفسه. لطالما كان لديه حس فني - يمكنه رسم أي شيء تقريبًا - لذلك، عندما افتتح نشاطه التجاري لرعاية الكلاب، بذل الكثير من الجهد في اللافتة. لقد بنى تمثالًا لكلب من فصيلة كولي يبلغ ارتفاعه خمس أقدام من الفولاذ المطلي، مع عظمة في فمه تتوهج ليلًا، وثبته على سطح المبنى. وقد لفتت الأنظار، ودائمًا ما تحدث عملاؤه عنها عند دخولهم، فقد مثلت مدخلًا لمحادثة. كنت أعرف ما تعنيه تلك اللافتة بالنسبة له، وفوجئت أنه تخلى عنها. «لمن ستبيعها؟» سألته.

«شخص ما يريد أن يذيبها. حصلت على أربعين دولارًا مقابلها».

«هذا جيد». كنت أحاول أن أبدو مشجعًا، على الرغم من أن أربعين دولارًا كانت قطرة في بحر المال الذي يدين به للبنك.

قال: «ماذا أفعل الآن يا أبي؟».

بدا خائفًا للغاية، فتذكرت عندما كان في الرابعة من عمره وأغلقت أبواب المصعد في فندقنا في لاس فيغاس خلفه وفصلت بيننا. استغرقنا عشرين دقيقة من ركوب هذا المصعد اللعين صعودًا وهبوطًا قبل أن نجده. كان يبكي، ويمسك بسوءته حتى لا يبلل نفسه. بعد ذلك، أمسك بيد هيلين طوال اليوم، ولم يتركها.

أخذت رشفة من البيرة وتساءلت عما إذا كان يهتم حقًا بما سأقوله. لم يسألني عن رأيي من قبل في أي شيء، ولكن مع استمرار الصمت أدركت أنه جاد. قلت: «لماذا لا تعود إلى المنزل؟ يمكنك العمل معي، وتوفير مصروفاتك، والوقوف على قدميك مرة أخرى».

«ولن تمانع ذلك؟».

«بكل تأكيد لن أمانع. أنت فلذة كبدي».

عاد للعيش معنا في أواخر الربيع، إلى جانب زوجته وابنته وسنجابها وكلابه. أضحى المنزل أضيق وأكثر زخامًا وصخبًا فجأة، فاستغرق الأمر بعض الوقت للتأقلم عليه. وقد عثرت أنيت على وظيفة في شركة ببالم سبرينغز، في حين جاء إيه جي للعمل معي، لكنهما تخلفا عن سداد بعض الديون والفواتير. ما أحاول قوله إن الأمر لم يكن سهلًا. كنا جميعًا تحت ضغط كبير، سواء في المنزل أو في العمل. ومع ذلك، للمرة الأولى في حياتنا، قضيت أنا وإيه جي أيامًا كاملة معًا. تحدثنا كثيرًا، وطرح عليّ كل أنواع الأسئلة حول العمل. وجعلني أشعر أن هناك اتصالًا بيننا.

بطبيعة الحال، ما كان يتعين عليه القيادة في تلك الليلة. لكن هيلين لم تستطع القيادة، بسبب رعشاتها، ولم ترغب زوجته في الانخراط بأي شيء يخص صالة البولينغ. لذا، لم يترك هذا لنا الكثير من الخيارات، إذا أردنا إدارة أعمالنا. وأستطيع القول إنه أخذ السيارة عدة مرات فقط، عندما لم يكن هناك من يقله. ما حدث لجارنا كان مجرد حادث. لم يكن خطأ إيه جي، لكنني أدركت أنهم سيجعلون الأمر يبدو كذلك بسبب سجله. كل ما أعرفه هو أن ابني ليس رجلًا سيئًا. إنه فتى طيب في جوهره. وأتمنى أن أسد الفجوة بين الطريقة التي كانت عليها الأمور والطريقة التي هي عليها الآن. ربما لهذا السبب أحاول سرد هذه القصة.

إيه جي

بعد يومين من توقيفي، أخبر شخص ما إحدى المراسلات، فتصفحت حساباتي على وسائل التواصل الاجتماعي، وقصت بعض التعليقات والاقتباسات خارج السياق، وحولتني إلى متوحش. وبطبيعة الحال، ابتلع قراء صحيفة ذا ديزرت صن الطعم. إنه أمر مضحك، فالجميع يمضون في الاحتفال بالثقافات المتنوعة، ولكن في اللحظة التي تتحدث فيها عن ثقافة البيض، ينقلب عليك الليبراليون المستنيرون ويطلقون عليك سهامهم. أرسل شخص ما رسالة إلى المحرر يصفني بالعنصرية، وهو ما يطلقونه على أي شخص أبيض هذه الأيام. فهل يُسمح لأي شخص أن يفخر بتراثه، إلا أنا؟

ولكن ما أثار غضبي هو أنه بعد دفع الكفالة وخروجي، بدأ بعض الناس يتصرفون وكأنني وحش؛ مخلوق له قرون وأنياب. لكني لم أكن كذلك؛ لقد كنت مثلهم بالضبط: أحببت عائلتي، ولعبت مع كلابي، واشتريت تذاكر اليانصيب كلما دخلت محطة الوقود، ثم قضيت أيامًا أتخيل ما سأفعله إذا فزت بملايين الدولارات. وإذا كان ثمة أي شيء يميزني عن غيري، فهو أنني توليت مسؤولية نفسي فقط. فمثلًا، عندما تخرجت من الكلية، كانت البلاد في منتصف أسوأ ركود شهدته منذ قرن من الزمان، لكنني لم أجلس وأتقمص دور الضحية، كما يفعل الكثيرون. لا، لقد اقترضت بعض المال من أهلي وبدأت عملي الخاص في إيرفين، دار رعاية للكلاب.

لم يتحمس والدي بشأن إقراضي المال بالطبع. لقد كان بخيلًا ولم يقتنع أن الكلاب استثمار جيد، لكن والدتي تحدثت معه في الأمر. واتضح أنه مخطئ، لأن عملي كان جيدًا جدًا. أطلقت على الدار اسم *كفوف ومخالب*. وبخلاف خدمات الرعاية، قدمت جميع أنواع الخدمات الأخرى، مثل التزيين والإيواء. وبنهاية عامي الأول، كنت قد بنيتُ بالفعل قاعدة عملاء قوية من الشركات التقنية الناشئة في المنطقة، والمبرمجين الذين عملوا لساعات طويلة ولم يكن لديهم الوقت لتفسيح كلابهم أو اللعب معهم كل يوم. ثم تزوجت من حبيبتي في الجامعة، أنيت، ورزقنا بطفلة. كان كل شيء يسير على ما يرام. كنا سعداء. لكني لم أدرك ذلك إلا بعد مرور ما يقرب من ثلاث سنوات، عندما سُلب مني كل شيء.

في ذلك اليوم، كنت أعيد اثنين من كلاب الصيد وثالث من فصيلة هاسكي من نزهتهم بعد الظهر عندما قفزت إحدى عميلاتي الجدد من سيارتها وركضت نحوي. كان اسمها غريس تشين. بدأ الهاسكي ينبح عليها - بعد أن اندفعت نحوي بعدوانية - واضطررت إلى كبح جماحه حتى أتمكن من سماعها. ومع ذلك، لم أفهم معظم ما تقوله، إذ كانت لغتها الإنجليزية سيئة للغاية. لكنني فهمت أنها تريد أن تأخذ بينات عن كلب من فصيلة جاك راسل، الذي تركته لدي خلال عطلة نهاية الأسبوع. قلت لها: «أعطني دقيقة فقط». ثم أدخلت الكلاب الكبيرة بأمان. كانت قد تركت سيارتها اللكزس في منتصف الطريق، مع تشغيل مصابيح الطوارئ. أتذكر أن شعورًا سيئًا تملكني حيال ذلك؛ وكأن كارثة ما على وشك الحدوث. أخذت كلبي الصيد والهاسكي إلى الداخل، وحررتها من ألجمتها داخل أقفاصها، ثم عدت لإحضار كلب جاك راسل. جلجل جرس البوابة خلفي، فأدركتُ أن غريس تشين قد دخلت.

أريد أن أؤكد أنني اتبعت جميع القوانين واللوائح عندما أنشأت عملي. أنا متأكد من أن بينات كان يعاني من بعض الأمراض في السابق، لأنني لم أفعل أي شيء يمكن أن يتسبب في وفاته. لقد أطعمته نفس الطعام ونفس الماء كل يوم، لذلك لا يمكن أن يصيبه أي شيء فعلته بالمرض. لكنه لم يكن يتحرك، ولا حتى بعد أن ناديته باسمه، ولما أدركت أن ثمة خطبًا ما، بدأت السيدة تشين تشونغ تزعجني. سألتني: «ماذا فعلت لكلبي؟ ماذا فعلت؟».

قلت: «لم أفعل أي شيء». ثم داعبته، وأقسم أنه تحرك. «أترين؟».

مشت حول المنضدة، متجاهلة تمامًا اللافتة التي تقول *الإدارة فقط*، وأتت لتقف بجواري. وعندما لاطفته، لم يتحرك. ثم حاولت حمله، فراح يعرج. أطلقت صرخة وكأن شخصًا ما يسلخها حية. وحتى قبل أن يتمكن الطبيب البيطري من معرفة سبب الوفاة بالضبط، أخبرت الجميع في عملها أنني قتلت الكلب. كانت مهندسة قواعد بيانات، وتعرف معظم عملائي الآخرين، وهكذا، فقدت الكثير منهم. وبعد أن رفعت الدعوى القضائية، لم أستطع مواكبة الأمر من الناحية المالية. أمضيت العديد من الليالي يجافيني النوم وأنا أفكر في أحداث ذلك اليوم، وما زلت لا أستطيع معرفة كيف مات بينات. لم يكن السبب هو الطعام أو الماء، أنا موقن من ذلك. لعله أكل شيئًا عندما أخذته في نزهة. على أي حال، لم يكن خطئي. ومع ذلك، بدأ نزيف العملاء من كل صوب. لم أصدق ما جرى. لقد هاجرت هذه المرأة إلى بلدي، وبالكاد يمكنها التحدث بلغتي، ثم رفعت دعوى قضائية علي بسبب الإهمال.

لم يكن منطقيًا الاحتفاظ بتجارتي، على الأقل ليس في منطقة إيرفين، لكني لم أمتلك المال للبدء في مكان آخر. وقد ازدادت حالة أمي سوءًا، لذلك انتهى بي المطاف بالعودة إلى المنزل. كنت أحسب أنني سأعتاد على إدارة صالة البولينغ، لأنها ستؤول إليّ يومًا ما. كان والدي في الثامنة والسبعين من عمره في ذلك الوقت، وقد تجاوز سن التقاعد، لكنه لم يرغب في ذلك. إنه أحد المواقف التي يتعين علي الانتظار فيها، على الرغم من أن لدي العديد من الأفكار حول العمل. لقد كنا في حاجة إلى تحويل المقصف إلى بار كامل للوجبات الخفيفة، وشراء أجهزة ألعاب جديدة، وتشغيل موسيقى أفضل في الليالي الخاصة، وتعليق لافتات جديدة، وأشياء من هذا القبيل. ولكن كلما طرحت عليه هذه الأفكار، قال إنها ستكلف أموالًا باهظة، وقد منحني بالفعل كل مدخراته لبدء تجارتي الفاشلة.

إن ما أصاب جارنا كان حادثًا، وليس متعمدًا. كان الظلام شديدًا ولم أره إلا بعد فوات الأوان. أعني، لماذا سأرغب في قتله؟

إدريس

أعتقد أنني ذكرتُ مقدمًا أن العمل انكمش في ذاك الشتاء؛ فقد افتُتح مطعمان جديدان على بعد كيلومترات قليلة غربي الطريق السريع، وعلى الرغم من أن أحدهما كان متجرًا للشطائر والآخر مقهى يقدم المعجنات والبسكويت فقط، إلا أن القلق تملكني بشأن المنافسة. أربعون في المائة من عائداتي تأتي من السياح، والأشخاص الذين يتوقفون هنا فقط في طريقهم إلى الحديقة الوطنية أو حفلة موسيقية في الصحراء، لذلك فكرت في إدخال بعض التغييرات. كنت أرغب في استبعاد لحم البقر المعلب وعصي الجبن المقلي من القائمة، وإضافة سلطات جديدة وعصائر الفاكهة، واستبدال أرضية الفينيل عند المدخل، وربما أبحث في ترخيص الكحول هذا. ونظرًا لأن السيارات تمضي مسرعة على الطريق السريع ولدي فرصة واحدة فقط لجذب انتباه السياح، فقد ثبتُّ لافتة جديدة.

كانت اللافتة القديمة، التي ورثتها من المالك السابق، مصنوعة من الخشب، وكُتبت الكلمتان ذا بانتري باللون الأبيض على خلفية خضراء. كانت جميلة، لكن ألوانها تلاشت منذ فترة طويلة وأحيانًا تحجب شجرة بالو فيردي على الرصيف جانبها الأيمن. وفي الربيع، عندما تزهر الشجرة بالورود الصفراء التي تدلت على اللافتة، بدا أن الكلمة هي بان أو أحيانًا با فقط. كما كان من الصعب رؤيتها في الليل، نظرًا لوجود عدد قليل جدًا من أعمدة الإنارة على الطريق السريع. وقد أدرك هذا صاحب متجر الأجهزة على بعد شارعين من مطعمي منذ سنوات، وعلّق لافتة نيون.

في إحدى ليالي فبراير، أثناء عملي عند المنضدة، وبينما كان رافي يمسح الأرضيات، رسمت تصميمًا جديدًا على قطعة من الورق. احتفظت بالخشب، لأنني أردت أن تظل العلامة مألوفة لعملائي، لكنني جعلتها أكبر - ثماني أقدام في سبع، أكبر بكثير من القديمة - وغيرت الألوان إلى الأحمر والأبيض للحصول على تمايز أكبر. وقررت أن أعلقها أعلى، حتى لا تحجبها الشجرة، ولحسن الحظ أضفت سهمًا منحنيًا فوقها، مصنوعًا من المعدن ومنقطًا بمصابيح. كانت بياتريس هي من أعطتني فكرة السهم المضيء، قائلة إنه سيعطي السرادق مظهرًا كلاسيكيًا مثاليًا لمطعم مثالي.

أخذت تصميمي إلى متجر لافتات محلي باكرًا من صباح اليوم التالي. لم أستطع التخلص من الشعور بأنني على وشك التغيير، وأنني قد اتخذت

أخيرًا الخطوة الأولى في مغامرة حلمتُ بها لسنوات دون أن أتجرأ على المضي فيها. وبصرف النظر عن الخطط التي وضعتها للمطعم، كانت لدي خطط مع بياتريس، مما يعني أنه يتعين علي إجراء محادثة صعبة للغاية مع مريم. كنت أستيقظ كل صباح وأقول لنفسي هذا هو اليوم الذي سأخبرها فيه، ثم أعود مساء إلى المنزل وأؤجلها إلى يوم آخر. لذلك شعرت أن الشتاء كله مليء بالمخاطر والمشاعر المتناقضة التي لم أختبرها بهذه الحدة منذ أن كنت شابًا.

استغرق الأمر أربعة أيام فقط حتى تُصنع اللافتة، وستة أسابيع أخرى للحصول على التصاريح. كان من المقرر أن تُثبت في 28 أبريل، وعندما أخبرني المتجر أنه سيرسل شاحنة لنقلها، أخبرتهم بالحضور باكرًا في الصباح، قبل فتح صالة البولينغ. لكنهم لم يستمعوا إليّ، أو ربما كانوا مشغولين جدًا في ذلك اليوم. وصلت الشاحنة إلى المطعم الساعة الحادية عشرة صباحًا تقريبًا، وقد سدت الرافعة جزءًا من ساحة الانتظار، فاضطررت إلى نقل سيارتي إلى الجانب الجنوبي من شارع تشيمهويفي لإفساح المجال للزبائن. استغرق الأمر ساعة لإزالة اللافتة القديمة وتثبيت الجديدة، وبينما استهلكت طاقتي في ضمان أن الناس يمكنهم الدخول والخروج بأمان من الموقع، وأن المقاول اتبع تعليماتي، وقف ابن بيكر خارج صالة البولينغ، يراقبنا.

بعد أن غادرت الشاحنة، وقفتُ أنظر إلى اللافتة الجديدة بإعجاب. لقد جاءت أفضل مما توقعت، وشعرت بالرضا عن عملي، وبالحماس لإنجاز مشروع صغير آخر. يعود تاريخ المصابيح المعلقة فوق الأكشاك الجلدية إلى عام 1959، عندما جرى افتتاح المطعم لأول مرة، ومع أنها كانت مصنوعة من زجاج كريمي جميل، إلا أنها كانت قاتمة للغاية لدرجة أنها جعلت المكان يبدو كمنزل أشباح ليلًا. لذا، قررت تقوية المصابيح إلى 75 واط - كي تكون ساطعة بما يكفي لرؤية القائمة، وتظل حميمية بما يكفي لتناول وجبة مريحة. وهكذا، في تلك الليلة، طلبت من مارتي العودة إلى المنزل وأخبرته أنني سأتكفل بالإغلاق.

أغلقت الأبواب الأمامية، ثم أخرجت المصابيح من غرفة التخزين. وتحت الضوء الباهت للمنضدة، انتقلت من طاولة إلى أخرى، ورحت أغير المصابيح القديمة بالجديدة. ثم أشعلتها، فظهر صف الطاولات. بعد ذلك، خرجت إلى ساحة انتظار السيارات لأرى كيف بدا المطعم من الخارج. كان المكان كله مشرقًا وجذابًا لدرجة أنني فكرت في ترك الأضواء تعمل طوال الليل. ومن زاوية عيني، رأيت ابن بيكر يخرج من صالة البولينغ، حيث وقف بجانب سيارة والده وراقب مطعمي لمدة دقيقة، وكأنه أحد ملاكه أيضًا. كان

فتى نحيفًا ذا عينين ماكرتين، ولكن الآن بعد أن أصبح رجلًا، امتلأ جسده وأصبح لديه نظرة حادة جدًا. مجددًا، شعرت بأنني مراقَب.

ومع ذلك، كان يومًا جيدًا، وعندما تركت المطعم وأغلقت الأبواب ورائي، كنت مفعمًا بالأمل في المستقبل. قلت في نفسي سأفعلها الليلة؛ الليلة سأخبر مريم عن علاقتي ببياتريس، ولن أؤجل الأمر أكثر من ذلك. سرت إلى سيارتي وأنا أهزهز مفاتيحي في يدي.

جيريمي

كنت أسير في ممر جرى رش جدرانه مؤخرًا بالكتابات وخربشات باللونين الأزرق والأصفر لم أستطع تبينها. وقد سدّ صندوق مرتفع طريقي جزئيًا، ولما مررت حوله، اقترب مني ثلاثة منهم. أطلقت النار فقتلت واحدًا وأصبت الاثنين الآخرين. ثم رن جرس الباب، فضغطت زر الإيقاف المؤقت، فتجمدت بندقيتي في وسط الشاشة، وفحصت نتائجي. كنت أتخلف بأربع نقاط عن المستخدم داميان 85، وهو لاعب كندي أحاول التغلب عليه منذ أسابيع. أخرجت محفظتي، وذهبت إلى الباب الأمامي، محاولًا أن أتذكر ما إذا كان لحم الضأن سيكلف 14 أم 16 دولارًا. لكنه لم يكن عامل التوصيل، بل كانت نورا. ارتعد قلبي.

أعدت النقود إلى محفظتي وتنحيت جانبًا، فدخلت، وفي أثرها رائحة عطر ضعيفة. لا أثر لزينة على وجهها. أو تلك القلادة الفضية حول رقبتها. ثم لاحظت أنها تحمل في يديها حقيبة تسوق بنية اللون فيها حذائي وقبعات وملابس تبرز منها؛ كل الأشياء الصغيرة التي تركتها في كوخها. هكذا إذًا؛ لقد وصلنا إلى مفترق الطريق، المكان الذي ينتهي فيه الحب. كنت أهيئ نفسي لهذه اللحظة منذ أسابيع، ومع ذلك فقد جاءت ووجدت نفسي غير مستعد. قلت، مشيرًا بذقني نحو الزاوية الأقرب لها: «يمكنك ترك هذا هناك».

لكنني لم أكن مستعدًا لرد فستانها المعلق في خزانة ملابسي؛ الفستان الذي دفنت فيه وجهي حتى لم أعد أستطيع شم رائحتها. كنت أرغب في الاحتفاظ بعلبة حبوب منع الحمل المطلية بالمينا التي تحتوي على مكملات الفيتامينات الخاصة بها، والتي لا تزال موجودة حيثما تركتها على طاولة الحمام. لم أستطع التخلي عن نسختها من كتاب *ذا فاير نيكست تايم* بجانب فراشي، حيث عجت الهوامش بملاحظات طويلة لدرجة أنها امتدت إلى الحواف وإلى الصفحة التالية. كلها علامات تدل على أنها كانت هنا؛ دلائل على أنها شاركت حياتها معي لبعض الوقت. وضعت الكيس الورقي على الأرض وراحت تجول بنظرها على فوضى غرفة معيشتي؛ لعبة إطلاق نار من على التلفزيون، أوقفت في اللحظة التي تناثر فيها الدم على الشاشة؛ وكومة ملابس فوق الأريكة حيث أنام أو أحاول النوم معظم الليالي؛ وزجاجات البيرة

والويسكي؛ وكتب ومفكرات ملقاة تحت طاولة القهوة يغطيها الغبار. ثم ثبتت عينيها علي. سألتني: «كيف حالك؟».

«أنا على خير ما يرام».

كنت أحاول استفزازها، لكنها تجاهلت نبرتي الساخرة تمامًا. قالت بعد لحظات: «لقد سمعت من المحققة كولمان».

هذا هو سبب قدومها إذًا. هذا فحسب، ولا شيء آخر.

«لا أصدق أن إيه جي قتل والدي، ثم ترك والده يتحمل الذنب عنه». هزت رأسها في ذهول. «وما كنا سنعرف أبدًا لولا توقيفك إياه».

هززت كتفي بلا مبالاة وقلت: «لم يكن لدي أي فكرة أن ذلك سيؤدي إلى هذا». لم يخطر الأمر ببالي ببساطة لأنني لم أكن أعرف كيف يكون الحال مع أب مثل أندرسون بيكر؛ أب لا يتورع عن فعل أي شيء للحفاظ على سلامة ابنه.

«في كلتا الحالتين، شكرًا لك يا جيريمي».

أومأت لها برأسي. لكن سماع صوت اسمي على شفتيها جلب لي ألمًا جديدًا، وتمنيتُ في أعماقي أن يتبدد سريعًا. ثم رن جرس الباب مرة أخرى، فشعرت بالراحة للمقاطعة وذهبت لأجيب. إنه جو، عامل التوصيل. كنت أطلب عشاء من مطعم هندي مرتين أو ثلاث في الأسبوع، وهناك أيام كان فيها جو هو الشخص الوحيد الذي أتحدث إليه من خارج العمل أو أحاول وضعه في السجن. قال بمرح «مرحبًا يا رجل»، وسلمني الكيس مع الإيصال الذي تم تدبيسه به، وجرى تمييز المبلغ المستحق باللون الأصفر. «إنه 21 دولارًا بالتمام والكمال. ثمة تخفيض على السمبوسة الليلة».

أخرجت النقود من محفظتي وعددت 25 دولارًا بسرعة.

سألني وهو ينظر من فوق كتفي: «هل هذه حبيبتك؟».

«ماذا؟».

ابتسم جو. «حبيبتك؟ تبدو جميلة».

سلمته النقود وأخذت الحقيبة البنية، ثم ركلت الباب بساق واحدة. انبعثت رائحة خبز النان الدافئ والثوم ولحم الضأن من الكيس، لكنني لم أعد

أشعر بالجوع. وضعت الطعام على طاولة المطبخ، ولما استدرت، وجدت نورا في المدخل. أن أقف بهذا القرب منها كان أمرًا لا يُطاق. شعرت بغصة في حلقي واضطررت إلى البلع بقوة قبل أن أتحدث. قاومتُ دموعي وأنا أقول: «لقد غادرت فقط».

جاءت لتقف عند المنضدة، أمامي. «اعتقدت أن كل ما حدث من قبل سيتكرر مرة أخرى. ولكن معي فقط، بدلًا من والدي».

«أخبرتك أنني لن أدع فييرو يؤذيك أبدًا».

«هذا ليس شيئًا يمكنك أن تعد به».

«تغادرين ببساطة إذًا؟ لم تتصلي بي أو تراسليني، بل اختفيت فحسب. يبدو الأمر وكأنني بلا قيمة بالنسبة لك؛ مجرد عكاز تخلصتِ منه عندما لم تعودي بحاجة إليه. لقد مضيتِ في حياتك فقط».

«كلا، لم أفعل. هذا ما أحاول أن أخبرك به. أنا محطمة مثلما كنت في السابق».

كل ما أردته هو الاعتناء بها، لكني فعلت العكس بطريقة ما. قلت: «لقد أفسدت الأمر. أدرك ذلك».

لمست ذراعي، وحينئذٍ، عاودتني الذكريات كطوفان. تذكرت كيف ارتمت في أحضاني لما قبّلتها أول مرة، هناك في الصحراء. وكيف لثمتني على ظهري عندما أخبرتها عن فليتشر. وقصيدة نيرودا التي وضعتها خلسة في جيب بنطالي الجينز وأنا أستحم ذات صباح واكتشفتها عندما كنت أتحسس مفاتيحي لاحقًا، في ساحة انتظار السيارات لدى ستاتر براذرز. وقتها، كنت أقف بجانب سيارتي حاملًا كيس ثلج يزن عشرة أرطال اشتريته، فراح يذوب تحت الشمس، وأنا أقرأها مرارًا وتكرارًا. *أحبك كنبتة لا تزهر بل تخفي نور تلك الزهور داخلها*. إنه أبلغ تعبير عن حبها لي. كانت الأسابيع القليلة التي أمضيتها معها هي المقياس الذي قستُ عليه بقية حياتي. قبل لحظات، كنت غاضبًا جدًا منها وأرغب في مغادرتها، والآن يعتصرني الشوق. همستُ: «اشتقت إليكِ».

قالت: «وأنا أيضًا اشتقت إليك».

ينبع الحب من لحظات كهذه، والآن بعد أن سمعت هذه الكلمات، عرفت أنه يمكننا إيجاد سبيل لنا في الحياة معًا. فتحت ذراعي فارتمت بينهما،

فملأ جسدها أحضاني تمامًا وكأنها لم تغادر قط. كل ما أردنا فعله هو مواصلة الحديث.

نورا

غادرنا أوكلاند في صباح يوم ممطر في سبتمبر. وقد اهتز القفل الموجود في الجزء الخلفي من شاحنة يو - هول أثناء مرورنا في الشوارع الضيقة في الحي الذي أسكن فيه، لكن الصوت اختفى بمجرد وصولنا إلى الطريق السريع. لقد خضت هذه الرحلة عدة مرات من قبل، مع أنني لم أقُد الشاحنة مطلقًا ولم أركبها قط مع والدتي، التي تخشى الحوادث بشدة، وطلبت مني مرارًا أن أبطئ. وقد وجدت خريطة لكاليفورنيا في صندوق التابلوه، فضلًا عن أغلفة حلوى، ومجلة قديمة؛ أشياء تركها الغرباء وراءهم. راحت تتصفح المجلة، ثم أعادتها ونظرت من النافذة. ثم مررنا بمزارع العنب، وبساتين الحمضيات، وحقول التسمين الصناعية التي استمرت رائحتها لأميال، وشاهدنا لافتات تلقي باللوم على الكونجرس في أزمة الجفاف، ولوحات إعلانية عن مطاعم عند المخرج التالي. بعد الظهر، أخرجت والدتي المجلة مرة أخرى وبدأت في قراءة التلميحات لألغاز الكلمات المتقاطعة في الخلف. *روح مطاردة*، خمسة أحرف. *بذلة الفيل القوية*، ستة أحرف.

وصلنا أخيرًا إلى الصحراء في وقت متأخر من الليل. وبمجرد أن أخذنا مخرج شارع 62، شغلت والدتي الراديو وبحثت عن إذاعة كي دي جي إل. قالت وهي ترفع مستوى الصوت: «كلوديا كوربيت على وشك البدء». اتصل رجل مسن بها ليقول إنه قلق على ابنه، الذي يعمل بأجر جيد في شركة رهن عقاري في دنفر، لكنه يعاني دائمًا من نقص المال. قال المتصل: «بغض النظر عن مقدار ما يكسبه، فهو دائمًا ينفق أكثر. ولا أفهم السبب». توقعت أن تقترح كلوديا أن يمزق الابن بطاقات الائتمان الخاصة به ويتبع خطة سداد ديون صارمة، لكنها راحت تطرح أسئلة حول طفولته وتربيته، وهي واثقة من العثور على جذور مشاكله المالية هناك. استمعت أمي بشغف؛ فقد أحبت هذا البرنامج الحواري، وتبين لي أن هناك عنصرًا مثيرًا فيه: إذ كسر هذا العرض الباب بين العام والخاص، وهو باب ظل مغلقًا بإحكام في حياتها. انتظرت حتى انتهت الحلقة قبل أن أغلق الراديو. قلت: «أريد أن أخبرك شيئًا يا أمي. إنه عن أبي».

«ما الأمر؟».

كنت أجهل كيف أفعل هذا، سوى التحدث بصراحة. لقد انتظرت طويلًا، وأنا بحاجة للتوقف عن حمل سر والدي. قلت: «كان يقيم علاقة غرامية».

أفلتُّ أنفاسي الحبيسة وانتظرت الأسئلة المزعجة التي كنت أعلم أنها ستتبع ذلك؛ ما الذي أتحدث عنه، وهذا مستحيل، وكيف أعرف شيئًا كهذا على أي حال. لم يكن من السهل تقبل أن الرجل الذي أحببناه قد فعل أشياء فظيعة، لأن الحب في جوهره هو تمييز شخص واحد على عدد لا يُحصى من الآخرين. أشاحت والدتي بنظرها عني وحدقت في الطريق أمامنا. كنا نسير في برية قاتمة من الكريوزوت، ونبات المسكيت، والعشبة المقدسة، تحرسها الجبال من جميع الجهات. استغرق الأمر لحظة أخرى حتى أستوعب الحقيقة. شددت يدي على عجلة القيادة وقلت: «كنت تعرفين؟ لم تقولي شيئًا قط».

«لماذا أقول؟ كان هذا بيننا».

لقد رأت الوجه القبيح الذي كان والدي يخفيه وراء قناع إذًا، ومع ذلك ما تزال تحبه. طوال حياتي، عرفتها لا تقبل التنازل، وأحيانًا لا تغفر، لذا، أذهلني اكتشاف هذا الجانب منها الآن، في شاحنة بنية متحركة غريبة الشكل؛ رفعت قدمي عن دواسة البنزين. سألتها: «من تكون؟».

استطعت أن أرى كم كان صعبًا قول الاسم، لكن بعد لحظة بطيئة وغير مريحة، ذكرته. «بياتريس نيولاند». لم يذكرني الاسم بأي شيء، ولم يكن له معنى. لكن يبدو أن الحديث عنه قد أطلق شيئًا ما في والدتي، إذ بات صوتها ممتلئًا بالعاطفة الآن. «إنها يافعة جدًا. تبدو في مثل عمرك».

قلتُ في نفسي، يا لوضاعة ذلك، إلى أن تذكرت علاقتي بماكس. سألتها: «لماذا بقيت معه؟». كنت ما أزال أحاول التوفيق بين الأم التي عرفتها طوال حياتي والمرأة الجالسة بجواري الآن.

«خلتُ أنها علاقة عابرة، وأن علي الانتظار فقط. لقد أمضينا سبعة وثلاثين عامًا معًا، ولإلقاء كل ذلك من أجل تلك المرأة! لم أستطع فعلها».

سألتها: «ماذا بعد موته؟ لماذا لم تقولي شيئًا حينها؟».

«الحديث عن ذلك لن يغير ما حدث بالفعل. ولن يحوله إلى شخص مختلف».

«أفهم عليك»، وكنت حقًا كذلك. لكن على الرغم من موافقة عقلي، فقد تمرد قلبي. لم تكن قط بهذا اللطف أو الصبر أو التفاهم معي. إذا كانت

قادرة على هذا النوع من الحب، فلماذا منعته عني؟ لماذا قاتلت بشدة لتحولني إلى شخص آخر؟ كل ما أردته هو أن تقبلني كما أنا. كنا نخرج من الوادي حينئذٍ، وقد ضاقت الطريق وهي تصعد عبره. سمعت فرقعة في إحدى أذني، وتملكني شعور مزعج. قلت بعد لحظة: «أمي، لم تسأليني حتى عن مهرجان سيلفروود».

«بلى سألتك. لقد قلت إنه كان مهرجانًا كبيرًا».

«أوَلم يكن لديك فضول لمعرفة المزيد؟ أو تسألينني ما القطعة التي عزفتها أو أي شيء آخر؟».

استدارت لتنظر إليّ. «أنا لا أفهم هذه الأشياء».

«إنها موسيقى. وليس من المفترض أن تُفهم. وإنما يجري الاستمتاع بها».

قالت: «نورا»، ومدّت يدها عبر المقعدين لتلمس ذراعي، «ليس هذا ما قصدته. أحب موسيقاك. لقد قصدت أنني لا أفهم المهرجانات والمسابقات والمنح وهذه الأمور. هذا كل ما في الأمر». انحدر الطريق واستوى، وبعد برهة قصيرة وصلنا إلى أول بستان لأشجار جوشوا. سألتني: «كيف كان مهرجان سيلفروود؟».

ربما تغير شيء ما بيننا أخيرًا. من خلال التحدث معها عن السر الذي كانت تخفيه لفترة طويلة، بدأت في اختراق دفاعاتها الأخرى. كان عليها أن تتخلى عن تخيلاتها عني، وتقبل حقيقة أنني مجرد عازفة، وسأظل دائمًا كذلك، ولا شيء أكثر. والآن بعد أن بدت على استعداد للاستماع، رحت أخبرها عن المدة التي أمضيتها في بوسطن، وعازفي الطبول والباس اللذين قابلتهم، والخطط التي وضعناها، والأشياء الجيدة التي تعلمتها، والأشياء السيئة أيضًا.

بعد ذلك، أنزلت النافذة وأرحت مرفقي على الحافة. كان الهواء دافئًا وجافًا. وبعد مدة وجيزة، بدأت رياح سانتا آنا تهب عبر الممرات، جالبة معها الغضب والنار. كم مرة استلقيتُ على الفراش أحلم بمغادرة الصحراء يومًا ما؟ كان هذا المكان مليئًا بالمشاجرات والاتهامات المتبادلة، وقد استغرق الأمر بعض الوقت قبل أن تنتهي. لا يزال يتعين علي مواجهة إيه جي في قاعة المحكمة. بعد ثلاثة أيام من الآن، عندما يحين موعد جلسة الاستماع الأولية، سأشاهده باشمئزاز وهو يخرج، رجلًا حرًا بكفالة. لكن ستكون هناك أوقات أخرى خلال الأشهر القليلة المقبلة، وفي يوم من الأيام ستتاح لي الفرصة أخيرًا للتحدث، وإخبار القاضي وهيئة المحلفين عن والدي، وتكريم ذكراه بهذه

الطريقة البسيطة. في كل موعد للمحكمة، كان محامي إيه جي، وهو من مقاطعة أورانج ومتخصص في قضايا الاصطدام والهرب، يقدم مذكرات أو يطلب التأجيل، ولكن بعد ثلاث سنوات ونصف، عندما كنت حاملًا في طفلي الأول، أُدين إيه جي أخيرًا بالقتل الخطأ وحُكم عليه بالسجن خمس سنوات.

وسأظل هنا. كانت الصحراء موطني، مهما حاولت الهروب منها. والمنزل عبارة عن مساحات مفتوحة على مصراعيها، وضوء نقي، وصمت ليس كأي صمت. المنزل، قبل كل شيء، كان العائلة التي أحبتني. والآن فقط، بعد وفاة والدي، فهمت أن الحب ليس مخلوقًا مروضًا أو سلبيًا، بل هو وحش متمرد، فوضوي وغير متوقع، ورحيب ومتسامح، وسوف ينقذني من براثن الحزن ويخرجني من أسر الظلام.

شكر وعرفان

أنا ممتنة للعديد من الأشخاص والمنظمات لدعمهم لي أثناء تأليف هذا الكتاب. أود أن أشيد، على وجه الخصوص، بمدينة سانتا مونيكا على منحة الفنانة؛ وشركة يادو للإقامة في مستعمرتها؛ ومؤسسة جون غاغنهايم لمنحي الزمالة. شكرًا لمحرري، إيرول ماكدونالد، الذي قدم لي تعليقات ذكية وتشجيعًا متواصلًا. وشكرًا لوكيلتي، إلين ليفين، التي قدمت ملاحظات مبكرة ودعمًا غير محدود. جوزفين كالس، ميتشيكو كلارك، وكيمبرلي بيرنز، مسؤولي الدعاية الذين يصنعون المعجزات. عمل كل من نيكولاس طومسون من دار بانثيون بوكس ومارثا ويديث من مؤسسة ترايدنت ميديا بجد في هذا المشروع في كل مرحلة. وكان كل من ميريام فيورل وهانا سكوت وأندرو ويتزل في وكالة ليسيوم من المروجين لعملي. وشكر خاص لأليكسيس كيرشباوم وراشيل ويلكي وروز إليس في بلومزبري المملكة المتحدة. كما أنني مدينة لحراس المنتزه في حديقة جوشوا تري الوطنية لخبرتهم مع الحيوانات والنباتات في موهافي ولضباط إدارة شرطة مقاطعة سان برناردينو للإجابة على استفساراتي العديدة. شكرًا لدانا بولدت وغافين هانتلي فينر للمساعدة في الأسئلة القانونية واللوجستية. وشكرًا لقرائي الأوائل: سكوت مارتي، معزّة منجيست، سعاد صديق، وجين سمايلي. وشكر خاص إلى الكسندر ييرا.